علي (ع)

إمام لكل العصور

تأليف
السيد كمال شاكر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

علي (ع)
إمام لكل العصور

علي (ع)

إمام لكل العصور

تأليف

السيد كمال شاكر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

٣٧٨
/ش
٥
.٥١٤٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى المصححة
١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور- ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦- فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel – Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

بين يدي البحث ـ قصة في قصة:

ميخائيل غورباتشوف يودع الاتحاد السوفييتي وتطوى صفحات عشرات السنين من المجازر والدماء والتعذيب والتغريب والسجون. . وهذا ما رافق الثورة البلشفية التي ما انفكت تسعى لنشر مبادىء لينين وماركس وإنجلز؛ وهي تقدم المادية التاريخية كحل لمشاكل العالم بفكر ملحد لا يقتصر على إنكار الله بل يحارب من يؤمن به. إذ ليس لأحد الحرية في أن يؤمن بما تنكره المادية التاريخية. فهي النظرية الوحيدة التي كشفت الأحداث عن صحتها وانتصارها؛ بزعمهم. وبانهيار الاتحاد السوفييتي توقف مصدر الوحي للشيوعيين في أصقاع الأرض؛ وباتوا يعانون من خواء عقائدي؛ فقد ثبت لهم بصورة قاطعة أن ما أضاعوا حياتهم في سبيله وما ملأوا أفكارهم ورؤوسهم به بحثاً عن موهوم فردوسه قد ذهب هباء. وطفت الأسئلة على سطوح الأفكار فبم سيملأون رؤوسهم وأي دين يعتنقون.

كنت أسير مع صاحبي هذا ـ وهو مهندس للنفط درس في روسيا ـ في أحد أحياء دمشق القديمة، حين مررنا بمسجد قديم البنيان متداعي الأركان، نال الزمان من لبنه وطينه وحفرت السنون أخاديدها في خشب بابه فغدا أجعد كوجه رجل هرم. نظر صاحبي إلى لوحة على باب المسجد كتب عليها «علي بن أبي طالب». وقال بشمم: إنه لفخر للإمام علي أن يحمل مسجد كهذا اسمه؛ ثم أردف: لم لا يطلقون على هذه الألفية الثالثة اسم الإمام علي وليد الكعبة.

فقلت: ولم لا! إن الكثير من المؤسسات والصحف وغيرها تطلق اسم رجل السنة على من لا يستحق من رموزها. . فالأمر هنا أحق.

فسأل: وما هي قطاف هذه التسمية؟

لم يخطر لي أمر كهذا فأعملت ذهني لأبحث له عن إجابة تفعل فعلها في نفسه وهو يبحث عن قيم تحل محل ما يحمل. وسرعان ما هداني الله إلى البدء بالقول: يمكن لعنوان مقتضب أن يحمل أعظم المعاني ويمكن أن تكتب مجلدات في ذلك. فابتسم وعيناه تلمعان مصراً على نيل الإجابة: فليسفر مخضك عن الزبد! هات لمعاً من المعاني!

فقلت: كان الرسول ﷺ يقلب وجهه في السماء عندما كان يتوجه في صلاته لبيت المقدس. فنزل قوله تعالى: فلنولينك قبلة ترضاها.. فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره. وأنت يمكنك أن تتخذ من علي إماماً وهذا مما يرضي الله وتحبه. فالله أراح الباحثين عن الحق بهدايتهم إلى الإمام الحق وليد الكعبة قبلة المسلمين؛ وهذه أولى قطرات الغيث..

وثانية؛ إن وليد الكعبة حجة على من يدعي أنه لا يستطيع أحد أن يتحمل كتحمل النبي. فعلي أسوة أثبتت أنه يمكن لغير النبي أن يتمثل سيرة الرسول. فهو أسوة ممن هو ليس بنبي لقيم الرسالة.

وثالثة؛ كان علي قبلة في ثباته على حفظ قيم الإسلام بالرغم من تغير المواقف التي يتعرض لها.

ورابعة؛ وقف الذي لم يسجد لصنم في وجه كافة الذين سجدوا لها.

وخامسة؛ قام ولـيد الكـعبة بتحطيم الأصنام التي علت الكعبة.

وسادسة: حطم وليد الكعبة صنم أهواء النفس.. وحب الدنيا فقد طلقها ثلاثاً وقال لها غري غيري.

وفوق كل شيء كان وليد الكعبة المثل في العقيدة والسياسة والبطولة وإدارة الدولة والعلم والاقتصاد وفي كافة شؤون المجتمع.

فوليد الكعبة يبقى رمزاً للحاكم والمحكوم بأن الإنسان لا المادة هو أسمى ما في الأرض. وقد سخر الله ما خلق له ليرقى بما ينعم به من كشوفات العلوم في عصر

الاستنساخ والعولمة والاتصالات والحواسب الفائقة وريادة الفضاء وحرب النجوم والتواصل الإلكتروني أو عصر الألفية الثالثة كما يتباهون بتسميتها.

فهو القدوة في الألفية الثالثة كما في غيرها لمن أراد أن يسمو إلى عظمة الإسلام. وقد حق منه أنه المصداق لقوله تعالى: ﴿**إني جـاعل في الأرض خليفـة**﴾.

قال: ألم أقل لك إنه لفخر للإمام علي أن يحمل مسجد كهذا اسمه.

ذكر اسم علي ولم يردف بالقول «كرم الله وجهه» أو «رضي الله عنه»؛ مع أنه عندما يذكر عمر بن الخطاب أو أبا بكر كان يعقب بقول «رضي الله عنه». ولكنني أعرضت عن محاجته في ذلك ظاناً أنه كان يرمي بقوله هذا إلى أن الإمام كان من الكادحين؛ الذين لم يكنزوا الذهب والفضة، ولم يكن من المستكبرين الذين نراهم اليوم وهم يلوذون بالدول الطاغـية؛ لينالوا الامتيازات والإقطاعات والوكالات الصناعية والزراعية والتجارية، والعقود والصفقات؛ وهي لا تعطى دون مقابل، إنها لأولئك الذين يقدمون التنازلات ويتحركون وفق ما يملي عليهم أولياؤهم وكهنتهم. أو أنه كان نقيضاً لرجال الدين من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل بأسم الدين ويصدون عن سبيل الله.. أو يأخذون الأموال من الأغنياء؛ فيصبحون عبيداً لهم وهم يقبضون أثمان الفتاوى التي تمالىء أولياءهم؛ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

فقلت له مستوضحاً: وما الفخر في ذلك؟

فقال: الفخر أن هذا المسجد لم يبن بأموال الأغنياء والذين يظنون أنهم يبنون قـصورهم في الجنة وهم يبنون المساجد المترفة؛ بل بني بالمال الحلال الذي كسب من عرق جبين الذين جمعوا دراهمهم ليبنوا مسجداً لله.. أما أولئك فلا تنقص أموالهم بالملايين التي أعطوها لصنائعهم وأتباعهم ليجنوا الأرباح من السمعة في بناء المساجد.

فقلت له: وماذا لو بنى هؤلاء الأثرياء مسجداً وسموه باسم الإمام علي بن أبي طالب؟

فقال مبالغاً: إن المترفين يحملون في أذهانهم عندما ينوون عمارة المساجد أسماء الصحابة الأغنياء؛ فلذا تجد أن المساجد المترفة هنا تحمل إما أسماء الذين بنوها، أو أسماء الصحابة الأثرياء مثل جامع العثمان أو طلحة بن عبيد الله. . ثم نظر إلى اسم علي بن أبي طالب على باب المسجد وقال متحدياً: انظر إنهم يضعون رضي الله عنه بعد اسم كل الصحابة. أما هنا فقد وضعوا الاسم ولم يضعوا رضي الله عنه أو كرم الله وجهه؛ أليس هذا ظلماً لعلي وهو من الذين يصلي عليهم المسلمون في تشهدهم؟

فقلت: وهل يضير الإمام أن يكتب له هذا وقد كرم الله وجهه فعلاً ورضي عنه كما رضي عن غيره.

فقال: ليس الأمر كذلك بل هو تراث فكري عميق الجذور يمتد إلى معاوية الذي عادى الإمام وسعى في إخماد فضائله. .

«وما أقول في رجل تحبه أهل الذمة على تكذيبهم بالنبوة، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة»؛ كما يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج.

فقلت له: ولكنها لم تخمد؛ فالله يحق الحق بكلماته؛ ولكن لماذا لم تقتد بالإمام علي أو غيره من فضلاء الصحابة الذين نهض الإسلام بجهادهم فيه. فقال: إنك تدعوني إلى الإسلام ونبذ الشيوعية والاقتداء بالصحابة فهل تستطيع أن تعدد لي فضائل الإمام علي. فأسرعت بتعداد ما أسعفني ذهني به ثم بدأت أُبطيء بالتعداد وقد تناقص ما في جعبتي.

فضحك وقال: أنا أستطيع أن أعد عشرة فضائل غير ما ذكرت. وسكت قليلاً ثم أردف:

لو كنت متبعاً أحداً لاتبعت الإمام لأنه لا يدانيه من فضائله وبرتبته أحد.

وكانت فرصة فقلت: هل كان علي يحمل غير الإسلام الذي أرسل الله به نبيه محمداً ﷺ.

فقال: أوليس علي من أهل البيت الدين يذكرون في الصلوات الإبراهيمية!

فأسرعت بالإجابة وقد ظهر أنه سيذعن للحق: ليس الأمر أنه من أهل البيت؛ فأبو لهب في النار وهو عم الرسول؛ بل إنه نال مرتبته بتقواه وجهاده في الله وفق سنة نبيه. فلبث هنيهة يفكر فعلمت أن قولي قد أثر به فسارعت إلى القول وهل مكارم الأخلاق التي يحملها علي إلا قبس من نور النبي وهل علمه إلا نهلة من علم رسول الله ﷺ الذي قال: أنا مدينة العلم و علي بابها.

فقال وقد بدت في عينه ومضة الإيمان: ولكن سيكون مثلي الأعلى علي فأكدت القول وهل كان علي إلا تبعاً لمحمد ﷺ.

فقال وقد أخذته نزعة الثورة على المترفين: ولكن لن أقتدي بغير علي ممن كانوا على حياة الرسول، لأنه لم توجد لغيره إلا قلة من فضائله ولم تنقصه فضائل غيره.

فقلت له: الحق أحق أن يتبع.

فقال: هذا تعميم؛ لأنه ما من مصداق للحق أكثر من علي. وضحك مذعناً ثم أردف: بعد الرسول ﷺ؛ إذ لم تشبه شائبة لا في قول ولا في فعل، كما لم يجد خصومه ـ وهم كثر ـ له من هفوة وهو الذي يقول: «ما ترك لي الحق من صديق».

فقلت: أنت تحرضني على كتابة سيرة للإمام. فقال: لن تستطيع أن تكون منصفاً.

فقلت: أنا أقر أنني لن أستطيع أن أوفيه حقه.

فعاد يؤكد: أنا لا أتكلم عن التوفية بل أتكلم عن الإنصاف، إذ كيف ستوفق بين التباين بين موقف الإمام من جهة وبين من ناوأه من الصحابة وخاصة الصراع على السلطة بين الإسلام والإمام من جهة وبين بني أمية من جهة مقابلة! فقلت: سأستقي من كتب السيرة والضحاح.

فقال بسخرية: وستخلص إلى القول السائد إن معاوية وبني أمية قد فتحوا لك الأرض التي تقف عليها وانتشرت فتوحاتهم في الجهات الأربع. فأجبت: أَوَليس هذا صحيحاً! أولا تحمل أنتَ اسم خليفة وحفيده من بني أمية.

فأردف: لقد وقعتَ في الفخ. فمعاوية لم يفتح هذا البلد والأمويون لم تكن فتوحاتهم في سبيل الله بل لبسط اليد. فقلت: ولكنهم نشروا الدين.

فقال بسخرية: لأنهم أميون لا عقائديون. ولا يملكون فكراً غير الإسلام الذي انتشر بعظمة الرسالة لا بقوة سيف الفاتح. وقد فقدوا ثواب الفتح لفقدهم قصد القربة إلى الله.

فقلت: لقد قلت شططاً واتهمت متأولاً وادعيت معرفة ما في القلوب، وكل ذلك ليس لك

فصاح بانتصار: لو طبقوا الإسلام لما تجرأت على ما قلت، ولا يستطيع أحد أن يطعن بقولي هذا. فالمغول والتتار أميون لا عقائديون، فعندما اجتاحوا ديار الإسلام انتصروا بسيف الفتح على المسلمين الذين لم يحفظوا أرضهم وديارهم ودينهم. وعاد الغزاة إلى بلادهم يحملون الإسلام. فكان الإسلام هو المنتصر مع أن المسلمين كانوا مهزومين.

فقلت: أعدك أن أتحرى حقائق الأمور من التراث.

فقال: أنا لا أسألك عن سقيا النصوص، فأنا أعلم أنك ستقتصر على ما كتبه أهل السنة.

فقلت: ما الأمر إذاً!

فقال: عندما كنت أحدثك عن رموز الشيوعية كنت تضرب المثل بأعمال الصحابة مع أنه ليس من الخفي التباين في مسالكهم، فضلاً عن ما حدث من الصراع في ما بينهم. وأنا أعلم أسلوبك في التبرير ولن تستطيع أن تقف دائماً مع الحق. ومن أبسط الأمور أنك لن تقرن اسم الإمام بقول عليه السلام مع أن الكثير من كتب السنة تقر بذلك.

فقلت: ولماذا أحمل تبعة تبرير خطأ من أخطأ في أمر مضت عليه مئات السنين، ولماذا أحمل وزراً لم تقترفه يداي في دفاع عن ظلم!

فقال: إرث ورثناه. وقد كان أمر علي مع الصحابة كفرسي رهان ولا يصح

السباق إلا بين النظائر. أما إذا وجد من يبز النظائر لعظم الهوة بينه وبينهم فقد السباق معناه، فيجمع المتسابقون على التخلص منه؛ ليكون لأحدهم نصيب التميز بعد أن عجزت الأبصار أن تطمح إلى مرتبته.

فقلت: من لم يكن له في الحق سعة فالجور عليه أضيق.

فأردف متخابثاً: ولمن تبايع... وهل تستطيع أن تغير ما في نفسك إن كان الحق خلافه.

ففهمت قصده وقلت: أأدعوك إلى الحق ولا أنصاع له وهل الجنة إلا لأهل الحق!

وودعني وأنا عازم على الكتابة عن وليد الكعبة؛ الإمام الذي لم يوفه حقه أحد ولم ينصفه أحد.

وابتعد وهو يردد فاتحة الكتاب ليستظهرها. ورفع صوته عند قوله تعالى: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**.

الفصل الأول

النظائر والاصطفاء في التشريع
والتكوين التناظر والنظائر

فللإنسان أن يكون هو المتقدم في الأرض وذلك
خلال سيرته في تطوير وسائل حياته.
فالله قد سخر له ما في الكون جميعاً..
وما عليه إلا أن يستفيد من هذا التسخير
جوليان هكسلي

النظائر والاصطفاء في التشريع والتكوين

التناظر والنظائر

التناظر في الأشكال الهندسية

السمو في التناظر في الرياضيات يميز بين درجات متباينة من التناظر في الأشكال الهندسية.

فالمسدس يتكرر ضلعه بدوران ستين درجة.. وخلايا النحل مثال.

والمخمس يتكرر ضلعه بزاوية اثنتين وسبعين درجة..وقنفذ البحر ونجوم البحر أمثلة.

والمربع يتكرر ضلعه بدوران تسعين درجة.. وما أكثر الأشكال المربعة.

فهو أعلى تناظرياً مما سبقه.. وهو أدنى مما يليه.

والمثلث يتكرر ضلعه بدوران مائة وعشرين درجة فهو أعلى تناظرياً من المربع والمسدس.

مع أنه يمكن تقسيم الجميع أو أن يكون بإزائهم نظائر لهم.. أما الدائرة فليس لها ضلع يتكرر.. ولا يمكن تقسيمها لنظائر لها أو مماستها بأكثر من نقطة..

النظائر في العناصر

لعناصر الطبيعة صفات مختلفة وتتفاوت فيما بينها وليس الذهب كغيره، ولكل

عنصر نظائر، فللهيدروجين ثلاثة نظائر، وللأكسجين عدة نظائر، ولليورانيوم أكثر من نظير ولكن اليورانيوم ٢٣٥ وحده هو الذي يمكن أن يفجر الطاقة الذرية..

فهل يستوي من يفجر طاقة المجتمع ليرتقي به مع من يهوي به ويرديه!

التناظر في الكائنات الحية

تتفاوت الكائنات الحية تناظرياً..وهذا أمر يتعلق بالشكل وبالمرتبة التطورية.

فمنها ذو تناظر شعاعي كالهيدرا والكثير من الأزهار..

أو له تناظر خماسي مثل قنفذ البحر ونجم البحر. أو ثنائي جانبي مثل الأسماك والطيور والزواحف والثدييات وهي أعلى تطورياً من غيرها.

التناظر والنظائر في بني آدم

وكذلك يتفاوت البشر في شمائلهم وقدراتهم سواء كانت وراثية أم مكتسبة من البيئة.

وكلما سما البشر في ملكاتهم قلّت نظائرهم؛ فالله تعالى يثبت حقيقة بمواساة نبيه بقوله: ﴿**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾. ثم يقول عن هذه القلة الباقية واسماً أفرادها بأنهم نظائر في ما بهم من شائبة الشرك بقوله: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾.

وهذه دلالة أن القلة القليلة هي التي آمنت وخلصت من الشرك. وهذه القلة هي نظائر في إيمانها ولكنها تتفاوت في مراتب هذا الإيمان وفي القرب من الله عز وجل.

ومع أنه لم يرد في القرآن الكريم إلا قلة من الأنبياء، فإنهم نظائر في عصمتهم والله فضل بعضهم على بعض. والقرآن يعلمنا عن حالات نادرة كأمثلة لسمو بعض النظائر.

التناظر في قوم موسى وعيسى

يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**فآمن له لوط**﴾ وكلٌ منهما نبي. ولم يؤمن من قومه أحد. ومن الآلاف المؤلفة من قوم موسى لا يوجد إلا ﴿**أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾. والذي ثبت مع موسى هو ما حكى عنه موسى بقوله: ﴿**رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي**﴾.

وها هم الحواريون وفق ما يقص تعالى: ﴿**قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين**﴾.

فهم النظائر القلة التي ذكرت في القرآن من بين أتباع عيسى عليه السلام. وهم ليسوا أنبياء.

ويتكرر الأمر في رسالة خاتم الرسل ولكن بشكل ليس له نظير ـ مع من هم أيضاً ليسوا أنبياء ـ فقد قال الله تعالى في علي بن أبي طالب ومن معه في مباهلة نصارى نجران:

﴿**فقل تعالوا ندع أبناءنا** (لم يكن غير الحسن والحسين إذ لا نظائر لهما) **وأبناءكم، ونساءنا** (لم تكن غير فاطمة إذ لا نظير لها) **ونساءكم، وأنفسنا** (لم يكن غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام)، **وأنفسكم**﴾. ولو كان من نظائر أُخرى لهم لأشركوا معهم وفق ما يقتضيه العدل الإلهي. فموسى عليه السلام قصر دعاءه لنفسه ولأخيه فقط وهو نظيره بعد أن رأى عصيان قومه: ﴿**رب اغفر لي ولأخي**﴾. ولم يشمل أحداً منهم بدعائه.

مائدة من السماء أم إطعام الطعام على حبه

لقد هوت نفوس الحواريين إلى عرض الأدنى كما يقص القرآن عنهم:

﴿**إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء**﴾. مما حدا إلى أن قال لهم نبيهم عيسى عليه السلام يربأ بهم أن تصدر منهم قولة

كهذه ويعرّض بإيمانهم فضلاً عن تقواهم: ﴿**اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**﴾.

ولكنهم أصروا وأظهروا إرادة الأكل واطمئنان القلب فقالوا: ﴿**نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا**﴾.

وهذا ما اقتضى توعدهم بعد أن استجاب الله لهم بدعاء نبيهم بقوله: ﴿**فإني منزلها عليكم**﴾.

ثم شدد التهديد بعذاب من يكفر منهم بقوله: ﴿**فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين**﴾.

ويبقى المثال الفريد في القرآن لمن نالوا رتبة أن يشملوا مع الرسول الكريم محمد ﷺ لأنهم نالوا شرف أن ينزل بهم ما حكى عنه تعالى بقوله: ﴿**يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**﴾.

فأتتهم البشارة من الله العزيز في قرآنه المجيد: ﴿**فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً**﴾.

﴿**وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً**﴾. ﴿**وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً**﴾. ﴿**إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً**﴾.

وجعل مودتهم أجراً للرسالة بقوله: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾.

وأكثر من تكريمهم بأن جعل الأجر ثواباً لمن ينصاع بقوله: ﴿**قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم**﴾.

فهل يقرن وليد الكعبة بغيره من النظائر.

الاصطفاء في التشريع والتكوين

نبذة من التطور ونظرية داروين

النشوء والارتقاء الذي بحث فيه داروين في أصل الأنواع ـ وهو الذي اشتهر به داروين ـ ليس موضوعاً للبحث في هذه العجالة. إذ أنه حتى وإن ظهر من الدلائل ما يشير إلى تطور بعض الأنواع من بعضها، وهي تعطي البراهين الساطعة على حدوث التطور، فإن الأمر الثابت هو استقلال سلالة الإنسان العاقل عن غيرها من السلالات المتنوعة. ولا يزال البحث عما يسميه البعض الحلقة المفقودة بين الإنسان العاقل وغيره من السلالات، كالبحث عن الماء في السراب وكالسعي لقبض الريح بالكف. فالله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم.

على أن هناك من الدلائل الحديثة ما ينسف أسساً قامت عليها نظرية داروين. فالإنسان وهو أرقى الأحياء في سلم التطور يحوي في كل خلية من خلاياه مالا يزيد عن مائة ألف مورثة بينما يحوي حيوان السلمندر الذي يشبه الضفدع ما يقارب الثلاث ملايين من المورثات.

وهذا أمر أعقد من حيوان أبسط بالمقارنة مع الإنسان الذي يتربع على عرش الأحياء بلا خلاف. وكذلك تمتاز ذخيرة الفأر الوراثية بتعقيد أكثر من الإنسان. وهذا ينسف التطور من البساطة إلى التعقيد الذي قال به داروين.

إن النوع حسب تعريف كارل لينيه: «هو مجموعة من الأفراد المتشابهة في ما بينها بقدر ما تشبه آباءها، وهي خصبة جنسياً في ما بينها. وعليه فالإنسان نوع مستقل».

على أن ما ذكر لا ينفي حدوث التطور بين الكثير من الأنواع النباتية والحيوانية المختلفة. فالعلم يكشف عن فتوحات في هذا المجال ويثبت الكثير من التغيرات الوراثية في الأحياء. على أن سنة الله في خلقه قد قضت أن يحدث هذا التغيير في الكثير من السلالات وما الأنواع الطافرة إلا أدلة على تغيرات فجائية في حاملات الصفات الوراثية وهذه هي الطفرة.

الاصطفاء الاصطناعي

ليس إحداث الطفرات الصناعية خلقاً لكائن جديد، وليس استنساخ الكائنات الحية ـ بما فيها الإنسان ـ نفخاً بالروح في جسد ميت، وإنما أخذ المورثات الحاملة لصفة وراثية أو أكثر من عضوية حية وإحداث تبديل فيها. فكما أن حرق بشرة الجلد يحدث تغيراً شكلياً فيها فإن التأثير على المورثات يحدث تغييراً وراثياً في الصفات التي تحملها.

على أن الإمكانية العلمية لا تعني دائماً الحلّية الشرعية؛ بل لا تتعلق بها.

الاصطفاء الجنسي

إن عشوائية اللقاح في العالم النباتي والكثير من المملكة الحيوانية، تشمل العديد من الأنواع التي يكون انجذاب الأنثى نحو الذكر خاضعاً لصفاته المتميزة. كالجمال الشكلي أو القوة البدنية أو قدرته على طرد منافسه من الذكور. وهذا ما يضمن انتقال أفضل الصفات إلى السلالات الجديدة بفضل الاصطفاء الجنسي؛ فهو وسيلة يساعد على حفظ أحسن الصفات في الأنسال. وما النحل إلا مثال إذ أنه عند طيران الزفاف للملكة يلقحها الذكر الأقوى على الطيران بعد أن يسبق أقرانه.

الاصطفاء الطبيعي

تتعرض الأنواع الحيوانية والنباتية المختلفة إلى عوامل كثيرة تفني أفرادها، وتبيد عديدها وتفتك بمعظمها. ولا يكتب البقاء إلا لتلك الأنواع والأفراد التي تقاوم العوامل المؤدية إلى فنائها. فالحيوانات اللاحمة تتغذى على الحيوانات العاشبة،

فكثرة اللاحمة يؤدي إلى هلاك العديد من الحيوانات التي تقع فريسة لها. ومن سبل الاصطفاء الطبيعي أن تكون الفرائس الضعيفة أسهل منالاً لمفترسيها فيكتب البقاء للأقوى منها.

وهذا درس لبني آدم لينهض الصالحون منهم ليعدوا العدة للقضاء على الذين يتربصون بهم الدوائر، فالله قد اصطفى الصالحين لإحقاق الحق وإقامة العدل، فإذا تقاعسوا فإن الغلبة ستكون للأشرار والمفسدين. فالذئب يسفع جبهة الليث سفعاً إن تلاشت أنيابه والأظافر.

ويتم الاصطفاء الطبيعي ببقاء الأفراد التي تقاوم الأمراض التي تعصف بأنواعها، فالأفراد المنيعة هي التي تستعصي على الجراثيم والعوامل الممرضة، وأما غير المقاومة فتقع في براثن الهلاك. فالاصطفاء الإلهي للبشر ما هو إلا مكرمة لهم لما أودع الله في نشأتهم ما يؤهلهم لهذا الاصطفاء. فلذلك سخر لهم ما في الأرض جميعاً. وهذه دعوة لخلفاء الأرض ليتوسلوا بالعلم وليبدعوا في سبل تحصين أنفسهم لا من الأمراض فحسب بل من كل ما يهدد وجودهم.

وهل من جراثيم أشد شراً من جراثيم الفكر المناهض للحق!

فإعداد العدة المعنوية لدرء أخطار الشرك والمادية لتكون كلمة الله هي العليا ورد كيد أعداء الله هي الوسائل التي تحفظ البقاء وتنيل الحياة الطيبة التي أعدها الله لمن اصطفاهم في الدنيا والآخرة. وهذا غيض من فيض.

تخيروا لنطفكم

كانت الأبحاث الوراثية تقتصر على انتقال الصفات الشكلية والجسمية ولكن تطور البحث في الوراثة أدخل العلاقة بين الصفات الوراثية والنمط السلوكي.

ومن الممكن أن يكون قوله تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ دلالة على هذا الأمر. فإسماعيل ابن لإبراهيم ويوسف ابن ليعقوب وهو ابن لإسحاق وأبوهم إبراهيم ويمكن أن يشذ بعض الأفراد.. فإخوة يوسف أسجدهم الله له وابن نوح كان كافراً.

الشيفرة الوراثية البشرية

وفي واقع الأمر، وفي العام الذي كتب فيه هذا الكتاب، تناقلت وسائل الإعلام نبأ كشف علمي مثل قفزة كبيرة في العلوم الوراثية. إنه اكتشاف الخريطة ـ شبه الكاملة ـ للذخيرة الوراثية أو الشيفرة الوراثية البشرية. لقد خلق الله الإنسان وأودع به من أسرار خلقه العجب العجاب. إذ ما من صفة خلقية أو وظيفة كيماوية أو عصبية أو غدية أو تركيب كيماوي إلا وتحملها مورثة تشغل جزءاً من شريط حلزوني مضاعف من مادة تسمى DNA أو الحمض الريبي النووي منقوص الأكسجين والذي يشكل الصبغيات أو حاملات المادة الوراثية وهي توجد في نوى الخلايا. ويختلف عدد وتركيب هذه الخيوط من كائن لآخر. فخلية الإنسان تحوي ستة وأربعين صبغياً وذبابة الخل أو الفواكه تحوي ثمانية صبغيات. وخلايا خميرة الخبز تحوي اثنين وثلاثين صبغياً.

ويقدر أن الواحدة من DNA في الإنسان تحوي ثلاثة مليارات ومائتي مليون جزء من الأسس الآزوتية المسماة بالأدنين والسيتوزين والتيمين والغوانين. وإذا صفت حروفها الأولى لشكلت صفاً طوله خمسة آلاف كيلومتر. أما على مستوى الخلية الواحدة فيبلغ الطول عشرة أمتار من الحروف. وعلى مستوى الجسم فالطول يبلغ $١٠^{١١}$ لأن في الجسم ما يقارب $١٠^{١٣}$ خلية. وتتجلى عظمة الخلق في الدقة والإتقان العظيم لترتيب هذه الوحدات والتي تشبه بالحروف التي تجتمع في كلمات. فكما أن أي تغير في الحرف أو في موضعه يغير الكلمة فكذلك يؤدي تغير الأسس في تغيير الصفات. إذ أن من الممكن أن يؤدي تغير جزء واحد بسبب الأدوية أو الأشعة أو الحاثات (وهي الهورمونات) إلى تبدلات خطيرة؛ ففي الجنين مثلاً قد تسبب موته أو ولادته أعمى أو بلا أطراف كما حدث في حالات كثيرة ومع مركبات استخدمت كأدوية. ويمكن لبعض هذه التغيرات أن تنتقل وراثياً وهذا ما يسمى «الطفرة الوراثية».

ومع أن ما تداولته وسائل الإعلام عن خريطة المورثات أمر بالغ الأهمية فإن الفهم الصحيح والكامل لقراءة الشفرة الوراثية قد يستغرق عشرات إن لم نقل قروناً

من السنين؛ فكيف بالتأثيرات المتبادلة بين هذه الكلمات عند تشكيل الجمل الوراثية. إذ أنه في كل انقسام يتضاعف عدد الخلايا من ٢,٣ مليار إلى ٦,٤ مليار ويمكن أن يتم هذا النسخ الكامل والدقيق للمادة الوراثية بساعة واحدة.

وقد أودع الله في الخلايا وسطاء تشرف على هذه الانقسامات وتمنع أي خطأ فيها. ولم تكشف البحوث من هذه الوظائف في الخلية إلا نذراً يسيراً لا يتعدى الثلاثة بالمائة.

وقول الرسول ﷺ تخيروا لنطفكم يشير إلى اجتناب الصفات الوراثية التي لا يرغب بها لتجنب انتقالها إلى الأنسال. وهذا أمر وراثي علمي لا تتخلف احتمالات نتائجه. ومع أن العلم يجدّ في البحث عن حمل المورثات للصفات الخلقية والمعنوية فإن الأبحاث لا تزال في بداياتها.

إياكم وخضراء الدمن

هكذا حدث الرسول محذراً الناس . ولما سألوه وما خضراء الدمن يا رسول الله أجاب: «المرأة الحسناء في منبت السوء».

يدل حديث الرسول هذا على أمر بالغ الأهمية في علم الوراثة وهو أثر البيئة في الصفات الخُلقية والمعنوية في نفوس الأفراد. فالإنسان يحمل قيمه وأخلاقه ـ بل ودينه أيضاً ـ من البيئة التي يعيش فيها.

وهذا ما يتجلى من حديث الرسول ﷺ أيضاً: «يولد الإنسان على الفطرة وأبوانه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

وهذا أمر لا يشكل عليه أحد والقرآن الكريم يؤيده؛ يقول تعالى: **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمقتدون﴾**.

ولقد نال علي من طيب المحتد ما تسامى مع طيب التربية في رعاية الرسول الكريم.

وهذا ما لم ينله أحد.

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا

ويمكن تشبيه التدخل العلمي في الشفرة الوراثية بعملية تغيير حرف أو حروف من كلمات الشفرة الوراثية أو استبدالها من كائنات أُخرى. بهدف إنتاج نباتات أكبر حجماً أو أكثر نتاجاً أو أكثر مناعة في مقاومة بعض الأمراض. ولكن تدخل الباحثين المترافق مع جهل الإنسان بالتأثير المتبادل للمورثات بين بعضها قد أعطى نتائج وخيمة . فقد ذكرت الأبحاث على الحيوانات حدوث حالات من التخلف العقلي وأمراض العضلات والأعصاب.

وقد اتُهمت إدارة الأغذية والعقاقير في أمريكا بمنح تراخيص لمحاصيل معدلة وراثياً تشكل أخطاراً بيئية. ويزداد الأمر خطراً عند معرفة أن أكثر من ثلثي ما يأكله الإنسان قد خضع للتعديل. والذين يجهلون ذلك أكثر بكثير من الذين يعرفونه. وما حرق المزارع التجريبية إلا غيض من صيحات أنصار البيئة والتي لا تدري بدورها إلا نذراً يسيراً مما تحاول معرفته.

فغبار الطلع المنطلق من أزهار الذرة المعدلة وراثياً يقتل يرقات الفراشات الملكية وهذا مثال.

ومثال آخر: فالأدوية الكيماوية مثلاً تقتل الأعشاب البرية الضارة عن طريق تعطيل إحدى الخمائر الضرورية لحياتها؛ ولكن هذه الخميرة ضرورية لاستمرار حياة المحصول الغذائي الذي تنمو معه الأعشاب البرية. وكان التدخل في الشفرة الوراثية - وفق ما فهموا - هو الحل عن طريق إدخال مورثات تنتج هذه الخميرة وقد فعلوا ذلك باستغلال بكتريات أو فيروسات تقذف بالأنزيم إلى الخلايا المستهدفة. وهذا ما يؤدي إلى عدم تأثر النبات الأصلي عند رش مبيدات الأعشاب سواء كان هذا النبات هو الذرة أو القطن أو فول الصويا أو غيره.

وكانت الخطوة اللازمة التالية هي إدخال تعديل وراثي على النبات الأصلي بحيث يصبح منتجا لمواد تقتل أعداءه من حشرات أو أعشاب برية. ولكن هذا النجاح في هذه الصفة قد أحدث أضراراً خطيرة وأخطر بكثير من سابقتها من جهات أُخرى. فالفراشات الملكية مثلاً مات نصفها خلال أربعة أيام من تغذيها على حبات الطلع لهذه الأزهار المعدلة وراثياً.

وتتجلى حكمة الخالق في أن حبات الطلع تحمل عبر مسافات كبيرة من أزهار الذرة المزودة فطرياً بمناعة ضد الحشرات. والفراشات لا تقتات بالذرة بل بالشوك الإوزي المحيط بالذرة.

لقد قام باحث بريطاني هو آرباد بوستزاي Arpad Pusztai بتعديل نوع من البطاطا فأصبح قادراً على صنع سم مقاوم لبعض الحشرات الضارة. ولكنه لاحظ عند تقديم هذه البطاطا علفاً للجرذان أنها سببت أضراراً في المخ وأمراضاً في الكلية وإضعافاً لنظام المناعة لديها.

هذا نذر مما كشف على غير الإنسان أما ما كشف له فهو أقل مما غاب عنه؛ وأما ما بُلي به فهو أعظم وطاءاً وأشد خطراً.

القرآن والعلم

ويمكن التوفيق بين الحقائق العلمية التي تطابق القرآن الكريم، وبين إقرار الاختيار للإنسان في كافة ما خول الله له من أمور؛ بالقول إن معرفة الله الأزلية بما سيكون تنفي أنه أجبره على ما سيصدر منه. وبهذا يمكن القول عن ظهور بعض الخصائص في بعض السلالات بشكل مماثل لما ظهر من الطيب في شجرة إبراهيم؛ وهذا ما كان جلياً في داود وسليمان وفي إسماعيل. وتجلت ذروة الطيب في سلالة آل إبراهيم في محمد وآل محمد صلوات الله عليكم وسلامه أهل البيت إنه حميد مجيد. فقد علم الله أزلاً ما سيكون منهم فسلكهم في سلالة إبراهيم.

وهذا يماثل بالمقابل قوم نوح الذين أهلكهم الله لعلمه الأزلي أنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً.

والله تعالى يقول عن إبراهيم: **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾**. فعلمه تعالى بإبراهيم وما سيصدر منه كان مدعاة لأن يؤتى الرشد. ويقول تعالى حاكياً عن إبراهيم أيضاً: **﴿وجعلنا في ذريته الكتاب والنبوة﴾**.

وهذه الآية تؤكد ما سبق ذكره؛ في الطيب في شجرة محمد وآل محمد وهي تنتمي إلى إبراهيم وآل إبراهيم. وشجرة التقى في رسالة الإسلام تشمل كل الأتقياء

لعموم قوله ﷺ : «أنا جد كل تقي».

تنازع البقاء و بقاء الأصلح

في عالم محدود الثروات وإن كان متجدد الموارد يتزايد الصراع بين مختلف الأحياء للحصول على مقومات حياتها. وتبقى للإنسان صفة قهر الآخرين ليستعلي عليهم إذ أنه لا يكتفي بما يسد رمقه ولا بما يقيم أوده بل يسعى للاستيلاء على كل ما يسعه بسط كفه عليه. والأمم التي تكون أكثر قدرة على تملك وسائل السيطرة هي التي يكتب لها البقاء. وما انقراض مجموعات كثيرة من التجمعات البشرية إلا أمثلة على ذلك.

فالإنكليز المهاجرون إلى أمريكا قضوا على جم الهنود الحمر، والفاتحون للمستعمرات الإسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية أبادوا الكثير من السكان الأصليين وماتت جموع من القبائل الإفريقية على يد الفرنسيين والإيطاليين. واليهود مع من سخر نفسه لخدمتهم يتقربون إلى معبودهم ـ بزعمهم ـ بقتل المسلمين خاصة وكل من لا ينتمي إلى دينهم، هذا مع إغفال الاستعباد والإذلال وانتهاك الحرمات. وقتل الصرب والروس الكثير من المسلمين في مجازرهم العرقية في البوسنة والهرسك وكوسوفو. وهذا قتل للفطرة وإهلاك للحرث والنسل.

وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

أرسل الله رسله ليقوم الناس بالقسط.. وأرسل النبيّين مبشرين ومنذرين.. وأرسل معهم الكتاب والميزان ليكون الدين كله لله.. إن الحكم إلا لله. وقضى الله بإهلاك من لم يستجب لأنبيائه. فها هم قوم نوح كقوم فرعون مما خطيئاتهم أُغرقوا فأُدخلوا ناراً.

فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية... وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية.

وأخذ الذين ظلموا من قوم شعيب الصيحة.

وقال تعالى في قوم لوط: **﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾**..

وقال: **﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود﴾** وفي هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث قال: **﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾**.

وقال: **﴿وكتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**.

وحقت كلمته وهي دائماً حق: **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾**.. ولكنهم لما تقاعسوا حرموا.

ولقد اخترناهم على علم على العالمين

ولكن لم اصطفى الله بني إسرائيل كما تدل الآية!

لأنهم كانوا وحدهم مؤمنين بالله في عالم وثني مشرك. فما هم عليه من التوحيد هو ما رفعهم إلى درجة الاصطفاء ولكنهم لما عتوا عن أمر ربهم قال لهم كونوا قردة خاسئين.. ولعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، **﴿وأورثكم﴾** أيها المسلمون **﴿أرضهم وديارهم وأرضاً لم تطؤوها﴾**.

فقد قام فيهم نبيهم يقودهم إلى وراثة أرض جديدة وقد كتبها الله لهم.

وقال يا قوم ادخلوا الأرض التي كتبها الله لكم.. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما. ادخلوا عليهم الباب فإن دخلتموه فإنكم غالبون.. قالوا اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.. قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض.. فالوراثة لهم وقد قضى الله لهم بأن تكون لهم؛ ولكنهم تقاعسوا فتاهوا. فالاصطفاء والوراثة للصالحين..

الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

وسلام على عباده الذين اصطفى

لو جمع أهل الأرض من بني آدم في جميع العصور في صعيد واحد منذ بدء

الخليقة كما سيحصل يوم الحشر، من منهم الذين يستحقون خلافة الله في أرضه؟ من هم الذين سيصطفيهم الله أزلاً وهو الذي يعلم غيب السماوات و الأرض؟

يقول الله تعالى لرسوله الكريم: **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**.

وكما أن الناس في مكة في عصر الرسول ﷺ هم مصداق لهذه الآية؛ فإنهم في كافة العصور مصداق لها، وكما أن الناس في مكة متفاوتو المشارب فإنهم في كافة بقاع الأرض متباينو المسارب. فالناس أكثرهم لا يعقلون وأكثرهم لا يعلمون وأكثرهم لا يفقهون وأكثر النفوس هوت الدنيا فهوت وأسلمت قيادها للشيطان فغوت.

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

هكذا يقول تعالى في هذه القلة المؤمنة المتبقية؛ فالخلافة ليست في من يشوب الشرك إيمانه.

ولا ريب في أن الشرك يتنافى مع الإيمان؛ فهما نقيضان؛ ولكن أكثر الناس يتلبسون بهما معاً، حتى وإن تفاوتوا في قربهم وبعدهم عن النقيضين.. وهذا ما تظهره التربية القرآنية..

فكم من مؤمن تعلق بالدنيا وزخرفها ونسي عاقبة أمر نفسه وآخرتها.

وكم من مؤمن يرى الحق حقاً ولا يتبعه أو يرى الباطل باطلاً فلا يتجنبه.

وكم من مؤمن يدعي الإيمان، وفرائصه ترتعد أمام نائبة أو مصيبة تصيبه، وهو يقول: لا قوة إلا بالله وحسبي الله ونعم الوكيل..

وكم من مؤمن يلتمس الرزق من عبيد الله وهو يعلم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

وكثيرون يلتمسون عند سلاطينهم العزة وهم يتلون إن العزة لله جميعاً.

وآخرون يتولون أعداء الله وقوله تعالى **﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾** يطرق مسامعهم؛ ويتولون الذين كفروا معرضين عن قوله سبحانه: **﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾**.

وكثيرون يعصون الله ولا يستحيون وهم يرون ربهم سميعاً بأقوالهم عليماً بأفعالهم.

وكم من مؤمن يمد عينيه إلى ما متع الله به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا وهو يقرّ أن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض

لقد اصطفى الله من الملائكة رسلاً ومن الناس ليكونوا خلفاء الأرض..

أما فرعون فهو غاصب لعرشه مستعل في الأرض..

وكذلك نيرون فقد استعبد قومه وحرقهم في مدينتهم وهو ينتشي بلهيبها...

ولهم في كل زمان ومكان من النظائر الكثير.

ولم يعتبر أخلافهم بمصارعهم وموتهم.. وقد هلكوا فأدخلوا ناراً..

وسيكبكبون فيها هم وأمثالهم الغاوون لأنهم أئمة الكفر وهم أجمعون من جنود إبليس.

فالوعد بالاستخلاف للذين **﴿آمنوا منكم﴾** أيها المؤمنون **﴿وعملوا الصالحات﴾**.

وهل الخلافة والولاية الإلهية إلا للمصطفين الأخيار.

المصطفون الأخيار

يقول سبحانه: **﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾**.

فأين الذين لا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم يوم القيامة من الذين يهتز عرش الرحمن لموتهم!

لقد اصطفى الله **﴿آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾** لأنه علم أزلاً عظم منزلتهم وجهادهم فيه وإنابتهم وتقواهم.

فهم صفوة قبل التكليف؛ وأتى التكليف فكانوا أهله.

واصطفاه يعني خصه بنفسه وأنه اصطفاه على غيره. ولكن كيف كانوا ﴿**ذرية بعضها من بعض**﴾.

أليس الأمر أن الله سلكهم شجرة طيبة؛ أودع بعضهم في أصلاب بعض، وأقرهم في أرحام بعض بعد سبق علمه بما سيكون منهم.

لقد وعد تعالى كل المؤمنين أن يهديهم بإيمانهم وأن يزيد الذين اهتدوا هدى.

فالمصطفى لا يكون منه ما يعيق اصطفاءه، . .

والمصطفى هو الأعلى إيماناً والأطيب عرقاً والأكثر صلاحاً والأشد جهاداً والأكرم خلقاً.

التشريف لمن يحمل أعباء التكليف

والاصطفاء تبرئة للمصطفين أن يرقى إلى منزلتهم من دونهم. فلقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾.

واختصه بأنه ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾.

وامتثل لأمره تعالى له ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾ وجاهد ﴿**في الله حق جهاده**﴾.

وبينما نال موسى شرف قوله تعالى: ﴿**ولتصنع على عيني**﴾، نال سيد الرسل عليهم جميعاً الصلاة والسلام شرف قوله تعالى له: ﴿**فإنك بأعيننا**﴾.

فالتكليف من الله شرف للمكلف، وحمل أعباء الرسالة علو منزلة له؛ لا كما يفعل البشر حين يغدقون الإقطاعات والهبات على من يوالونهم بغير حق ليكونوا أولياء لهم.

فالتشريف في التكليف. . والأداء إثبات لحق الاصطفاء. . والاصطفاء ـ مع أنه رفعة للمصطفين ـ لمصلحة الناس ونفعهم. لأن إرسال الرسول ﷺ رحمة للعالمين، فاصطفاؤه نعمة من الله عليهم.

وإبراهيم ـ وآل إبراهيم ـ مقتدى للناس في الأفعال والأقوال: وهذه إمامة لهم.

وذريته الطيبة التي بعضها من بعض منة من الله على عباده لأنهم أسوة لهم؛ أما من ظلم فيكون مصداق قوله تعالى: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾.

ومن مثل الذين أمر الله بالصلاة عليهم في كل صلاة؟ من مثل إبراهيم وآل إبراهيم! صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولو ضارعهم أحد في شمائلهم لاستوجب عدل الله أن يشرك معهم في الصلاة عليهم. .

وكم من فرق بين من يتقربون إلى السلاطين لينالوا الأعطية.

وبين الذين يقتحمون العقبة لينالوا من الله المقربة.

وكم من فرق بين الذين منعوا أن تقبل زكاتهم وغيرها من عباداتهم. .

وبين الذين يحبون الله ورسوله ويحبهم الله ورسوله؛ وقد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون.

إن الله اصطفى لكم الدين

لم الاصطفاء؟

للدلالة. .

وللمرتبة. .

ولأداء التكاليف التي يتقاعس فيها آخرون؛ سواء قدروا عليها أم عجزوا. . . وليشيع أمر الاصطفاء بين الناس. . فمن ولى منكم عاملاً على عمل وهو يعلم أن هناك من هو أفضل منه فقد خان الله ورسوله.

لذا ليس لأحد أن يصطفي غير ما اصطفى الله؛ لأنه ﴿**ما كانت لهم الخيرة من أمرهم**﴾ لأن اصطفاء الله إنما هو لخير الناس ونفعهم.

ماذا يصطفي الله؟

الله يصطفي أمكنة على أُخرى . . والله يصطفي أزمنة على أُخرى .

والله يصطفي أحكاماً وديناً قيماً .

والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس .

فالله قد اصطفى البيت الحرام مثابة للناس وأمناً .

واختار الطور لمواعدة موسى، وعام الفيل لولادة الرسول ﷺ .

وليلة القدر لنزول القرآن . . وفرض الصيام في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن . .

وليلة الإسراء للإسراء والمعراج . . وأوقات الصلوات الخمس . .

لدلوك الشمس إلى غسق الليل إن قرآن الفجر كان مشهوداً .

واختار آدم وجعله في الأرض خليفة . .

وهو الذي جعلكم خلفاء في الأرض . .

وكتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . .

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة .

بداية لا نهاية

فزت ورب الكعبة

قالها وهو قائم للصلاة في المحراب . . وتفجر الدم الزكي الطاهر . . . وجرت دماء النور حمراء قانية . . وتدفقت أنهار من لبن وعسل . . لتستقبل ضيفها الجديد .

وهرعت الملائكة تفتح جنات النعيم وتزلفها لإمام المتقين: **﴿سلام عليكم﴾** . .

﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾، **﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**[١] .

﴿ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾[٢] . وبكت السماء والأرض . وفتحت أبواب السماء؛ **﴿وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية، في جنة عالية﴾**[٣] . **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾**[٤] . .

أطعم ـ وأهله[٥] ـ **﴿الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾** دون منة .

---

(١) المطففين ٢٦

(٢) النحل ٣١ .

(٣) الغاشية ٨-١٠ .

(٤) الفجر ٢٧-٣٠ .

(٥) سورة الإنسان / ٧؛ تفاسير: النسفي ٣ /٦٢٨ والزمخشري - الكشاف ٤/ ٢٧ والرازي ٣٠/ ٢٤٣؛ للآية ٧ وما بعدها: نزلت هذه الآيات في وفاء أهل البيت لنذرهم إن شفي الحسن والحسين أن يصوموا ثلاثة أيام . فعند إفطار اليوم الأول، وكان إفطارهم رغيف شعير؛ أتاهم مسكين فقدموه له وناموا طاوين. وعند إفطار اليوم الثاني أتاهم يتيم وكان =

﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً. . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً. .﴾.

هوى إمام المتقين. . خضبت يده من دم الرأس والجبين. . أنبأه بها سيد المرسلين. كم حمل الناس إلى الهدى واليقين. . فجبهوه بالسيوف والغدر ناكلين. كم أضاء لهم شعلة الحق والدين؛ وهم يخلقون أوثاناً يركعون لها آثمين. أرادهم عباداً لله نصب أمره ونهيه، حملة لدين ربهم ووحيه. فآثروا غثهم على سمينه. . بلغ الرسالة صاعداً بالنذارة. . داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. . يكسر الأصنام. . وينكس الهام. .

حتى انهزم الجمع وولوا الدبر. . وتفرى الليل عن صبحه. . وكلما نجم قرن للشيطان أو فغرت فاغرةٌ من المشركين قذفه الرسول ﷺ في لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ لهيبها بسيفه. مكدوداً في ذات الله مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله. . مشمراً ناصحاً. . مجداً كادحاً. وهم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون؛ منهم من يتربصون الدوائر ويتحسسون الأخبار، ينكصون عن النزال ويفرّون عند القتال.

سخى عليهم من كنوز حكمته وأغدق عليهم علوم معرفته؛ من فيض ـ ابن عمه ـ سيد الرسل ﷺ ـ وهدايته، دون غرض في أجر أو أعطية ينالها منهم عسى أن يرعوي إلى الحق من جهله ويحيى بالإيمان من جحده. . إنه يعسوب الدين وقائد الغر المحجلين.

إنه وصي رسول الله[1] ﷺ. . إنه حيدرة كما سمته قريش وعلي كما سماه أبوه.

إنه أبو تراب كما سماه الرسول وهو أحب الأسماء إليه وقد وجده ﷺ نائماً

= إفطارهم رغيف شعير أيضاً فقدموه له وناموا طاوين. وعند إفطار اليوم الثالث أتاهم أسير فآثروه مع ما بهم من خصاصة وكان إفطارهم رغيف شعير كذلك فجادوا به له وناموا طاوين. فاستحقوا نزول الآية بهم.

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج ١/ ٤. وفي تفسير ابن كثير لغزوة أحد

في تراب وقد سقط منه رداءه، وأصاب الترب جسده فجاء حتى جلس عند رأسه وأيقظه وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول: اجلس أنت أبو تراب. . فدعت بنو أمية خطباءها أن يسبوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه؛ فكأنما كسوه بها الحلي والحلل.

القول عن علي كالقول عن ضوء النهار الباهر لا يخفى عن الناظر. إنه من تعزى إليه كل فضيلة. . إنه باب مدينة العلم الإلهي. . إنه إمام الإمامية والزيدية. .

وهو إمام أبي حنيفة الذي قرأ على جعفر الصادق وهو من ذريته.

وهو إمام الشافعي الذي أخذ عن محمد بن الحسن عن أبي حنيفة.

وهو إمام ابن حنبل الذي قرأ على الشافعي.

وهو إمام مالك الذي قرأ على ربيعة الرأي عن عكرمة عن عبد الله بن عباس الذي قرأ على علي. وقال ﷺ «أقضاكم علي»[1]. فهو أفقه الجميع. .

وهو السابق إلى الإسلام فهو أول الموحدين بعد الرسول. . وهو إمام علوم القرآن والسنة، وعَلَم النحو وألويته. وله الشجاعة والقوة والسخاء والرأي والتدبير والحلم والصفح والجهاد والفصاحة. . وله الزهد والعبادة والسخاء؛ والحكمة والرأي والتدبير والسياسة.

إنه علي بن أبي طالب... لله دره ما وفاه حقه أحد

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج ١/ ٤. قال له ١: (أنت يعسوب الدين والمال يعسوب الظلمة) من رواية ابن حنبل في فضائل الصحابة وفي حلية الأولياء لأبي نعيم الحافظ.

الفصل الثاني

الجاهلـية الأولى

جهل على جهل

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

جهل على جهل

الجاهلية الأولى

هكذا كان اسمها.. ولكن العجيب أن الناس ارتضت هذه التسمية لنفسها مع أن فطرة الإنسان تنبو به عنها؛ وما الاسم أبو جهل إلا مثال لتفاخر بما هو معرّة.. والإصرار على الجاهلية يتجلى بقول الشاعر:

وما أنا إلا من غزية إذا غوت غزية غـويـت وإن تـرشـد غـزيـة أرشـد

إن الفطرة التي أودعها الله في بني آدم هي الداعية لعمل الخير. وهذه الفطرة هي التي تجلت في كل مفخرة فخر بها الجاهليون كإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، ورعاية اليتيم والانتصار للمظلوم، والسخاء والبطولة والإيثار والشجاعة والفروسية والفداء وإباء الضيم وعزة النفس والصبر على نوائب الدهر؛ وعلى رأسها سقاية الحاج ورفادته وعمارة المسجد الحرام وخدمته.

وتظهر الفطرة أيضاً ميلاً نحو قيادة حكيمة راشدة في ظل نظام اجتماعي يعيش على الغزو وإغارة قبيلة على أُخرى، مما يزلزل الأمن ويفقد السكينة. وتتجلى نزعة نقض التناقض الاجتماعي الجاهلي والفروق الطبقية في إغاثة الذين غرز جوع الحرمان أنيابه في هزالهم؛ بالسيف الذي غرسه الثائرون في جنبات صانعي الجوع. وشعراء هؤلاء الثائرون الذين سموا الصعاليك قدموا صورة لأنفة تذلل الفقير لمال الغني. يقول عروة بن الورد من أمراء الصعاليك:

وإذا افتقـــرت فلـــن أُرى متخشعـــاً لأخـــي غنـــى معـــروفـــه مكـــدود[1]

(١) ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت؛ الملوحي ٤٨.

وكان الموقف الرافض لكثير من العادات الجاهلية عالي الصيحة ـ وهل من جاهلية أكثر من حرب من أجل ناقة كحرب البسوس. أو من أجل نتيجة سباق فرسين كداحس والغبراء ـ في الشعر العربي.

وتظهر الإشادة بالمكرمات نقضاً لعديد من العادات الشائعة كالغدر سواء للتشفي أم لسد الجوع بنهب القتيل أم لوشاية كاذبة أو غير ذلك، فهذا عمرو بن كلثوم ينكر الوشاية:

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

ويسمو عنترة وهو عبد ـ عن النيل من محارم الجار وخاصة في غيابه ـ عن فعال امرىء القيس الذي يتباهى بالحلف الكاذب وبهتك امرأة أمام عيني زوجها المستضعف الأعزل:

فقالت سباك الله إنك فاضحي أما ترى النار والسمار أحوالي
حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما من حديث بعد ولا صال
فأصبحت معشوقاً واصبح زوجها عليه قتام كاسف الظن والبال
يغط غطيط البكر علي ليقتلني والمرء ليس بقتال
وكيف يقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأسنان أغوال[1]

ويفخر عنترة بالذود عن الديار نابياً عن اللجوء إلى العدى لطلب العون كما فعل امرؤ القيس الذي استعان بالروم لنيل ملك لم ينله؛ فحصد الخيبة وكسي المعرة:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وأما وأد البنات والاستهانة بالمرأة وسبي النساء والزنا والاستبضاع وكثرة البغايا فهي أمور لم يقطع غير الإسلام منابتها لتنجو المرأة والمجتمع من خبائثها.

(١) المشرفي: السيف، والمسنونة هي الرماح.

وكذلك فإن قطع الطريق وسبي الناس وسلب أمنهم واسترقاق القبائل بعضها لبعض، وغير ذلك من المفاسد قد فصلت فيه رسالة الرسول الكريم ﷺ.

احتلال معاقل التوحيد لا يجيز التدين بديانة الأوثان

هذه حياتهم؛ «غياب كل منارة يمكن أن تستخدم كدليل في هذا الغسق الكثيب للوجود، وفقدان معتقد يتغلب على كل شيء ويكون قادراً على منح حياة البشر معناها، ويكون مصدر إلهام لأفعالها»[1] وعند غياب عقيدة التوحيد يشرق الصنم ويرفع الشرك راياته.

لقد أغرق طوفان نوح يغوث ويعوق ونسراً، فقد تدخلت القدرة الإلهية واستجاب الله دعوة نبيه فلم يذر على الأرض من الكافرين دياراً. مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً.

ولكن أصنام الشرك عادت من جديد فنمرود يعبّد الناس من خلالها ليبقي ألوهية لنفسه؛ وقضت مشيئة الله أن يكون كسر الأصنام على يد إبراهيم ليكون إماماً للناس في كسر أصنامهم وزلزلة الزيف في عقائدهم وأوثانهم.. فالوثن كل عقيدة أو فكر لا يقوم على التوحيد.. سواء كانت له أصنام أم لم تكن[2].. وعاد غزو الشرك وامتد في الجزيرة، وانتشت الوثنية وقد رفع الشرك راياته حتى وضعها فوق الكعبة معقل التوحيد.

فهل من قائم يسعى إلى دكِ الشرك فكراً ووثناً.

هل من موقن مع الرسول محمد ﷺ أن احتلال الشرك لمعاقل التوحيد لا يجيز التدين بديانة الأوثان؛ وقد أوكل الله أمر هدمها لمن يؤمن به!

(١) جوليان هكسلي.

(٢) وليس لأحد أن ينكر فعل إبراهيم في كسر الأصنام بباطل من القول بأن الناس لهم الحق أن يفعلوا ما يحلو لهم، أو أنه ليس للحق أن يجهز على باطلهم أو أن عليه أن يقر أو يذر ما هم عليه.

ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك

رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ودعا أن تستمر الذرية الطيبة.. بعضها من بعض في الطيبين من أبناء إبراهيم وإسماعيل. واستجاب الله لدعاء إبراهيم فجعل لأهل مكة حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء ويتخطف الناس من حولهم. وخسىء الشيطان ولكنه عازم على النيل من بني آدم، وأن يبر قسمه بأن يغويهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين.

الجذور

نجح الشيطان في مسعاه وقد استخف أحلام عبيده فأطاعوه. وظهرت الأصنام على الكعبة التي يطوف الناس حولها ويتباهون بخدمتها.

ووصل سؤدد سقاية الحاج ومفاتح الكعبة إلى قصي؛ وقد نالها من والد زوجته سيد خزاعة الذي آثر أن يسلمها لزوج ابنته قصي على أن يسلمها لسليم قائلاً: «ما لي ولسليم! هذا أمر ليس يقيمه صاحب خمر..».

ويسأله قصي فإن أبت خزاعة.. فرد عليه مغضباً مشيراً إلى أحفاده:

«خزاعة وهل خزاعة إلا هؤلاء؟.. إنما ولدك بنو ابنتي ـ ولدي ـ وأنت أحق بأمري حتى يخلفوك».

رفضت خزاعة ما جاء من الحق في الوصية، وأشهروا سيوف الحرب التي ردفتها مظاهرة بني بكر على قصي وقريش وكنانة وربيعة قضاعة من قوم أمه.

وكان النصر لقصي على سليم صاحب الخمر.

بذور الصراع ـ توأمان ملتصقان

واكتحلت عينا قصي كما برقت عينا ابنه عبد مناف، كيف لا وزوجه عاتكة بنت مرة قد جاءها المخاض.. وزادت فرحته؛ فقد كانا ذكرين، ولكن ما لبث أن جمدت

عيناه في وجهه فقد كانا ملتصقين جبهة أحدهما بقدم الآخر.. قطعة واحدة..

وستنفصل هذه القطعة إلى شجرة طيبة وقد حوت النور في أصلابها، وشجرة خبيثة ستكون مرتعاً للشيطان يصدق فيها ظنه. وقدم عجوز خزاعة؛ ممن له علم بالكهانة؛ ليجلي الأمر. وسمع قصي الكاهن يقول وقد فصل التوأمان: «ألا إنها والله آية لمن علم، وليكونن بين ولديهما خصومة ودم». إنهما عمرو (هو هاشم) وعبد شمس.

نظر قصي في توأمي عبد مناف فثناه ذلك عن الوصية لهما أو لأبيهما؛ فنال الوصية ابنه عبد الدار فكانت له ولاية البيت الحرام ثم لبنيه من بعده.

مات قصي.. ولم يرق لعبد شمس ـ مع ما طبع عليه من مداورة ودهاء ـ أن يفوته فخر ولاية الكعبة.. أو عقد ألوية الحرب لقريش..

واشتد حنقه وهو يرى الزمن يطوي صفحات حياته وهو يروم الحكم صبياً ثم سعرت له نفسه شاباً.. ويكاد يفوته المجد كهلاً.. أين ذكاؤه... أين دهاؤه.. وها هو ابنه أمية يرث الكثير من نزعات أبيه.. وأكثرها الحسد لِما وصل إليه عمرو وقد ذاع صيته في الآفاق.

لقد أرضت سجاياه القاصي والداني حتى ملّكته الناس أمرها؛ وسلّمت إلى حلمه وحكمته ما يعترضها، وأولت لرأفته وكرمه وسماحة خلقه رقابها. كان ملكاً في أعين الناس وقلوبهم وإن كانت الولاية لابن عمه عبد الدار.

ونسج عبد شمس خيوط مكيدته ليخرج الأمر من بني عبد الدار ليعود إلى العالين من بني عبد مناف بن قصي، وتفاقمت الفتنة. وشرعت السيوف. ولكن الحرب عرفوها ذميمة؛ تلقح الدم كشافاً ثم تنتج فُتُثم[1].. فليكن التحكيم.. ومن بعده الاقتسام.. وكان لبني عبد الدار حجابة البيت والندوة وعقد اللواء.. وكان لتوأمي عبد مناف سقاية الحاج ورفادته.

(١) من بيت لزهير بن أبي سلمى يصور كثرة المصاب نتيجة الحرب بناقة زاد لقاحها فتتاءم نسلها.

ليميز الخبيث من الطيب

لم يكن حلب عبد الشمس ليصب في إنائه. . وكيف له ذلك وهو لا يرقى إلى مكارم أخيه. وتلبد وجهه واعتل قلبه سقماً وغيظاً وهو يسمع حكم القوم:

يا بني عبد مناف ألا تهتدون وفيكم عمرو! وتفجر غيظاً بمن يفاخر بمكارم توأمه:

«يا عمرو الحيا أنت لها، فوالله ما طعمت مكة ولا سقيت من يدين أبسط من كفيك».

وفاح الإيثار من عمرو وهو يقول: «بل هذا أخي أبو أمية. . ادفعوا إليه الأمر».

فأشرقت أسارير الحسد؛ ولكن سارع المطلب بحكمته إلى القول باختيار الطيب؛ إذ للمكارم سمات وأفعال وهي لعمرو: «وما لعبد شمس وهذا الأمر! . . . وإنما الأمر اليوم لصاحب دار بلا باب، وفيض بلا حسب، وإنه والله لأنت. . .» ونازع أمية بن عبد شمس ما بعمرو من مجد ليصل إلى عليائه، ولكن الخبيث جفاء والطيّب نماء.

كان كرم عمرو فيضاً من جود. . وكان عطاء أمية ادعاء للكرم.

كان الخير في عمرو سجية. . وكان في أمية تصنعاً.

كان الحسن في عمرو صورة. . وكان في أمية تغطية لحسد.

كان الطيب في عمرو أصلاً ثابتاً. . وكان في أمية سراباً.

لقد أشبع عمرو أهل مكة من جوع قحط أذاب الشحم وحت العظم.

أما أمية فكان يشد الرحال غير آبه بمن عض الجوع بطونهم؛ وقد لجأوا إلى عمرو الذي هشم لهم الخبز؛ لينال شرف تلقيبه باسم هاشم.

هاشم ورحلة الشتاء والصيف

واد غير ذي زرع وأناس بلا حرفة وما من مورد غير رعي يدر الضرع. . فلم لا تكون لأهل مكة تجارة بين الشام واليمن! فقبائل اليمن ترى الخير في ذلك، ولهاشم من المنزلة عند قيصر الروم ما ينجحه في مسعاه؛ فشد الرحال لنيل مبغاه؛ ثم أرسل أخاه المطلب إلى النجاشي راكباً البحر، فوفقه الله في ما أمله. وكان ذلك إيلافاً لقريش.

وازداد حسد أمية لعمه فقد كان هذا علواً لهاشم. وأدى به الحسد إلى النيل من هاشم، وكان لهاشم من الحلم ما يكفي لإخماد ما اضطرم في صدر ابن أخيه. غير أن الخبث في نفسه أوقد الحقد في قلبه. هذا يغرق لسانه في سيد القوم. . وسيد القوم لا يزيده ما يسمع إلا طيباً وكرماً. وحنق وهو يرى الناس وقد هالهم أن يروا قزماً خبيثاً يتطاول على شجرة طيبة ينال الجميع أكلها. . كان هذا يزيد من حسده وذاك يسمو في علوه. . كعود زاده الإحراق طيباً.

وما كان من أمية إلا أن مشى إلى عمه ـ هاشم ـ حانقاً يدعوه أن يتنافرا بأن يقيما بينهما من يحكم لأيهما ينتهي الجود. ويشفق هاشم على ابن أخيه مغضياً عن تفاخره عليه، ولكنه ـ بدل أن يرعوي ـ أصر على أن له من العلياء والجود ما لا يناله هاشم. فقال له هاشم: «إنما شرفي شرفك وإن تمسّه لا تعزّ، لا آخذك بما قلت فإن شئت أن ترجع!».

ولكنه بدل مجازاة الإحسان بالإحسان قال: «ما لهذا أتيت».

أذعن هاشم لإصراره، عالماً أن التحكيم سيكويه بناره؛ بعد أن يئس من تهدئة سعاره. يقول المقريزي: «نافر أمية هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق وعلى جلاء عشر سنين»[1]. خسر أمية التحكيم وجر أذيال الخيبة إلى الشام منفياً سنيناً عشراً ممهداً لعتبة ثم لمعاوية بن أبي سفيان.

(١) المزيد في المقريزي، التنازع والتخاصم

وفديناه بذبح عظيم

ويمضي هاشم إلى ربه على أعناق قومه سيداً في حياته ومماته.. فهل يهدأ ابنه أمية والغيظ يكوي أضلعه وقد انتقلت الولاية إلى عمه المطلب.. المطلب الذي خذل أباه عبد شمس بزعمه حين أعطى الولاية لهاشم؛ فصرخ والحقد يعمي بصره وبصيرته:

«المطلب! رد عمرو عليه شطره..» ويودع عبد شمس بذور خبثه في بنيه، وكأنه يأبى أن يواري قبره أضغانه! ولتحمل كل خلية من أعضاء بنيه الحقد والخبث لتطفىء النور الذي يوشك أن يشرق على العالم! وكيف لا يلتهب حسده وهو يرى عبد المطلب سيداً لقريش وقد زادته ولاية الكعبة شرفاً. ولكن النور يهتك حجب الظلام، والخير لا تزيده ضراوة الشر في بني أمية بن عبد شمس إلا عبيراً فواحاً ونوراً ساطعاً.

هل يشفى صدره بنذر عبد المطلب بذبح ابنه عبد الله؟ فماذا هما فاعلان؟

يقترب عبد المطلب من ابنه عبد الله الأثير إلى قلبه قائلاً:

«يا عبد الله، إني نذرت لو استحيى رب هذا البيت لي عشرة من ولدي لأذبحن أحدهم له في بيته.. وإنك أنت يا بني نذري».

فيقول فتاه مذعناً: «يا أبت افعل ما ترى.. ولن تجدني إلا طائعاً صابراً».

إنه من سلالة إبراهيم من الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. فالموقف يتكرر، فإبراهيم يقول: ﴿**يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى..**﴾.

فأجابه إسماعيل راضياً محتسباً صابراً: ﴿**يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾.

وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم..

وقيل لعبد المطلب افد ابنك بعشر من الإبل ـ وهي دية القتل ـ لئلا يكون ذبح الأولاد سنة.. وارم السهام على ذلك..

ورميت السهام فخرج قدح عبد الله..

ثم رميت السهام فخرج قدح عبد الله.. وزيد عدد الإبل عشرة عشرة، فلما بلغت المائة برز قدحها.

وأعاد عبد المطلب الرمي ثلاث مرات..

فكانت الإبل هي الفداء فقرت عينه بهذا الفداء العظيم وهو لا يعلم أن الله بالغ أمره وسيكون من نسل عبد الله أمر عظيم.

ونحرت الإبل.. وأكل الناس وطعموا وقد فاض الخير عليهم ببركة صاحب الأمر العظيم.

إنه عبد الله من ذرية إسماعيل وإبراهيم..

وهما أصل بيت الشجرة الطيبة التي قالت لها الملائكة: ﴿**رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد**﴾.

شغفت النساء حباً بعبد الله

لقد بدا النور في محيّاه.

فها هي بنت نوفل الأسدية تعرض له قائلة: «لك مثل الإبل التي نحرت عنك اليوم، إن قبلت أن أهب نفسي لك».

وعرضت عليه ليلى العدوية نفسها وقد هفا قلبها لنوره..

ودعته فاطمة بنت مر إلى نكاحها وكانت من أجمل النساء وأعفهن؛ وفي بعض الروايات أنها كانت كاهنة من خثعم[1].

كاهن حِمير

يسترجع عبد المطلب ـ وقد اشتعلت في رأسه خصلة بيضاء جعلت قومه

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٧٤ و سيرة ابن هشام ١/ ١٦٥

يلقبونه «شيبة» ـ ما حدث حين نزل عند عظيم من حمير. فقد دخل كاهن حمير، وأطال التأمل في محياه، فعَرَّفه صاحب المكان بقوله:

ـ «هذا كاهن من اليمن، قرأ كتب الأوائل وله علم، وما أحسب إلا له شأن وإياك».

وما لبث الكاهن أن قال وهو يرى الشيبة في شيبة:

ـ «أرى ملكاً» فرد صاحب المكان يعرفه بعبد المطلب:

ـ «ما هذا بجديد فإنه سيد قومه» فأردف:

ـ «وأرى نبوة» فقال متعجباً:

ـ «نبوة»! فسمعه يؤكد من جديد:

ـ «نعم».. ثم خاطب شيبة بقوله:

ـ «وإنها لفيك أو في أحد بنيك». فقال:

ـ «في أيّهم؟» فأجاب.

ـ «في صاحب الغرة».

إنه هو صاحب الغرة.. وكان الناس يقولون لفرط ما يظهر من التقوى في عبد المطلب:

«لو كان نبي على عهد عبد المطلب لكان نبي العرب».

ولكنه لم يكن بذاك!.. هل هي في أحد بنيه؟.. لا يبدو أن ابنه أبا لهب ـ وقد أغرق في الوثنية والعناد عن الحق وعناق الباطل ـ هو المعني. لم يكن حمزة قد ولد بعد، فهل هو العباس.. أم أبو طالب؟

ويقطع الكاهن عليه تفكيره بقوله: «أو في المصهر إلى زهرة».

وتمضي الأيام.. ويشد عبد المطلب الرحال إلى يثرب مع ابنه عبد الله ليصهر إلى زهرة.. هو وابنه أحب أولاده. وعادا إلى مكة ولعبد المطلب هالة بنت وهيب، ولعبد الله ابنة عمها آمنة بنت وهب.

وحملت هالة.. وحملت آمنة.. وكأن عبد الله قد استنفد رسالته في الحياة بعد أن أودع في رحم آمنة من سيكون سيد الرسل من الشجرة الطيبة.

وتلقف عبد المطلب وليده حمزة، وهو لا يدري أنه سيقتل بكيد كبير أولاد أخيه من بني أمية؛ وقد أورقت شجرته خبثاً.

أما نساء قريش اللواتي عرضن أنفسهن على عبد الله فقد أعرضن عنه بعد زواجه وقالت له بنت نوفل: «فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة».

وقالت ليلى العدوية تتحدث عن نوره:

«مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء فأبيتَ علي، ودخلتَ على آمنة فذهبَت بها».

وقالت له فاطمة بنت مر:

«قد كان ذلك مرة فاليوم لا. والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكنني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون لي. فأبى الله إلا حيث أراد».

وشعرت آمنة بالنور الطاهر يشع في كيانها فتشرق لها الدنيا.

ويروى أنها سمعت هاتفاً يبشرها بأنها حملت سيد البشر.

والتأم نور النطفة الطاهرة من عبد الله بالطهر في رحم آمنة بنت وهب بن عبد مناف[1] من الشجرة الطيبة.

والنور لا يعرف إلا بالنور ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

إن لهذا البيت رب يحميه

شرب الشرك حتى الثمالة والأصنام تنتشر في كل مكان..

وكأن الكعبة لا يكفيها ما بها من أصنام حتى هرعت جيوش الإفك من الحبشة

(١) أنساب قريش/ ١٤وجمهرة أنساب العرب/ ١٢

يتقدمها أبرهة الأشرم يقود أصحاب الفيل. . . سعياً لهتك حرمة البيت الحرام.

الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً.

جيش لا قبل لقريش به. .

هذا ما فكر به عبد المطلب سيد قريش وهو يجيل الذهن ليخرج إلى الناس بأمر يحميه ويحميهم من ويلات الغزاة.

وصمت القوم لما يقوله عبد المطلب: «يا قوم، ما أرى إلا أن تخرجوا عن مكة إلى الشعاب». .

ولكن فرع الشجرة الخبيثة حرب بن أمية وجدها فرصة للطعن في قول عبد المطلب.

فقال يلمز بأهلية عبد المطلب لعقد لواء الحرب: «فالحرب والله أجدى يا أبا الحارث».

فرد عليه بهدوء الحكيم وصبر من عرف ثمار الدماء: «قول هيِّن وهلك أهون». .

لقد عرفوا فيه النظرة الصائبة. . والتبصر بعواقب الأمور. .

وليس الأمر أنه حصر همه في إبله.

«ألا إني لكم نذير من كربة يوم عظيم، فما لكم بصاحب الفيل من طاقة».

فصاحوا به: «تمنع الإبل وتدع الحرم! يا أبا حارث ما كنت رشيداً. .».

فقال: «أما والله لم يفتني الرشد. . إبلي أنا ربها، أمنعها، وقد فعلت. أما البيت فله رب يمنعه».

ونظر القوم من الشعاب التي لجأوا إليها. . لقد صدق والله أبوالحارث:

«لا طاقة لقريش بأبرهة وفيلته الضخام». .

وزحفت الفيلة. . هدفها البيت الحرام. . على رأسها أبرهة رأس القوم على أضخم الفيلة. . ولكن. . لقد توقفت الفيلة. . توقف الزحف.

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. .

ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل. .

ترميهم بحجارة من سجيل[1]. . فجعلهم كعصف مأكول.

وأسرع ابن أمية ـ حرب ـ ليغطي خزي رأيه ويقول حاسداً مرغماً:

صدقت والله يا أبا حارث فقد منع الله بيته.

منعه ببركة وليد منهم. .

وليد من آمنة بنت وهب. .

ابن عبد الله بن عبد المطلب. . ثمرة الشجرة المباركة. .

الشجرة الطيبة. . التي سيسطع نورها على العالم أجمع. .

لقد كانوا كافرين. . ولكنهم نجوا ببركة سيد المرسلين. .

وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم. .

وما كان معذبهم وهم يستغفرون.

ولادته كانت رحمة لقريش. .

ورسالته وحياته رحمة للعالمين. .

كانت وبقيت وستبقى.

أنا الذي سمتني أمي حيدرة

وظهر الخبث المتمثل في أمية ـ من جديد ـ في ابنه حرب، الذي سعى ليرضي ضغينة موروثة وحقداً دفيناً فقد ذهب يتفاخر من جديد على عمه عبد المطلب؛ كما تطاول أمية ـ أبوه ـ على هاشم. لقد طلب التحكيم عله يروي غليله بسقيا شجرته

(١) قيل في الحجارة أنها تحمل الطاعون، ولكن ما حل بهم ليس بطاعون وقالوا هو الجذام وقالوا. . هي مواد مشعة. . ومهما قيل فالله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الخبيثة. ولكن سطوع شمس هاشم لا يحجبها سواد كف أمية. لقد خسىء وهو يسمع الحكم بينهما ـ نفيل بن عبد العزى ـ يقول: «.. أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأجزل منك صفداً، وأطول منك مذوداً.. أما والله إنك لمبطل كما كان أبوك..».

فاستعر حقده قائلاً: «فدع أبي يا نفيل فإنه ليس بشر من أبيه..».

فقال: «هيهات أن يقرنا أو تقرنا..».

أبـــوك معـــاهـــر وأبـــوه عـــف وذاد الفيـــل عـــن بلـــد حـــرام

فذعر قائلاً «إن من انتكاث الزمان أن جعلناك حكماً».

غفل عن أن من انتكاث الزمان أن يطاول عبد المطلب مدعياً أنه ندٌّ له..

وسيفعل حفيده معاوية مثل ذلك بقوله: «من معاوية إلى علي»، معرضاً عن ما قاله الرسول بحقه وأنه أمير للمؤمنين. أما ابنه أبو سفيان فلم يخف معاهرته بل تباهى بها كما جهر بمعارضته لدعوة نبي الرحمة ﷺ. وسيلحق معاوية زياد بن أبيه بنسبه ليترك نصرة الإمام متفاخراً بعهر أبيه وغير آبه لدين ربه.

إنهم لم يقروا بالسيادة لهاشم وعبد المطلب. فكيف سيذعنون لمحمد ﷺ بالنبوة!

كيف سيؤمنون له برسالة رب السماء.. وهم لا يطيقون أن يروا له ملك الأرض!

وها هو وليد جديد لأبي طالب.. تلده فاطمة بنت أسد في المسجد الحرام..

يولد في جوف الكعبة.. أخ لمحمد ﷺ من غير أمه.. سمته أمه حيدرة[1]..

إنه إمام المتقين..

إنه كما وصفه الرسول ﷺ: «رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».

(١) كما كانت تود أمه أن تسميه

إنه سيف سينصر الإسلام..

إنه علي بن أبي طالب.

فماذا تخبىء الأيام لهذا الوليد..

* * *

الفصل الثالث

الرســـالة

ليظهره على الدين كله

هل عرفت ربك بمحمد. . . أم عرفت محمداً بربك؟

عرفت ربي بربي وجاء محمد فعرّفني مراد ربي مني

الرسالة في مكة

تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها

اصطفى الله محمداً من خيرة خلقه الذين اختار منهم أنبياءه الذين «استودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر».

«حتى أفضت كرامة الله سبحانه وتعالى إلى محمد ﷺ [1]، «اختاره من شجرة الأنبياء ومشكاة الضياء.. ومصابيح الظلمة، وينابيع الحكمة»[2].

أدبه ربه فأحسن تربيته.. سواء في بيت جده عبد المطلب.. أم في كفالة عمه أبي طالب الذي كفله بعد موت جده.. أم في تجارة الشام بأموال خديجة بنت خويلد.. أم في زواجه منها.. وفي عبادته في غار حراء قبل الرسالة.. أما بعدها فله في شهادة ربه غنى. فالله عز اسمه قد أضفى على نبيه محمد ﷺ اسمين من أسمائه بوصفه بأنه ﴿رؤوف رحيم﴾.

وقال له: ﴿فإنك بأعيننا﴾.

ونال علي الطيب من الشجرة الطيبة ونال شرف تربيته في بيت النبوة؛ فقد كان أبو طالب معسراً كثير العيال؛ فضمه الرسول إلى كنفه.

وكان محمد قبلة بمكارم الأخلاق لقريش قبل بعثته، وقدوة بالتوحيد لعلي قبل رسالته.

أليس محمد هو الصادق الأمين؛ الذي حمل الحجر الأسود بيديه الشريفتين

---

(١) نهج البلاغة خطبة ٩٢/ ص ١٨٥.
(٢) نهج البلاغة خطبة ١٠٦/ ص ٢٠٥.

بعد أن اختلف القوم أثناء إعادة بناء البيت فأشار عليهم بعد أن وضعه على ثوبه؛ أن تمسك كل قبيلة طرف الثوب لتنال القبائل كلها شرف حمله..

أليس هو الذي كان موحداً لوحده في عالم وثني مشرك..

أليس هو الذي تحمد سجاياه كلها أليس هو صاحب الخلق العظيم..

أليس هو خاتم الرسل الذي ستحمل رسالته النور والهدى للعالمين.

ونال علي ما لم ينله أحد بصحبته مع محمد، والتأسي بأخلاقه في تربيته له قبل البعثة..

كما كان له سابقة الأولوية في الإسلام..

وكان له شرف النهل من معين علم مدينة العلم، حتى أصبح باباً لها بقول الرسول ﷺ: أنا مدينة العلم وعلي بابها.

وقد أمر الرسول ﷺ الناس جميعاً أن يأتوا العلم من بابه.

قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس و الحجارة

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق..﴾.

وأسلمت خديجة أم المؤمنين. ولم ينتظر علي ليشاور أباه في أمر إسلامه. لقد كرم الله وجهه عن السجود لأصنام قومه وها هو يجيب دعوة الرسول ﷺ: «يا ابن عمي إني سمعت وأجبت وإني أشهد بشهادة الإسلام... أن لا إله إلا الله، وأنك لرسوله..».

وأضاف: «يا رسول الله ما كنت لأسمع لأبي طالب أو أُشاوره في ديني... فقد خلقني الله ولم يشاوره في خلقي.. إني هديت يا رسول الله بك إلى ربي فلأعبدنه ابتغاء وجهه»[1].

وقد قال ﷺ: «لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة سبع سنين».

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج ١/٣.

أبو طالب: لم يدعك إلا لخير فالزمه

وتبدأ الدعوة سراً بعد أن اقتصرت العبادة لله وحده، على أهل بيت محمد في بيت محمد ركعاً سجداً لله وحده..

ويقول علي لأبيه الذي سأله عن دينه الجديد:

ـ دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله.. دين أبينا الخليل إبراهيم.

ـ وما لابن أخي به؟ فيجيب: بعثه الله به رسولاً إلى الخلق أجمع.

ـ يا بني أراك اتبعته.

ـ آمنت بالله، وآمنت برسوله، وصدقت بما جاء به... أي أبت.. إنه والله للحق.. وأنت أحق من استمع إليه وأعان عليه. أي أبت فهلم إليه!

ـ أي بني!.. أما إنه لم يدعك إلا لخير، فالزمه..

لقد قال يعقوب لبنيه: **﴿إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾**.

فهل يحق لأحد أن يصطفي غير ما اختاره الله أو أن يتقرب إلى الله بغير ذلك.

والله سبحانه يقول: **﴿ما كان لهم الخيرة﴾**.

وأنذر عشيرتك الأقربين

وصدع محمد للأمر..وامتلأت داره بمن دعاهم من بني هاشم وبني عبد المطلب.. لقد أحضر لهم ثريداً قليلاً.. فكيف يكفيهم.. وأشار إلى علي:

«هلم طعامك».. وأكلوا وشبعوا وعجبوا فالصحفة لا تزال تحتوي الكثير.

ثم أشار لعلي «اسقهم» فشربوا جميعاً من إناء واحد ولمّا ينضب.

فما أسرع أبو لهب أن قال: «سحركم والله محمد».

أليس أبو لهب زوج أم جميل ابنة حرب بن أمية، وهي تنفث الحقد في زوجها ليل نهار.. أليست حمالة الحطب.. في جيدها حبل من مسد.. فتبت يداها وتبت يدا أبي لهب وتب.. وقد استوفى منه الشيطان ما بقي فيه من خبث عبد شمس:

يا محمد إن لحديثك هذا لسحراً وإن له لموقعاً في الأفهام وأثراً على الأحلام ولكنه والله ما يغلبنا على ديننا سحر.. قد سمعتم أيها الناس فقوموا لا يفتنكم الغلام.

فنظر إليه الرسول ﷺ وهو يضل قومه مستكبراً، فقام يدعوهم لينتصروا بنصرتهم له في الدنيا و الآخرة وقال:

«قد أمرني ربي أن أدعوكم إليه.. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم».

فقال أبو لهب ساخراً: «تزعم أن قد بعثك الله وتطلب منا النصر؟ ألا كف عنا دينك وربك فإنا لا نجيبك».

فأسرع علي يحمل عبء الأمانة ـ إذ ليس الأمر كلمات تقال وكفى ـ مجيباً رسول الهدى ﷺ:

لا يحزنك والله إعنات القوم فعليهم ضلالتهم..

وإني يا رسول الله عونك..

أنا حرب على من حاربت..

فقال قائل منهم: يا أبا طالب ألا ترى ابنك.

فأجاب الرجل وهو يؤمن أن الرسول ﷺ لا يحمل إلا الخير: «دعوه».

فقالوا بسخرية: «كفاك الغلام، فطب به يا محمد».

وكانت مؤاخاة أولى؛ رفضها الجميع في مكة ونالها علي وحده..

وستتبعها مؤاخاة ثانية؛ تمناها الجميع في المدينة ونالها علي وحده..

باسمك اللهم ـ حصار بني هاشم في شعب أبي طالب.

بلغ قريشاً فعل النجاشي بجعفر وأصحابه وإكرامه إياهم فكبر ذلك عليهم وغضبوا على رسول الله ﷺ وأصحابه وأجمعوا على قتله. وكتبوا كتاباً ألا يناكحوا ولا يبايعوا ولا يخالطوا بني هاشم. وكتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري فشلت يده. وعلقوها في جوف الكعبة وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من النبوءة. وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم.

وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب وقطعوا عنهم الميرة والطعام. فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد (حتى أكلوا حشاش الأرض) وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب. فمن قريش من سره ذلك؛ ومنهم من ساءه وقال: انظروا ما أصاب ابن عكرمة.

فاستكبرت قريش وأطالوا حصار النبي ﷺ ومن معه. فقاسوا في الشعب ثلاث سنين. فأرسل الله عز وجل على الصحيفة دابة فأكلت كل شيء إلا باسمك اللهم. ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم وبقي ما كان فيها من ذكر الله عز وجل. فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فذكر ذلك أبو طالب لإخوته وخرجوا إلى المسجد. فقال أبو طالب لكفار قريش:

إن ابن أخي قد أخبرني ـ ولم يكذبني قط ـ أن الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم، وبقي فيها كل ما ذكر به الله. فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وان كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه. قالوا قد أنصفتنا فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها؛ فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فسقط في أيديهم ونكسوا على رؤوسهم. فقال أبو طالب «علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر». ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة.

فقال: اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا.

وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، فيهم مطعم بن عدي وعدي بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البختري بن هشام وزهير بن أبي أمية. ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا. فلما رأت قريش ذلك سقط في أيديهم وعرفوا أنهم لن يسلموهم. وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة[1].

الهجرة: «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون».

كان القرآن حجة عليهم يبهرهم ما يسمعونه منه وإن سدوا آذانهم دونه.. وها هو ذا أبو سفيان يقول لأبي جهل ـ الحكم بن هشام ـ وللأخنس بن شريق رأيه بالآيات المنزلة على محمد:

«يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. وأنت فقل يا أبا الحكم»!

فيجيب: ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا.. فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا؛ حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء.. فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه..

لم يغر أبو سفيان لحق قرابة بني عبد شمس من بني عبد مناف؛ فضغينة بني مخزوم نظير لما يحمله في عدائه لبني عمومته من بني هاشم. فلم لا يروي حقده بسعير حقد بني مخزوم! وهو في كل الأحوال لن يكون ظهيراً للحق الذي حمله الرسول ﷺ إلى قريش..

كان الفرق بين الفريقين أكثر بما لا يقاس من أمر فرسي رهان يستبقان؛ إذ لم يكن من هؤلاء النظائر من فاق ليكون بوسعه أن يسمو إلى العلياء.

(١) الطبقات الكبرى ١ /٢٠٨ - ٢١٠.

ليتهم اكتفوا بإخفاء ما وقر في صدورهم بدل أن يحاربوا الحق الذي يحمل لهم الخير والنور..

هذا أمر أكثر الناس من قريش ومن غيرهم، قبل الفتح. وبعد الفتح؛ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

ليتهم أذعنوا للحق أو أخفوا ما سوف يظهر من عداوتهم للإسلام ولمحمد ودينه ـ قبل الفتح وبعد الفتح ـ ما يكشف عما حوته صدورهم. فهم وإن أذعنوا بلسانهم ـ فإن أفعالهم ستكشف أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

ماتت خديجة في السنة العاشرة للبعثة.. ومات عمه أبو طالب بعدها بثلاثة أيام[1]. وها هو يرثيه قائلاً: «يا عم ربيت صغيراً وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً فجزاك الله عني خيراً»..

يقول ابن أبي الحديد[2]: «فإن من قرأ علوم السير عرف أن الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيء مذكوراً. يعني أن الله تكفل بإظهار دينه بتأييد أبي طالب لابن أخيه»..

وإذا مات الناصر في قرية لا أشد من جهد أهلها سعياً لإخراجه؛ فالهجرة أولى.

فلنقتل محمداً

مات الناصر ولم يبق من مؤازر إلا علي بن أبي طالب. فأجمعوا أمركم على قتل محمد وانتصروا لأصنامكم.. ولتكن حرابكم وسيوفكم ورماحكم مشحوذة واضربوا ضربة رجل واحد.. فيضيع دمه هدراً، إذ لن يقوى أولياء دمه على مناجزتكم جميعاً. فالكلمة الآن لقريش ويجب أن تبقى الزعامة لقريش دون محمد.. فاجمعوا شتاتكم ولا يكن أمركم عليكم غمة وكيدوه ولا تنظروه. وينزل

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٥٠.
(٢) ابن أبي الحديد في شرح النهج ١/ ٤٧.

خبر السماء يفضح كيد القوم وتدبيرهم..

ولكن من سيبقى في فراشه! ومن للشدائد والمهمات إلا علي..

علي في فراش الرسول

وليكن علي من يخلف رسول الله ﷺ. وهل هناك من محب لمحمد ﷺ أكثر من علي.. وهل هناك من محب لعلي أكثر من محمد ﷺ.

ويجتمع القوم على باب داره.. يجتمع الشر والحقد والضغينة وأسلحتهم معهم ليطفئوا نور الله المتمثل برسوله.. لقد ائتلفت الشجرة الخبيثة بكل فروعها ليبرز حقداً طعنات في جسد من أرسله الله لتزكيتهم وهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ويرقد علي في فراش الرسول.. ويخرج محمد ويغشي أعينهم بكلمات ربه:

﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾.

وينطلق إلى المدينة التي تضم من آووه ونصروه.

لم يكن يدور بخلدهم أنه يمكن أن ينجو.. ولم يكونوا ليتحملوا نجاته..

إني أخلع رداء كفري، وإني على دين ابن أخي

ولم يمض إلا قليل حتى قدم حمزة بن عبد المطلب إلى مجلسهم بالكعبة.. لا ليعظم أصنامهم بل لينتقم لمحمد وقد آذاه أبو جهل.. ويقول له أبو جهل: «أبو عمارة.. مرحباً وادخل».

ولكنه يذهل وهو يسمع قول حمزة: «تعدو على ابن أخي فتلطمه وأنا بين الناس حي»! ويحاول أبو جهل تهدئته فيقول: «ما كنت لأفعل يا أبا عمارة، ولكنه عاب آلهتنا، وسبها».

ويسرع حمزة فيصيب بحديدة قوسه جبهة أبي جهل فيفجر منها الدم قائلاً:

«وأنا أعيبها وأسبك وأرد عليك لطمتك». ولا يلبث أن يعلن إسلامه:

«أيها الناس!.. إني أخلع رداء كفري، وإني على دين ابن أخي وإني لناصره بلساني وسيفي.. ألا فليتّقينّ سفيهكم غضبتي».

أليس حمزة ـ وهو يتخلى عن الباطل وينصر الحق قدوة لمن لا يزال يحمل في قلبه جذوة من حق.. أليس في فعله تذكرة لمن أراد أن يذّكر أو أراد لحاقاً بهدى رسول الرحمة.. ليكون في صفة الذين يحبهم الله ويحبونه.

ولهذا كان السبق لعلي على حمزة ـ وهو عمه ـ لأن درجات القرب لا تنال بالقرابة بل بالقرب من ساحة الكبرياء والعزة. فالكرامة للتقوى؛ إنها لمن يجاهد في الله حق جهاده. وشتان بين مواقف أبي لهب ومواقف حمزة وهما أخوان.. وستفصح أحداث الأيام عن الكثير من أمثلة هذين الأخوين.. واحد يقف مع الضلالة.. وآخر لا يرضى بغير النور بديلاً.

وهكذا دفعت التقوى علياً ليكون سيف الحق المصلت على أعناق الكفر..

كان ظل الرسول قبل الدعوة وبعدها.. قبل الهجرة وبعدها.

فنال شرف مؤاخاة الرسول دون غيره. ونال شرف التبليغ عنه ﷺ بقوله فيه: «لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني»[1].

الذين هاجروا والذين أووا ونصروا

وبزغت شمس الإسلام في دولة المدينة بدين يريد الله ليظهره على الدين كله.. وآخى بين المهاجرين والأنصار.. ونال علي وحده شرف مؤاخاة الرسول ﷺ له. وقامت هذه الدولة في فئات تفاوت إيمانها وتباين ولاؤها.. والرسول فيهم قرآن ناطق يجهد ساعياً ليكون الكون كله كتاباً لله يقرأ من أحكام الله.

ـ ففيها المهاجرون الذين سابقوا إلى مغفرة من الله ورحمة وقد تركوا أرضهم وديارهم وأموالهم وفارقوا إخوانهم وعشيرتهم.

(١) الصواعق المحرقة: ١٢٢ ومسند أحمد: ١/ ٣٣١ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٣٦ وابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ٣٥٠.

ـ وفيها الأنصار الذين آووا ونصروا وكان منهم من نال دعوة الرسول: رحم الله الأنصار وأبناء الأنصار.. وهم الذين سيحملون النور الذي مع رسولهم لمقارعة ظلمات الجهل وسيحملون السيف لنصرة دين ربهم.

ـ وفيها من الذين كفروا والذين أشركوا، من قضى مجيء الرسول على بارق أملهم في زعامة المدينة، فنمت فيهم بذرة النفاق التي قادها عبد الله بن أبي سلول من سادة الخزرج وقد أذهب نبي الله أحداث تتويجه ملكاً.

ـ وهنالك الذين نافقوا بعد أن اضطرهم دخول أهلهم في الإسلام إلى التظاهر بمجاراتهم. وهؤلاء كانوا يخفون كيداً بالرسول وبالرسالة وقد حذر الله رسوله منهم وهم يتربصون بالمسلمين الدوائر بقوله عز وعلا:

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾.

ـ وفيهم الذين اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. وهم يحسبون أنفسهم في الصف الإيماني؛ مع أنهم ليسوا من الله في شيء.

ـ وفيهم اليهود الذين قال الله فيهم: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للمؤمنين اليهود والذين أشركوا﴾**. ودأبهم تدمير دولة الإسلام وتحريف الكلم عن مواضعه وحرف المسلمين عن عقائدهم بالرديء من أباطيلهم؛ ويسعون في الأرض فساداً سراً وعلناً، عقيدة وعملاً.

ـ وفيهم النصارى الذين يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون شأنهم في ذلك شأن اليهود، ويصدون عن سبيل الله من آمن يبغون عوجاً ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

وكان الرسول ﷺ أقوى من كافة هذه العداوات، التي لم تكن تحارب بالسيف فحسب، بل بالعقيدة تشكيكاً وبالشبهات دساً، والمؤامرات كيداً، وبالمكر سراً وبالوقيعة غدراً.

وإذا وهت العقيدة نقص الإيمان وقعد بالمؤمن الوهن.. وما أشبه الحاضر بالماضي!

أصناف الناس

يلخص ابن القيم[1] أصناف الناس وسلوك الرسول ﷺ معهم بقوله:

«ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام:

ـ قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه؛ وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم.

ـ وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

ـ وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن. ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه ليأمن الفريقين؛ وهؤلاء هم المنافقون.

وقد عامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى».

بدر ورؤيا عاتكة

قالت عاتكة لأخيها العباس بن عبد المطلب تقص عليه رؤيا هالتها:

«إني رأيت الليلة رؤيا أفزعتني!..». ولما سئلت: «وما رأيت؟».. أردفت:

«وإني أتخوف أن يدخل منها على قومك شر، فاكتم عني أحدثك..».

ثم قالت: «رأيت راكباً على بعيره حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم. فأرى الناس اجتمعوا إليه.. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي، حتى إذا كان في أسفل الجبل ارفضّت؛ فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلت منها فلقة..» وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم.. كما سينتشر سيف علي في رؤوسهم.. وأنى لهم أن يواروا حقدهم.. أسلموا أم لم يسلموا..

---

(١) يراجع زاد المعاد.

وانطلق أبو جهل إلى العباس ساخراً: «يا بني عبد المطلب.. أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم..». ولكن أبا جهل لن يبقى بعد بدر ليذعن لصدق الرؤيا، ولن ينجو كما نجا أبو سفيان الذي استعر الحقد في قلبه قبل الفتح وبعده؛ وقد خسر في المعركة ابنه زياداً أسيراً وحنظلة قتيلاً على يد علي..

أو ليست معجزة أن يحصد سيف الشجرة الطيبة سيوف البغي من فروع الشجرة الخبيثة.. إذ كيف يمكن أن يتفق له أن يقتل في بدر حنظلة بن أبي سفيان والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية، والوليد بن عتبة أخو هند زوج أبي سفيان، ثم العقبة بن أبي معيط والد الوليد أخو عثمان لأمه ـ وقد تربى بفرع عبد شمس ـ وغيرهم من أحلافهم ومن لاذ بهم.

أوَهل يسكت أبو سفيان وهو يرى مصارعهم؛ وهو الذي كان يفرحه أن يرى مصرع محمد ودين محمد وعلي الذي آخاه محمد؛ وكل من هم على دين محمد.. وقد فشل في مسعاه في بدر في قتل محمد بعد أن خاب ليلة الهجرة.

أولم يندموا أن لم يقتلوا علياً ليلة طالته سيوفهم ورماحهم وهو في فراش الرسول. لقد انقلبت مصارع القتلى على يد علي سعاراً يؤجج الحقد في صدورهم.

ولقد هموا بما لم ينالوا؛ فقد نصر الله دينه..

ولكن نار الحقد ستكمن كيداً خفياً يتوقون لرؤية قطافه.. ولو بعد حين.

لقد حملوا الحقد سنين ونشّأوا أولادهم على المقت صغاراً ليناصبوا العداء كباراً.

ولئن أرغمت سيوف الحق اليوم أنوفهم.. فسيوف الكيد والبغي مسلولة بعد أن يغطوها بإسلامهم.

سيهزم الجمع ويولون الدبر

لقد وعد الله المسلمين بالفوز بإحدى الطائفتين، النفير والنصر على المشركين أو العير وهي القافلة التي عليها أبو سفيان.

إنه امتحان إلهي لهم، فهوت نفوسهم إلى الغنائم.

فعاتبهم الله بقوله: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم..﴾.

فالله يريدها نصراً لدينه وملحمة وهم يريدونها نيلاً للقافلة ومغنمة.

والله يريد أن يحق الحق بكلماته بكسر شوكة المشركين وفل حدهم واستئصال شأفتهم وهم يميلون إلى عرض هذا الأدنى.

وأوصى النبي أصحابه: «إن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً لا حاجة لنا بقتلهم؛ فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله»[1]. وذكر منهم عمه العباس.

وكان المشركون كما قال لهم الرسول ﷺ:

«هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ أكبادها»[2].

فالشرك لا يحمل للإسلام إلا كرهاً حتى الموت.

فما عسى أن يفل حده!

اللهم أنجز لي ما وعدتني.

هكذا دعا الرسول..

ويسقط رداؤه عن منكبيه، فيأتي أبو بكر فيلقيه على منكبيه، ويقول له: «يا نبي الله.. كفاك من شدة.. ربك سينجز لك ما وعدك»[3].

ويخرج للبراز عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد. فيخرج له عوف ومعوذ ابنا الحارث وعبد الله بن رواحة[4]. فيعرضون عن مناجزتهم وينادي مناديهم: «يا

(١) تاريخ الطبري ١/٣/ ١٣٠١- ١٣٠٢.
(٢) شرح النهج: ٣/٣٤٨.
(٣) صحيح مسلم: ج ٥/١٥٦- ١٥٧ مطبوعات صبيح - ميدان الأزهر مصر.
(٤) تاريخ الطبري- أعلاه.

محمد! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا».

فيقول الرسول وهو يدفع أهل بيته من بني عبد المطلب: «يا بني هاشم قوموا قاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله»[1].

فتى بدر

وتنهض فروع شجرة الطيب: حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله[2].. وكذلك علي لم يمهل الوليد أن قتله.

واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذفغا عليه فقتلاه. واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله ومخها يسيل..

فيقول للرسول ﷺ [3] «ألست شهيداً يا رسول الله». فبشره بالجنة: «بلى».

يقول عبد الحميد جودة السحار[4]: «وراح علي بن أبي طالب يفعل بقريش الأفاعيل، فما من رهط، من بيوت شرف قريش؛ إلا وقد قتل منه رئيساً..». وبعد أن سمى من القتلى تسعة عشر منهم قال في علي: «فكان عليه السلام، فتى بدر».

يقول السحار: «وكان حمزة أسد الله، وأسد رسوله يمشي إلى الكفار وقد أطل من سيفه المنون»..

«فقد قتل سيدهم عتبة بن ربيعة، وفارسهم عقيل بن الأسود بن المطلب، وأبا قيس الفاكه بن المغيرة، والأسود بن عبد الأسد. إن صوته يجلجل بعد كل ضربة:

(١) ابن سعد الطبقات-٢/ ١٧.
(٢) تاريخ الطبري: القسم الأول -٣-١٣١٧-١٣١٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) السيرة النبوية: ج١٢ص ٦٥ طبع مصر.

خذها وأنا ابن عبد المطلب، فتنخلع لها القلوب»[1].

«ووضعت الحرب أوزارها؛ فإذا الناس ثلاث فرق».

فرقة قامت عند خيمة رسول الله..

وفرقة أغارت على النهب تنهب..

وفرقة طلبت العدو فأسروا وغنموا»[2].

ويقول الشرقاوي: «وانصرف من بقي من قريش إلى مكة وهم يشعرون أن يوم قريش قد دنا، وأن جماعة فيها أسود من طراز حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب لن تغلب على أمرها أبداً»[3].

قتلى بـــدر

لقد قتل علي نصف قتلى بدر[4]، وقتل حمزة من ذكر. ويقبلان على رسول الله وقد أشرق الفرح في الوجوه، فإذا هو يقول: «من له علم بنوفل بن خويلد»؟

فقال علي: أنا قتلته.

فيكبر رسول الله ويقول: الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه.

ويذكر ابن أبي الحديد في قتلى بدر: «قتل علي عليه السلام نصفهم وقتل المسلمون والملائكة النصف الآخر».

وينقل عن الواقدي أن علياً قتل العاص بن سعيد بن العاص وعامر بن عبد الله والحارث بن زمعة بن الأسود وعقيل بن الأسود والنضر بن الحارث وزيد بن مليص وعمير بن عثمان وأبو قيس بن الوليد (أخوه خالد) ومسعود بن أبي منية وعبد الله بن أبي رفاعة وحاجز بن السائب وأخاه عويمر وأوس بن المغيرة والعاص بن منبه ومنبه

(١) المرجع السابق: ص ٦٦.
(٢) المرجع السابق: ص ٧٠.
(٣) الشرقاوي محمود، أهل البيت ص ٢٧-٢٨.
(٤) الواقدي المغازي، ١/ ١٥٢.

ونبيه ابني الحجاج[1].

وهزم الجمع وولوا الدبر

لقد قال قائل قبل بدر: أي جمع هذا الذي سيهزم.. قال ذلك وهو يرى أن ما بالمسلمين من قلة في العدد والعدة لا يشبههم غير الهوان، وروي أن القائل هو عمر[2].

وعن محمد بن إسحق[3]: قال عمر مشيراً على الرسول ﷺ بشأن الأسرى:

قدم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك..

وقدم عقيلاً إلى أخيه يضرب عنقه..

وقدم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله.

فكره رسول الله ذلك ولم يعجبه.

الفدية أم القتل

ولما رأى المسلمون أخذ الفدية وأن يعلّم الأسرى الأميين منهم؛ رغم أن الرسول حذرهم من مغبة ذلك وأنه يؤدي في لقائهم القابل مع عدوهم أن يقتل من المسلمين بعدد الأسرى. قالوا إنهم بذلك يكونون قد كسبوا الشهادة والمغنم كليهما.

يروي ابن أبي الحديد في ذلك عن الواقدي أن الرسول ﷺ قال: «هذا جبريل يخيركم في الأسرى بين أن تضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد منكم قابلاً عدتهم» فيقول: «لو كان هذا الحديث صحيحاً لما عوتبوا فقيل لهم: ﴿**ما**

(١) عن البلاذري، ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/ ٣٥٧ و٣٥٨.
(٢) يراجع شرح النهج وكتب السيرة.
(٣) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/ ٣٤٨إلى ٣٥٠.

كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾. ثم يقول:

«إذا كان خيَّرهم فقد أباحهم أخذ الفداء وأخبرهم أنه حسن فلا يجوز أن ينكره عليهم ويقول إنه قبيح!»[1].

أرسل الأسرى إلى أبي بكر وعمر ينشدون العفو وعدم القتل. فذهب أبو بكر إلى الرسول يلينه أن يمن عليهم والرسول ﷺ قد سكت فلم يجبه[2].

فجاء عمر فقال: «يا رسول الله ما ننتظر بهم اضرب أعناقهم».

فعاود أبو بكر مقالته مرة ومرة وكذلك فعل عمر والرسول لا يجيب. ثم قام فسأل الناس.

فأين المال

وطلب الرسول ﷺ من العباس أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيلاً ونوفلاً وحليفه عقبة؛ فأجاب: «يا رسول الله إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني».

قال ﷺ للعباس: «الله أعلم بإسلامك إن يك ما قلت حقاً فإن الله يجزيك به وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافتد نفسك».

فلما ادعى العباس أنه لا يملك الفداء قال له الرسول ﷺ:

«فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجت؛ عند أم الفضل وليس معكما أحـد..».

فقال العباس: والذي بعثك بالحق يا رسول الله ما علم بهذا أحد غيري وغيرها وإني لأعلم أنك رسول الله»، ثم فدى[3].

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/ ٣٤٨إلى ٣٥٠.
(٢) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/ ٣٤٨إلى ٣٥٠.
(٣) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/ ٣٤٨إلى ٣٥٠.

الزهراء تزف إلى علي؛ قضاء إلهي

لم تكن بدر غزوة مغنم لعلي وهو الذي تسبقه كفه إلى البذل وتنبو عن الإمساك، وقد آثر أن يأكل من عمل يده في الزراعة في المدينة على أن يكون ضيفاً على الأنصار..

وحتى حين بلغت ثروته أربعة دراهم كره أن يستبقيها، وسارع إلى إنفاقها فكان أن نزلت آية خلدت صنعه: ﴿**الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية..**﴾.

وحتى حين يفكر بالزواج لم يكن يقبض يده ليثرى ليحظى بزوج تكتحل بها عيناه..

فالكرم سجية. وها هو ذا يفكر بطلب فاطمة؛ بضعة الرسول ﷺ أم أبيها وقد جمعت من حسب أبيها ومكارم دينها وأخلاقها ما جعلها هدفاً لطلب الكثيرين.. فهل يحظى بأن تكون له زوجة.. وهل سيقبل به الرسول ﷺ زوجاً لها؟.

الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ـ زواج الزهراء

لقد طلبها أبو بكر.. فكان الجواب: انتظر بها القضاء..

ثم طلبها عمر.. فنال الجواب نفسه: انتظر بها القضاء..

لقد كلّما رسول الله ﷺ فاعتذر في رفق[1] يحمل الرد الصريح ويقطع باب الجدل والإلحاح. ولكن أحد الصحابة أشار على علي بالذهاب إلى رسول الله ليذكر عنده الزهراء فقال:

ـ «بعد أبي بكر وبعد عمر!».

ـ «نعم ـ فإن لك عليهما ـ واللهـ لسابقة» ثم أردف مؤكداً:

«لأنت أول الناس إسلاماً، وأقربهم من رسول الله رحماً».

ويرحب به محمد ﷺ باسماً: «ما حاجة ابن أبي طالب».

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى.

«ذكرت فاطمة يا رسول الله».

«مرحباً وأهلاً». وسُئلت ابنة خير الخلق. فحمدت الله؛ ستزف إلى خير الخلق بعد أبيها. وباع علي فيئه من بدر ـ وهي درع أصابها ـ بدراهم دفعها إلى رسول الله مهراً لابنته.

وأرسل النبي ﷺ بلالاً ليشتري طيباً ببعض الصداق وأرسل أم سلمة لشراء حوائج العروس. وأقام ﷺ حفلاً دعا إليه الأهل وثلة من المهاجرين والأنصار ثم خطب فيهم وختم حديثه بقوله:

«إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي وأشهدكم أني زوجت فاطمة من علي، على أربع مائة مثقال فضة، إن رضي علي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة..».

لقد أراد الله أن يقترن الطيب بالطيب ليكون للذرية من الطيب ما تنال به شرف التطهير الإلهي. ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾. وما كان ذلك ليتم إلا بزواج فاطمة من علي؛ أَوَهل كان من الممكن أن تنجب الزهراء من يباهي الحسن والحسين لو كان الأمر غير ذلك! وهل كانت تصح الصلاة على آل محمد بعد محمد عند ذاك!

وطرق الرسول ﷺ بيت العروسين ففتحت له أم أيمن فقال:

ـ أثم أخي

ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله!... فمن أخوك؟

ـ علي بن أبي طالب.

ـ وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك؟

ـ هو ذلك يا أم أيمن.

وطلب رسول الله ماء فتوضأ منه ونثر الماء بيده الشريفة على العروسين وهو يقول:

«اللهم بارك فيهما.. وبارك عليهما.. وبارك لهما في نسليهما..».

ونعم العروسان بما نالا من كرامة؛ فالرسول مستجاب الدعاء وهو الذي يقول: «فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها ويؤذيني ما آذاها». ويقول عنها أنها أم أبيها.

وفي سنن الترمذي قال ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1]. لم قال ﷺ ذلك.. هل سيكون من أمته من يعادي أهل البيت ومن يذبحهم. ستكشف الأيام ما كمن في كلامه ﷺ.

ويودع الرسول العروسين ويقول لعلي:

«والله ما ألوت أن زوّجتك خير أهلي». وقال لابنته: «زوجتك خير أمتي».

ولم يطل أن يطيق الرسول بعد بيت ابنته عنه، فقال لها:

«إني أريد أن أحولك إلي». ثم كلم حارثة بن النعمان ـ وله بيت بجوار بيت النبي ـ ليحول بيته فقال له ﷺ: «قد تحول حارثة عنا حتى استحييت منه».

ويأتي حارثة الذي كان يحمل للرسول حباً يفوق حبه لنفسه فيقول: «يا رسول الله، إنه بلغني أنك تحول فاطمة إليك، وهذه منازلي وهي أسقب بيوت بني النجار بك. وإنما أنا ومالي لله ولرسوله. والله يا رسول الله المال الذي تأخذه مني أحب إلي من الذي تدع». ومن مثل حارثة، وهل يستوي حارثة في حبه للرسول وأهل بيته مع من يناصبهم العداء أو يقاتلهم أو يسبيهم؟ وما التأكيد على المودة في القربى إلاّ بيان لما سيظهر من الناس في عداوتهم. ليتهم تحروا رضا الله وهم يتذرعون الذرائع لتبرير ما حدث.

لقد كان المكيال الذي قيس به الزواج هو الإيمان فأكثر الرجال إيماناً أحق

(١) سنن الترمذي ٥ /كتاب المناقب ٣٧٨٦/٦٣٣ والصواعق المحرقة باب ١١ فصل ١٤٩/١.

بأكثر النساء إيماناً فالكفء هو ذو الرصيد الأعلى من التقوى لا صاحب الرصيد المالي الأكثر. لم يكن في عين أي منهما الرغبة في قصر منيف أو مال وفير.. أو جاه عظيم.. أو سطوة وطول.. كان يحلب شاته، ويخصف نعله حتى أشار إليه ﷺ مرة بأنه خاصف النعل.

ومن يفعل مثل علي.. ومن يرضى من العيش بشظفه ويده على أموال لا يصده عنها راد.. ومن لا يفتن بالثياب الفاخرة ووسائل النقل الفارهة والحياة المترفة.. ولكن من يقتدي بعلي.. وهو الإمام في كل الأمور.

بنت رسول الله وبنت عدو الله

ويرسل بنو المغيرة إلى علي ليزوجوه ابنتهم؛ وكان ذلك بعد فتح مكة وإسلام أهلها طوعاً وكرهاً[1]؛ ولا غضاضة على علي في ذلك. إلا أنه إن كان الخبر صحيحاً، فإنه ﷺ لما رأى ابنته قد غارت وأدركها ما يدرك النساء كلّم علياً في ذلك كما يستثبت الوالد رأي الولد[2].

وروى أبو هريرة أنه ﷺ خطب على المنبر وقال: «لا ها الله لا تجتمع ابنة ولي الله وابنة عدو الله أبي جهل». ولكن هل من شيم النبي أن يعير الناس على المنبر فكيف يعير صهره وإذا كانت بنت أبي جهل مسلمة فهل يصح النيل منها لكفر أبيها.

وقد نقل ابن أبي الحديد: «أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة عن علي».

ويذكر ابن أبي الحديد في ذلك ما نصه[3]: «.. فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير..» ويضيف ابن أبي الحديد:

«وأبو هريرة غير مرضي الرواية ضربه عمر بالدرة وقال: قد أكثرت من الرواية

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/ ٣٥٩.
(٢) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣/ ٣٥٨.
(٣) ابن أبي الحديد في شرح النهج /٣/ ٣٦٠.

وأحرى بك أن تكون كاذباً على رسول الله ﷺ».

وقال أبو حنيفة: «والصحابة كلهم عدول ما عدا رجالاً ثم عد منهم أبا هريرة».

وجاء شاب إلى أبي هريرة عندما قدم إلى الكوفة مع معاوية فقال:

«يا أبا هريرة أنشدك الله أسمعت من رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

فقال: اللهم نعم

فقال: «فأشهد بالله لقد واليت عدوه وعاديت وليه»، ثم قام عنه.

أُحد: أُعل هبل.. الله أعلى وأجلّ

وانفجر بركان الضغائن في أحد. فزمام مظاهر القوة يجب أن يكون لقريش، قد تقبل قريش أن يكون محمد طريداً من مكة، ولكنها لا تقبل أن يكون له الاستعلاء في القوة.. وقد تغضي عن بطولة فردية لعلي وحمزة، أما أن تكون لمحمد صولة ودولة فلا..

ويسعر أبو سفيان أحقاد الرجال..

وتوغر هند زوجه صدور النساء فتحشد الصفوف لقتال محمد ﷺ..

ويقبل أبو سفيان على حملة اللواء ويقول: «يا بني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا.»...

فيسأله طلحة بن أبي طلحة: «وما ترى يا أبا حنظلة». فيجيب:

أرى إما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه..

وأجلس النبي ﷺ على الجبل جيشاً من الرماة..

وأمّر عليهم عبد الله بن جبير وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا.

ويقسم طلحة ـ وقد ثارت فيه حمية بني عبدالدار ـ أن يعزوا اللواء بالنصر ولكن يا له من نصر!

إذ كما برز علي وحمزة للوليد بن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة في بدر، فقد برزا لطلحة وأخيه عثمان.

ويلقى طلحة مصرعه على يد علي بن أبي طالب.

ويجندل أخوه عثمان ببسالة حمزة عم علي.

وأصاب علي ثالث الأخوة من بني عبد الدار، ولكنه أنقذ نفسه بكشف عورته[1] قبل أن يجهز عليه علي.. إذ يشيح عنه تعففاً وتكرماً.

وكانت الهزيمة لقريش قاصمة وكان علي هو الذي قتل حملة اللواء؛ وكانوا تسعة رجال وتاسعهم عبدهم[2]. وحمل بذلك نصراً مؤزراً للمسلمين فولى المشركون الأدبار.

وهربت النساء يركضن في الجبل وقد رفعن عن سوقهن فبدت خلاخلهن.

فصاح الرماة لينالوا كما نال أصحابهم: الغنيمة الغنيمة.

فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا!

ولكنهم اندفعوا نحو الغنيمة غير آبهين لتحذير نبيهم ونهي آمرهم؛ فكشفوا ظهور المسلمين وهم غافلون عن عظيم ما ارتكبوه..

فالتف عليهم خالد بن الوليد وأعمل فيهم القتل.

وتفشت في المسلمين روح الهزيمة..

وبدأوا ينكصون على أعقابهم وهم يولون الدبر.

وتكشفوا عن نبيهم وتركوه هدفاً لنبال الكفار..

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٣٤.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ١٣٤.

وازدادت البلبلة.. حين سمعوا منادياً يقول..

قتل محمد..

وتبعثر أصحاب محمد..

وترك أكثرهم موقعه في حمايته ﷺ..

وبدأوا يفكرون بوضع أسلحتهم..

ومنهم من حدثته نفسه باللحاق بقريش لطلب الأمان..

ويبقى علي بن أبي طالب المثل الأول يتمثل الإسلام.. والالتزام به دون أن يحيد قيد أنملة عن أوامر ونواهي الله ورسوله. فهو الأول طبقاً لمصطلحات العصر في مصطلحات الجودة والنوعية. وإذا كان الإسلام كما أنزله الله هو ما يجب تطبيقه؛ فأي عذر لمن يخالف وقد دخل في عهد مع الله بقبوله الإسلام وقوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله!.

عجبت الملائكة من مواساة علي

ولم يبق معه ﷺ إلا علي بن أبي طالب وأبو دجانة وسهل بن حنيف. وحامي هو عن نفسه الشريفة[1]. وعن عبد الله بن مسعود قال:

ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا؛ حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة.

ويروي سيد قطب الهزيمة فيقول: «ولما انهزم الناس، لم ينهزم أنس بن النضر (رض) وانتهى إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله[2] في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا قتل رسول الله ﷺ. قال فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله.. ثم استقبل

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم في تحقيق نهج البلاغة ١٥/٢٩ طبعة ٢/٦٧.
(٢) الطبري ٣/١/١٤٠٦.

المشركين، ولقي سعد بن معاذ فقال: واهاً لريح الجنة إني أجدها دون أحد.. فقاتل حتى قتل»[1].

ويروي أنس بن مالك أن عمه يعني أنس بن النضر غاب عن بدر؛ فقال غبت عن أول قتال النبي ﷺ؛ لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرينّ الله ما أجد. فلقي يوم أحد فهُزم الناس؛ فقال اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني المسلمين؛ وأبوء إليك مما جاء به المشركون. فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال:

أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد فمضى فقتل.

وقتل مصعب بن عمير دون اللواء والناس ينهزمون.

وتكثر كتائب المشركين حول الرسول منهم من بني كنانة وأربعة من بني سفيان بن عوف. فيقول ﷺ وقد تفرق عنه صحبه: «يا علي اكفني هذه الكتيبة».

فحمل عليها، وإنها لتقارب خمسين فارساً. فما زال يضرب بالسيف حتى تتفرق عنه؛ ثم تجتمع عليه هكذا مراراً..

حتى قتل بني سفيان الأربعة وتمام العشرة منها ممن لا يعرف بأسمائهم فقال جبريل[2] عليه السلام لرسول الله ﷺ:

«يا محمد إن هذه المواساة لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى».

فقال ﷺ: «ما يمنعه وهو مني وأنا منه»[3].

حمزة ليثي وعلي صقري

وانتشت هند بنشوة النصر بعد أن كانت تعطي المنهزمين ميلاً ومكحلة معيرة إياهم لفرارهم بأنهم نسوة لا رجال.. فليشف وحشي غليل صدرها. وكان وحشي مملوكاً لجبير بن مطعم وقد كان جبير قال له:

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ٢/٥٦ طبعة ٧ دار إحياء التراث.
(٢) تاريخ الطبري ج ١٤/٢٤١ وسيرة ابن هشام ٣/١٠٦.
(٣) تاريخ الطبري ج ١٤/٢٤١ وسيرة ابن هشام ٣/١٠٦.

إن قتلت محمداً جعلنا لك أعنة الخيل وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة كلها سود الحدق وإن أنت قتلت حمزة فأنت حر.

فقال وحشي: أما محمد فعليه حافظ من الله لا يخلص إليه أحد.

وأما علي ما برز إليه أحد إلا قتله وأما حمزة فرجل شجاع وعسى أن أصادفه فأقتله.

وصارت هند كلما تهيأ وحشي أو مرت به قالت: إيهاً أبا دسمة اشف واستشف.

فكمن خلف صخرة وكان حمزة حمل على قوم من المشركين. فلما رجع من حملته ومر بوحشي؛ فضربه في ثنّته فأصابه.

فخرجت الحربة من بين وركيه من إليته[1] فسقط ميتاً رحمه الله ورضي عنه.

ثم بقرت هند عن كبد حمزة فلاكتها ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

وشفيت نفس أبي سفيان بفعلْ زوجته، وأسرع شامتاً إلى الجسد الذي قتل الشجعان وفتك به الغدر وقال له:

«يا أبا عمارة.. دار الدهر واشتفت منكم نفسي..».

ولم يكتف بل ضرب شدق حمزة برمحه وهو يقول: «ذق عقق.. ذق عقق».

ويشاهد الحليس أبا سفيان وهو يمثل بحمزة فيذهل من هول ما يشاهد فيقول له:

سيد قريش يصنع بابن عمه ما أرى.. طمّاً.

فيعود إلى مكره ويتوسل إلى الحليس:

اكتمها عني، فقد كانت زلة..

ولقد ورث أولاده مثل ذلك وشراً من ذلك..

فما استحى بفعله سيكون مفخرة لورثته..

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٤٩٥.

وسيزهو يزيد بمحاربة دين النبي وقتل عترته..

وسينكت بقضيب في يده ثنايا الحسين في فم كان رسول الله يقبله.

ثم علت هند على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر ... ولا أخي وعمه وبكري

شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفيتَ وحشي غليل صدري

فشكر وحشي على عمري ... حتى ترمّ أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن عبد المطلب فقالت:

خزيت في بدر وبعد بدر ... يا بنت وقاع عظيم الكفر

بكل قطاع حسام يفري ... حمزة ليثي وعلي صقري[1]

ونادى أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد!

فقال ﷺ: لا تجيبوه.

فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة!

قال: لا تجيبوه. فقال:

أفي القوم ابن الخطاب!

فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا.

فلم يملك عمر نفسه فقال له: كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يحزنك.

قال أبو سفيان: أعل هبل.

فقال النبي ﷺ: أجيبوه.

قالوا: ما نقول. قال: قولوا الله أعلى وأجل.

قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

(١) تفسير القرطبي ٤/ ١٨٧ - ١٨٨.

فقال النبي ﷺ : أجيبوه.

قالوا: ما نقول.

قال: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم.

قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال.

فأجابه منادي الرسول أن لا سواء فقتلاكم في النار يعذبون وقتلانا في الجنة ينعمون.

قل هو من عند أنفسكم

ونالوا عتابه تعالى بقوله: **﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد﴾** في الجبل هاربين من أعدائكم من الخوف والرعب **﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾** وقد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة[1].

لقد كان نصر بدر منعة للإسلام وترافق المد في التفوق العسكري مع المد في انتشار الدعوة، وهذا ما كان يرنو إليه الرسول ﷺ. فالناس يزهون بالنصر ويلوذون بالمنتصر فكيف إذا كان النصر للحق؛ فالزهو زهوان واحد للحق وواحد للنصر. وكم هم قلة أولئك الذين يكونون مع الحق في كافة الأحوال. وكم هم كثرة أولئك الذين يميلون إلى الباطل، إلى المنتصر ولو كان مبطلاً وفي معركة أحد شواهد لا تخفى. لقد زادت قوة الإسلام بعد الهجرة، وازداد عدد الذين أسلموا وهم يرون تصاغر قريش أمام عظمة الإسلام. فالحق أصبح قوياً ليذل شوكة المستكبرين القرشيين وينصر المستضعفين ويعزهم.

ولكن المد في صراع القوى انكفأ بعد مخالفة المسلمين لنبيهم في أحد، فتزلزل إيمان من تزلزل. لقد جهلوا أن الانضواء تحت راية الإسلام ليس سبباً كاملاً مستوجباً للنصر. إذ لا نصر بلا عدة ولا عدة بلا سواعد؛ فالإمداد الغيبي ونزول الملائكة لا يناله إلا من نالوا خصلتي الصبر والفقه. ولو نصر الله المسلمين في أحد مع مخالفتهم الرسول؛ لكان الإذعان والعصيان سيّان؛ وهذا مما لا يمكن أن يكون كما تدل التربية القرآنية.

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤١٣ - ٤١٥.

وفي تفسير ابن كثير - وفي القرطبي مثله - عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء. فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه. وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله **﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾** بأخذكم الفداء وهكذا رواه الإمام أحمد.

وستلد الأيام مثل أحد، مع الرسول وبعده. وستنجب الأحداث الكثير من أمثال الذين دعتهم زلزلة إيمانهم عند سماع خبر موت النبي إلى ترك الحق والقول بمثل قول القائل «من يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان». وقليل هم الذين يماثلون خيار الصحابة من أمثال النضر بن مالك الذين يثبتون على الحق ويقولون لغيرهم:

«موتوا على ما مات عليه محمد». وكان منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

الخندق: برز الإيمان كله إلى الشرك كله

وتواطأ الشرك كله لإطفاء نور الله.. وإذا لم تكن أُحد قاصمة للمسلمين فلتكن هذه معركتهم الأخيرة.. وتعقد قريش وأبو سفيانها مع أحزاب الشرك واليهود حلف العدوان على دولة الإسلام في المدينة، وهم يمنون أنفسهم بنصر مؤزر.

وليس للمسلمين أمام حشودهم إلا الموت أو أن يسلموا أنفسهم للمشركين عن يد وهم صاغرون.. وستكون ذمة الإسلام سلباً ونهباً رخيصاً لمطامعهم.

وصدهم خندق حفره المسلمون برأي سلمان الفارسي؛ وهذا أمر لم يعهدوه من قبل. كانوا يمنون أنفسهم بنصر سريع في معركة غير متكافئة.. ولكن أشرعتهم مالت بهم.. فليس هذا في حسبانهم.. ما العمل؟ فليكن التراشق بالنبال.. ولكن هذا أمر يطول.. ويثبط همم الفرسان.. فليقتحموا الخندق من نقاط سهلة العبور. ويسارع جمع إلى ذلك، ولكن سيف علي بن أبي طالب بدد آمالهم كما ألهب الحماس في نفوس المسلمين..

وينجح في القفز فارس من المشركين إليهم.. فيرتدون جميعهم على أعقابهم.. إنه عمرو بن عبد ود العامري. إنه يعدل ألفاً من الأبطال؛ يصيح فيهم

وهو يختال بفرسه أمام ناظريهم:

ـ «يا رجال محمد»، هل من مبارز..؟.. جيش كامل لم يتصدَّ له منه أحد...؟!

ـ «ألا رجل يبارز؟».. ويتيه متفاخراً عليهم، وقد تحداهم جميعاً من مهاجرين وأنصار.. أوليس لديهم أبطال مثله!.. أوليس فيهم شجعان أولو بأس! وإن لم يكن ذلك أوليس فيهم من يسارع إلى الجنة.

ـ «أنا له يا رسول الله»..... ما كان قائلها غير علي بن أبي طالب متوسلاً إلى الرسول ﷺ أن يأذن له.

ويضن به الرسول: «إنه عمرو اجلس».. أو لعله لا يضن به بل ليظهر لأصحابه وجيشه أجمع وليبين حتى لجيش المشركين الذين قد يذعن منهم مذعن إلى الإسلام بعد ذلك.. أن علياً وحده وقف في وجه الشرك كافة. وأن من يحارب علياً كمن يقف في معسكر الشرك.

ويتهكّم عمرو ساخراً: أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إذا قتلتم؟.. أفلا يريدها رجل منكم؟ أما منكم من يقدم!... وكانت هذه حجة يقيمها مشرك على كافة الصحابة والمهاجرين والأنصار.

ـ «أنا له يا رسول الله...» ما كان لغير علي أن يكون القول.

فاحفظ عليَّ اليوم علياً

لقد أخاف الموت المرتقب ضعف النفوس، فأثمر حب الحياة تقاعساً عن النهوض.. مع أنه لا حياة إلا بالقتال؛ وفي صحائف المعارك شواهد، وفي آيات القرآن بينات.

وتطير القلوب هلعاً وها هو عمرو يثلث النداء ويكرره. المسلمون جميعاً قد أحجموا وعلي وحده يرجو الرسول:

ـ ائذن لي يا رسول الله.

ـ إنه عمرو!

ـ وإن كان!

فقلده رسول الله سيفه وعممه بعمامته وقال امض لشأنك[١].

فما زال الرسول ﷺ رافعاً يديه مقحماً رأسه نحو السماء داعياً ربه قائلاً: «اللهم إنك أخذت مني عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد فاحفظ عليّ اليوم علياً. رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين»[٢].

ـ من أنت؟

ـ علي.

ـ من عبد مناف!

ـ ابن أبي طالب

وتثور شهامة الفارس: ابن أخي!.. فقد كان أبوك لي صديقاً..

ـ «يا عمرو» ويمهد علي لدعوته إلى الإسلام قبل نزاله..».

فالإسلام دعوة للقلوب، لتذعن للحق.. فمن أذعن كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.. كواحد منهم. ويجيب عمرو:

ـ أي ابن أخي؟

ـ إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلال ثلاث إلا أجبته إلى واحدة...

ـ نعم هذا عهدي.

ـ فإني أدعوك إلى الإسلام.

ـ وأترك دين آبائي؟.. دع هذا عنك.

ـ أن أكف يدي عنك فلا أقتلك، وترجع.

ما لهذا الفتى يتحدث من علٍ.. لقد شمخ في بطولته، وسما في إيمانه،

(١) ابن أبي الحديد شرح النهج ٤/ ٣٤٥.
(٢) ابن أبي الحديد شرح النهج ٤/ ٣٤٥.

وتحدث بقوة المدل القادر . . فهو يتكرم على عمرو بأن يسمح له بأن يرجع .

ـ تكف عني وأرجع؟ إذن تتحدث العرب بفراري!؟

ـ فإني أدعوك إلى النزال؟

ـ ولم يا ابن أخي . . غيرك من أعمامك من هو أسن منك، وإني أكره أن أهريق دمك .

ـ ولكنني والله لا أكره أن أهريق دمك .

لقد دعاه علي إلى خير الدنيا و الآخرة بدعوة الإسلام ليكون أخاً له . . أما وقد أبى فإنه قد من عليه بأن يرجع . ولكنه يأبى الثانية . . ويصر على الثالثة . . فليكن له ما أراد .

ويهوي عمرو بسيفه على رأس علي فيتلقاه بدرقته فقدت ووصل الحد إلى رأسه فشجه . . وتسايفا . . أمام جيشين عقد الذهول ألسنتهم . .

أوهل يمكن لهذا الفتى أن يصمد أمام ضربات فارس العرب . . .

ويهوي علي بسيفه على عمرو فيقد عاتقه : وثار النقع وحجبت الرؤية فبلغت القلوب الحناجر . ويدوي صوت علي بالتهليل ودوت معه هتافات من كان مع الرسول الذين أنقذهم علي من ذل عدم البراز لعمرو . .

ـ الله أكبر . .

هل كان في حسبان عمرو بن ود ما حدث؟ . لم يكن هذا في حسبانه لو كان الأمر مع غير علي! . لقد تمنى أن لا يكون علياً من يبارزه! . ولما رأى أن لا مندوحة له من ذلك . . كان له أن يعيد ظنه بعاقبة أمره . . ولعله علم ذلك! . أوَلم ينحر فرسه قبل النزال لأن العرب كانت تأنف أن يركب فرسها غيرها بعد الموت!؟

إنه علي بن أبي طالب الذي ما صارع أحداً إلا صرعه، وما حارب أحداً إلا أورده النار .

في بدر كان علي وحمزة فرسان الوغى . .

وفي أحد كان سيف علي وحمزة . . وبعد أن قتل حمزة غيلة . . كان علي حامياً للرسول مع قلة من صحبه . وفي الخندق كان علي جيشاً لوحده .

برز الإيمان كله ليصرع الشرك . .

وكان سيف علي وحده حامل النصر للإسلام والعزة للمسلمين .

وقد قال ابن أبي الحديد في خرجته : «فإنها أجلّ من أن يقال جليلة وأعظم من أن يقال عظيمة»[١] .

وقال أبو الهذيل وقد سأله سائل أي أعظم منزلة عند الله علي أم أبو بكر[٢]:

«يا ابن أخي . والله لمبارزة علي غمراً يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعتهم كلها، فضلاً عن أبي بكر وحده!» .

وقال حذيفة بن اليمان[٣]: «والذي نفس حذيفة بيده لو وضع جميع أعمال أمة محمد ﷺ في كفة الميزان منذ بعث الله تعالى محمداً إلى يوم الناس هذا ووضع عمل واحدة من أعمال علي في الكفة الأُخرى لرجح على أعمالهم كلها . وقال لربيعة ابن مالك وقد اتهمه بأنه مدح لا يحمل»[٤] يا لكع وكيف لا يحمل؟

وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع! ودعا إلى المبارزة فأحجموا عنه حتى برز إليه علي فقتله[٥] .

إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم

كان علي سيفاً على الباطل فالحق مع علي وعلي مع الحق . . صنوان لا يفترقان . قوله قاطع كسيفه البتار . . لا يخشى في الله لومة لائم . . ومن يكن على صراط مستقيم يهدِه الله بإيمانه، ويفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

وهكذا كان حال علي في قصة الإفك حين رجوع المسلمين من غزوة بني

(١) الى (٥) شرح النهج لابن أبي الحديد ص٣٤٤ .

المصطلق.. فقد تخلفت عائشة لبعض شأنها ففاتتها القافلة دون أن يشعر أحد بتخلفها.. وما لبث الأمر أن قيض الله لها صفوان السلمي. فخلّى لها عن بعيره وذهب بها إلى المدينة..

وأمر عفتها مما لا يرقى إليه الشك. ولكن كان المنافقون بالمرصاد.. يبحثون دائماً عن منفذ للطعن في دين الإسلام ورجالاته. وها قد أتتهم الفرصة سانحة على طبق من ذهب في مسألة عائشة. وبدأوا يأفكون ويكذبون ويشيعون الحديث، بدل أن يقولوا:

هذا إفك مبين ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولم يستطع علي أن يهدأ وهو يرى المنافقين يشيعون الإفك من نادٍ إلى نادٍ؛ وهم يعرّضون ببيت رسول الله وبعائشة. واستشاره الرسول.. وبلا مواربة؛ ولينقذ بيت الرسول من الإفك الذي يلوك تهمة كاذبة كانت فيه عائشة بمكان لا ترقى إليه شبهة أو شك؛ قال كعادته ليقطع لوك الألسن عن الحديث في أمر يخص بيت النبوة:

«يا رسول الله، إن النساء لكثير. وإنك قادر على أن تستخلف.. وسل جاريتها فإنها ستصدقك». ونزلت الآيات ببراءة عائشة أم المؤمنين مع تهديد بقوله تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾. ويذكر البخاري في حديث الإفك قول عائشة لأم مسطح وهي تمشي به؛ وقد عثرت أم مسطح فقالت: «تعس مسطح».

فقالت لها عائشة: «بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً» تقصد أنه صحابي قاتل مع الرسول ﷺ في بدر.

فقالت: «يا هنتاه، ألم تسمعي ما قال؟ فأخبرتني بقوله». وكان أصحاب حديث الإفك من صحابة رسول الله وهم: مِسطَح بن أثاثة، وهو من المهاجرين الأولين، وحسان بن ثابت وهو من الأنصار، وعبد الله بن أُبيّ. وقد جلدهم رسول الله ﷺ جميعاً[1].

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٥٠و مسلم ٤/ ٢١٢٩/ ٢٧٧٠ وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٥٢ والكامل في التاريخ ٢/ ١٩٥ -١٩٩.

ولكن غيرة عائشة من فاطمة وعلي ـ وقد حملا ذرية الرسول دونها ـ قد زادها حب وتفضيل الرسول ﷺ ـ لهما، مع أنه كان من الخير لها أن تحب ما يحب الرسول. فالإيمان والقرآن يأمران بذلك. وكانت تعلم ذلك وتجيب حين يسألها سائل:

«أي الناس أحب إلى رسول الله»؟ قائلة: «فاطمة».

«.. ومن الرجال؟»، فتجيب:

«زوجها».

لقد كان لعلي نصيب في قلب زوجها وبيته ومقالته. كانت تعلم عظم شأنه ورفعة مقامه ولكن حب الرسول له كان يظهر غيرتها. ويزيدها في ذلك حرمان الولد.. وأبناء علي وفاطمة في مهجة الرسول وقلبه.

خيبر: محمد يغزونا! هيهات!

شتان بين من ظنوا أن حصن خيبر وغيره يحميهم ويمنعهم؛ وبين من وعده الله أن يغنمه إياها[1]. فقد أرسل ﷺ أبا بكر؛ ثم ثنى بعمر؛ لقد استعصى الحصن.

فقال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله (كراراً ليس بفرار[2] فتطاول القوم كل يتمنى قصب هذه المرتبة فهي خير الدنيا والآخرة. فدعا ﷺ علياً وهو أرمد فمسح على عينيه ثم قال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك».

هل رغيف الشعير هو الذي فتح باب خيبر

واندفع علي برايته إلى الحصن فخرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل يهودي فطاح ترسه من يده. فما كان منه عليه السلام إلا أن تناول باباً كان عند الحصن فتترس به. ولم يزل يقاتل حتى فتح الله على يديه.

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٦٣٧.
(٢) الواقدي، المغازي ٢/ ٦٣٧.

يقول أبو رافع مولى الرسول ﷺ عن باب الحصن: فقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه[1].

قال من ينكر هذه القوة لعلي: كيف يمكن لمن يأكل خبز الشعير أن تكون له مثل هذه القوة!

غفلوا عن أنه عندما تقترب حديدة من النار تأخذ من حرارة النار ومن طبيعة النار.. والنور لا يعرف إلا بالنور ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور..

ومن حمل الأوامر والأمانة الإلهية التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، رفعه الله درجات وجعل له نوراً يمشي به وقوة يقاتل بها. فالذي يتحرك ليس الشعير بل جزاء الامتثال لأمر الله، ومن هنا مصدر القوة.. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. وليست الدريهمات التي هي ثمن الخاتم الذي تصدق به علي؛ هي ما سبب نزول آية الولاية فيه وهي قوله تعالى:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾، إذ أن هناك من تصدق بالكثير الكثير وهناك من جهز جيش العسرة ولم ينالوا مثل هذه المكرمة. ويقول المفسرون في الآية: وإنما للحصر والقصر، فالولاية محصورة في علي مقصورة عن غيره.

فعندما تصفو بحار النفس وتخلص لله وحده دون أن تعتريها شائبة شرك تصبح مرآة لنور الحق تهوي إليها النجوم، إنها قلوب لا شرقية ولا غربية كمشكاة فيها مصباح يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

والسبيل هو الحديث القدسي الذي يوصل إلى نيل حب الله: ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فمن نال حب الله أصبح الله عينه التي يرى بها وأذنه التي يسمع بها ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها..

عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون.

(١) الواقدي، المغازي ٢/ ٣٥٠.

إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً:

وارتفعت رايات التوحيد على أنقاض أوثان الشرك. ولكن قريشاً بقيت عابدة لأوثانها عاكفة على نيرانها. ولكن ما العمل والرسول ﷺ يقدم مكة حاجاً و ليس لها أن تمنعه.

وكان صلح الحديبية على أن يعود الرسول هذا العام ويحج في الذي يليه. ودخلت بكر في حلف مع قريش. أما خزاعة فقد دخلت مع محمد ﷺ.

وثارت حمية الغدر والشقاق في قريش بعد أن تناهى إليها كثرة المسلمين الذين قضوا نحبهم في مؤتة في قتالهم مع الروم.. فزين لهم الشيطان أن الإسلام لم يعد قوي الجناح ولن يقوى على الدفاع عن نفسه وأحلافه من خزاعة.. فعدا بنو بكر - وهم في حلف قريش - على خزاعة وأصابوا منهم لثأر قديم بينهم وهم متحصنون بالحرم. فأعملوا فيهم السيف هاتكين حرمة البيت، وعهد رسول الله.

وذكر الواقدي وابن أبي الحديد أن أنس بن زميم الدؤلي أنشد هجاءه في رسول الله. فشجه غلام من خزاعة، فأعانت قريش بكر وقتلت عشرين من خزاعة.

وأسرع عمرو بن سالم وعقبه بديل بن ورقاء مع نفر من خزاعة يقصون على الرسول ﷺ غدر قريش وأحلافها؛ ويستنصرونه..

فأجابهم الرسول: «لا نصرت إن لم أنصركم مما أنصر منه نفسي».

ورأت قريش أن عاقبة أمرها في غدرها خسراً وأنها ستذوق وبال نكثها، فأجمعت أن تسلم لأبي سفيان تفوضه في أمرها.. تشد عقدها.. وتزيد مدتها.

وقبل أن يعلم أحد من المسلمين بقدوم أبي سفيان.. قال لهم رسول الله في مسجده:

«كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم، ليشد العقد، ويزيد المدة».

ويطل أبو سفيان ويطلب ذلك:

«يا محمد. إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة»[1].

«ولذلك قدمت يا أبا سفيان؟» فأجاب:

«نعم..».

«فهل كان فيكم حدث؟!» إشارة إلى نكثهم العهد.

وبدل الاعتذار آثر الكذب، وبدل التعوذ بالله تعوذ بالبيت فقال: «معاذ البيت! فنحن على موثقنا وصلحنا يوم الحديبية. لا نغير فيه ولا نبدل».

وتنبه إلى بلاهة حجته.. فإذا لم ينكث.. فلِم يأت طالباً تشديد العهد.

وأنت امرؤ مشرك نجس

وخرج مخذولاً. مقراً لنفسه بخيبة السعي.. ويذهب إلى ابنته ـ أم حبيبة ـ زوج الرسول.. ولكنها تطوي الفراش دونه..

فقال وقد بهت: «عجباً من العجب! أرغبت بهذا الفراش عني أم رغبت بي عنه؟».

«به عنك!».

«ويحك ما تقولين».

«إنه لفراش رسول الله وأنت امرؤ مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه»[2].

«يا بنية.. والذي يحلف به أبو سفيان لقد أصابك بعدي شر».

الإسلام.. هو ما يدعوه أبو سفيان شر؛ فتقول بإباء: «بل هداني الله إلى الإسلام».

ثم راحت تحثه على الإسلام قائلة: «أي أبت كيف يخفى عنك فضل الإسلام

(١) شرح النهج ج٤/ ٢٠٥.
(٢) شرح النهج ج٤/ ٢٠٥.

وأنت سيد قريش وكبيرها.. وتعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر؟».

هل لان قلبه للحق أم أنه أشد قسوة من الحجارة! لقد صاح حانقاً منكراً: «وهذا منك أيضاً؟ يا عجباً! أأترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد؟!».

فقالت بإيمان: «واعجباً ألا تتبعه».

وا سوء صباح قريش

حمل أبو سفيان خيبة السعي إلى قومه بمكة.. وبقي يتربص ثمرة ظلمه..

وها هي نيران في الصحراء تخفي جنداً وجهتها مكة. فهل هي خزاعة أتت لتنتقم؟.

«خزاعة.. أذل وأقل» إنه لا يبالي بنقض العهد إذا كانت لديه أسباب من القوة تقيه ثورة معاهده.. ويقبل عليه العباس قائلاً:

ـ أرأيت يا أبا سفيان؟ هذا رسول الله في الناس.

وصاح كمن لدغته أفعى لدغتين.. لدغة لسماعه رسول الله من محدثه.

ولدغة لأن القادم هو محمد وجيشه.

فصاح مكتئباً: محمد؟

ـ هو والله، وا سوء صباح قريش!.

ـ وما الحيلة يا أبا الفضل؟ إنه يعلم أن الحكم فيهم القتل والسبي بعد نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ.

ـ والله لئن ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك، فقد تلف العقد، فاركب معي في عجز هذه البغلة حتى أمضي بك إليه. فاستأمنه على قومك..

ويسترجع الذكرى في الطريق إلى رسول الله.. ويثور بركان حقده وغلّه مع كل حادثة آذى بها رسول الله أو سعى لإطفاء نور دينه، ويثور كراهة وغيظاً مع كل حادثة لم ينل فيها أربه. ويستشيط غيظاً وهو يرى كلمة الله هي العليا.. أفهل يعفو

محمد عنه.. كم كان يتمنى أن لو كان الموقف معكوساً.. إذن ليفعلن بمحمد الأفاعيل.. ولكن ليكبح غيظه عله ينجو بنفسه ثم أهله وقومه.

وما أن يدخلا معسكر الرسول حتى يصيح به صوت يرعبه:

ـ «أبو سفيان عدو الله». إنه عمر بن الخطاب يعدو نحوه. «الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد».

وسعى عمر إلى رسول الله غير آبه لهمهمة أبي سفيان: تعس ابن الخطاب إنه لأعدى القوم فيقول:

ـ يا رسول الله هذا أبو سفيان أمكن الله منه. فدعني أضرب عنقه.

فيقول العباس: «يا رسول الله إني أجرته».

ووقف أبو سفيان يرقب نزاع الرجلين.. فحياته مرهونة بإقرار الرسول لأحدهما، ثم ينتبه لقول العباس:

«بعض الذي تقول يا بن الخطاب إنك لتعلمن أنه من عبد مناف ولو كان من بني عدي لما قلت ما تقول».

فقال عمر إنك لتعلمن يا أبا الفضل لو كان هو الخطاب لأقولن ما أقول.

هل سيحفظ أبو سفيان للعباس أنه نصره.. أم سينكل هو وأولاده ـ بأولاد أخي العباس ما طالت أيديهم وألسنتهم من النكال فما حل بحمزة ليس ببعيد. والأيام حبلى.

ويسمع رسول الرحمة يقول له: ويحك يا أبا سفيان.. ألم يئن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله.

فقال بدهاء: بأبي أنت وأمي.. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً.

ولم يستطع أن يخفي ما وقر في قلبه مع حذره لما طلب منه النبي ﷺ أن يشهد أنه رسول الله، فقال:

بأبي أنت وأمي!. أما هذه والله إن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

فأسرع إليه العباس قائلاً: «ويحك يا رجل.. أسلم واشهد قبل أن تضرب عنقك» ففعل؛ إذ ليس له غير ذلك إلا القتل. وقال العباس:

«يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر.. فاجعل له شيئاً...».

فأجاب الرسول: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن أغلق بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن».

وفي طريقهما إلى مكة عائدين، يظهر أبو سفيان ما حمل صدره حتى بعد أن أعلن إسلامه:

ـ يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

ـ يا أبا سفيان إنها النبوة..

فالأمر ليس جهاداً لمغنم أو لسلطان بل لرفع كلمة الله. ولكن أبا سفيان يراه ملكاً فهل ينتظر تداوله. وإذا لم يمكنه استلاب النبوة فاستلاب الملك محط الآمال. وتحنق زوجه وتعنفه لإسلامه وهي ترى زهوة الشرك في أهل مكة وتصيح به: «قبحت من طليعة قوم».

فقال لمن أرادوا أن يشرعوا السيوف: «يا معشر قريش مهلاً. هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به».

لم يقل لهم جئتكم بخير الدنيا والنجاة من عذاب أليم في الآخرة؛ بل قال ما قال.. ماذا كان الأمر لو كان لهم قِبَلٌ بمحمد. أترى لو انتصرت قريش هل يكون للمسلمين غير القتل والسبي!. وتقاطعه هند:

«ويلك خسئت».. ويبلغهم أمان الرسول فيضحكوا منه قائلين: «وما تغني دارك!».

وينهض ابنه يزيد رافعاً السلاح في وجوه المسلمين.. فما لبث أن هزم.. وولى.. ونال الحياة بعهد الرسول.. فقد أدخله أبو سفيان داره ليكون بمأمن. لا قتل ولا سبي.

اذهبوا فأنتم الطلقاء

فتحت مكة ومنّ عليهم الرسول: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ولكن هل دخل الإيمان قلوب ساكنيها كما دخل محمد كعبتها؟ لقد أنبأ الله رسوله: **﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون... وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**. وستلد الأيام ما كان من خبرهم، وستكون الحجة عليهم باهرة يوم القيامة. فقد عاشوا في جوار الرسول، ونالوا شرف صحبته ونهلوا من معين علمه وأراهم من آيات ربه وعرفهم الحق دون شوب باطل أو هوى.

ولكن قلّ منهم من أحسن لنفسه بأن زكاها وكثير منهم أوزرها فدساها.

وبرأي فلهاوزن: «لقد كان انتصار الإسلام على مشركي مكة والجزيرة بمثابة انتصار لبني هاشم وخذلان لبني أمية. ولكن بني أمية لم يستسلموا للأمر الواقع. فسرعان ما اعتنقوا الإسلام وركبوا الموجة الصاعدة[1]. وهذه النظرة الجاهلية لا يقرها الإسلام فالله تعالى قال في عم الرسول: **﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾**. ولكن يصح القول أن الإسلام لا يعرف العصبية وكافة العصبيات تحارب الإسلام.

وقد قال ﷺ عند فتح مكة «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبّرها بآبائها. كلكم لآدم وآدم من تراب»[2].

فالذي ينطق بالشهادتين يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وأما ما وقر في قلبه فالله يعلمه. يقول ابن العربي[3]:

قال علماؤنا: إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمناً. وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً. إلا ما كان من الوسوسة الذي لا يقدر على دفعها. وقد بين الله لرسوله ﷺ الحقيقة؛ فقال:

(١) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية ٣٩.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤/ ٢١٢ وعن الواقدي وسيرة ابن هشام ٢/ ٤٠٤.
(٣) في تفسير القرطبي عن ابن العربي.

﴿إن يريدوا خيانتك﴾؛ الآية.

ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم

يا لنبي الرحمة إنه يحمل النور إلى العالم.. والعالم يحمل إليه الظلمات.. هو يدعوهم لما يحييهم.. وهم يريدون أن يثبتوه أو يقتلوه.. هو يحمل إليهم الشفاء لما في الصدور وهم يحملون سمومهم وكيدهم... هو مجاهد في سبيل ربه، يسارع إلى جهاد من تظاهروا عليه، وهم لا يعتبرون بهلاك من سبقهم.

هذه حياته سلسلة لا تنفك عراها من الجهد والجهاد. يجاهد بنفسه وماله مع أهل بيته فكل ما لديه لربه.

ومع أن النصر كان له على أبي سفيان فقد بذل له ولولديه معاوية ويزيد الهبات مع غيرهم من المؤلفة قلوبهم مناً على منّ. فهل سيشكرون له ذلك!

وهذه هوازن تتألف القبائل لتحارب الرسول وقد خشيت أن يكون ظهور الرسول على قريش بمكة زيادة في عز الإسلام.

وعلم محمد ﷺ بتجهزهم فخرج إليهم بعشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين فتح بهم مكة. وزها المسلمون بعددهم وعدتهم، ونسوا أن ما نالوه من سابق انتصارات لم يكن ثمرة عددهم وعدتهم وجهادهم، بل نصر عزيز من الله لرسوله.. فقد قال اليوم قائلهم: «لن نهزم اليوم من قلة».. فاغتروا بجمعهم ونسوا الله وملائكته وقد كان يمدهم بهم مردفين.. فإذا بالدائرة تدور عليهم..

ولم يلبثوا أن فروا أمام شدة هجمات عدوهم فنكصوا على أعقابهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين.

ولم يثبت مع رسول الله إلا قلة قليلة وجلهم من أهل بيته؛ وهم علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر، وأسامة بن زيد وأيمن بن عبيد وهو أيمن بن أم أيمن. وربيعة بن الحارث والفضل بن عباس وقثم بن العباس[1]..

(١) تفسير القرطبي ٨ / ٩٧- ٩٨.

وعلي لا يفارق الرسول ويذود عنه كما لم يفارقه طيلة حياته . .

وقال أبو سفيان لبعض صحبه يظهر ما كمن في صدره :

ـ والذي يحلف به أبو سفيان لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

فقال له جبلة بن الجنيد مزهواً بمقالة صاحبه :

ـ بلى بطل اليوم سحر محمد .

ويعنفه صفوان بن أمية قائلاً : اسكت فض الله فاك!

ونادى رسول الله المسلمين وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين : «أين أيها الناس . . هلموا إليّ . . أنا رسول الله . . » .

فعادوا وقالوا : يا لبيك يا لبيك . فاقتتلوا .

وأخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار . .

ثم قال : انهزموا ورب محمد .

فما هو إلا أن رماهم بحصياته فما ترى منهم إلا كليلاً أو مدبراً[1] .

وكان من الأسباب الظاهرية لما حدث من تخاذل خروج الألفين من الطلقاء الذين أسلموا يوم الفتح .

أن الله بريء من المشركين ورسولُه

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أي بريء منهم أيضاً . ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال : ﴿فإن تبتم﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فهو خير لكم وإن توليتم﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال .

(١) تفسير القرطبي ٨ / ٩٧- ٩٨ .

قال ابن جرير : حدثنا عفان حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر .

فلما بلغ ذا الحليفة قال : «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» .

فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ورواه الترمذي في التفسير عن حماد بن سلمة . وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل، عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ ، دعا النبي ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة . ثم دعاني[1] فقال : أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرَأْه عليهم . فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ فقال : لا ولكن جبريل جاءني فقال : لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك .

ثم رواه ابن جرير[2] قال : نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل علياً فأخذها فلما رجع أبو بكر قال :

ـ نزل فيَّ شيء؟

قال : لا ولكن أُمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي[3] .

فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع :

ـ لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا .

ـ ولا يطوف بالبيت عريان .

ـ ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة .

ـ ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته .

(١) مسند أحمد ٣/ ٢١٢ وفي معتصر المختصر ١/ ١٩٢ .

(٢) وكذلك في فتح الباري ٨/ ٣٢٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٤ وفي العلل المتناهية ٢ / ١٩٤ .

غدير خم: اليوم أكملت لكم دينكم

وكانت حجة الوداع وقال الرسول ﷺ: إني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا.. بهذا الموقف أبداً. وتهتز نفوس المسلمين بما يقوله الرسول.. وبما يقوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾.

ويقول لهم الرسول: «المسلم على المسلم حرام؛ دمه وعرضه وماله».

«لا ترجعوا بعدي كفاراً مضلين يملك بعضكم رقاب بعض». ويقول معلماً الناس إحقاق الحق ولو كان ذا قربى بادئاً بنفسه خوفاً من عذاب أليم: «يا أيها الناس من جلدت له ظهراً فهذا ظهري.. ومن شتمت له عرضاً فهذا عرضي.. ومن أخذت له مالاً فهذا مالي»[1].

وقال: «إني قد خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي»؛ ويروي ابن كثير: «وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبة بغدير خم إن الثقلين كتاب الله وعترتي وإنهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض»[2].

لقد اكتمل الدين بما في دفتي المصحف وعترة الرسول فهذه هي سنة رسول الله[3]. فحلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة.. وليس لأحد كائناً من كان أن يرى غير ما جاء به رسول الله إذ ليس هناك من سنة في الإسلام غير سنة محمد: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به.. هذا هو الإسلام.. لا اجتهاد مع نص وهذه عصمة للمسلمين جميعاً في أمور دنياهم إذ ليس لهم أن يختاروا غير ما اختاره الله ورسوله في كافة أمور دينهم ودنياهم.. فإذا اعتصموا بحبل الله وسنة رسوله ولم يتفرقوا كانت لهم سعادة الدنيا والآخرة وكان لهم

(١) المعجم الأوسط ٣/ ١٠٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١١٤- انظر تفسير آية المودة في القربى.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١١١-١١٢ ومثله في السيرة الحلبية٣/ ٣٣٦.

الفوز ورضى الله. ولكن هل عرفوا حدود الله فلم يتعدوها. أم فيهم من عرفوها فتعدوها؛ أو جهلوا بها فخالفوها. فهم بين مخالف ومقصر.

لقد قام الرسول خطيباً عند غدير خم لثماني عشر ليلة خلت من ذي الحجة وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»[1].

وعن زيد بن أرقم قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقممن ثم قال: كأني قد دعيت فأجبت إني قد خلّفت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض[2]. ثم قال إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ثم أخذ بيدي علي فقال من كنت وليه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[3]. فقيل لزيد:

سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال ما كان في الدوحات رجل إلا رآه بعينه وسمعه بأذنه[4].

يا أبتاه... أجاب رباً دعاه.. يا أبتاه إلى جبريل ننعاه

لقد اشتد مرض الرسول.. وها هم يتتبعون أخباره بلهفة وإشفاق أليس رحمة للعالمين.. أليس رحمة بهم.. وماذا عساهم فاعلين بعده.

ويذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج أنه ﷺ قال: «ابعثوا إلى علي فادعوه»[5].

(١) السنن الكبرى ٥/ ٤٥ وتفسير القرطبي ١/ ٢٦٦.
(٢) اليعقوبي، تاريخ ٢/ ١١١-١١٢ السيرة الحلبية ٣/ ٣٣٦ ومثله قي الذخائر للطبري ٦٧.
(٣) مسند أحمد ٥/ ٣١٧.
(٤) فضائل الصحابة للنسائي ١/ ١٥ وتفسير القرطبي ١/ ٢٦٦ و السنن الكبرى ٥/ ٤٥.
(٥) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣ / ١٩١.

فنفست عائشة فسألت أن يحضر أبوها، ونفست حفصة فسألت أن يحضر أبوها، فحضروا عنده جميعاً.

فقال ﷺ: انصرفوا؛ فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم، فانصرفوا.

وها هم يصلون الصبح خلف أبي بكر فيدخل ﷺ معتمداً على علي بن أبي طالب فيقف ﷺ موقف الإمام ويتم المسلمون الصلاة معه[1].

ويعقب ابن أبي الحديد: وكيف يطابق هذا ما روي عن عائشة قالت: لما عين على أبيها في الصلاة: إن أبي رجل رقيق فمر عمر. وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة.

وكيف يقول مروا أبا بكر ثم يقول عقيبه مروا عمر! لأن هذا نسخ الشيء قبل تقضّي وقت فعله[2]. وها هو يرسل إليهم من يأمرهم بإنفاذ سرية أسامة بن زيد وهي آخر بعثات الرسول وتحت إمرته أبو بكر وعمر بن الخطاب وغيره من بعثات الرسول، ولم يبق بجواره ﷺ إلا علي بن أبي طالب.. وقبل وفاته ﷺ دعا إليه علياً وخلع عليه خاتمه وحمله سيفه هبة منه له.. ولكن من القوم من يتخلف عن سرية أسامة تعللاً بمرض الرسول!.

إن النبي ليهجر

وينطلق العباس مع علي إلى الرسول يعودانه فيقول ﷺ: «ائتوني بدواة و قرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي»؛ فتنازعوا وما ينبغي عند نبي تنازع»[3].

فقال عمر: إن الرجل ليهجر وفي رواية إن رسول الله قد غلبه الوجع.. عندنا كتاب الله حسبنا! وقال آخر بل قربوا يكتب رسول الله فقال ﷺ: قوموا.

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣ / ١٩١.
(٢) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٣ / ١٩١.
(٣) صحيح مسلم، الوصية ١٦٣٧- ٢٥٧ وفي البداية والنهاية ٥/ ٢٠٠٠ وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٩٥٨.

لم لا يريدون له أن يكتب ولا أن يوصي هل كان في الحسبان أن يوصي لعلي تصريحاً؛ فإذا كتب فما أسهل المخالفة بعد قول القائل: قد غلبه الوجع أو إن النبي ليهجر.

وفي الإحكام لابن حزم قال: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قال ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي فقال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط فقال قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع. فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه[1].

لقد قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض والآخر عترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

قال الترمذي: قال رسول الله ﷺ: أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي بحبي.

وقال أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام من دخلها نجا ومن تخلف عنها هلك[2].

«فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة، فإنها كانت قد رفضت من كان بها أشغف منكم»[3].

وتصيح فاطمة وقد فاضت نفسه الشريفة وقد استند على صدر علي:

يا أبتاه.. جنة الخلد مثواه..
يا أبتاه.. عند ذي العرش مأواه.. كان جبريل يغشاه..
يا أبتاه.. لست بعد اليوم أراه.

(١) مسند أحمد ٧ / ٤٢٥ والسنن الكبرى ٣/ ٤٣٤.
(٢) ابن كثير ٤/ ١١٣- ١١٥.
(٣) نهج البلاغة الخطبة ٣٢ الصفحة ٨٧.

الفصل الرابع

بيعة أبي بكر

إن بيعة أبي بكر كانت فلتة كفلتات الجاهلية. .
إلا أن الله قد وقى شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه.

عمر بن الخطاب

وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم

ورُفع أمان الله بفقد من هو رحمة للعالمين ومن هو بالناس رؤوف رحيم.. وحار الناس.. وذهل ابن الخطاب في من ذهل. ليته ما قال بالأمس قولته كما في مقدمة فتح الباري وغيره[1]:

«قد غلبه الوجع، أو: إن الرجل ليهجر حسبنا كتاب الله».. وقد تم الدفاع عن هذا القول في فتح الباري: «يقال هجر الرجل إذا هذى وأهجر.. والهجر بالضم فالسكون الهذيان. والمراد به هنا ما يقع من كلام المريض الذي لا ينتظم ولا يعتد به لعدم فائدته؛ ووقوع ذلك من النبي ﷺ مستحيل لأنه معصوم في صحته ومرضه لقوله تعالى: وما ينطق عن الهوى. ولقوله ﷺ: إني لا أقول في الغضب والرضا إلا حقاً. وإذا عُرف ذلك فإنما قاله من قاله منكراً على من توقف في امتثال أمره بإحضارالكتف والدواة»[2]. على أن عمر قام يتوعد الناس بسيفه قبل أن يقرّ أنه ما كان له أن يقول: «إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكنه أُرسل إليه كما أرسل إلى موسى فمكث في قومه أربعين ليلة؛ والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات»[3].

لقد حارت الجموع في أنه أي سلطان له على الناس حتى يتوعدهم بما يخالف

---

(١) مقدمة فتح الباري ١/ ٣٠٩ وصحيح البخاري ٤/ ١٦١٢.

(٢) فتح الباري ٨/ ١٣٣.

(٣) ابن حبان ١٥/ ٢٩٧، مصنف عبد الرازق ٥/ ٤٣٣ ومسند الشاشي ١/ ١٨٦ وعبد بن حميد ١/ ٣٥٢.

القرآن؛ وقد جاء في فتح الباري أنه اعتذر عن ذلك[1]. وليته قال كما قال أبو بكر:

«بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً». ثم قال: «مه يا ابن الخطاب أيها الحالف على رسلك»[2]. واتجه إلى الناس وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت؛ وقال **﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾** وقال **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**.

أما ابن أبي الحديد فيقول في فعل عمر: «ومن هذه حاله لا يجوز أن يكون إماماً»[3]. وذكر تخلف الصحابة عن سرية أسامة عندما عسكر بالجرف وقول رسول الله ﷺ: «جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه». وذكر المؤرخون أن أناساً عادوا متخلفين عندما سمعوا باحتضار الرسول وفيهم طلحة والزبير وعمر بن الخطاب وأبو بكر[4].

العباس يدعو علياً للبيعة

ويمد العباس يده ـ وقد يكون مما يدور في خلده سبب تخلف الصحابة عن سرية أسامة ـ إلى علي قائلاً:

«يا ابن أخي، امدد يدك أبايعك، فيقول الناس عم رسول الله يبايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان».

ولكن علياً يحب أن يصحر بها ويرضى الجميع.. وبعد تجهيز الرسول ﷺ فيقول:

(١) فتح الباري ٧/ ٣٠ وفي الاستخلاف من باب الأحكام.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٣٤١ ـ ٣٤٦٧، مسند البزاز ١/ ١٨٢ وحاشية ابن القيم ١٣/ ٣١ والاعتقاد ١/ ٣٤٦.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١٢٨.
(٤) ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٦٨ والواقدي، المغازي ٣/ ١١٩ وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٨٤.

«لنا برسول الله يا عم شغل».

وانطلق الصحابة ينشعبون طرائق قدداً..

منهم من ذكر أقوال رسول الله ﷺ في علي ورضي بها كعمار.. والمقداد.. وأبي ذر..

وهم يقفون مع علي بن أبي طالب خليفة لرسول الله..

ويعللون ذلك بمنزلته وأنه قد اختاره الله ورسوله لهم..

وإذا اختار الله أمراً ما كان لهم الخيرة من أمرهم.. إذ أن أي خيار آخر.. يكون خلافاً لاختيار الله عز وجل..

وهذا لا يكون منهم أبداً لقد اصطفى الله آل محمد.. والناس يصلّون عليهم في كل صلاة يصلونها..

والنبي أولى بالمسلمين من أنفسهم وقد قال للناس في علي:

«اللهم وال من والاه وعاد من عاداه..».

ومنهم من قالوا إن الرسول لم يوص وإن الأمر للناس..

وتعددت الاجتماعات.. ولكن هل يصح اجتماع لأهل الحل والعقد دون علي!

فقد اجتمع عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة في المسجد يتشاوران..

واجتمع سعد بن عبادة بسقيفة بني ساعدة مع الأوس والخزرج يشاورهم..

ويأتي طارق يطلب أبا بكر الذي لم يفارق جثمان الرسول ويقول له:

«إن ابن الخطاب يا أبا بكر يدعوك».

«أفي هذه الساعة؟ ويح ابن الخطاب، إني منشغل بجهاز الرسول».

«إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره».

أبو سفيان يدعو علياً للبيعة

ويأتي أبو سفيان إلى علي يدعوه: «يا أبا الحسن هذا محمد قد مضى إلى ربه، وهذا تراثه لم يخرج عنكم فابسط يدك أبايعك فإنك لها أهل».

فيجيبه علي بثقة: «يا أبا حنظلة. هذا أمر ليس يخشى عليه».

إن علياً يعلم أن ولايته من الله ثابتة.. وولايته من أقوال رسول الله ﷺ يعلمها القاصي والداني.. فهل يعدلون به غيره! ومع ذلك فهو يريد الخلافة برضى الناس لا من وراء ظهورهم. ولن يضيره أن ينكر عليه ذلك من أنكر.. إذ أنه لا إكراه في الدين.

فالعقيدة أمر قلبي لا يعلمه ولا يحاسب عليه إلا الله..

فهناك من أهل الكتاب من ينكر نبوة محمد ﷺ وهو: **﴿النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾**.. وهناك من يشرك بالله فهل يطعن ذلك في نبوته ﷺ!

وعلي هو الذي نال شرف قول الرسول له: «ولقد صلت الملائكة عليَّ وعلى عليّ لأنا كنا نصلي وليس معنا أحد يصلي غيرنا»[1].

وأكره أن أبايع من وراء رتاج

فلذا قال لعمه الذي حثه على قبول البيعة: «لا والله ياعم فإني أحب أن أصحر بها، وأكره أن أبايع من وراء رتاج».

وعاد إلى تجهيز الرسول.

ويدخل البراء بن عازب، فيقول له العباس:

فيم أنت.

(١) أسد الغابة ٤/١٨ الرياض النضرة ٣/١٢١، ذخائر العقبى: ٦٤، ترجمة الإمام من تاريخ ابن عساكر ١/١١٢، ١١٣، ١٨٠.

«في أمر يا بني هاشم فاتكم شهوده وفاتكم به الأمر».

فقال له: «فقل».

«قعدتم فمُلكتم وغلبكم ابن أبي قحافة عليها..» ثم استأنف..

«وبايعته الأنصار في بني ساعدة..»..

فسأله العباس: «والمهاجرون».

«أما هؤلاء فلا وإنما هم في المسجد الآن. ولكنني شهدته بعد السقيفة بعيني، إلى يمينه عمر، وإلى يساره ابن الجراح لا يمر بهم أحد ولا يمرون بأحد إلا قدموا يده؛ شاء أم أبى؛ فحبسوها على يد أبي بكر..» هذا أمر لم يخطر في بال أهل البيت ولا في حسبان كثير من المهاجرين والأنصار.

في السقيفة: لا يجتمع سيفان في غمد

لقد تنازع المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة إلى أن قال قائل: «منا أمير ومن قريش أمير»[1]. فقال عمر: «لا يجتمع سيفان في غمد».

وهمت الأنصار أن تبايع سعد بن عبادة الخزرجي خليفة للمسلمين[2]. ولكن تسطع من البعض حجة على المجتمعين في السقيفة؛ فيحتجون بأن لآل الرسول حقاً في الخلافة. فحفل المجلس بالفتنة؛ وغلت أحقاد الجاهلية في صدور أناس وكره آخرون حسداً أن يكون الأمر في سعد بن عبادة... ويسعى من بين القوم ساع إلى عمر يقص عليه ما يدور في السقيفة.. أيذهب الأنصار بالسلطان.. فيقول لأبي عبيدة: «ابسط كفك يا أبا عبيدة أبايعك، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله»!

فيجيب: ما رأيت لك فهّة قبلها منذ أسلمت يا ابن الخطاب.. أتبايعني وفيكم الصديق..

(١) الدينوري ـ الإمامة والسياسة.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/١٢٣.

ويدعو عمر أبا بكر ويبايعه.. ليتهم شاوروا علياً. ويقر بشير بن سعد بحق قريش في الخلافة حسداً لابن عمه سعد بن عبادة غير آبه للحباب بن منذر الذي يعنفه على ذلك.

احتج أبو بكر وعمر على الأنصار بأن العرب لن تسلّم إلا للمهاجرين من قريش لأنهم: أوسط العرب نسباً وداراً[1]..

وهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده.

وكان قولهم ـ كما قال علي ـ حجة له عليهم، لا حجة لهم على الأنصار.

ووصف عمر بن الخطاب البيعة فقال: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة[2] ـ كفلتات الجاهلية[3] ـ فتمت وإنها قد كانت كذلك إلا أن الله قد وقى شرها. وقال: «فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه».

ويتساءل المؤرخون عن هذا القول.

ماذا يعني ذلك! هل يعني أنها تمت بصورة عفوية من غير سابق تدبير وتصميم أم أنه قد هيأها من أمسك بزمامها!

والبيعة كما يذكر ابن خلدون هي «العهد على الطاعة»[4].

طعن في القدح[5]

ويذكر ابن أبي الحديد أن هذا طعن في العقد وقدح في البيعة الأصلية[6].

(١) سيرة ابن هشام ٥/ ٦٥٩.
(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٠٥.
(٣) تاريخ الطبري.
(٤) مقدمة ابن خلدون/ ٢٠٩.
(٥) شرح النهج.
(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٤٥٧.

ويذكر ابن قتيبة: «وإن أبا بكر رضي الله عنه تفقد أقواماً تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه؛ فبعث إليهم عمر.. فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب.. وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها. فقيل له: يا أبا حفص إن فيها فاطمة!

فقال: وإن!!!.. فأتى عمر أبا بكر فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة[1]»!!.

«فأرسل أبو بكر مولاه قنفذ إلى علي فقال: يدعوك خليفة رسول الله.

فرفع علي صوته فقال: لسريع ما كذبتم على رسول الله».

فأبلغ قنفذ ذلك أبا بكر. فأرسله ثانية فقال: أمير المؤمنين يدعوك لتبايع.

فقال علي: «سبحان الله؟ لقد ادعى ما ليس له[5]».

ويقول عمر لأبي بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها». وذلك لأمر الخلافة ولأمر حرمانها إرثها من فدك. فلم تأذن لهما؛ فأتيا علياً فأدخلهما؛ ويعتذر أبو بكر عن مسألة فدك بالقول أن الرسول قال: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة». (وحجتها أن آية الميراث في القرآن لا تخرج الرسول من توريث أهله).

ويروي ابن قتيبة أنها قالت لهما: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة ابنتي فقد أسخطني.

قال: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ.

قالت: فإني أُشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه.

فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة؛ ثم انتحب أبو بكر يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول:

(١) و(٥) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة ١/ ١٣.

والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها»[1].

ويمكن الدفاع عن أبي بكر بالقول إنه خرج من عندها باكياً حتى كادت أن تزهق نفسه؛ فاجتمع إليه الناس فقال لهم:

يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته، مسروراً بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي[2]».

يقول الطبري[3]: «وقد انتخب أبو بكر على الرغم من معارضة سعد بن عبادة وأنصاره، وتخلف علي بن أبي طالب ومن معه من بني هاشم عن البيعة فترة من الزمن لم تتجاوز ستة أشهر» حتى موت فاطمة عليها السلام. ويذكر أن ذلك بسبب «اعتقاد علي بأنه أحق من غيره..

وبسبب خلاف نشب بين فاطمة وأبي بكر حول حقها في فدك في ميراث الرسول على أرجح الأقوال»[4]. وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر.

فقال لهما أبو بكر أما إني سمعت رسول الله يقول لا نورث ما تركنا إنما يأكل آل محمد في هذا المال؛ وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته. قال فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت.. فدفنها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر.

وعن معمر فقال رجل للزهري: أفلم يبايعه علي ستة أشهر!

قال لا ولا أحد من بني هاشم[5] حتى بايعه علي. قال فانطلق أبو بكر فدخل على علي وقد جمع بني هاشم عنده. فقام علي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا. ثم ذكر قرابته من رسول

(١) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة ١/ ١٤.
(٢) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة ١/ ١٤.
(٣) يراجع تاريخ الطبري للمزيد ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٣٦.
(٤) طه حسين ـ مرآة الإسلام ١٣٠ ـ ١٣٢.
(٥) سنن البيهقي ٦/ ٣٠٠.

الله صلى الله عليه وآله وحقهم فلم يزل علي يقول ذلك حتى بكى أبو بكر.

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن فدك قال: ولو لم يكن حقاً لها لما طلبته ولما طلبه علي عليه السلام. وقد أعاد عمر بن عبد العزيز فدكاً إلى ولد فاطمة[1] كما أعطى الخمس لوُلد علي بن أبي طالب[2].

وجاء في الإسلام وأصول الحكم عن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله: «تلك زعامة جديدة غير التي عرفناها لرسول الله»[3].

وأما في كتاب البنية الاجتماعية في الإسلام فقد قال الكاتب عن الزعامة الجديدة أنها:

«تغاير ما سلك النبي في تعاليمه بشكل السلطة من بعده»[4].

الشجرة والثمرة

لو انقشعت سحب الظنون وتمت البيعة لأبي عبيدة أكان يقول للناس: وليت عليكم ولست بخيركم كما قال عمر في أبي بكر: أيها الناس.. إن الله قد جمع أمركم على خيركم.

وهل سيسمع منه الناس بعدها أقيلوني أقيلوني.

قال عمر للحباب بن منذر: : من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته نحن أولياؤه وعشيرته؛ إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ومتورط في هلكة».

لقد قيل إن قولة عمر هذه حجة لعلي عليه يقرها العقل. لقد تطور جدل عمر مع حباب إلى مبارزة كلامية ثم إلى إشهار السيوف حتى حسم بشير بن سعد الموقف بقوله:

(١) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٣٠.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق ١٧٤.
(٤) «Levy R. The Social Structure of Islam-Cambridge» الصفحتان ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

«ألا إن محمداً أيها الناس من قريش ، وإن قومه أحق بها وأولى . . وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً . . ».

لقد قال علي يحجّهم بأن الشجرة من قريش: «لقد احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»، وهي أهل البيت.

الجن وقتل سيد الخزرج

ويرفض البيعة كثيرون ومنهم سعد بن عبادة؛ ومعه أكثر قومه يظاهرونه؛ لقد رفضها أولاً ويرفضها ثانياً؛ وجاء في فتح الباري: «والعذر له في ذلك أنه تأول للأنصار في ذلك استحقاقاً فبنى على ذلك وهو معذور»[1]. فقال عمر: اقتلوه قتله الله ثم قام على رأسه فقال لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك. فأخذ سعد بلحية عمر فقال: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة. فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الرفق ها هنا أبلغ. فأعرض عنه عمر.

وقال سعد: أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيراً وأصحابك . . أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع؛ احملوني من هذا المكان.

فحملوه إلى داره وترك أياماً ثم بعث إليه أن أقبل فبايع؛ فقد بايع الناس وبايع قومك.

فقال منكراً: «أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل. وأخضب سنان رمحي».

فيجيبه الرسول محذراً: اتق الله يا سعد ولا تشق عصا الجماعة لقد بايع الناس وبايع قومك . .

فقال: «إني ضاربكم بسيفي ما ملكته يدي ومقاتلكم بولدي وأهل بيتي، ومن أطاعني من قومي». ويردف قائلاً:

(١) فتح الباري ٧/ ١٢٦.

«وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي».

وينصح عمر أبا بكر: «لا تدع الرجل حتى يبايع . . ».

فيقول بشير بن سعد: «بل دعه يا خليفة رسول الله. إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يُقتل وُلده، ثم أهل بيته، ثم طائفة من عشيرته، فاتركوه».

فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم[1]. ثم خرج إلى الشام؛ هل خشية أم أنفاً! وما لبث أن أتى الخبر أنه قتل . .

وقيل: إن الجن اغتالوه؛ فقيل:

قتلنا سيد الخزرج ... سعد بن عباده
رميناه بسهمين ... فلم نخطىء فؤاده

وقال بعض الحمقى بعد أن وجدوه في بئر وقد اخضر من العفن:

«هذا فعَله الجن».

وقال آخرون: قتله خالد بن الوليد وصاحب له طعناه بعد أن كمنا له ليلاً وألقياه في البئر . . ». قيل: وما لهتاف الجن الذي سمعناه»!!.

«بل هو هتاف صاحب خالد هتف به ليقول الحمقى ما كانوا يقولون».

ثم قال آخر: «إنما قتله خالد بن الوليد بأمر أبي بكر. وخالد قريب النسب من شجرة عمر».

هذا ما رواه ابن أبي حديد الذي لم يذكر الأساس الشرعي لحكم القتل بل علله بأنه لحفظ جماعة المسلمين.

أما آرنولد فيقول أن نيل الخلافة مثالٌ: «لعادة عربية قديمة جاهلية ينتقل بها

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٤.

منصب الخلافة إلى من يتمتع في القبيلة بأعظم النفوذ»[1].

رافق المقداد البراء بن عازب ودمعه يفيض وحزنه لا يغيض.. أخذه إلى خيرة صحب الرسول.. إلى رجال من صحابة الرسول ﷺ..

صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ لم يسعرهم حب المال ولم يألوا جهداً في نصرة الرسول ودينه ولم تكن لهم أي خيرة من أمرهم، كانوا أئمة في إيمانهم وفي سلوكهم وفي نسكهم.

صحابة بايعوا وصحابة لم يبايعوا

منهم أبو ذر الذي آثر الجهر بإسلامه وتحمل الأذى في جنب الله على حبس كلمة الحق في صدره قائلاً للرسول ﷺ: والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم.

ومنهم عمار الذي صبر على ما ناله وأجلّه على يد بني مخزوم والرسول ﷺ يقول:

صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة: وقال له: «صبراً أبا اليقظان».

ومنهم سلمان الفارسي الذي زاد من شرفه أن ترك قصره في أصفهان بحثاً عن الحق فهجر المجوسية ليعتنق النصرانية. وأكمل بحثه بعد أن حدثه أسقف عمورية أن الحق «إنما ينطق به رجل من العرب يدعو قومه إلى الهدى فيخرجوه فيهجرهم».

ويسعى إلى مكة مجاهداً في بحث عن الهدى فيفقد ماله سرقة وتذهب حريته استرقاقاً ويباع كالعبيد سلعة.

ولكن لظى الإيمان في قلبه يجعله بعين الله التي لا تنام فيصل مكة وهو رق ليهودي ويحظى بلقاء الرسول ويخفق قلبه بالحق ويشع قلبه بالإيمان ويقول له ليعود حراً:

«كاتب يا سلمان».

(١) آرنولد ـ الخلافة/ ٨.

«نعم أكاتب صاحبي اليهودي على نخل أحييه له، إذ لا مال عندي». فينظر له رسول الله ﷺ نظرة حانية ويقول لصحبه:

«أعينوا أخاكم» ويساهم ﷺ في ذلك.

ومنهم حذيفة بن اليمان وعبادة بن الصامت وأبو الهيثم بن التيهان وآخرون غيرهم.

ويقول عمار: ما لتيم[1] وهذا الأمر، إنه كان لرسول الله وهو من بعده في خير الناس بعد رسول الله..

فأجابه البراء: يا أبا اليقظان.. إنما انتزعه الرجل بحق قريش وعاونه صاحباه.

ما لبيعة لم يشهدها المهاجرون الأولون صحة.. ثم تداولوا الأحداث..

فالأنصار قد انشقوا في أمر البيعة وفيهم من يعزم على نقضها.

ويقول أبو ذر: «.. والله لا يراني أبداً أبايع ابن أبي قحافة. وفي الناس ابن أبي طالب».

ثم انطلقوا إلى دار أُبي بن كعب للنظر في العقد.

ولكن ما لبث أن قام البعض بتسريب النبأ إلى أبي بكر!

الاختيار

هل كان هناك من يتحسس الأخبار بإيعاز ممن يهمه أن يبقى على صلة بكل ما يدور حوله. ويسارع أبو بكر مع عمر إلى المسجد في الصباح حيث يقول عمر: «إن الله قد جمع أمركم على خيركم.. صاحب رسول الله.. ثاني اثنين إذ هما في الغار. قوموا فبايعوا..».

لا بد في كل موقف وفي كل عصر وإزاء كل حدث من الاختيار؛ لقد احتار الناس إلى أي لواء ينحازون!

(١) تيم هي قبيلة أبي بكر.

هل يقفون كما فعل سلمان والمقداد وأبو ذر وغيرهم مع الإمام وبني هاشم..
(ذكر الطبري أنهم لم يبايعوا إلا بعد موت الزهراء ابنة رسول الله ﷺ وبعد مضي ستة أشهر على بيعة أبي بكر)[1].

أم مع أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وهم الذين أداروا مجرى الأحداث.

أم مع سعد بن عبادة قبل أن يلقى مصيره باليد التي اغتالته. أم إلى طرف آخر غيرهم.

لقد سمع والد أبي بكر وقد فقد بصره أن ابنه قد تولى الخلافة فيسأل: «لم ولُّوه»!

فقيل: لسنه. فقال: فأنا أسنُّ منه.! ومتى أنقص السن من حكمة علي ومقدرته!

وكيف تتم المسارعة إلى التولية كما تقول فاطمة: «والرسول جنازة بأيدينا». وهل تم ذلك كي لا يكون علي بين المؤتمرين؛ ألا يتغير مجرى الأحداث لو كان الإمام بين الناس!

ولتكتمل تولية أبي بكر كان لا بد من أخذ البيعة من بني هاشم..

فقال عمر: «يا خليفة رسول الله ألزمهم طاعتك».

قال أبو بكر وهو لا يأمن أن تنقض بيعته علناً أمام الناس: «فإن أبوا».

فرد عمر: «فقد شقوا عصا المسلمين فأركبهم الجزاء».

ويروي الطبري: «أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة. فخرج عليه الزبير مصلتاً السيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه»[2].

ثم دفعهما إلى البيعة وقال: «وأنتما طائعان أو وأنتما كارهان فبايعا»[3].

(١) وكذلك في سنن البيهقي ٦/ ٣٠٠.
(٢) تاريخ الطبري ط ٢/ ٢٣٤.
(٣) تاريخ الطبري ط ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧.

ويحتج علي على أبي بكر بالقول: «لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي»[1].

ما أرى إلا تمـزيق جماعة هذه الناس

أويصل الأمر أن يؤخذ خيار الصحابة بالجزاء! هل يرضى الله ورسوله بذلك! وما هو مصير الذي أجرى أو حكم بالقصاص. إذا كانت الخلافة أمراً دينياً فهي كما يقول علي له؛ وإن كانت أمراً من أمور الدنيا فكيف يكره عليه من يأباه!

ويشير أبو عبيدة: «بل ابعث إلى المغيرة بن شعبة فإنه صاحب رأي».

ويأتي الداهية ليقول: «ما أرى إلا تمزيق جماعة هذه الناس».

«وكيف»! لقد أقروا رأيه بتمزيقهم وعلي فيهم.. هل يتم التقرب إلى الله بذلك! وها هم يسألون عن الوسيلة.

«امض إلى العباس فألق إليه أنك جاعل الإمرة نصيباً له ولولده».

«قد قلت». وا عجبا من هذا التواطؤ كما يقول الإمام على انتزاع الأمر من أهله. «ثم لا يضيرك من علي شيء أبداً».

ولم تفت الخدعة على العباس فيجمحه بقوله: «يا أبا بكر.. إنك طلبت ثم أخذت».

فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت!

وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم.

وإن كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين.

وما أبعد قولك إن الناس طعنوا عليك من قولك إنهم مالوا إليك.

ويتأزم الموقف ويخشى أبو بكر من حدة عمر فيقول: «.. وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في أمرنا نصيباً، ولمن بعدك من عقبك! إذ كنت عم رسول الله».

(١) الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة ١/ ١١.

لم لا يعطيه الخلافة إذاً.. وهل وفى أبو بكر بإعطاء قسم من الحق بعد موته.. لم يخف تقسيم السلطة على العباس فأكد الحجة قائلاً: «أفما تريد أن تعطيناه حقك..؟ أم حق المؤمنين..؟ أم حقنا..؟ يا أبا بكر إن يك حقك فأمسكه عليك...

وإن يك حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه..

وإن يك حقنا لم نرض ببعضه دون بعض.

ولكني أراكم خرجتم بسلطان محمد من أهله.. فإن رسول الله من شجرة؛ نحن أغصانها وأنتم جيرانها».

أرى تراثي نهباً

أتم علي غسل الرسول ﷺ وجهازه؛ وبدأ بالصلاة عليه وخلفه الرجال من آله ثم أدخل النساء. وأتى المسلمون يصلون عليه.. لقد كان حرياً بهم أن يفعلوا ذلك قبل أن يسارعوا إلى البيعة.

وأكب علي على القبر الذي ضم رسول ربه ورفيق عمره.. الذي آخاه. الذي أحب الله وأحبه.. كما أحبه الله وأحبه.

«وإن العين لتدمع.. وإن القلب ليحزن.. فالمصاب جليل قبلك.. وتزداد وطأته بعدك»..

ويعزي فاطمة وتعزيه ولكن عزاءها إنما كان قول رسول الله ﷺ لها:

«ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي».

لقد تسارعت الأحداث على أبي بكر.. أو هو جنح إلى السرعة فيها.. ولا بد أنه فكر.. ليته يستطيع حفظ عهده مع الله.. ليته يستطيع العودة قليلاً إلى الوراء.. ولكن التفكير سيعود إلى زلزلة الأحداث من جديد.. وهل سيتركه صحبه ـ الذين أوصلوه إلى هذا المقام ـ يهدم ما بنوه لما سيتعاقب من الأحداث بعد موته.. وتبدأ سياسة التبرير! فالنفس لا تهدأ في دوحة العواصف. قالوا ليته أعاد الأمر للإمام علي

وفي ذاك مصلحة المسلمين! إذ في ذلك رضا الله. لقد رسم الرسول معالم الطريق فلا معذرة! إن وحدة المسلمين هي في خط رضا الله! ويجب أن تكون وفق ما اختاره الله! ولكن هل يذهب السعي للخلافة هدراً! إذاً لا بد أن يقبل البيعة لتقسيم أمور الأمة أو ليسكن ما زلزل النفس من عواصف.

ولكن ما الحجة على علي.. وقد جمع من الإيمان والمكارم ما لم ينله غيره!.

قال أبو عبيدة لعلي: «يا ابن عم.. إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم بالأمور..».

«أما السن فلا أزعم لي بها على الرجل قدم».

«فهلا يا ابن عم بايعت؟.. إني أرى أبا بكر أقوى على الأمر منك».

ومتى كان للسن حساب في من أناله الله الحكمة وفصل الخطاب.. فيسأله علي:

«أنا خير أم رسول الله خير»!

«بل رسول الله».

«لقد كان رسول الله بعث أسامة بن زيد على جيش فيه مشيخة قومك هؤلاء لم يطعن فيه أنه صبي».. وبهتت الحجة. لقد أمّر الرسول أسامة على جيش الشام وأسلمه الراية بيده. وكان من طاعة الرسول أن يكونوا جميعاً بما فيهم أبو بكر وعمر ـ عدا علي ـ تحت راية أسامة. فقد أبقى علياً معه عند احتضاره؛ وكرر ﷺ أمر إنفاذ السرية حتى أنه لعن من تخلف عن سرية أسامة؛ وما ذاك إلا ليكونوا على مشارف الشام عند وفاته.. لدرء ما يمكن أن يحدث من فتنة. وقد قيل إنه لو تم ذلك لتمت البيعة لعلي بلا نزاع ولا شقاق.

وينقل الطبري قول رسول الله ﷺ: «وقد بلغني أن أقواماً يقولون في إمارة أسامة ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة وإنه لخليق لها فأنفذوا بعث أسامة وقال[1]: «لعن

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٢٥ وسيرة ابن هشام ١/ ٣٠٠.

الله . . .»[1]، الحديث.

ويعترض عمر بن الخطاب على تولية أسامة بعد وفاة الرسول ﷺ فأصر أبو بكر، ثم وثب وكان جالساً، فأخذ بلحية عمر وقال:

ـ ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرني أن أعزله[2].

دحض علي حجة أبي عبيدة فحاول أن يعتذر بعد نقض حجته قائلاً:

«إني يا ابن عم إنما عنيت أنك حديث السن، إنك إن تعش ويطل بك البقاء فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، ونسبك وصهرك. فأجابه الإمام:

«إنه والله فينا يا أبا عبيدة. إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله، وتزدادوا من الحق بعداً».

اذهبوا فأنتم الطلقاء: الطلقاء والبيعة

لقد خذلت قريش في مكة رسول الله حياً. . وها هي تكشف عن أضغانها له ميتاً[3]. فقد أوقدت الفتنة في نزاع البيعة. لقد كرهت قريش السيادة لبني هاشم وكان كرهها لنبوّة محمد أقوى. . أما وقد مات النبي ﷺ فنزعتها إلى الجاهلية أشد[4]. ووصل الأمر في سعار الفتنة إلى أن خرج الأمر من يد عتاب بن أسيد والي الرسول على مكة. فخرج منها يلتمس النجاة. وها هو سهيل بن عمرو (كان سفير المشركين إلى الحديبية) يتوعد الذين رفضوا بيعة أبي بكر قائلاً: «يا أهل مكة . . كنتم آخر من أسلم في الناس فلا تكونوا أول من ارتد من الناس. . يا أهل مكة. . والله ليتمّن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله. ومن رابنا ضربنا عنقه».

(١) «بقية الحديث هي. من تخلف عنه». وفي المغازي للذهبي ٧١٤ ومسند أحمد ٢/ ٢٠.
(٢) تاريخ الإسلام. الدكتور حسن إبراهيم حسن ١/ ٢١٣.
(٣) يراجع علي بن أبي طالب لعبد الفتاح عبد المقصود.
(٤) المرجع السابق، وتاريخ الطبري وشرح النهج لابن أبي الحديد لكل ما لم يرد مصدره.

وصنعوا ما الله حسيبهم عليه

أُرغمت النفوس على الإيجاب خشية أن تطيح الرقاب واندفعت فاطمة تذّكر الناس بما في أيديهم من قطاف. فأدركوا أن أخذ البيعة كان بغتة. . فزال بارق السراب وعادوا إلى التبصر في ما اقترفت أيديهم. إذ كيف يضعونها في غير موضعها؛ وهل لها موضع غير يد علي. . لقد أنكرت عليهم فاطمة بنت الرسول ﷺ جنياً لغير أهله، ورأى الكثير منهم في بيعتهم لأبي بكر. . قيداً لا يحل لهم فكاكه. . ورأى آخرون أن الأمر يجب أن يعود إلى علي الذي لا يعدله أحد فشواهد القرآن والسنة تسطع ببيانها.

ويعتذر جمع منهم قائلين: «يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا للرجل».

فتنكر عليهم قائلة: «أفتدعون تراث رسول الله يخرج من داره إلى غير داره».

فيجيبون: «يا بنت رسول الله لو أن زوجك سبق إلينا قبل أبي بكر لما عدلنا به».

فيقول علي وهو يرى أن البيعة ليست تنافساً ولا سباقاً وإنما هي حق لا يجب أن ينازع صاحبه: أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه، ثم أخرج أنازع الناس سلطانه. . ».

وتقول فاطمة عليها السلام وقد هالها انتهاز فرصة تجهيز الرسول لتقول:

«ما صنع والله أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له وصنعوا ما الله حسيبهم عليه».

ويتوافد الناس على علي. . وقد أظهرت صدور من الأنصار ندمها على ما فرطت. وقدم خالد بن سعيد ـ أمير رسول الله على اليمن ـ وراح يعير عثمان بن عفان على القعود ساكتاً عن أمر لم يكن لأهله. . ويدخل على علي فيقول له الإمام:

«يا خالد . . هذا أمر أبت قريش أن تؤتيناه».

«يا ويح قريش . . وهل في الناس أحد أولى بمقام محمد منك . . ».

ولئن خافت نفوس ارتدت على أعقابها أن يطيح ارتدادها برؤوسها، فإن دهاء أُخرى آثرت الدهاء. . فسيف البغي أشد وقعاً في تأجيج الفتنة. فلقد أصبحت

القطاف دانية.

ومن طرف آخر فقد امتلأت قلوب أناس آمالاً في أن يعود الحق إلى آله..

وأخرى أحقاداً لأنها ليست من هؤلاء ولا من هؤلاء.

وأخرى تشبثاً بحلب ليس لها بحق؛ نالت منه النصيب الأوفى؛ ووعدت من شايعها بنصيب منه.

وفي العين قذى، وفي الحلق شجى..

ويروي الطبري[1]: لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم! أين علي والعباس!

وقال: أبا حسن ابسط يدك حتى أبايعك. فأبى علي عليه.

ولكنه يعود ليؤلب الرايات القبلية محرضاً علياً بقوله:

ـ أما والله لئن شئت لأملأنها على أبي فصيل خيلاً ورجلاً ولأسدَّنها عليه من أقطارها..

ولكن مثل علي لا يخفى عليه ما في نفس محدثه فيقول: «يا أبا سفيان.. هذا ماء آجن، ولقمة يغص بها آكلها».

«ماء آجن أتراث ابن عمك يا أبا الحسن تدعه نهباً»..

لقد انقلب ميزان القوى إلى قريش.. ما يقوله أبو سفيان يعني دماً مسفوكاً وفتنة تعصف بالإسلام والمسلمين وتنازعاً يذهب ريحهم.. وعلي يرى أن ضياع حقه أمام حفظ الإسلام أمر يسير.

ويفصح أبو سفيان عما في قلبه الموتور.. إذ لم يعد لبني عبد شمس نصيب بقوله:

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٣٦.

«يا عجباً! رضيتم يا بني عبد مناف أن يغلبكم عليها أذل بيت في قريش».

فيجيب علي: ما رضيت بل صبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى..

ويروي أبو سفيان نار غله متهماً علياً بالخنوع قائلاً: «إذن يتحدث الناس»!

«ويح الناس.. إن أقل يقولوا حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت!..

أما والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه».

وقال له: يا أبا سفيان طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئاً.

ولكن أبا سفيان لم ييأس فيذهب لفتنة العباس قائلاً:

«فامدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم..

نعم وإنك والله لها لأهل، وأحق بميراث ابن أخيك».

ولا يخفى الأمر على العباس فيجبهه بأنه لا أحد يرقى إلى مقام علي قائلاً: «يا أبا سفيان أيدفعها علي ويقبلها العباس».

ألم تحلف قريش باللات أن لا تؤمن بهذا النبي.. فكيف ترضى الآن أن تجتمع الخلافة بعد النبوة في بني هاشم!

لشد ما تشطرا ضرعيها

لقد صح قول الإمام لعمر عندما قدّم أبا بكر للبيعة:

احلب حلباً يكن لك شطره.

ها هو يناله كما سبق أن قال الإمام.. ليت الأمر كان شورى بين المسلمين أو بين المهاجرين والأنصار أو بين المهاجرين جميعهم أو بين قريش وبحضور الإمام. لقد قال الإمام منكراً ذلك:

حتى إذا مضى الأول لسبيله..

فأدلى بها إلى فلان بعده..

فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته!

لشد ما تشطرا ضرعيها.

وعن زبيد أن أبا بكر رحمه الله لما حضره الموت أرسل إلى عمر رحمه الله يستخلفه.

فقال الناس: تستخلف علينا عمر فظاً غليظاً؛ فلو قد ولينا كان أفظ وأغلظ؛ فماذا تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر[1].

ولكن أبا بكر عازم على رد شطر الضرع إلى عمر كما يقول الإمام ويخاطب عثمان قائلاً: «لو تركت عمر لما عدوتك يا أبا عبد الله».

جاء في كتاب علي بن أبي طالب[2]: وراح يملي على عثمان:

«.. هذا ما عهد به عبد الله عثمان إلى المسلمين، آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة...» ثم وهن منه الصوت قبل أن يتم إملاءه.. وكأنما خشي أن يكون الخليفة قد فارقته الحياة قبل أن يتم عهده فسارع يكتب متمماً الوصية:

«..أما بعد، فإني قد استخلفت عليكم ابن الخطاب..».

ولما أفاق من غشيته وتُلِي عليه أقره.

وقال أبو بكر منكراً على عبد الرحمن بن عوف الذي نقم على ذلك:

«استخلفت عليكم خيركم في نفسي؛ فكلكم ورم لذلك أنفه يريد أن يكون الأمر له دونه لما رأيتم الدنيا قد جاءت..»[3].

(١) السنة للخلال ١/ ٢٧٥ الخميس وما يوم الخميس ثم نظر إلى دموع عينيه تنحدر على خده كأنها نظام اللؤلؤ قال قال رسول الله ﷺ ائتوني باللوح والدواة أو الكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً ٢٧١.

(٢) كتاب علي بن أبي طالب لعبد الفتاح عبد المقصود ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣) المرجع السابق.

أنتِ أول أهل بيتي لحوقاً بي

عادت فاطمة عليها السلام أباها ﷺ في مرضه، فحدثها بما أبكاها ثم حدثها بما أضحكها.. إنها أشهر ستة تلك التي مضت على وفاته ﷺ.. وها هي تضيف على أحزان زوجها ما يبهظه حمله كما يبهظ ابنيه الحسن والحسين عليهما السلام.

إنها ستوافي محمداً ﷺ لتكون أول أهل بيته لحوقاً به..

وتوصي زوجها: هل صنعت ما أردت!

ـ نعم.

ـ فهل أنت صانع ما آمرك به! مشيرة إلى أبي بكر وعمر.

ـ نعم.

ـ فإني أنشدك الله ألا يصليا على جنازتي ولا يقوما على قبري.

إنه يعلم حديث رسول الله ﷺ أن الذي يصلي على فاطمة في موتها لا تصيبه النار.. ويكل علي أمر فاطمة إلى سلمى؛ زوج أبي رافع مولى رسول الله ﷺ. وقامت فاطمة تغتسل وتلبس ثيابها ثم قالت لسلمى: اجعلي فراشي وسط البيت.

فتجيبها بمقلة دامعة: بأبي أنت وأمي يا حبيبة رسول الله.

وتعاود بضعة الرسول فرحة بأنها ستلقى أباها محمداً رسول الله ﷺ..

وتقدم فاطمة إلى الفراش مضطجعة عليه.. وتستقبل القبلة وتقول لسلمى:

ـ يا أمه إني مقبوضة الساعة وقد اغتسلت فلا يكشف أحد لي كتفاً..

صلى عليك الله يا بضعة الرسول.. صلى عليك الله وعلى أهل بيت أبيك يا من مودتكم أجر رسالة ربكم.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

أفهلا بقيت إلى جانب علي يا ابنة رسول الله وقد وصلك قول أبي بكر: لا أكرهه على البيعة وفاطمة إلى جنبه.. هل يعزيك قول عمر صاحب القضاء في عهد ابي بكر:

لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن أو ما سيقوله في خلافته: لولا علي لهلك عمر!

ويجيش الأسى في كلمات علي «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك.. قَلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري.. ورق عنها تجلدي.

فقد وسدتك في ملحودة قبرك.. وفاضت بين نحري وصدري نفسك..

فإنا لله وإنا إليه راجعون.. فلقد استرجعت الوديعة وأُخذت الرهينة..

أما حزني فسرمد.. وأما ليلي فمسهَّد..

***

الفصل الخامس

بيعــة عمــر

حتى إذا مضى الأول لسبيله... فأدلى بها إلى فلان بعـده. فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته... لشد ما تشطرا ضرعيها!

علي بن أبي طالب

احلب حلباً يكن لك شطره

يروي الطبري قول عمر عند خلافة أبي بكر[1]: ثم إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: لو قد مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً. فلا يغرن امرؤاً أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة. فقد كانت كذلك غير أن الله وقى شرها؛ وليس منكم من تطلع إليه الأعناق مثل أبي بكر».

لقد قال له الإمام: احلب حلباً يكن لك شطره. وها هو يناله.. إذ لم يكن شورى لا بين المهاجرين والأنصار ولا بين بني هاشم. ودون مشورة أحد حتى من كان في سقيفة بني ساعدة. وقد سبق لأبي بكر أن قال: أقيلوني أقيلوني لست بخيركم وعليّ فيكم..

وها هو يقول: «أيها الناس.. أترضون أن أستخلف عليكم.. إني والله ما ألوت من جهد في الرأي ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب اسمعوا له وأطيعوا».

يقول فلهاوزن: «كان عمر يحتل موقع الوزير من الأمير إن لم يكن أكثر من ذلك»[2].

وعارض الكثيرون بيعة عمر حتى أن طلحة خوّف أبا بكر تبعة ذلك قائلاً:

«استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاقٍ ربك فسائلك عن رعيتك»[3]. هل حفظوا المودة في القربى

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧ حديث السقيفة.
(٢) يوليوس فلهاوزن. تاريخ الدولة العربية ٣٣/ ٣٤.
(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٥.

كما أمر الله بدل قولهم: «كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت»، أوليس أمر الله بالمودة جزءاً من النبوة!

لولا علي لهلك عمر

ودارت أيام عمر تبقي صحابة رسول الله ﷺ في الحجاز لا يقلدون لواءً ولا يبرحون أرضاً. ويتحدث العقاد عن عمل عمر بنصيحة أبي بكر في ذلك بقوله له:

احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله الذين انتفخت أوداجهم وطمحت أبصارهم[1]. فقيادة الجيش فتنة لما فيها من قوة وهي منعة لمن يتألف جنوده فلا تؤمن ثورته وطلبه للخلافة. فإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ـ ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة ـ فيقول: قد كان في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك.

عمر والطامعون في بيت المال:

وينقل طه حسين عن الطبري: كان عمر بن الخطاب حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان[2]. وقال: لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملّته قريش.. وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم؛ وكان يرى أن أخوف ما يخاف على هذه الأمة أن تبسط يدهم في البلاد. فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد، وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر. وهناك من يبرر ذلك بالقول: «وليس ببعيد أن يفعل ذلك عمر خشية أن يستأثر كل وال بولايته عندما يولّى عليها، ويقطع صلته بالمدينة. كما فعل معاوية عندما استأثر بحكم الشام وبذلك تتمزق الدولة»[3].

(١) العقاد عباس محمود، عبقرية علي ٤٣.
(٢) طه حسين، الفتنة الكبرى ١/ ٧٩ عثمان.
(٣) أبو هريرة ٨٥.

على أنه لم يكن يضيره أن يغير فتاواه. فقد أراد عمر قصر أكثر المهور على قدر مهور أزواج النبي ﷺ ورد الزيادة إلى بيت المال. وتكلم به في الخطبة فردت عليه امرأة محتجة بقوله تعالى: ﴿وإن آتيتم إحداهن قنطاراً﴾. فرجع وقال:

كلكم أفقه من عمر[1] حتى ربات الحجال؛ ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت.. فاضلت إمامكم ففضلته.. وكان يتمنى أن لا يقفو ما ليس له به علم..

ولذا كان يلجأ إلى علي ذاكراً قول رسول الله ﷺ فيه:

«أقضاكم علي» و «اللهم اهد قلبه ولسانه»؛ وهذا ما أقصى علياً عن الزلل حتى أنه كان يقول: «ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين». وهذا ما سد ثغرة كبيرة في قضاء عمر الذي قال: لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر؛ وقال: أعوذ بالله من كل معضلة ليس لها أبو حسن؛ وكان عمر يوقن أن علياً يمحضه النصح وهذا ما دعاه إلى اللجوء إليه في مدلهمات الأمور وخاصة عندما تتضارب الآراء. فقد نصحه بالتأريخ من يوم هجرة الرسول ﷺ بدلاً مما أشير عليه بتقليد الروم والفرس في التأريخ.

وكان تمسك الإمام بالشريعة مضرب الأمثال حتى قال أعداؤه يعيبوه بما هو رفعة له: «لا رأي له لأنه كان متقيداً بالشريعة لا يرى خلافها ولا يعمل بما يقتضي الدين تحريمه»[2]. أما غيره من الخلفاء فكان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويستوفقه سواء كان مطابقاً للشرع أو لم يكن»[3]. وقد علل عمر لابن عباس حقيقة منع قريش الأمر عن آل محمد بقوله: «إنهم لينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره يا ابن عباس».

أتهبنني ولا تهبن رسول الله

يروي محمد بن سعد بن أبي وقاص أن أباه سعداً قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه؛ عالية أصواتهن؛ فلما استأذن

(١) سبل السلام ٣/ ١٤٩.
(٢) و(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٩.

عمر قمن يبتدرن الحجاب فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك. فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب.

قال عمر: فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن.. ثم قال: أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ! قلن: نعم.. أنت أغلظ وأفظ[1]. الحديث.

وذكر أن هذا كان مدعاة على كثرة من طلقهن بعد الإسلام؛ فضلاً عن تركه الكثيرات قبله. وخطب أم ابان بنت عتبة بن ربيعة؛ فوزنته رجلاً زوجاً لا خليفة حاكماً فردته قائلة لرسوله: «كلا إنه ليغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

وقالت أم كلثوم بنت أبي بكر حين خطبها: لا حاجة لي فيه. فقالت لها عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين. فردت: نعم إنه خشن العيش، شديد على النساء.

ورد في شرح الزرقاني: أن عثمان بن عفان أُتي بامرأة تزوجت قد ولدت لستة أشهر من زواجها فأمر بها أن ترجم لأن الغالب الكثير أن الحمل تسعة أشهر. فقال له علي ابن أبي طالب ليس ذلك الرجم عليها؛ إن الله تعالى يقول في كتابه وحمله وفصاله من الرضاع ثلاثون شهراً، ستة أقل مدة الحمل والباقي أكثر مدة الرضاع، وقال والوالدات يرضعن أولادهن حولين عامين كاملين صفة مؤكدة ذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة؛ فالحمل يكون ستة أشهر كما أفادته الآيتان فلا رجم عليها. فبعث عثمان في إثْرِها فوجدها قد رجمت[2]. وسبق أن حدث مثل ذلك في قول عمر: «لولا قول علي لهلك عمر»؛ وفق ما يقص ابن مسلم[3] وغيره؛ في قضية نبهه علي رضي الله عنه عليها؛ وهي «خبر المجنونة التي أمر برجمها فنبهه أمير المؤمنين عليه السلام وقال إن القلم مرفوع عن المجنون حتى يفيق[4]؛ فقال: لولا قول علي لهلك عمر».

(١) صحيح مسلم ٤/ ١١٦٣ والبخاري ١/ ١٧٥ وفضائل الصحابة لابن حنبل ١/ ٢٤٤.
(٢) شرح الزرقاني ٤/ ١٧٩.
(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ١/ ١٦٢.
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١٥١.

عمر وحدود الله

وقد أفاد حزم عمر وشدته في حفظ هيبة الدولة؛ مع أن البعض يذكر أن خشونته كانت شديدة حتى أن عمرو بن العاص قال: لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر. ولكنه عاب عليه بقول لا ينبغي أن يصدر منه وهو قوله: والله لقد رأيته وأباه.. وعلى كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز مأبض ركبتيه وعلى عنقه حزمة حطب.. ورأيت العاص بن وائل في مطرزات الديباج.

فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي[1].

تباهى أبو سفيان عندما سمع علياً يمدح زياداً؛ وكان مجهول الأب قائلاً وقد ولد سفاحاً لا نكاحاً؛ فقال: أنا وضعته والله في رحم أمه.. ولما سئل عن سبب عدم إلحاقه بنسبه أجاب مشيراً إلى عمر: أخاف هذا العير الجالس أن يخرق علي إهابي.

وكلمة حق تقال هي أن عمر لم يهاود في حدود الله في كثير من المواقف؛ حتى أنه عارض أبا بكر حين جاء أبو قتادة الأنصاري ـ وقد حلف أن لا يسير في جيش تحت لواء خالد أبداً ـ يقص على أبي بكر أن خالد بن الوليد قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته. فقال عمر: عليك أن تقيده (يعني إقامة حد الزنا عليه لنكاحه زوجة مسلم؛ فقد تزوجها خالد قبل أن تنقضي عدتها)؛ فسكت أبو بكر. فلما دخل خالد قال له عمر: «أرياء يا عدو الله عدوت على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته! أما والله لو أمكنني الله منك لأرجمنك». ورفض أبو بكر الاقتصاص من خالد وقال: إيهاً عمر! ما هو بأول من أخطأ! فارفع لسانك عنه. ثم ودى مالكاً من بيت المال. فلما ولي عمر عزل خالداً عن إمارة حمص في سنة سبع عشرة، وأقامه للناس، وعقله بعمامته، ونزع قلنسوته عن رأسه، وقال: أعلمني من أين لك هذا المال[2].

ولكنه كان أحياناً يتعسف في سلطته فقد تسور الحائط عندما سمع صوت رجل

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ٢٤٤.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٦٠.

وامرأة في بيت فوجدهما وعندهما زق من خمر فقال: يا عدو الله أكنت ترى الله يسترك وأنت على معصيته!

فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث.. قال الله تعالى: لا تجسسوا، وقد تجسست.. وقال: وأتوا البيوت من أبوابها وقد تسورت..

وقال: إذا دخلتم بيوتاً فسلموا؛ وما سلمت.

وأورد ابن أبي الحديد: :قال قاضي القضاة أول ما طعن به عليه قول من قال أنه بلغ من قلة علمه أنه لم يعلم أن الموت يجوز على النبي.. فلو كان يحفظ القرآن أو يفكر فيه لما قال ذلك[1]. و«أنه أبدع في الدين ما لا يجوز كالتراويح»[2]... وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: أيها الناس إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة جماعة بدعة... وقال: ألا وإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة سبيلها في النار. ويروي ابن أبي الحديد أيضاً قول عمر فيها: «بدعة فنعمت البدعة»[3].

و «أنه كان يعطي من بيت المال ما لا يجوز حتى أنه كان يعطي عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم في كل سنة ومنع أهل البيت خمسهم الذي يجري مجرى الواصل إليهم من قبل رسول الله ﷺ وأنه كان عليه ثمانون ألف درهم من بيت المال على سبيل القرض»[4]. و«أنه عطل حد الله في المغيرة بن شعبة لما شُهد عليه بالزنا ولقن الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة اتباعاً لهواه. فلما فعل ذلك عاد إلى الشهود فحدَّهم وفضحهم؛ فتجنب أن يفضح المغيرة وهو واحد وفضح الثلاثة مع تعطيله لحكم الله ووضعه في غير موضعه»[5].

و«أنه كان يتلون في الأحكام»[6] ـ الإرثية ـ وقوله: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ ؛ أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما»[7].

«وما روي عنه من قصة الشورى وكونه خرج بها عن الاختيار والنص جميعاً»[8].

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ١٤٧.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ١٧٨.
(٣) الى (٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١٥٣... ١٧٠.

وأنه أمر بضرب الأعناق إن تأخروا عن البيعة أكثر من ثلاثة أيام.. وأورد ابن أبي الحديد في شرحه دفاعاً عن عمر في تبرير ما عدَّ أنه مخالفة للشرع، وأن له أن يفعل ذلك وهناك رد على الدفاع في أنه لا اجتهاد مع نص وليست هذه البحوث من أهداف هذا الكتاب[1].

أبو لؤلؤة

تبرم أبو لؤلؤة بما وضع عليه عمر من خراج وثار به ضغنه، فعزم على قتله. ويروي عمرو بن ميمون الأودي مقتل عمر فيقول: شهدت عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طعن. أتاه أبو لؤلؤة وهو لعله يسوي الصفوف، فطعنه وطعن اثني عشر رجلاً وقال: فأنا رأيت عمر رضي الله عنه باسطاً يده وهو يقول: أدركوا الكلب فقد قتلني فأتاه رجل من ورائه فأخذه.

قال فحمل عمر إلى منزله فأتاه الطبيب؛ فقال: أي الشراب أحب إليك.

فقال: النبيذ. قال فدعى بالنبيذ فشرب منه فخرج من إحدى طعناته[2].

فقال: إنما هذا الصديد صديد الدم. قال فدعى بلبن فشرب.

فقال: أوص يا أمير المؤمنين بما كنت موصياً به. وسأل عمر قال: من أصابني! قالوا أبو لؤلؤة واسمه فيروز غلام المغيرة بن شعبة. قال قد نهيتكم أن تجلبوا علينا من علوجهم أحداً فعصيتموني.

ولي دم عمر: فلا يسرف في القتل

ورأى عبد الرحمن بن عوف السكين التي قتل بها عمر[3] فقال رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجفينة؛ فقلت ما تصنعان بهذه السكين! فقالا نقطع بها اللحم فإنا لا نمس اللحم.

(١) يمكن الرجوع إلى التفاصيل في الصفحات المذكورة أعلاه.
(٢) مسند الحارث ٢/ ٦٢٣، زوائد الهيثمي ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٤٣٧.
(٣) الطبقات الكبرى ٣/ ٣٤٨.

فقال له عبيد الله بن عمر: أنت رأيتها معهما.

قال نعم فأخذ سيفه ثم أتاهما فقتلهما؛ دون ذنب.. ولم يكتف ابن عمر بما جذ من الرقاب والله تعالى يقول لولي المقتول؛ ﴿**فلا يسرف في القتل**﴾ بل قتل ابنة فيروز بعد أن سبقه غيره إلى قتل أبيها أبي لؤلؤة. وقيل أنه ظن أنها مؤامرة مدبرة بين من قتلهم.

وقد كان حين بعث إليه عثمان تقلد السيف فعزم عليه عبد الرحمن أن يضعه فوضعه.

ولما حضر بين يدي عثمان قال له: ما حملك على قتل هذين الرجلين وهما في ذمتنا!

إنه لا شفاعة في حدود الله فهل سيتم القصاص من القاتل! لقد أضفى الله ـ عز وجل ـ على رسوله اسمين من أسمائه بوصفه بأنه ﴿**رؤوف رحيم**﴾. والرأفة والرحمة ضرورتان لصون المجتمع وحفظ حقوق الناس؛ ومن لوازم الرحمة الاقتصاص من الجاني وإقامة الحد عليه. فهل يمكن الدفاع عن عدم الاقتصاص من القاتل بالقول بأن الذي شفع في حد من حدود الله سمح ذو رقة؛ ولو على حساب الاعتصام بالعدل المطلوب والتمسك بحكم الله!

جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى

من سينال الخلافة! هذا ما تطلعت إليه الأعين؛ هناك من اطمأن إلى أن علي لن ينالها وهناك من خشي أن تصل إليه.. وتبقى فئة لا ترضى أن تكون لغيره.

قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت!

فأعادت إجابته إلى الأذهان أحداث السقيفة حيث قال: مَن أستخلف! لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته[1]...

ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته؛ فإن سألني ربي قلت سمعت

(١) الكامل ٣/ ٦٥.

نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله.

لم يذكّره أحد بمقالته: «لولا رأي أبي بكر فيَّ عند موته لأعاد أمركم إليكم».

فقال له رجل: أدلك عليه؛ عبد الله بن عمر.

فقال: قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا ويحك كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته! لا أرب لنا في أموركم.. ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي.. إن كان خيراً فقد أصبنا منه؛ وإن كان شراً فشر عنّا آل عمر.. بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي.. وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد. وأنظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني.. وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ولن يضيع الله دينه[1].

وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين علي أو عثمان.. فإن ولي عثمان فرجل فيه لين.. وإن ولي علي ففيه دعابة وأحرى به أن يحملهم على طريق الحق[2].

فاردد إليه ظلامته يا أمير المؤمنين

قال عمر لابن عباس في منع الولاية عن علي:

ـ ما أرى؛ يا ابن عباس صاحبك إلا مظلوماً. فقال له: فاردد إليه ظلامته يا أمير المؤمنين. فقال:

ـ ما أظن القوم منعهم منه إلا أن استصغروه. وفي مرة ثانية بعد أن جاوزوا البقيع: يا ابن عباس أما والله إن صاحبك لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله إلا أننا خفناه على اثنتين.

فقال ابن عباس: فما هما يا أمير المؤمنين! فأجاب: خفناه على حداثة سنه وحبه بني عبد المطلب.

(١) و (٢) تاريخ الطبري ٢/ ٥٨٠.

وثالثة؛ حين أنشد ابن عباس شعراً لزهير فقال عمر:

ـ وما أرى هذا المدح يصلح إلا لهذا البيت من بني هاشم لقرابتهم من رسول الله. فقال:

ـ وفقك الله يا أمير المؤمنين فلم تزل موفقاً. فقال عمر:

ـ أتدري يا ابن عباس ما منع الناس منكم. فقال: لا يا أمير المؤمنين.

فأردف عمر: لكنني أدري.. فسأل: فما هو! فأجاب عمر:

ـ كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً، ووفقت فأصابت.

فطلب ابن عباس الأمان من غضب عمر وأجاب[1]:

ـ أما قولك أن قريشاً كرهت، فإن الله تعلى قال لهم: **﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾**.

وأما قولك أنا كنا نجحف، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا من خلق رسول الله الذي قال فيه ربه: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**.. وقال له: **﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾**.

وأما قولك أن قريشاً اختارت؛ إن الله تعالى يقول: **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾**.. وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه من اختار، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوفقت وأصابت. فأظهر عمر تأذيه من قول ابن عباس فقال:

ـ على رسلك يا ابن عباس.. أبت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشاً في أمر قريش لا يزول وحقداً عليها لا يحول. فقال ابن عباس:

ـ «مهلاً يا أمير المؤمنين لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغش؛ فهي من قلب رسول الله الذي طهره وزكاه. وإنهم لأهل البيت الذي قال الله لهم: **﴿إنما يريد الله أن**

(١) يراجع لهذه القصة كاملة، علي بن أبي طالب لعبد الفتاح عبد المقصود.

يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾..

فغضب عمر وسارع إلى الوقيعة بابن عباس قائلاً:

ـ بلغني أنك تقول أُخذ هذا الأمر منا حسداً وظلماً.

فأجابه بجرأة: نعم حسداً! وقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة..

ونعم ظلماً! وإنك لتعلم يا أمير المؤمنين صاحب الحق من هو..

يا أمير المؤمنين ألم تحتجّ العرب على العجم بحق رسول الله. واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله!

فنحن أحق برسول الله من سائر قريش[1].

شورى أم استخلاف

لقد جعل الله عيسى يكلم الناس في المهد صبياً؛ فكان أول ما تكلم به في حشد من الناس هو نفي ما سيلحقه الناس به وأمه عليهما السلام من صفة الألوهية؛ قال: إني عبد الله..

ولكن الناس قالوا إن المسيح وأمه إلهين بعد البينات.

وأكد الرسول ولاية علي بقوله اللهم وال من والاه ولكن الناس كذلك أنكروا هذه الولاية. لقد قال عمر مشيراً إلى علي: «قد كنت أجمعت بعد مقالتي أن أولي أمركم أحراكم أن يحملكم على الحق.. ثم رهقتني غشية، فرأيت رجلاً دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمها إليه ويصيرها تحته..».

ليته عمل بما رأى وهو يرى علياً في جنته.. بدل الشورى التي تؤلب الأحقاد في أمته.

فطلحة التيمي يرى رأي تيم وقد سبق أن نافست علياً بأبي بكر. ويجتمعون مع من يعينهم من أمية ممثلة بعثمان وصدورهم تغلي من بني هاشم.

(١) يراجع لهذه القصة كاملة، علي بن أبي طالب لعبد الفتاح عبد المقصود.

وابن عوف مع أنه من زهرة فإنه زوج أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان.

وسعد بن أبي وقاص من زهرة ولكنه يتصل بالنسب إلى بني أمية فأمه حمنة بنت أبي سفيان. لقد ذهب الأمر من علي فليس له إلا الزبير ابن عمته صفية..

وفي الاعتقاد عن الشافعي: يقول في معنى قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه من كنت مولاه فعلي مولاه؛ يعني بذلك ولاء الإسلام وذلك قول الله عز وجل ﴿**ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم**﴾. (وفي) قول عمر بن الخطاب لعلي:

ـ أصبحت مولى كل مؤمن؛ يقول ولي كل مسلم[1].

ويأتي إليه ابن عباس يسأله:

ـ فما العهد يا أبا الحسن؟

ـ جعلها في جماعة زعم أني أحدهم..

لله در قولك يا أمير المؤمنين:

متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم!

حتى صرت أُقرن مع هذه النظائر..

* * *

(١) الاعتقاد ١/٣٤٦.

الفصل السادس

عثمان بن عفان

الثورة المضادة

اسكت ويحك فوالله لولا أبوك وما ركب مني قديماً وحديثاً ما نازعني عثمان..

قولة الإمام لابن عمر

اضربوا رأس من لا يبايع

وتجري الأحداث وفق وصية عمر. أن يمهل أصحاب الشورى في تداول الأمر إلى ثلاث. فقد «قال عمر لأبي طلحة الأنصاري: إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الأسود إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم»[1]. «وأُمر صهيباً أن يصلي بالناس»[2] وأدخِل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف.. وطلحة إن قدم.. وأحضر عبد الله بن عمر.. ولا شيء له من الأمر وقم على رؤوسهم.

فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف.

وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما.

فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف» وقال أيضاً: :واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس»[3].

هل ابن عوف هو كل الناس! لقد قال علي: حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم فيا لله وللشورى.

و يرى ابن تيمية أن الإمامة «ملك وسلطان، والملك لا يصير ملكاً بموافقة

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٨١.
(٢) طبقات ابن سعد٧ / ٣٥٣.
(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٥٨١.

واحد ولا اثنين ولا أربعة»[1]. وأورد ابن أبي الحديد في شرحه: «وهذا عمر يشهد لأهل الشورى أنهم النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راض عنهم..

ثم يأمر بضرب أعناقهم إن أخروا فصل حال الإمامة.. وقال في حقهم ما لو سمعه العامة اليوم من قائل، لوضعت ثوبه في عنقه حباً على السلطان ثم شهدت عليه بالرفض واستحلت دمه؛ فإن كان الطعن في الصحابة رفضاً فعمر بن الخطاب إمام الروافض كلهم»[2].

ويقول: «ثم شاع واشتهر من قول عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه؛ وهذا طعن في العقد وقدح في البيعة الأصلية».

وقال عن عبد الرحمن بن أبي بكر: «دويبة سوء وهو خير من أبيه»[3].

وقد سبق لسعد أن نال من عمر العزل بعد العزل لعجزه عن ولاية جزء من الأمة.

وكان رأي أبي بكر في طلحة: «أما والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها». حتى قيل: لم اختاره إذاً.

والزبير مع سابقته وبطولته وقرابته من الرسول ﷺ قال له عمر: «أما أنت يا زبير فوعق تعس.. مؤمن الرضا كافر الغضب.. ولعلها لو أفضت إليك ظللت يومك تلاطم البطحاء على مد من شعير».

لولا دعابة فيه

وصدقت الأحداث قول عمر لعثمان: «كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملتَ بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس[4] وآثرتهم بالفيء

(١) ابن تيمية منهاج السنة النبوية القاهرة ٩٦٢. ١/ ٣٦٥.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٤٥٧ دار إحياء التراث العربي بيروت.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٤٥٧ دار إحياء التراث العربي بيروت.
(٤) الطبقات لابن سعد٧ / ٣٦٢ وفي تاريخ الطبري.

فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً!!

وأنصف علياً بقوله إن وَلِي في الناس أن يقيمهم على المحجة البيضاء «وأحرى به أن يحملهم على طريق الحق»[1]. ولكنه أوهن مقامه بما ليس بمطعن بقوله: «لولا دعابة فيه»[2].

ويقول علي لعبد الله بن عباس الذي كره له أن يكون معهم: «إني أعلى يا عبد الله.. ولكنني أدخل في الشورى معهم لأن عمر أهلني للخلافة الآن، وكان من قبل يقول إن النبوة والخلافة في بيت واحد لا تجتمعان».

ويحذرهم علي من فتنة جديدة تكمن في التخلي عن بيت النبوة قائلاً: «الحمد لله الذي بعث فينا نبياً، وبعثه إلينا رسولاً.. فنحن بيت النبوة ومعدن الحكمة وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب..».

وقال: «عسى أن تروا هذا الأمر من بعد تنتضى فيه السيوف وتخلف به العهود.. ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة وشيعاً لأهل الجهالة».

لقد قال علي للعباس: «عُدلت عنا».

فقال: وما علمك!

قال: قرن بي عثمان وقال كونوا مع الأكثر. فإن رضي رجلان رجلاً؛ ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف. فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون؛ فيوليها عبد الرحمن عثمان..

وتمر الساعات والأيام ولا قرار..

فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم[3].

فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي.

فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان.

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٨١.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٥٨١.
(٣) الطبقات لابن سعد٧ / ٣٦٢.

وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن بن عوف[1]: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم!

فلما لم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها.

قال عثمان: أنا أول من رضي.

فقال: ما تقول يا أبا الحسن. فقال: «أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة».

فرد ابن عوف: «لله علي أن لا آلو عن أفضلكم».

«أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير. وأن ترضوا من اخترت لكم، عليّ ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين».

وأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله.

من نكث ومن أوفى

لقي علي سعداً فقال له: **﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾**. أسألك برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ، وعمي حمزة منك ألا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً علي.. هل يحفظ ابن عوف الميثاق وعثمان صهره وهو من بني زهرة؛ أم أن الغلبة تكون للعصبيات القبلية والأطماع الشخصية. إذ أنه سرعان ما قال لسعد: «أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لي فأختار».

قال سعد: «إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلي أحب إلي».

ولكن هذا الترجيح ليس بمرجح، وهذا الخيار مقضي عليه بالخسران.. ومع ذلك[2] فهو يطلب من ابن عوف أن يجعل الأمر لنفسه مع أنه خلع نفسه منه.

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٨٢.

(٢) شرح النهج وتاريخ الطبري.

فأجابه: «إني قد خلعت نفسي على أن أختار؛ ولو لم أفعل وجعل الخيار لي لم أردها».

ويميل عمرو بن العاص إلى المراهنة على علي وعثمان معاً. فيقبل على الإمام بوجه ويقول: «يا أبا الحسن إن عبد الرحمن رجل مجتهد.. ومتى أعطيته العزيمة كان أزهد له فيك، ولكن الجهد والطاعة فإنه أرغب له منك».

ويلاقي عثمان بآخر ويقول: «يا أبا عبد الله إن عبد الرحمن رجل مجتهد وليس والله بمبايعك إلا بالعزيمة فاقبل منه». لقد كان يعلم أن أمر عثمان ميسور، وأن الحق مع علي وعلي مع الحق. ومع ذلك فقد راءى ابن النابغة كلا الطرفين.

قال عمار لابن عوف: إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع علياً.

فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا.

ويهبُّ ابن أبي سرح؛ داعية أمية وأخو عثمان من الرضاع؛ ليضع الإمام وعثمان في كفتي ميزان.. وهو الذي حاد الله ورسوله وقد سبق منه أنه تباهى بأنه يعبث بالوحي وقد أهدر الرسول ﷺ دمه ولم يجره أحد حتى استأمن له عثمان.

فيقول: إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان.

فقال عبد الله بن أبي ربيعة: صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا.

بل على كتاب الله وسنة رسوله

شتم عمار ابن أبي سرح وقال: متى كنت تنصح المسلمين.

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية. فقال عمار: أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم.

فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لنفسها.

قال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس.

فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً. ثم دعا علياً وطلب منه أمراً لا يمكن أن يقبل به قائلاً: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده».

ليس لك ذلك يا عمر

هل الإسلام غير كتاب الله وسنة رسوله. هل في كتاب الله أو سنة رسوله أمر بالعمل بسنة غير سنة رسول الله.

لقد قال عمر عندما نقضت امرأة كلامه في تحديد المهور: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ولو لم تقل له المرأة: «ليس لك ذلك يا عمر» لكان تحديد المهور سنة باقية لمن يقر وجود سنة غير سنة الرسول ﷺ؛ والذي حلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة. لذا ما كان لعلي أن يقبل المبايعة على غير سنة الرسول وسيرته.

فأجاب: «بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي».

ليت ابن عوف اقتصر على المبايعة على كتاب الله وسنة رسوله. إذاً لزال الخلاف ولمَا أظهر أن هناك من أمر الشيخين ما خالفا به كتاب الله وسنة رسوله؛ وأنه يطلب من الإمام أن يقر المخالفة ويجعلها سنة للمسلمين. ولو فعل لاجتنب المسلمون الفتنة.

لقد قال قائل لعمر: «يا أمير المؤمنين عابت أمتك منك أربعاً».

ذكروا أنك حرمت المتعة في الحج ولم يفعل ذلك رسول الله ولا أبو بكر وهي حلال.

وذكروا أنك حرمت متعة النساء وكانت رخصة من الله...

ففي شرح معاني الآثار: عن عمر رضي الله عنه[1] قال: سمعت النبي ﷺ

(١) شرح معلني الآثار ٢/ ١٤٦ وتفسير القرطبي ٢/ ٣٩٢.

وهو بالعقيق يقول أتاني الليلة آت من ربي فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك وقل عمرة في حجة.

وعن نافع عن ابن عمر قال: قال عمر رضي الله عنه:

متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنهى عنهما وأعاقب عليهما.. متعة النساء ومتعة الحج.

وجاء في الصحاح:

تمتعنا مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر رضي الله عنه، فلما ولي عمر خطب الناس فقال: إن رسول الله ﷺ هذا الرسول، وإن هذا القرآن هذا القرآن، وإنهما كانتا متعتان على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما؛

إحداهما متعة النساء؛ ولا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبته بالحجارة، (وهذا يتناقض مع الحديث الذي ذُكِر أن المتعة حرمت فيه؛ ولو صح لنسب عمر التحريم إلى النبي).

والأُخرى متعة الحج افصلوا حجكم من عمرتكم فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم أخرجه مسلم في الصحيح[1]. وذكروا أنك أعتقت الأمة ـ إن وضعت ذا بطنها ـ غير عتاقة سيدها.

وشكوا منك عنف الرعية وعنف السياق.

العطايا أيام عمر

وذكرت مخالفة عمر لسنة رسول الله ﷺ وبعده أبو بكر إذ كان الناس يأخذون عطاءهم بالمساواة فيما بينهم. وليته لم يغير.

قد فرض عمر لأهل بدر خمسة آلاف... ولمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف..

(١) سنن البيهقي الكبرى٧/ ٢٠٦-١٣٩٤٨ وكتاب السنن٦/ ٥٢ وشرح معاني الآثار ٢/ ١٤٦والمغني ٧/ ٣٦ وبداية المجتهد ١/ ١٤٤.

ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف؛ في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الأيام قبل القادسية..

ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشأم ألفين ألفين وفرض لأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة. فقيل له: لو ألحقت أهل القادسية بأهل الأيام.

فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا.

وقيل له: قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه..

فقال: من قربت داره أحق بالزيادة.

وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً ثم فرض المثنى خمسمائة خمسمائة ثم الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة..

وسوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم. وفرض الربيع على مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد على مائتين.

وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان وكان فرض للعباس خمسة وعشرين ألفاً وقيل اثني عشر ألفاً.

وأعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف إلا من جرى عليها الملك. فقال نسوة رسول الله ﷺ: ما كان رسول الله ﷺ يفضلنا عليهن في القسمة فسوِّ بيننا! ففعل.

وفضل عائشة بألفين لمحبة رسول الله ﷺ إياها فلم تأخذ!

وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة، ونساء من بعدهم إلى الحديبية على أربعمائة أربعمائة، ونساء من بعد ذلك إلى الأيام ثلاثمائة ثلاثمائة. ونساء أهل القادسية مائتين مائتين ثم سوى بين النساء بعد ذلك. وجعل الصبيان سواء على مائة مائة.

ثم جمع ستين مسكيناً وأطعمهم الخبز فأحصوا ما أكلوا فوجدوه يخرج.

ففرض لكل إنسان منهم ولعياله في الشهر. وقال عمر قبل موته: لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف ألفاً يجعلها الرجل في أهله وألفاً معه وألفاً يتجهز بها وألفاً يترفق بها فمات قبل أن يفعل[١]. وقيل أنه ندم على عدم المساواة قبل موته.

وكانت ذريعته قوله: «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه».

يبدو الأمر سديداً وذريعة لفعل عمر.. ولكن قالوا: ما كان لأحد إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون له الخيرة. لأنه لا اجتهاد مع نص لتجنب الاختلاف.

وبذرة التفاوت في العطايا تثمر الحسد في النفوس، وتورث التفاوت في الطبقات، ويغدو الأمر دولة بين الأغنياء. وتزداد الهوة بين المترف بثرائه والمدقع بفقره، فينمو السخط في النفوس وتتقد جذوة الثورة. لقد ساوى أبو بكر في العطيات متأسياً بفعل الرسول قائلاً: «إنما أسلموا لله وعليه أجرهم ويوفيهم ذلك يوم القيامة. وقد قسم مال البحرين بين الناس جميعاً على السواء»[٢]. وكذلك غنائم العراق[٣]. وقال: والله لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من أن يسبح في غمرات الدنيا[٤].

وتحبون المال حباً جماً

صدقت نبوءات رسول الله ﷺ وانهمرت أموال كسرى وغيرها بعد أن تسارعت عربة الإسلام بقوة الإسلام التي أدار عجلتها الرسول الكريم ﷺ. فانطلقت تحمل النفوس التي تهفو للحق وتقحم الحصون المتحصنة بالباطل. وفتح الله عليهم بركات نصره؛ فقد صالح ابن الوليد أهل حصن بادلي على تسعين ألفاً ومائة ألف درهم، ومثل ذلك مع مصالحة أهل الحيرة[٥]. وكثرت الأموال حتى قال

(١) تاريخ الطبري٢/ ٤٥٢.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٢٤.
(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤/ ١٣.
(٤) الأصفهاني حلية الأولياء ١/ ٣٤.
(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٤/ ٤٠٣.

عمر: «إن شئتم نعد عداً وإن شئتم نكيل كيلاً»[1].

وصالح عمرو بن العاص أهل مصر على ثلاثة عشر ألف دينار، وفي رواية أن جبايتها كانت أربعة عشر ألف ألف دينار[2].

وفي القادسية وجد المستور بن ربيعة إبريق ذهب مرصع بالجوهر، فأعطاه للقائد سعد بن أبي وقاص فباعه بمائة ألف دينار[3].

وقال ابن خلدون في مقدمته: «حتى كان يقسم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب»[4]. وغير ذلك الكثير الكثير.

لم يترف الناس بالعطاء في زمن أبي بكر فقد كانوا قريبي العهد من رسول الله ﷺ وعملت قبضة عمر وشدته ـ وهذا ما لم يتوفر في زمن عثمان ـ على الحد من نزواتهم.

فقد حاسب خالد بن الوليد وناصفه أمواله[5]. وأرسل إلى ابن العاص فشاطره أمواله[6].

وكان يرى في سلوك أبي هريرة وُالي البحرين من نقص النزاهة ما يستلزم الشدة وأخذ قسم من أمواله.

وعنف أبو موسى الأشعري قائلاً: «فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همها في السمن وفي السمن حتفها واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته وأشقى الناس من يشقى الناس به»[7].

وعندما عين عمار بن ياسر على الثغر وعثمان بن حنيف على الخراج وعبد الله

(١) البلاذري تاريخ الأمم ٤/ ١٧٧.
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٤/ ٢٧٠.
(٣) المستطرف للإبشيهي ٢/ ٤٦.
(٤) مقدمة ابن خلدون صفحة ١٧٧.
(٥) الطبري - تاريخ الرسل ٤/ ٥٦.
(٦) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٧١-١٧٥.
(٧) ابن عبد ربه العقد الفريد صفحة ١٩-٣٤.

بن مسعود على بيت المال فرض لهم في كل يوم شاة؛ شطرها وسواقطها لعمار والشطر الآخر لعبد الله وعثمان[1].

وهذا بلال بن الحريث المزني أقطعه رسول الله ﷺ أرضاً كبيرة فاستدعاه عمر وترك له قسماً من الأرض كفاية له؛ ثم أخذ الباقي وقسمه بين المسلمين.

ومنع كبار المهاجرين الخروج إلى الأمصار؛ وقال:

ألا وإن ابن الخطاب حي فلا[2].

والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك.

هل كان ينظر ابن عوف إلى تفاوت العطاء فيما لو كانت الخلافة لعثمان؛ وإلى أن علياً سيعيد العدل في المساواة في تقسيم العطايا؟ لأنه ما جاع فقير إلا بما متع به غني.

لقد بلغ ملك ابن عوف على ما ينقل عباس محمود العقاد: «ألف فرس وألف بعير وعشرة آلاف من الغنم. وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً»[3]؛ أم أنه لن يضيع فرصة يمكن أن تنسل منها شجرة بني أمية إلى سلطة ليست لها.

لقد دعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي. فقال: نعم..

لقد قبل عثمان ما رفضه الإمام! فبايعه ابن عوف. فهل سيحفظ عهده؟

فقال علي: حبوته حبو دهر؛ ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك..

فقال عبد الرحمن مهدداً: «يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً».

فبايع وهو يقول: خدعة وأيما خدعة! ثم خرج وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله.

(١) المسعودي - مروج الذهب ٣/ ٢٢٢.
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٥/ ٢٢٤ حوادث سنة ٣٥.
(٣) عباس محمود العقاد- عبقرية علي ١٢١.

فقال المقداد منكراً: «يا عبد الرحمن أما والله لقد تركت من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون». وقال: ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم. إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل أما والله لو أجد عليه أعواناً. فقال عبد الرحمن: يا مقداد اتق الله فإني خائف عليك الفتنة؛ وما أنت وذاك يا مقداد.

فصاح به: «إني والله لأحبهم بحب رسول الله وإن الحق معهم وفيهم. يا عبد الرحمن أعجب من قريش وأنت تطولهم على الناس.. اجتمعوا على نزع سلطان الله بعده من أيديهم..

أما وايم الله يا عبد الرحمن، لو أجد أحداً على قريش أنصاراً.. لقاتلتهم كقتالي إياهم مع رسول الله يوم بدر. وذكر ابن أبي الحديد أنه قال للإمام: قم فقاتل حتى نقاتل معك.

فقال رجل للمقداد: رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل؟

قال: أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل علي بن أبي طالب.

اللهم دق بينهم عطر منشم

قال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن: يا أبا محمد قد أصبت إذ بايعت عثمان.

وقال لعثمان: لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا.

فقال عبد الرحمن: كذبت يا أعور لو بايعت غيره قلت له هذه المقالة[1]؛ وما أنت وذاك يا ابن الدباغة[2]. ليت ابن عوف لم يتوعد علياً إذ لن يطول به الأمر حتى يقول: «ما كنت أرى أن أعيش حتى يقول لي عثمان يا منافق»[3]؛ أو يقول: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما وليت عثمان شسع نعلي»[4]. أو يدعو عليه:

(١) تاريخ الطبري٢/ ٥٨٣.
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٢/ ٤١٠-٤١١.
(٣) و(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤/ ٤٥٩.

«اللهم إن عثمان قد أبى أن يقيم كتابك فافعل به وافعل»[1].

لقد استجيبت دعوة الإمام ليعاديا بعضهما: «اللهم دق بينهم عطر منشم»[2].

فما ماتا إلا متعاديين[3]. فقد قال ابن عوف لرسول عثمان يعيره: «وليتك ما وليتك من أمر الناس وإن لي أموراً ما هي لك؛ شهدت بدراً وما شهدتها وشهدت بيعة الرضوان وما شهدتها، وفررتَ يوم أحد وصبرتُ»[4].

وقال له لما دعا الناس بعد بناء قصر الزوراء: «يا ابن عفان لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب منك وإني أستعيذ بالله من بيعتك». فأمر عثمان بإخراجه وأمر الناس أن لا يجالسوه.

ويرى طه حسين[5] أن الدافع طبقاً لتقاليدهم القديمة على عدم حصر الرئاسة في بيت واحد. أَوَهل يمكن قبول العودة للأحكام الجاهلية؟.. وإذا كانت الرئاسة انتخابية تداولها الناس طبقاً لكفاءتهم وخدماتهم للمجتمع[6]، وإذا كان هذا هو المقياس فهل لغير علي نصيب في الخلافة؟

إن مات محمد لنركضن بين خلاخيل نسائه

ليت عبد الرحمن قبل أن يبايع عثمان ما نسي عهد الله أن لا ينصاع لهوى أو قرابة.

لقد نظر الناس إلى عثمان على منبر رسول الله.. فرأوا فيه مثلاً لأمية، أو مطية لمروان بن الحكم وسوطاً سيخمد من يعارضه من صحابة رسول الله..

ورفعاً لبني أبي معيط على رقاب الناس كما قال عمر.

وبيوت المال إقطاعات لعمال عثمان..

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤/ ٤٥٩.
(٢) كناية عن إحداث الشقاق، وعطر منشم سقام لمن يهدى إليه.
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤/ ٦٥.
(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١/ ٦٥-٦٦.
(٥) و(٦) طه حسين الفتنة الكبرى - عثمان ١٥٢.

وإرثاً للطلقاء ـ ومنهم معاوية ـ الذي لا تحق له المشاورة فضلاً عن البيعة.

وهرقلية لبني أمية بعد ذلك.. أو ما حدا بأن قالت عائشة: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر».

وأقبل عمار بن ياسر ينادي:

يا ناعي الإسلام قم فانعه! قد مات عرفٌ وبدا نكرٌ.

أما والله لو أن لي أعواناً لقاتلتهم...

والله لئن قاتلهم واحد لأكونن له ثانياً.

ثم طُلب من علي أن يبايع فقال: فإن لم أفعل؟.

فقال ابن عوف مهدداً: يا علي.. لا تجعل على نفسك سبيلاً.

ويسخر علي من أصحاب الشورى معيراً إياهم بما سبق منهم؛ فقد جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن علياً قال:

أما أنت يا عثمان ففررت يوم حنين وتوليت يوم التقى الجمعان..

وأما أنت يا طلحة فقلت: إن مات محمد لنركضن بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا..

وأما أنت يا عبد الرحمن فصاحب قراريط..

وأما أنت ياسعد فتدق أن تذكر.

عثمان على منبر الرسول

يأتي شيخ أمية أبو سفيان ليكشف عما في نفسه وقد أذاقه الله من العذاب الأدنى شوه الجدري وعشى البصر وقبح المنظر قائلاً: «أفيكم أحد من غيركم»!

فيقولون وهم لا يعلمون ما يهمّ بقوله: لا..

فيقول وقد علم أن الأمر لهم: يا بني أمية تلقفوه تلقف الكرة.. فوالذي

يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة!!

وروي أن عثمان أنّبه على ذلك.. ولكنه لم يحكم بردته وقتله.

جلس عثمان في جانب المسجد، ودعا ابن عمر وكان محبوساً في دار سعد بن أبي وقاص وهو الذي نزع السيف من يده بعد قتله جفينة والهرمزان وابنة أبي لؤلؤة.

وكان يقول والله لأقتلن رجالاً ممن شرك في دم أبي؛ يعرّض بالمهاجرين والأنصار.

والله سبحانه يقول: ﴿فلا يسرف في القتل﴾.

فقام إليه سعد فنزع السيف من يده وجذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض وحبسه في داره حتى أخرجه عثمان إليه؛ فقال له: «قاتلك الله قتلت رجلاً يصلي وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله ﷺ! ما في الحق تركك»!

ثم قال: «أشيروا علي في هذا الذي فتــق في الإسلام ما فتق!».

فقال علي: أرى أن تقتله.

فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم!

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان.. إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

قال عثمان الذي سبق منه القول للقاتل أنه فتق في الإسلام، وما في الحق تركه: «أنا وليّهم وقد عفوت!!!».

إنك لا تجني من الشوك العنب

يروي البلاذري في أنساب الأشراف[1]: لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة أميراً فمكث ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً وإنه لأحب إلى قريش من عمر لشدة عمر ولين عثمان لهم ورفقه بهم.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ٥/ ٢٥.

ثم توانى في أمرهم واستعمل أقاربه وأهل بيته في الست الأواخر وأهملهم.

وكتب لمروان بن الحكم بخمس أفريقيا.

وأعطى أقاربه المال وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها.

واتخذ الأموال، وأنفق من بيت المال مالاً، وقال:

إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ما كان لهما؛ وإني آخذه فأصل به ذوي رحمي فأنكر عليه الناس[1]. وقال علي لبني عبد المطلب كما ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:

يا بني عبد المطلب قومكم عادوكم بعد وفاة النبي كعداوتهم النبي في حياته، وإن يطع قومكم لا تؤمّروا أبداً[2].

فرد عليه عبد الله بن عمر: يا أبا الحسن أتريد أن تضرب بعضهم ببعض!

فقال له علي: «اسكت ويحك فوالله لولا أبوك وما ركب مني قديماً وحديثاً؛ ما نازعني ابن عثمان ولا ابن عوف».

وبدأ الحصاد مع البذر.. إذ سرعان ما نزعت أغصان شجرة الحكم إلى الترعرع من مناهل بيوت المال.. ورأى الناس فتوحات رسول الله ﷺ التي رويت بدماء وجهاد أمة نبيهم وقد أصبحت قصوراً لولاة عثمان. كان المقاتلون في سبيل الله يلبسون الأسمال في جهادهم فإذا بعرقهم أصبح قصوراً لولاتهم. وما من قصر يرتفع إلا على أكتاف ألف فقير يدقع، وما من شراع من المال يعلو إلا وجمعٌ ألموا وذلّوا.

وتكلم عثمان بما يرضي الناس قولاً ولكنه لم يأخذ على يد الولاة عملاً فقال: «إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة».. فبقي جباته يرتعون.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ٥/ ٢٥.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٤١١.

ولكن من ألف الغنى أنف أن يعود في الفقر يردى، ولو تردى من دينه ما تردى، حتى وإن نال من ولايته الويلات. لقد نالوا ـ وهم في ولايتهم لعثمان من الكنوز ـ ما يفوق ما تهوي إليه نفوسهم؛ وسيحفظون ما كسبوا ولو ذهبت دونه مهجهم.

كانوا أسوة في عهد الرسول في البذل والإيثار وإذا بهم يستنزفون أهل الفقر والإقتار.

ويزداد حرمان المحرومين ويزيد ألمهم أنهم يرون تراثهم نهباً.

فها هي آلاف ابن عوف تزداد بالخيل المسومة والأنعام.

و فضة زيد بن ثابت وذهبه أصبحت مما لا يكسر بالفؤوس.

ولا حرج على من يحدّث عن مئات طلحة من العبيد والإماء.

أو عن قصور الزبير بمصر والكوفة.

وأعطى عثمان أبا سفيان بن حرب مائتي ألف درهم[1].

لا ريب أن توليتهم عثمان بدل علي كان مما لم يندموا عليه.

لقد لحق الناس بدين محمد ﷺ لما يحمل من مساواة.. أفيتحول هؤلاء إلى لاعقين للثروة ضاربين المساواة والتآخي بسيف البذخ! لقد أصبحوا بنعمة الله في دين الله إخواناً! أفهل يعودون للمستكبرين مطايا تجتر استعبادها أضغاناً! وما حظره عمر على هؤلاء الذين أترفوا أباحه عثمان؛ فسافروا وتاجروا فأُكثروا. لقد قال رسول الله ﷺ: «ما يسرني أن لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله أموت وأترك منه قيراطين»..

قيل: «أو قنطارين يا رسول الله». فأجاب: «بل قيراطين».

وكان عثمان سخياً ولكن على رجالاته وكان يغدق ولكن للذين يدورون في فلكه.

(١) العقاد، عبقرية علي ٤٤.

وكان يكثر من أعطياته لأهله مع أنه يعلم مراتبهم من الإيمان.. فمنهم من هو ذو ماض شائن السيرة ومنهم من هو من الطلقاء الذين يقول عنهم الإمام: «ما أسلموا ولكن استسلموا»، بعد أن برقت رايات رسول الإسلام فاتحة مكة. ومع أنه ﷺ تألفهم ليسلموا؛ قام يزيد بن أبي سفيان يشهر سيفه ضد الرسول فأُسر ثم شفع له.

من للصبية يا محمد.. قال النار

أنكروا على عثمان تولية أقاربه؛ فهناك الحكم بن العاص الذي نفاه الرسول إلى الطائف، لا يبرحها إلا بأمره ﷺ لشدة فحشه في القول بما يؤذي الرسول.

وبقي فيها في زمن أبي بكر. وطلب عثمان من عمر أن يشفع له ويخرجه منها. فرده عمر ـ كما رده أبو بكر ـ وهو ينهره بقوله: «يخرجه رسول الله وتأمرني أن أرده! إياك يا ابن عفان أن تعاودني فيه بعد اليوم».

ويخرج عثمان طريد رسول الله من منفاه معززاً ويمنحه مائة ألف..

وهناك ابن سرح الذي أسلم نكاية في الإسلام وحاول أن يغير في كتابة القرآن فأهدر الرسول دمه ثم شُفع له بعد ذلك.

وأما الفاسق الوليد بن عقبة ـ كما وسمه الله في كتابه وهذا ما ذكرته التفاسير[1] ـ فقد أرسله الرسول إلى بني المصطلق بعد إسلامهم، فأخبره أنهم هموا بقتله ومنعوا صدقاتهم على ما في تفسير ابن كثير[2]؛ وهذه تهمة لهم بالردة.. وكادت فتنته أن تشعل حرباً. فسبقت فيه الآية: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾**.

وهو ممن بشر بالنار[3]؛ فعن ابن عباس قال: فادى النبي ﷺ بأسارى بدر؛ فكان فداء كل واحد منهم أربعة آلاف وقتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء. فقد قام إليه علي بن أبي طالب فقتله صبراً.

(١) القرطبي ١٦/ ٣١١.
(٢) ابن كثير ٤ / ٣١١.
(٣) المستدرك ٩٣٩٤.

وقد قال قبل قتله: من للصبية يا محمد! فبشره وبنيه؛ قال: النار[1].

ومنهم المؤلفة قلوبهم بأعطيات الرسول كي لا يظاهروا الكفار.

وكان يعلل أخذه من بيت المال وإعطاءهم بقوله: «إني لأعطي أقواماً أتألف ظلعهم وجزعهم، وأكِل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى».

هلاك هذه الأمة على يدي أغيلمة من قريش

والحق يقال إن مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ كان الحاكم لا المستشار فحسب. وقد سعى لذلك وهو يرى إيثار عثمان لأهل بيته.. وحظي بالنصيب الأوفى في دولة عثمان عندما زف إلى أم إبان ابنة عثمان وزف أخوه إلى أختها عائشة.

ونال يوم عرسه مائتي ألف من بيت المال.. وعندها أتى زيد بن أرقم خازن عثمان يطلب الإقالة.

فقال له عثمان: أتبكي يا ابن أرقم أن وصلت رحمي!

لا يا أمير المؤمنين.. ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقت في سبيل الله في حياة رسول الله.. والله لو أعطيت مروان مئة درهم لكان كثيراً.

فصاح عثمان بناصحه: ألق المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك[2].

وفي المستدرك: عن رسول الله ﷺ: «إذا بلغت بنو أمية أربعين اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله نحلاً وكتاب الله دغلاً».

وروى أبو هريرة عنه ﷺ: «هلاك هذه الأمة على يدي أغيلمة من قريش»[3].

(١) مصنف عبد الرزاق ٥ / ٢٠٦ والمعجم الكبير ١١/ ٤٠٦.
(٢) المستدرك ٨٣٧٦.
(٣) المستدرك ٤/ ٥٢٦.

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان لا يولد لأحد مولود إلا أتي به النبي ﷺ فدعا له؛ فأُدخل عليه مروان بن الحكم فقال:

هو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون[1].

فتصايح الناس وجعلوا ينالون من مروان ويقولون:

الوزغ ابن الوزغ[2].

غضب الخيل على اللجم

وبلغ الأمر بوسوسة مروان إلى عثمان وتباهيه بدالته عليه أن توجه إلى الإمام ليمنعه من تشييع أبي ذر عندما أمر عثمان بنفيه إلى الربذة قائلاً: «يا علي . . إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره أو يشيعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك». فأبعده علي قائلاً: «تنح . . نحاك الله إلى النار». فما كان من مروان إلا أن أوغر صدر عثمان. ولما اطمأن إلى أن عثمان حمل على علي عاد إلى الإمام قائلاً: «إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر . .».

فبانت مكيدته لعلي فصاح به هازئاً: «غضب الخيل على اللجم».

فاستقدم عثمان علياً، لا استنقاذاً لمقام الخلافة بل انتصاراً لهيبة مروان الذي أراد التشفي . .

وقال له: أولم يبلغك أني نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه!

فعجب علي من مقالته وأجابه: «أوكل ما أمرتنا من شيء يرى طاعة الله والحق خلافه اتبعنا فيه أمرك! بالله لا نفعل».

فلما رأى مروان أن حجته قد دحضت وأن علياً لا يمكن أن يطيعه فيما يخالف الحق؛ قال وهو يروم أن يضرب عثمان علياً: فأقد مروان!

(١) المستدرك ٤/ ٥٢٦.
(٢) الطبقات الكبرى ٥/ ٦٧.

فعجب علي وقال: وما أقيده! فقال له: ضربت بين أذني راحلته.

فقال علي: أما راحلتي فهي تلك، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه، ولا أقول إلا حقاً. .

ليت عثمان لم يُلجىء علياً إلى ما حدث وليته اكتفى بما حدث؛ إذاً لهان الأمر. . إذ أنه وضع نفسه مع مروان بهجوم سافر مع الإمام بقوله له:

«ولم لا يشتمك إن شتمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه»!!

فثار علي به قائلاً: «ألي تقول هذا القول وبمروان تعدلني! . .

فأنا والله أفضل منك وأبي أفضل من أبيك وأمي أفضل من أمك. .

وهذه نبلي قد نثلتها فهلم فانثل بنبلك».

كان الرد ملجماً. فالإمام معدوم العثرات. . وسرّ مروان وهو يرى شوك دسيسته!

كما تزرع تحصد

ودفاعاً عن عثمان كما ينقل عن أشياعه؛ يحسن الذكر أنه كان سخياً حتى ولو اختص بهذا السخاء فروع شجرته. . وقالوا إنه كان ينفق من ماله. . وكان عطاؤه زمن عمر خمسة آلاف درهم في السنة. ولكنه اليوم يعطي الواحد من أقربائه مائة ألف وهي عطيته في عشرين سنة. وأية ثروة تبقى بعد هذا الإغداق في التوزيع!! وأما حادثة ابن الرقم وتنحيته عن بيت المال وما فيها من دلالة على إنفاقه من بيت المال؛ فهناك من يعطي الحاكم حقاً أن يصرف ما يشاء. . وإن خالف سنة رسول الله ﷺ وفعل أبي بكر وعمر. والقول الفصل لشرع الله. وهذا يفسر كيف أن الفقراء لم يسكتوا؛ وماذا يعنيهم أن يتزوج مروان أم إبان ويتزوج أخوه الحريث أختها عائشة. وهم يرون أنه يمنحه «مائة ألف درهم من بيت المال»[1] تستنزف من حقوقهم

(١) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ٣٩ - ٥٠.

ودمائهم.. ومائة ألف للحكم بن أبي العاص.. ودون أن يتزوج. ومائة ألف لبني أمية وآل سفيان ليبنوا مجدهم على حساب دولة الإسلام. ودافعوا عن توليته من لا يستحق بأنه رأي ارتآه.. مع أن عمراً قد حذره أن يرفع أولاد أبي معيط على أكتاف الناس.. ولذا ضج الناس وهم يرون مروان يرفع إلى الصدارة أمثال ابن عقبة وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد ومروان وهم الذين كانوا طريدي رسول الله. وكان يساير الناس في آرائهم بهؤلاء الولاة، وتارة يثور معهم، ولكن بقول لا يضارعه فعل. فتهدأ ثورتهم لتتقد بما هو أشد عندما يتهددهم ويتوعدهم عندما تلجمه الحجج بعد فقد المعاذير. ومروان يوحي إليه زخرف القول ويغريه بالشدة في أخذ معارضيه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً[1]. وكان لا يملك أمام مروان إلا الانصياع. ليته أحس مكر مروان ودناءته وخسته وهو يكيد بأشواك أموية نصائح غير مخلصة له، وهو الذي ائتمنه. وكان يختلق الذرائع والأكاذيب للتمويه والتدليس؛ لأنه لم تكن تخفى عليه عاقبة خنق كلمة الحق. كما لم تخف على أحد إنكار الناس لترف عثمان وغرق أهله في عطاياه.. وهذا ما حمل أخطر العواقب للخليفة نفسه. وتزداد الأزمة سوءاً فقد زاد الظلم.. ولم يسلم من ذلك أفاضل الصحابة الذين أفاض الرسول في ذكر مناقبهم.

بشر الذين يكنزون الذهب والفضة

وهذا معاوية طاغية لا يعدم أن يقمع داعية فهو يدعي أن أبا ذر يفسد الأمر على عثمان؛ ممهداً لنفيه له إلى الربذة؛ خوفاً من أن تقوض دعائم سلطانه. لقد ضاهأ جيرانه الروم سواء في بذخه، أو في سياسته في الإنعام على الأعوان والبذل لإسكات المعارضين والكيد للأقران؛ أو النكال بالمناوئين، أواستغلال رجال الدين ليكون الحاكم قبلة للعابدين؛ لا يحكمون عقلهم في أمر، ولا ينكرون تغيير شرع ربهم في حكم. فأصبحوا مصداق قول الرسول وهم يحذون حذو الذين من قبلهم من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. غدوا غثاء كغثاء السيل يقنعون بالبلل الذي يصيبهم من نهر يستحم فيه الحاكم، وتسبح فيه الرشوة

(١) عباس محمود العقاد ؛ عبقرية الإمام علي.

والكذب، ويطفو فيه النفاق ويغوص المكر والخداع. يقول الغزالي: «فلما رأى معاوية يشيد لنفسه قصر الخضراء ويسخر آلاف العمال في رفع قواعده وشرفاته قال أبو ذر له: إن كانت هذه أموال المسلمين فهذه خيانة، وإن كانت أموالك فهي الإسراف[1]. وجاء في طبقات ابن سعد: لما ورد ابن السوداء الشأم لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يمحو اسم المسلمين. وقام أبو ذر بالشأم وجعل يقول يا معشر الأغنياء.. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله... نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس. فكتب معاوية إلى عثمان: إن أبا ذر قد أعضل بي وقد كان من أمره كيت وكيت. فكتب إليه عثمان إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها فلم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر إلي[2]. وتذكر أبو ذر قول رسول الله ﷺ على ما يروي ابن سعد أيضاً: يا أبا ذر كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفيء!

قال: إذاً والذي بعثك بالحق أضرب بسيفي حتى ألحق به.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر؛ من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر[3].

ابن مسعود الطبيب أمرضني

يقول الغزالي: فإن يكن للأولين عذر في اتهام أبي ذر فما عذر المتأخرين بعدما تكشفت الحوادث عن الفتنة الكبرى ودارت رحى الإسلام على أهله سنين عدداً.

(١) محمد الغزالي الإسلام المفترى عليه ٨٥.
(٢) الطبقات الكبرى ٤/ ٢٢٧.
(٣) الطبقات ٤ / ٢٢٨.

ليته أخذ برأي بي ذر فأقصى معاوية عن الشام؛ إذا لعادت الأمور في المدينة سيرتها الأولى كما في عهد عمر، ولما حدث ما حدث من اضطرابات وانقلابات[1].

وخرج محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر عام خرج عبد الله بن سعد. فأظهرا عيب عثمان وما غير وما خالف به أبا بكر وعمر وأن دم عثمان حلال ويقولان:

استعمل عبد الله بن سعد.. كان رسول الله ﷺ أباح دمه ونزل القرآن بكفره..

وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً وأدخلهم..

ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر.

قال الواقدي: لما قدم أبو موسى الأشعري لقي أبا ذر، فجعل الأشعري يلزمه وأبو ذر يرده قائلا: إليك عني؛ ويقول الأشعري: مرحبا بأخي. ويدفعه أبو ذر ويقول:

- لست بأخيك إنما كنت أخاك قبل أن تستعمل[2].

وبدل أن يلبي عثمان طلب من نقموا على فعاله، لجأ إلى طلب المشورة من ولاته. فجمع أمراء الأجناد معاوية بن أبي سفيان وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وعمرو بن العاص؛ فقال أشيروا علي. فكان منهم من أشار بقمع الناس ومنهم من نصحه بتوزيع المال بينهم.. ثم قام عمرو بن العاص. فقال يا عثمان إنك قد ركبت الناس بمثل بني أمية، فقلت وقالوا، فاعتدل أو اعتزل فإن أبيت فاعتزم عزما وامض قدما.

فقال له عثمان: ما لك قمل فروك أهذا الجد منك! فسكت عمرو حتى إذا تفرقوا قال:

لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم علي من ذلك. ولكني قد علمت أن بالباب

(١) محمد الغزالي الإسلام المفترى عليه ٨٨.
(٢) الطبقات ٤ / ٢٣٠.

قوما قد علموا أنك جمعتنا عليك فأحببت أن يبلغهم قولي لك خيرا أو أدفع عنك شراً.

فرد عثمان عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم وعزم على منع أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه. وكانت سياسة القمع مدعاة لإيقاد المناهضة له؛ إذ أنه لما رد سعيد بن العاص أميرا على الكوفة خرج أهل الكوفة عليه بالسلاح، فتلقوه فردوه وقالوا:

لا والله لا يلي علينا حكما ما حملنا سيوفنا. ليت عثمان أدرك الغش في نصائح الماكر منهم. ليته استجاب لمن أخلص له في نصحه مثل عمار بن ياسر - الذي موعده الجنة - عندما بصّره بالحق ودعاه إلى الرجوع إلى الهدى بدل أن يعاقبه بالتنكيل والإيذاء.

وليته أصغى لابن مسعود بدل أن يأمر عبيده بضربه حتى كسروا أضلاعه ثم ثنى بقطع العطاء عنه.. حتى قيل إن باطن عثمان من القسوة وقطع الأرزاق وكسر الأضلاع يخالف ما يظهر منه من لين ورقة. ولعل عثمان قد لام نفسه عندما عاد ابن مسعود وهو يحتضر قائلاً:

- يا أبا عبد الرحمن.. ما تشتكي؟ فأجابه:

- ذنوبي! فقال له:

- فما تشتهي؟ وبدل أن يطلب أُعطية كما ظن عثمان ذهل وهو يسمع قوله:

- رحمة ربي. فقال عثمان مؤكداً عرفه على معونته:

- ألا أدعو لك طبيباً.

وذكر المحتضر أن كسر أضلاعه كان بأمر من عثمان فقال:

- الطبيب أمرضني. فقال عثمان وقد ذكر أنه قطع عنه العطاء.

- أفلا آمر لك بعطاء! فأجابه

- منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطينيه وأنا مستغن عنه!! فقال عثمان:

- يكون لولدك. فرد عليه:

- رزقهم على الله . فقال عثمان:

- فاستغفر لي يا أبا عبد الرحمن. فأجاب: أسأل الله أن يأخذ لي منك حقي!!

ولام عثمان عمار بن ياسر لأنه أخفى عنه نبأ احتضاره فقال: عهد إلي أن لا أوذنك.

ويبدو أن عثمان أدرك ما فعله ابن مسعود وخاف عاقبة أمره وهو يدعو الله عليه فقال:

- رفعتم والله أيديكم عن خير من بقي.

فقال الزبير متهكما:

لا ألفينك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما وفيتني زادي

عمار تفتق بطنه

ورأى الصحابة أن يرفعوا إليه كتاباً يذكروه به ما خالف من سنة رسول الله ﷺ فحمله عمار إليه فقال عثمان: أنت كتبت هذا! فقال:

- نعم. فقال عثمان:

- ومن كان معك؟ فأجاب:

- نفر تفرقوا فرقا منك!! ولكنه بدل أن يشكر له حسن صنيعه سأله:

- فلم اجترأت علي من بينهم!

وسارع مروان يوغر صدر عثمان وكأن آل ياسر لم يكتفوا بما حاق بهم في الجاهلية فقال: يا أمير المؤمنين.. إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه.

وسارع عثمان ينيل عماراً من الضرب ألواناً وانهال عليه بعصاه. ولكن ذلك لم يشف غليل شجرة بني أمية. فأكثروا من ضربه حتى فتقوا بطنه. ثم ألقوه في الطريق عبرة لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وليت عثمان سمع نصح الصحابة ولم يولّ على الكوفة أخاه لأمه الوليد بن عقبة وهو الذي صرح القرآن بفسقه؛ ولو فعل لما استفحل الأمر ولما عدم العذر وخاصة أنه ولاه بدلاً من سعد بن أبي وقاص الذي قال له:

«ما أدري أحمقت بعدك أم كيست بعدي».

وذعر أهل الكوفة من موبقاته: «بئسما استقبلنا به ابن عفان.. أمن عدله أن ينزع عنا ابن أبي وقاص الهين اللين القريب، ويبعث بدله أخاه الأحمق الماجن الفاجر».

وقالوا: «أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد».

ولما استجار المنكرون على فعال الوليد بعائشة صاح عثمان قائلاً: «أما يجد فسّاق العراق ومرّاقها ملجأ إلا بيت عائشة».

فلما سمعت مقالته رفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت: «تركت سنة صاحب هذا النعل»[1].

وانقلب السحر على الساحر

وقد وصل المجون إلى أن أصبحت الإمارة دار لهو ولعب؛ وقد أنس الوليد إلى ساحر يلعب بين يديه. فقام مرة جندب بن عبد الله الأزدي وشهر سيفه أمام الوليد وقطع رأس الساحر قائلاً: «إن كنت صادقاً فأحي نفسك».. وهجاه الحطيئة بقوله:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالغدر

نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم ثملاً ولا يدري

ليزيدهم أخرى.. ولو قبلوا ... منه لقادهم على حشر

فأبوا؛ أبا وهب: ولو فعلوا ... لقرنت الشفع بالوتر

حبسوا عنانك في الصلاة ولو ... خلوا عنانك لم تزل تجري

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد٤/ ١٣٤.

صبح بأربع ركعات.. وأزيدكم

وليت عثمان عالج أمر سوء معاملة الوليد لرعيته ورداءة سلوكه، حين اشتكوا منه بدلاً من نهره إياهم حين أوصلوا إليه أن الوليد صلى بالناس الصبح أربعاً؛ بعد أن شرب الخمر؛ وقال: وأزيدكم[1]. فقال ابن مسعود: ما زلنا في زيادة مذ وليت علينا.

وثار عثمان في وجه الرجلين اللذين حملا الشكوى: وما يدريكما أنه شرب الخمر.

ففهما مراد عثمان؛ فقالا: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية.

وروى الواقدي أنه ضرب الشهود أشوطاً. ولما دفعا إليه خاتم الوليد وقد سلباه إياه وهو فاقد الوعي من الخمر؛ صاح قائلاً: «تنحيا عني».

فقال علي له: «رددت الشهوه ودفعت الحدود». فقال عثمان لعلي: «فما ترى»!

فقال: «أرى أن تبعث إلى صاحبك؛ فإن أقاما عليه الشهادة في وجهه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد». لقد لزمت الوليد شهادة الشهود، ولكن عثمان كره أن يقيم الحد.. ولم يطلب من أحد أن يفعل ذلك. فراع الناس ذلك وهالهم إحجامه وأحجموا أن يجلدوه وقد رأوا عثمان لذلك كارهاً. فحاول الوليد استغلال الموقف ليهرب فأمسك به علي وعلاه بالسوط. فقال عثمان: ليس لك أن تفعل هذا.

فقال علي: بلى وشر من هذا إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ عليه. فجلده علي؛ أو أمر علي عبد الله بن جعفر فجلده. وعلي يعد حتى بلغ أربعين كما هو مصرح في رواية مسلم. فالأمر إذاً هو حق الله كما قال علي وليس لعثمان.. وليته سعى إلى تطبيقه بدل أن يتهم الإمام قائلاً عنه: «إنه يعيبني ويظاهر من يعيبني».

ليت عثمان سار بسيرة عمر حين جلد قدامة بن مظعون وهو صحابي بدري من

(١) سنن ابن ماجه ٢٥٧١.

أخوال حفصة زوجة الرسول ﷺ. ولم يحد أحد من أهل بدر في الخمر غير قدامة[1].

لقد قال عمر رضى الله عنه: لأن يلقى الله وهو تحت السياط أحب إلي من أن ألقاه وهو في عنقي؛ إيتوني بسوط تام فأمر عمر بقدامة فجلده فغاضب عمر قدامة وهجره[2].

وما بدا من أفعاله هو ما حمل عبد الرحمن بن عوف على القول: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما وليت عثمان شسع نعلي». وقال وهو على فراش موته: عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه. ولما عاب عليه الناس الصلاة أربعاً بمنى. وقد أنكر عليه الصحبة أمراً لم يفعله لا رسول الله ﷺ ولا الخليفتان من بعد ولا هو نفسه قال: «رأي رأيته».

وضج الناس ووصل الأمر مع عثمان ما جعل محمد بن أبي حذيفة يقول لرجل حين غزو الروم: أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً! فيسأله: وأي جهاد!

فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا وفعل كذا وكذا حتى أفسد.

وقد أجمل ابن أبي الحديد في شرح النهج ما سماه مطاعن على عثمان منها:

المطعن الأول أنه ولّى أمور المسلمين من لا يصلح لذلك ولا يؤتمن عليه؛ نحو استعماله الوليد بن عقبة وتقليده إياه حتى ظهر منه شرب الخمر. واستعماله سعيد بن العاص، وعبد الله بن أبي سرح، وعبد الله بن عامر.

المطعن[3] الثاني أنه رد الحكَم بن أبي العاص إلى المدينة. وقد كان رسول الله ﷺ طرده وامتنع أبو بكر من رده فصار بذلك مخالفاً للسنة[4].

المطعن الثالث أنه كان يؤثر أهل بيته بالأموال العظيمة التي هي عدة للمسلمين[5].

(١) فتح الباري ٧/ ٢٥٥ والاستيعاب قسم ٣ و ١٢٢٧-١٢٢٨.
(٢) الاستيعاب ٣ / ١٢٧٧.
(٣) الى (٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/٢٢٧... ٢٣٦، والبحث في المصدر مفصل.

المطعن الرابع أنه حمى الحمى عن المسلمين مع أن رسول الله ﷺ جعلهم سواء في الماء والكلأ.

المطعن الخامس أنه أعطى للمقاتلة الصدقة من بيت مال المسلمين[1].

المطعن السادس أنه ضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر بعض أضلاعه[2].

المطعن السابع أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت.. ولو كان يسوغ له ذلك لفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولفعله أبو بكر وعمر[3].

المطعن الثامن أنه ضرب عمار بن ياسر[4].

المطعن التاسع أنه أخرج أبا ذر إلى الربذة وكيفية إخراجه[5].

المطعن العاشر أنه عطل الحد على عبيد الله بن عمر[6].

المطعن الحادي عشر أن إجمالي الصحابة لم تدفع عنه[7].

لقد فرح عثمان وهو يرى ما جباه عامله على مصر عبد الله بن أبي سرح وقد ولاه بدلاً من عمرو بن العاص فقال لعمرو: إن تلك اللقاح درت بعدك.

فأجاب مظهراً أن ذلك بإفقار الناس: ولكن فصالها هلكت يا أمير المؤمنين.

أما معاوية فقد قابل تذمر الناس الذين منع عنهم العطاء بقوله: «إنما المال مالنا، والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه».

يقول برنارد لويس[8]: فالجماعة أمة الله وممتلكاتها مال الله وكذلك الحال بالنسبة للجيش والغنائم الحربية. وأما أعداؤها فهم بالطبع أعداء الله».

أبو هريرة يضرب بالدرة

إن الذي يستأثر بالمال يستأثر بالتجارة والزراعة والصناعة؛ فتحكم العباد

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٣٧.
(٢) الى (٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ٢٣٧.
(٨) يراجع: Bernard Lewis, the Legacy of Islam, Poltics and War.

سلطة المال. وإذا زالت العدالة اتسعت النقمة؛ نتيجة البعد عن الإسلام الذي لا يفرق بين مسلم مصري ومسلم كوفي أو بصري. ويتقد الحقد على البطانة الناهبة والسلطة المعطية. وهل نقمة الناس وظهور الشعوبية إلا ثمرة هذه التفرقة. فالذين حملوا لواء الإسلام رفعوا لواء سياسة عدله لا الشرعة التي جعلت عبيد السلاطين سوطاً يلهب ظهور الناس وينسبون ذلك إلى الله. إذ لا فضل ولا تباين إلا في التقوى.

لقد جاء عتبة بن سعيد بن العاص يطلب من عمر بن عبد العزيز - وهو صديق له - تأدية عشرين ألف دينار؛ أمر له بها سليمان بن عبد الملك قبل وفاته؛ فقال عمر: «عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين، وأدفعها على رجل واحد! والله ما لي إلى ذلك سبيل»[1].

ولو سار عثمان بسيرة عمر في محاسبة الولاة لنجا من عاقبة الأمور؛ فعمر قد حاسب أبو هريرة وهو من صحابة الرسول ﷺ قائلاً: «عملت من حين استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين؛ ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار.

فقال: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت.

فقال له: قد حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأدِّه. فقال أبو هريرة: ليس ذلك لك.

فصاح به عمر مغضباً: بلى والله وأوجع ظهرك؛ ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه.

ثم قال له: إيت بها.

فقال: أحتسبها عند الله.

قال عمر: ذلك لو أخذتها - من حلال! - وأديتها طائعاً. أجئت من أقصى حجر البحرين يجبي الناس لك. وروى ابن سعد أنه قال له: عدواً لله وللإسلام..

(١) محمد الغزالي الإسلام المفترى عليه ٩٧.

سرقت مال الله[1]. . .

وروي أنه أخذ منه عشرة آلاف وفي رواية إثني عشر ألفاً[2].

عائشة وعثمان

واستشرى المجون والقمار في الأمصار واللعب بالحمام. . ووصل الأمر إلى عائشة فراحت تنال منه. . إذ لم يعد عثمان كما وصل إليها من علم إلا رجلاً كث اللحية وهو ما سمته نعثل. وقالت: هذا قميص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته. وقالت غير عابئة بمنصب الخلافة: «والذي نفسي بيده، لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مخيط عليه فألقيه في البحر». وشايعها على ذلك عمرو بن العاص الذي حنق لعزله عن مصر وأثرت عنه قولته في عثمان: إن كنت لأحرض عليه حتى أني لأحرض عليه الراعي في غنمه برأس الجبل.

أُحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول

ونهى جبلة بن عمرو عن رد السلام على عثمان قائلاً: «أتردون على رجل فعل هذا». .

وقال لعثمان: «والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك».

فقال عثمان: أي بطانة! فوالله إني لا أتخير الناس.

فأجابه مكذباً إياه: مروان تخيرته ومعاوية تخيرته وابن عامر تخيرته وابن سعد تخيرته؛ منهم من نزل القرآن بذمه وأباح الرسول دمه. .

والله لأقتلنك يا نعثل. . ولأحملنك على قلوص جرباء. . ولأخرجنك إلى حرة النار. .

وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول.

(١) طبقات ابن سعد قسم ٢ / ٥٩ - ٦٠.

(٢) تاريخ الذهبي ٢ / ٣٣٨ وسير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٤ والعقد الفريد ١ / ٥٣.

ويفيء الناس إلى علي فيذهب إليه ممحضاً النصح واتباع العدل والسنة: «وقد رأيت ما رأينا وسمعت ما سمعنا. .وصحبت رسول الله كما صحبنا. . وما ابن أبي قحافة أولى بعمل الحق منك. ولا ابن الخطاب بأولى شيء من الخير منك». .

وقال له: «. . الله الله في نفسك. .

تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل؛ هدي وهدى؛ فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة. . فوالله إن كلام الله لبين وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَل وضُل به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم. فيدور في جهنم كما تدور الرحا ثم يرتطم في غمرة جهنم.

وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته فإن عذابه شديد أليم.

وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول. .

فإنه يقال يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة. . وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً»[1].

فقال عثمان: قد والله علمت ليقولُن الذي قلت. . أما والله لو كنت مكاني ما ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي. . .

أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك. قال: نعم.

قال: فتعلم أن عمر ولاه. قال: نعم.

قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته!

قال علي: سأخبرك؛ إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على

(١) المستدرك- ٦٤٥.

صماخه إن بلغه عنه حرف جلبه، ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنت لا تفعل!

.ضعفت ورفقت على أقربائك! قال عثمان: هم أيضاً.

فقال علي: لعمري إن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم!

قال عثمان هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته!

فقال: أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه.

قال: نعم.

قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها.. فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغيّر على معاوية!!

في الصيف ضيّعت اللبن

وكرر الإمام النصح لعثمان:

«فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضي العمر».

ولكن مروان كان بالمرصاد لأية محاولة إصلاحية. وليت عثمان سمع النصيحة وأنصف الناس بدل أن يقول لهم مهدداً:

ألا والله وقد عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله.. ولكنه وطئكم برجله.. وضربكم بيده وقمعكم بلسانه.

ولم ينل الناس غير التهديد تارة.. ووعوداً لم يحصدوا منها إلا قبض الريح. وعثر الحظ بعثمان حين أضاع خاتم رسول الله ﷺ فتطاير الناس منه.

وفي الكوفة رأى الناس كسرى قد عاد بثوب جديد عندما قال لهم عامل عثمان سعيد بن العاص:

إنما هذا السواد بستان قريش.

فثاروا عليه وتواثبوا بالسباب والضرب..

ولما عاد إليها بعد مغادرتها منعوه دخولها فسقطت هيبة الخلافة في الرغام.

ويرسل عثمان إلى الكوفة محمد بن مسلمة، وإلى البصرة أسامة بن زيد، وإلى الشام عبد الله بن عمر، وإلى مصر عمار بن ياسر، وغيرهم إلى أمصار أُخرى ليستجلي الأخبار، فلعلهم إذا حملوا حسن الأخبار إلى المدينة هدأت الفتنة فيها. وعادوا إلا عماراً الذي تأخر ووصل بدلاً عنه كتاب من ابن أبي سرح يقول: «إن عماراً قد استماله قوم انقطعوا إليه ومنهم عبد الله بن السوداء».

وانطلق الساسة للطعن بعمار وجعله كبش فداء.. ولكن الدسيسة لم تخف على سواد الناس وهم يعلمون إيمان عمار وشهادة الرسول به.

وغرق عثمان في عيون مروان الماكرة كمكر عيني أبيه؛ وراثة من الحكم الذي كان مؤذياً لرسول الله يطلع عليه وهو في حجرات نسائه؛ حتى قال فيه ﷺ على ما في التنازع والتخاصم للمقريزي:

«من عذيري من هذا الوزغة! لو أدركته لفقأت عينه». ثم لعنه وما ولد وغربه عن المدينة.

فتصايح الناس وجعلوا ينالون من مروان ويقولون: الوزغ ابن الوزغ. فلم يزل خارجاً منها بقية حياة الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر حتى رده عثمان وولده مروان؛ ولما مات ضرب على قبره فسطاط. وفي الاستيعاب يقول: «إنه كان كهفاً للمنافقين منذ أسلم» ويقول: «وإن له أخبار ردية وإن إسلامه لم يكن سالماً»[1].

واستبشر الناس خيراً عندما دعا عثمان علياً وصحابة الرسول للمشاورة؛ ولكن الاستبشار عاد نقمة وقد فوجئوا بمعاوية وقد سبق دهاؤه ولاءه.. فقد لف وعيده للناس بتعظيم نفسه والتحذير من سطوته التي لا ترعوي عن سفك دمهم.

ابن هند

لقد قال معاوية مهدداً الناس: «إن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم،

(١) الاستيعاب ٢/ ٧٠٠٩- ٧٠١٠.

ومن إن قلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم، وأعد من جمعكم، ثم استن عليكم بسننكم، ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي. .».

فعاجله علي يكشف عن سريرته: «كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء!! لست هنالك».

ورد قول معاوية إلى الأذهان ما سبق أن توعد به عماراً قائلاً: «إن بالشام مائة ألف فارس، كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم. . لا يعرفون علياً ولا قرابته ولا عماراً ولا سابقته ولا الزبير ولا صحابته. .».

ثم قال: فإياك يا عمار أن تقع في فتنة تنجلي فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل علي.

هذا هو معاوية وقد رسخت الشجرة التي بذرها جده أمية حين نفي إلى الشام بعد أن نافر هاشماً. وسقيت الشجرة بولاية أخيه يزيد عليها في زمن أبي بكر وعمر. وها هو ثالث بني أمية يفصح عما وقر في صدره. .

إنه ابن هند التي يقول عنها ابن أبي الحديد: «وكانت هند تذكر في مكة بفجور وعهر»[1].

ويذكر الزمخشري في ربيع الأبرار: كان معاوية يعزى إلى أربعة؛ إلى مسافر ابن أبي عمر وإلى عمارة بن الوليد بن المغيرة وإلى العباس بن عبد المطلب وإلى الصباح؛ وقد كان أبو سفيان دميماً قصيراً وكان الصباح عسيفاً[2] لأبي سفيان شاباً وسيماً فدعته هند إلى نفسها فغشيها.

وقالوا إن عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً. مع أن هناك رواية تفيد أنهم احتكموا إلى أحد العرافين فحكم ببراءتها من ذلك.

ويقول الزمخشري في ربيع الأبرار أيضاً: «وكان معاوية أبد الدهر مبغضاً لعلي عليه السلام شديد الانحراف عنه. وكيف لا يبغضه وقد قتل أخاه حنظلة يوم بدر وخاله الوليد بن عتبة، وشرك في جده وهو عتبة أو في عمه وهو شيبة. وقتل من بني عبد

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١١١.
(٢) أجيراً.

شمس نفراً كثيراً من أعيانهم وأماثلهم».

لقد كان معاوية يعلم أن نهر الأحداث سيورد عثمان حتفه. ولكنه بدل توسعة رقعة سلطانه بفتح بلاد الروم وقتال الذين يلونه من الكفار كما يأمر تعالى في كتابه العزيز، آثر أن يقتطع أرض الإسلام. وبلغ من مكره ليعلو في عين عثمان في أمر لن يرضاه؛ أن طلب منه الرحيل إلى الشام وأنها منعة له. .

ولما أبى عثمان أردف وقد أحكم فصول كيده بما لم يكن يدور في خلد عثمان: فاجعل لي الطلب بدمك.

وعاد منتصراً يستعجل الأحداث التي ستعصف برأس عثمان وقد قال له: هذه لك.

وما ذلك ببعيد.

وغلت مصر فتنة وفار فيها التنور وعبد الله بن سرح يرتع في خيراتها، لاه عن خروج قوم منها إلى المدينة للشكوى وهم يدّعون الحج. فلما علم أرسل إلى عثمان محذراً. فطلب منه عثمان اللحاق بهم ليقمعهم. ولكن كيده بطل حين غير الناقمون وجهتهم ففشل في النيل منهم. . وأنى له التناوش من مكان بعيد. فما كان من محمد بن أبي حذيفة إلا أن غلب على مصر فانطلق إليها خوفاً على منصبه فيها[1] بدلاً من الانطلاق إلى الخليفة لنجدته. . وقد سمع بأن الثائرين قد عسكروا حول المدينة ورفدهم في حمل السلاح أخلاط من أهل الكوفة والبصرة. . لم تكن للثائرين وحدة قيادة ولا هدف. . فكان البصريون يميلون إلى طلحة وهوى الكوفيين مع الزبير. . أما المصريون فكانوا يريدون علياً. . لو كان غير علي لسارع إلى احتلاب النصر والسيادة. . أما علي فقد علا على أهوائهم. . فالدولة التي يريدها ليست تلك التي تقوم على الفتن والدماء؛ فكيف إذا كانت الدماء دماء المسلمين. .

إنه يريدها دولة إلهية يقودها إمام يهدي بأمر الله. . وهذا ما لم يفهمه الناس عندما أرادوا علياً فلم يقد ثورتهم. ولم يفهمه عثمان فدأب على اتهام الإمام بمناصرة الثوار.

(١) البلاذري ٥/ ٦١.

وليته أصاخ السمع للإمام ورفع عن الناس ما حاق بهم من ظلم؛ فالظلم مرتعه وخيم.

وها هم الثوار قد نزلوا ذا خشب. وجاء الخبر أن القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع. وأتى رسولهم إلى علي ليلاً وإلى طلحة وإلى عمار بن ياسر وكتب محمد بن أبي حذيفة معهم إلى علي كتاباً.

فلما رأى عثمان ما رأى جاء علياً فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عم إنه ليس لي مترك، وإن قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك. وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحيّ. وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عني. فإني لا أحب أن يدخلوا علي فإن ذلك جرأة منهم علي وليسمع بذلك غيرهم..

فقال علي: علام أردهم.

قال: على أن أصير إلى ما أشرت به علي ورأيته لي ولست أخرج من يديك.

من جرب المجرب

قال علي لعثمان وقد مل تذكيره: إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة... ونقول وتقول.. وذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية أطعتهم!

وتكررت الوعود وتكررت عودته إلى علي ليخلصه؛ حتى قال له علي: «فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة؛ فتقول يا علي اركب إليهم ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً! ويقدم ركب آخرون من البصرة؛ فتقول يا علي اركب إليهم فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك بحقك».

فخرج عثمان فخطب خطبة أعطى الناس من نفسه التوبة.

وفي منزله وجد مروان وسعيداً ونفراً من بني أمية يكيدون لفتنة جديدة؛ ولم يكونوا شهدوا الخطبة. فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين أتكلم أم أصمت.

فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان الكلبية:

لا بل اصمت فإنهم والله قاتلوه إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها.

فقال مروان: ما أنتِ وذاك.. وقال لعثمان محرضاً: بأبي أنت وأمي والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع. فكنت أول من رضي بها وأعان عليها. ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى..

وزين له المكر من جديد بالقول: والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها. وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقر بالخطيئة. وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس. وفعلت مكيدة مروان فعلتها إذ قال عثمان وقد انصاع لرأي مروان في نكث عهده مع الناس: فاخرج إليهم فكلمهم فإني أستحي أن أكلمهم.

فخرج مروان يستثير الناس بدل تهدئتهم وقد ركب بعضهم بعضاً فقال:

ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب.. شاهت الوجوه كل إنسان آخذ بأذن صاحبه.. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا اخرجوا عنا.

ثم هددهم قائلاً: «والله.. ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا».

أقم كتاب الله

ويأتي علي عليه السلام ناصحاً مغضباً ويدخل على عثمان قائلاً:

أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا عن دينك وعن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به..

والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه.. وما أنا بعائد بعد مقامي هذا. أذهبت شرفك وغلبت على أمرك.

فلما خرج علي دخلت عليه نائلة امرأته فقالت أتكلم أو أسكت فقال: تكلمي!

فقالت: قد سمعت قول علي لك.... وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء!

قال: فما أصنع! قالت تتقي الله وحده لا شريك له وتتبع سنة صاحبيك من قبلك فإنك متى أطعت مروان قتلك. ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة.

ولما صعد عثمان يوم الجمعة المنبر قام رجل فقال: أقم كتاب الله.

فقال عثمان اجلس فجلس حتى قام ثلاثاً.

وثارت الفتنة والضرب بالحصباء حتى ما ترى السماء. وسقط عثمان عن المنبر وحمل فأدخل داره مغشياً عليه.

ويروي الطبري: «وكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامله على مصر، حين تراجع الناس عنه وزعم أنه تائب، بكتاب في الذين شخصوا من مصر وكانوا أشد أهل الأمصار عليه..».

أما بعد فانظر فلاناً وفلاناً فاضرب أعناقهم إذا قدموا عليك. فانظر فلاناً وفلاناً فعاقبهم بكذا وكذا؛ منهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم قوم من التابعين.

فكان رسوله في ذلك أبو الأعور بن سفيان السلمي؛ حمله عثمان على جمل له ثم أمره أن يقبل حتى يدخل مصر قبل أن يدخلها القوم».

ما أنت إلا صادق أو كاذب

لحق أبو الأعور المصريين ومعه رجل من أهل الشأم من خولان ببعض الطريق. فسألوه أين يريد قال أريد مصر. فلما رأوه على جمل عثمان قالوا له: هل معك كتاب.

قال: لا.

قالوا: فيم أُرسلت؟ قال: لا علم لي.

قالوا: ليس معك كتاب ولا علم لك بما أرسلت!!

ففتشوه فوجدوا معه كتاباً في إداوة يابسة. فنظروا في الكتاب فإذا فيه قتل

بعضهم وعقوبة بعضهم في أنفسهم وأموالهم. فلما رأوا ذلك رجعوا إلى المدينة.. فبلغ الناس رجوعهم والذي كان من أمرهم فتراجعوا من الآفاق كلها وثار أهل المدينة.

فلما أتوا عثمان قالوا: هذا غلامك! قال: غلامي انطلق بغير علمي.

قالوا: جملك! قال: أخذه من الدار بغير أمري.

قالوا: خاتمك!! قال: نقش عليه.

قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب. فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من سفك دمائنا بغير حقها. وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع لضعفك وغفلتك وخبث (مروان) لأنه لا ينبغي لنا أن نترك على رقابنا من يقتطع مثل هذا الأمر دونه لضعفه وغفلته.

وقالوا له: إنك ضربت رجالاً من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، حين يأمرونك بمراجعة الحق عند ما يستنكرون من أعمالك. فأقد من نفسك من ضربته وأنت له ظالم.

فقال: الإمام يخطىء ويصيب. فلا أقيد من نفسي؛ لأني لو أقدت كل من أصبته بخطأ آتي على نفسي.

قالوا: إنك قد أحدثت أحداثاً عظاماً استحققت بها الخلع، فإذا كلمت فيها أعطيت التوبة؛ ثم عدت إليها وإلى مثلها. ثم قدمنا عليك التوبة والرجوع إلى الحق، ولامَنا فيك محمد بن مسلمة، وضمن لنا ما حدث من أمر فتبرأ منك، وقال لا أدخل في أمره.

فرجعنا أول مرة لنقطع حجتك ونبلغ أقصى الإعذار إليك. نستظهر بالله عز وجل عليك. فلحقنا كتاب منك إلى عاملك علينا تأمره فينا بالقتل والقطع والصلب، وزعمت أنه كتب بغير علمك! وهو مع غلامك وعلى جملك وبخط كاتبك وعليه خاتمك..

فقد وقعت عليك بذلك التهمة القبيحة مع ما بلونا منك قبل ذلك من الجور في الحكم، والأثرة في القسم..

والعقوبة للأمر بالتبسط من الناس والإظهار للتوبة ثم الرجوع إلى الخطيئة.

ولقد رجعنا عنك..

فاردد خلافتنا واعتزل أمرنا فإن ذلك أسلم لنا منك وأسلم لك منا.

فقال عثمان: فرغتم من جميع ما تريدون؟ قالوا نعم.

قال: أما قولكم تخلع نفسك، فلا أنزع قميصاً الله عز وجل أكرمني به وخصني به على غيري..

ولكني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون..

فإني والله الفقير إلى الله الخائف منه.

قالوا: إن هذا لو كان أول حدث أحدثته ثم تبت منه ولم تقم عليه؛ لكان علينا أن نقبل منك وأن ننصرف عنك. ولكنه قد كان منك من الإحداث قبل هذا ما قد علمت.. ولقد انصرفنا عنك في المرة الأولى وما نخشى أن تكتب فينا ولا من اعتللت به بما وجدنا في كتابك مع غلامك.

وكيف نقبل توبتك! وقد بلونا منك؛ أنك لا تعطي من نفسك التوبة من ذنب إلا عدت إليه. فلسنا منصرفين حتى نعزلك.

فإن حال من معك من قومك وذوي رحمك وأهل الانقطاع إليك دونك بقتال، قاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله.

فقال: أما أن أتبرأ من الإمارة فإنه أحب إلي أن تقتلوني من أن أتبرأ من أمر الله عز وجل وخلافته.

فانصرفوا وقد أيقنوا أنه غير عائد عما صار رأيه إليه.

شاهد غير حاضر وحاضر غير شاهد

فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام يستنجزه وعده بالنصرة: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛

فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول.

أخفى معاوية الكتاب ـ كي لا يتهم بإبطاء في الإجابة ـ إذ أن له رأياً آخر؛ فالطلب بدم عثمان ميتاً أحب إليه من نصرته حياً. وتفتق ذهنه عن حيلة ماكرة.. يخذل بها عثمان حياً مظهراً نصرته ويبكي عليه ميتاً يطلب دمه. وما عليه أن يرسل جيشاً يسمع به الناس ولا يرونه. جيش عليه يزيد بن أسد القسري.. أرسله بعد أن قال له:

«إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ولا تتجاوزها. ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب.

إنه شاهد من قصره مقتل عثمان وجيشه غائب عن نصرته وإن سمع الناس به. إنه هو الشاهد وهو الجاني. وجيشه غائب عن نصر من أرسل للنصرة، فالقطاف قريب.

ولكن مروان يعود إلى تأليب عثمان على الثائرين وأن ينكث وعوده ليحفظ عرشه فما كان من عثمان إلا أن صعد المنبر ناكثاً بوعده موقداً إعصاراً سبق أن أطفأه له علي بقوله:

أيها الناس، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم رجعوا إلى بلادهم.

فصاح به عمرو بن العاص منكراً مستنكراً: اتق الله يا عثمان.. إنك ركبت أموراً وركبناها معك. فتب إلى الله نتب.

فهزىء عثمان به طاعناً بنسبه: وإنك هاهنا يا ابن النابغة..

وهذا تشهير بعمرو أن أمه النابغة كانت بغياً! وتوقد حقد ابن النابغة ـ كما ناداه ـ أكثر حين قال له ينعى عليه خيانته لبيت المال، حين كان والياً على مصر قبل أن يعزله عثمان: قملت والله جبتك منذ تركت العمل.

وثار الناس من جديد بوعود تنكث قبل أن تخلق بفعل سماع عثمان مشورة مروان.

وصعد عثمان المنبر في صلاة الجمعة فحمد الله وأثنى عليه، فثار رجل فأقعده رجل. وقام آخر فأقعده آخر، ثم ثار القوم فحصبوا عثمان حتى صرع. فاحتمل فأدخل.

وعلم علي فأسرع إلى دار عثمان يسأل عنه، فما كان من بني أمية إلا أن ثاروا في وجهه، لقد دفع عنهم الفتنة مرات ومرات وكان جزاؤه السخط والإنكار وقالوا له مظهرين خبثاً من سريرتهم:

«أهلكتنا يا علي، وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين». ونظر علي إلى عثمان فرأى بعينيه سيماء الرضا عن قولهم. لقد سبق القول من عثمان لعلي كما يروي ابن أبي الحديد: «والله لا تصل إليك ولا إلى أحد من ولدك»[1].

إنّا والله لئن بلغت الذي تريد لنمرن الدنيا عليك

هم بنو أمية يقولون لعلي: «إنا والله لئن بلغت الذي تريد لنمرن الدنيا عليك».

أهذا جزاء المعروف.. كيف ينكر عثمان أن علياً هدأ ثائرة الناس مرات ومرات، كيف ينسى أهل عثمان وبنو أمية قاطبة أن ثقة الناس بأقوال علي رغم إخلاف عثمان عهوده مرات ومرات هي التي أبقت عثمان وحمته من غضبة أمة محمد ﷺ.. وهل ترك علي سلاحاً يدافع به عن عثمان لم يعمله.. وماذا فعل للنصرة أهل عثمان وأصحاب أهل عثمان وأصحاب عثمان؛ بما فيهم معاوية واليه على دمشق الذي كان يرتقب خبر مقتله..

أو لم يكونوا جميعاً معاول هدامة تدك قوائم خلافته وتبذر الشر والفتن بين المسلمين؟

ألم تتهم جموع من الناس علياً بأنه قصر في نصرتها.. حتى وهو يرى كيف تلتف الجموع حول طلحة بن عبيد الله، الطامع بالخلافة منذ أيام ابن عمه أبي بكر؛

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١/ ١١٣.

بعد أن عجزت أن تغري علي بن أبي طالب بالسعي لمنصب الخلافة؟

وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم. لا يخرج أحد ولا يجلس إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم.

الغافقي يصلي بالناس:

وبقي عثمان يصلي بالناس عشرين يوماً ثم منعوه من الصلاة. فقد حاجه الثائرون بكتاب الله لمخالفته في توزيع الأعطيات ثم حصروه. وكان الحصار أربعين يوماً..

ثم صلى بالناس أميرهم الغافقي؛ دان له المصريون والكوفيون والبصريون.

كان مروان مشاهداً لما يصدر عن عثمان مجالداً ألا يكون ذلك إلا بإذنه ومشورته، وكان عثمان ـ لسوء طالعه في هذا الخِل ـ يرى أن مروان ممن يوثق بهم.. لقد كرر علي النصح لعثمان مرات ومرات، وكان عثمان يخذله في وعود الرعية في كل مرة حتى قال الناس لعلي وهم يرون مروان بن الحكم لصيقاً به لا يفارقه:

«فليدفع إلينا مروان حتى نعرف كيف يُؤمَر بقتل رجال من أصحاب الرسول وقطع أيديهم بغير حق، فإن كان عثمان كتب عزلناه وإن كان مروان كتب نظرنا فيما يكون من أمره». ليت الناس وجدوا من عثمان آذاناً صاغيةً. لقد صبروا حتى عجزوا وتحملوا حتى ذلوا ولاكوا خليفتهم حتى ملوا. فرأوا النيل منه وأجمعوا.

اللهم اكفني طلحة

ليت عثمان قبل نصائح علي وقابل حسن صنيعه بالشكر والعرفان وقابل بالضغينة الشر الذي حملته له مشورات بني أمية. وليته لم يلتفت إلى مشورتهم التي حملته إلى إبعاد علي عن المدينة بذريعة الخوف من أن يلتف الناس حوله. وليته اتخذه ناصحاً لينجيه ممن يخالف الدين. ولو أبقاه لمحضه النصح وأنقذه من ثورة الناس. ليته فعل!

ما كان باستطاعة الخليفة بعد أن حصبه الناس بالحجارة في المسجد أن يسير بين الناس. وهذه سابقة خطيرة من سلوك الناس فتحت الطريق للثورة على غيره من الخلفاء.

ولم يعد باستطاعة الخليفة أن يذهب إلى المسجد للصلاة.. فآثر أن يحبس نفسه فأضحى أسيراً لسجنين.. سجن داره وسجن مشورة مروان بن الحكم ابن طريد رسول الله..

وزاد إحكام الحصار شدة الأمر مع الأيام.

ورأى بأم عينيه جموع الغاضبين يترأسهم ابن عديس ويتقدمهم طلحة بن عبيد الله وسمعهم يتحاورون: «ماذا تنتظرون به!».

«بل لا تعجلوا به، فعساه ينزع ويرجع...».

ويقول ابن عديس بعد ما تشاور مع طلحة: «أيها الناس، لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان أو يخرج من لدنه..».

فقال عثمان: هذا ما أمر به طلحة! اللهم اكفني طلحة فإنه حمل هؤلاء القوم وألبهم علي.. والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً ويسفك دمه؛ فقد انتهك مني ما لا يحل له.

ما العمل! ليس له إلا علي؛ وكان قد اعتزل الناس في خيبر.

فأرسل في طلبه وناشده العون بكافة الحقوق وطلب منه المنعة.

ويقبل علي رغم ما سبق أن صدر من عثمان؛ فهو رجل لا كالرجال.. وهو فوق الشبهات ووعده أن يكفيه ويذهب إلى طلحة قائلاً:

ـ «يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه وصنعت بعثمان».

ـ يا أبا الحسن، أبعد أن مس الحزام الطبيين!

علم علي أن طلحة يرى الناس تنزلق أقدامهم إلى الثورة بسبب الحرمان والفقر الذي عانوه بسبب إيثار الخليفة أهله في العطايا على رعيته، فمائة ألف يغدقها على

الواحد منهم إنما هي نصيب ألف من الناس يأخذ كل منهم مائة، وطلحة بغناه يمكن أن يحصد الثورة بماله..

فأسرع علي وصحب أسامة بن زيد إلى بيت المال وطلب فتحه. فلما أبطأ خازنه فتح الباب بنفسه وراح يفرق المال.. فترك الناس ثورتهم وقد نالوا بغيتهم.

وتفرق أصحاب طلحة عنه ولم ينالوا شيئاً بخبث طويتهم.

ذهب طلحة إلى عثمان محاولاً الاعتذار آملاً أن تكون لعثمان من الفطنة ما يستميله بها ولكنه شمت به قائلاً: «أجئت تائباً.. والله ما جئت إلا مغلوباً؛ فالله حسيبك يا طلحة..».

أكل السبع خير من افتراس الثعلب

وفى علي لعثمان وكفاه الناس. وكان حرياً بعثمان أن يفيد من هذه الفرصة لإعادة الثقة إلى الناس. وليته سلك سبيل الحكمة بعد أن سهل له علي سبل تهدئة الثورة.. وليته حين غلَب لم يتعنت حين تمكن.

لقد أوقف علي السيل ولكن سلوك عثمان أعاده جارفاً مدمراً. إذ أنه آثر أن يقمع نقمة الثائرين بطلب العون من مصر بعد أن أبطأت عنه إمدادات معاوية بن أبي سفيان. فزادت ثورة النفوس وعاد الحصار على عثمان ولجأت الجموع الناقمة إلى الإمام علي عليه السلام تطلب منه أن يؤم الناس. ولكنه لم يجبها إلى طلبها بل قال: «لا أصلي بكم والإمام محصور».

فالإمامة لها معنى سياسي لا إقامة للشعائر فحسب.. فالإمام هو الذي يؤم الناس في أمورهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية..

فذهبوا إلى طلحة يقلدونه الإمامة.. فقبلها..

وذهبوا إلى عثمان ليعتزل الأمر فقال مستنكراً: «أتبرأ من الإمارة.. لأن تقيلوني أحب إلي من أن تبرأ من أمر الله وخلافته..».

لقد حجوه بمخالفة القرآن فدحضوا ذريعة الأمر من الله الذي يقول أنه يجلس

في خلافة المسلمين ويحكم به . .

ليته صدع بأمر الله في سيرته في الناس . .

وليته أعطى للناس حقوقهم من بيت المال . .

وليته وفى للناس بعهود وعدهم إياها . .

وليته تخلى عن رفع بني أمية على رقاب الناس . .

وليته سلم الثائرين رأس الفتنة مروان. ولكن هل يمكن لمروان أن ينصح عثمان بما يوقع فيه الضرر إذ أن عثمان لم يدرك أن نصائح مروان لا تصب إلا في إناء نفسه.

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل

لقد يئست الأمة من عثمان وهي تراه يبعد علياً إلى ينبع تارة وإلى غيرها تارة أُخرى.

وأحبطت وهي ترى الظلم الذي يحيط بها فعاد الحصار عليه، وزادت المحنة . . وها هو الزبير يشارك طلحة في تقدم جموع الناس. فيرسل عثمان إلى علي: أكل السبع خير من افتراس الثعلب . . فأقبل عليَّ أو لي.

فـإن كنـت مـأكـولاً فكـن خيـر آكـل وإلا أدركنـي ولمـا أمـزق

ويغضي علي بسجاياه الكريمة على طوايا كلمات عثمان ويخترق الجموع لنجدته ويطلب من طلحة أن يرد الناس عن عثمان فيأبى قائلاً: «لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من أنفسها».

و يخترق علي الجموع بثلاث قرب من الماء يحملها إلى عثمان.

ولكن يسرف عثمان في النكول من جديد؛ فأضحى القوم لا يرضون دون قتله وقد رفض من جديد كافة طرق الإصلاح. إذ لم يذعن لأية تسوية لإقرار النظام وإعادة السلام ولا هو أجاب مطالب الثوار ولا هو اعتزل؛ أهل كان يميل إلى قمع

الثورة وهو ينتظر إمدادات ولاته ليقاتل الناس. . لقد طال الانتظار فمعاوية هو الشاهد وقائده هو الغائب.

يئست الأمة من عثمان فعاد الحصار عليه وزادت المحنة. فيقول علي عليه السلام لولديه الحسن والحسين عليهما السلام: «اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه».

وسارعت نقمة عمرو بن العاص، الذي عزله عثمان عن مصر التي كانت تدر له الآلاف المؤلفة، في إضرام النقمة على عثمان. ولم يخف فرحه بعد مقتل عثمان بالقول أنا أبو عبد الله إن حككت قرحة نكأتها. . وإن كنت لأحرض عليه حتى إني لأحرض الراعي في غنمه برأس الجبل. وقال الجاحظ عن حب عمرو لمصر: فكان يعظمها في نفسه. . وجلالتها في صدره. . وما قد عرفه من أن أموالها وسعت الدنيا لا يستعظم أن يجعلها ثمناً لدينه»[1].

ويصرخ من بين الجموع المحيطة بعثمان نيار الأسلمي ـ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطلب منه الاعتزال لحسم الفتنة. فيشرف عثمان على الناس ويأبى ويصر على التمسك بمقاليد الحكم. . ويصيح الناس به يطالبونه أن يسلمهم مروان؛ فيأبى قائلاً:

«لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي».

مقتل عثمان ما أغنى عنك مروان

وينتهز مروان الفرصة ليشعل نار الدم بسهمه. إنه يطمح أن يجني قطاف الثورة بقتل الثائرين. فيخرج بالحسام ليفرق دعاة السلام وليتوعد حشود الناقمين على عثمان، ويهدد الناس وهو ينشد الأناشيد بصلف وخيلاء داعياً إلى البراز غير مذعن لنهي عثمان له:

«رجل رجل أيها الناس. . ألا من مبارز». فينهض له فتى بأمر ابن عديس؛ فيندم على تسرعه وحمقه. فزمام الموقف قد أفلت والجموع تجمح إلى الهجوم؛ وحماة عثمان ـ والحسن والحسين فيهم ـ لا قبل لهم بوقف سيل جارف. فيقول لهم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٣٧.

عثمان: «الله الله.. أنتم في حل من نصرتي. من كانت عليه طاعة فليمسك داره، فإنما يريدني القوم».

ويتصاول مروان مع غريمه، ولا يصيب مروان إلا قدم الغلام.. ويهوي الغلام بسيفه على عنق مروان فيقطع بعض عنقه ويسقط الغريمان على الأرض؛ ولكن أمنية الناس بأن يقتل مروان لم تتحقق. ويسرع سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن معهم لقتال الثوار.. ويجرح الحسن والحسين في دفاعهم عن عثمان، ويشج رأس قنبر مولى الإمام علي عليه السلام.

ويسيل دم المسلمين في سابقة خطيرة في الإسلام. إذ ما من شرخ جديد إلا ويكون سابقة لما هو أدهى وأمر. ويرى الناس أن سفك الدم لن يوقفه إلا قتل عثمان؛ وأما هو فقد تركهم يقتتلون وعاد إلى حجرته! لكن ما أغنت عنه حجرته إذ سرعان ما قحمت عليه. ويهجم عليه محمد بن أبي بكر وقد نقم عليه غدره به حين أرسله إلى مصر ثم أعقبه برسالة إلى واليها ممهورة بخاتم عثمان نفسه لقتله ثم ادعى أن لا علم له بها. وقيل أن ذلك فعل مروان.

وقال له ابن أبي بكر ذاكراً قولة أخته عائشة: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر».

أما أخزاك الله يا نعثل! فقال عثمان:

ـ ما أنا بنعثل ولكني أمير المؤمنين.

فيقول محمد ساخراً: فعلى أي دين أنت!.

ـ على دين الإسلام.

ـ بل بدلت كتاب الله.

ـ كتاب الله بيني وبينك.

ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا.

فتثور ثائرة ابن أبي بكر وهو يرى يد عثمان تمتد إلى المصحف وقد سبق أن نكل بوعوده مع الناس وغدر به في سعيه لقتله؛ فأمسك بلحيته وهو يقول:

ما أغنى عنك معاوية!

ما أغنى عنك مروان! ما أغنى عنك ابن عامر! إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول:

ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا.

فيقول عثمان: يا ابن أخي، دع لحيتي فقد كان أبوك يكرمها، والله لو رآني لبكاني ولساءه مكانك مني.

فيرتد الفتى لذكر أبيه.. ولكن الجموع الغاضبة تسارع لتنال من الخليفة؛ الغافقي[١] يهوي عليه بحديدة وآخر بنصل حسامه.. وهذه ضربة بمشقص في ترقوته.. وأخرى تقد أصابعه..

احتضنته زوجه نائله فما أغنت عنه بل نالت ضربة على كتفها..

وانهالت عليه ضربات الثائرين.. ولم يترك إلا فاقد الأنفاس.

يقول فلهاوزن[٢]: «فمنذ ذلك الحين (يعني مقتل عثمان) صار للسيف القول الفصل في رئاسة الحكومة التيوقراطية. وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك انسداداً تاماً. لقد سبق أن قال الإمام: إلى أن قام[٣] ثالث القوم نافجاً (أي رافعاً) حضنيه (أي جانبيه؛ تقال للمتكبر)، بين نثيله (الروث) ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته.

قالوا: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم! وهل أحد منهم أشرس لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني.. ولكن لا رأي لمن لا يطاع[٤].

---

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ص ١/ ٣٦٣ مصر.
(٢) فلهاوزن تاريخ الدولة العربية ٥٠.
(٣) يقصد عثمان والخطبة من نهج البلاغة.
(٤) نهج البلاغة، ٣/ ٤٣.

الفصل السابع

بيعــة الإمـــام

زاهد وطامعون و ناكثون

إن علياً لم تزنه الخلافة بل زانها

أحمد بن حنبل

زاهد بما هو له حق وطامعون بغصب حق

كم من فرق بين زاهد بالإمارة تأتيه؛ وطامعين بالسلطان والإمارة زاهدة بهم.. إمام حق وطامعون بغصب حق. ويعجب الناس.. كيف بلغ سعي الطامعين بالخلافة ـ ممن سبق الإمام ـ إلى درجة يهون معها أمر ما سفك من الدماء وما ثار من الفتن؛ والآن يأتي المبايعون إلى الإمام في داره فلا يقبل منهم بل يعدهم بحسن النصح والمشورة.

إنهم لم يفهموا الإمام ولا الإمامة وإن كان الإمام قد فهمهم؛ ولذا حار الكثير بين نص لم يعمل به أهل الحل والعقد وحار به الناس، ولم يذعن فيه لمطالبة الإمام، وبين قبول للخلافة كأمر واقع.

ثم حاروا.. هل هو الخير فيما وقع أم هو الحق في ما وقع. أم لا هذا ولا ذاك بل قول علي: «لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليَّ خاصة».

لقد تمت بيعة أبي بكر بتدبير سريان الأحداث في سقيفة بني ساعدة. وإذا كان ما حصل في بيعة أبي بكر أمراً يطابق الشرع ولا يخالفه، فما الذي حدا بأبي بكر أن يعين عمر خلفاً له؟ وهل الأمر له في ذلك أم لأهل الحل والعقد أم هي للشورى بين المسلمين. وإذا كان أمر إمامة المسلمين مما لا يمكن لأبي بكر إغفاله حرصاً على الحفاظ على أمور المسلمين. فهل أغفله رسول الله محمد ﷺ. أم أنه لم يغفله بل أشار إلى إمامة علي عليه السلام تصريحاً بما وضح من النصوص، وتلميحاً بما أشاد فيه بمناقب لم ينلها غيره! وفي هذه الحال لِم لم يعمل به المسلمون؟

وأما فعل عمر في وضع الأمر شورى بين ستة فهو أمر لم يفعله الرسول ولا فعله أبو بكر. وليت عمر لم ينصِّب ابن عوف؛ لأن في تنصيبه إعطاء له حق الحسم في اختيار الخليفة فهو يرجح من لا يرجح دون صوته. أوليس هذا تنصيباً له ليختار

خليفة المسلمين وفق هواه؛ وهواه مع عثمان. وليته أوصى لعثمان بنفسه أو أوصى أن يختار ابن عوف الخليفة؛ إذاً لارتاح الناس من ما حدث من ضغائن في ما حدث ولما نقده الناقدون بقولهم: أين يوجد في حكم الله أن يقتل الواحد أو الاثنان اللذان لا يقبلا. بالشورى. وهل لأحد أن يضحي برقبته مهراً للخليفة الذي سيبدأ حكمه بقطع رأسه..

علي.. علي بن أبي طالب.. نحن به راضون.

هكذا صاح الناس..

إنه لأمر فريد في تاريخ البشرية أن يقوم الناس بالذهاب إلى من يريدون أن يكون رئيسهم باختيارهم. إذ أنه في أكثر الحالات تفاؤلاً يقترع الناس على خيار مسبق.

ولذا كانت ولاية الإمام حدثاً ليس له نظير في أية حكومة من حكومات العالم لقد أطبق الناس عليه ليقبل الإمامة وهو يطوي عنها كشحاً.

الناس يتهافتون عليه وهو غير آبه بها.

ويراه الطامعون بها من حوله فتتفتت أكبادهم لفقدانهم فرصة نيلها وقصورهم عن التطاول إلى علو من هو أهل لها، وفقدهم الشرعية أمام من هي حق له وهو حقيق لها.

وزحفت الجموع إلى دار الإمام الذي آثر الاعتزال..

وقالوا وقد أجمعوا على البيعة له:

ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك!

إنه يعرف أن الإمامة حق له سواء عرفوا هذا الأمر أم جهلوه..

وسواء أقروا بذلك أم جحدوه؛ أذعنوا له أم نكلوه.

ولكن ما يرومه الإمام وما أغفلوه هو أنه كما أن الرسالة لا تقوم إلا بإيمان الناس برسولهم والتزامهم بسنته وما أتاهم به من ربهم؛ فإن دولة الإسلام بعد

الرسول ﷺ لا تقوم كما أراد الله إلا بشرطين:

الأول هو أن يحذو الإمام حذو الرسول في رسالته؛ فالإسلام هو القرآن والسنة المطهرة ولا ثالث بينهما ولا ثالث غيرهما وهذا الشرط هو الشق الذي يقوم به الإمام.

أما الشرط الثاني فهو يتعلق بالأمة وإطاعتها لإمامها الذي يقوم بدين الله ويقيم حدود الله. فإذا لم تطع الأمة إمامها كيف لها أن تنهض بدين ربها.

وما من دليل أوضح مما حدث بموقعة أحد.

وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا

إن علياً يرى الإمامة منصباً من جعل الله مصدِّقاً لقوله تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾.

والشق المخالف لهؤلاء الأئمة هم من وصفهم الله بقوله: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون إلى النار**﴾. لقد أوضح الله الطريق لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولكي لا تضيع معالم الهداية بتعميةٍ من خصوم الإمام أكد الرسول ﷺ في خيبر أن الإمام قد نال ما لم ينله غيره عندما دفع إليه الراية قائلاً[1]: «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»[2].

وهذا مصداق للسيرة التي يبينها قوله تعالى: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ وهذا الخليفة هو الذي يطابق قوله وفعله منهج معبوده، دون أن يخرج عن أوامره ونواهيه لا بكبيرة ولا بصغيرة. فإمامة المسلمين تكليف وعبءٌ لا بيت مال واستعلاء. كان علي ينظر إلى الناس كرعية تنشد الحق في راع صالح؛ أما هم فكانوا يرومونه جابياً لإثرائهم وفق أهوائهم.

ولو اتبع أهواءهم فيما يخالف أمر مولاه لفسد وأفسد، وهذا مما لا يمكن للإمام أن يفعله أو يرضاه، ولو فعل لما استحق ما وصفه به الرسول. وكيف يبقى

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٩٦ ومجمع الزوائد٩/ ١٢٤.
(٢) مسند أبي يعلى١٣/ ٥٣١ وفيض القدير٦/ ٣٥٩ وفتح الباري٦/ ١٢٧.

إماماً وفق ما تصفه الآية عند ذاك! بل كيف تسكت الأمة على خليفة مخالف لأمر ربها. لذا لم يقبل الإمام لأنه لن يسوسهم إلا وفق ما أمر الله. وهذا أمر لا يذعن إليه جميعهم.

وشتان بين رؤيته للولاية ورؤية الناس لها.

وصدَّق جريان الأمور سعة نظره، فقد استنهضهم لقتال عدوهم فتخاذلوا؛ ونفخ فيهم روح الجهاد ولكن نفخه كان في حديد بارد. وقد رأى ابنه الحسن سيرة أبيه في الناس، وتقاعس الناس وميلهم إلى الدعة ولو أورثهم ذلك الذل والهوان والقتل والذبح؛ فقال لهم إنه سيحملهم على سيرة أبيه وأن عليهم أن لا يهنوا ولا يستكينوا. فآثروا الخمول فكان عاقبة ميلهم إلى صلح أورثهم إياه سكوتهم وذهاب ريحهم أن قتل الإمام الحسن وذاقوا من استذلال حاكمهم لهم من الهوان ألواناً.

فبإقامة حكم الله ينتشر دين الله وينعم الناس به؛ ولا يتم ذلك إلا بمقارعة الظلمة الذين يحرمونهم هذه النعمة الإلهية، وبالقتال في سبيل الله لرفع الظلم عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يستغيثون ليُرفع الظلم عنهم.

ولذا ناشدوا علياً أن يستجيب لطلبهم فيجيبهم: «قد أجبتكم لما أرى منكم.. ألا فاعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم».

فصاحوا: ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك.

فقال: «إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفياً ولا تكون إلا عن رضاً من المسلمين وفي ملأ وجماعة».. ولما اجتمعوا في المسجد قال: «ألا إني كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم.. رضيتم»!

«نبايعك على كتاب الله».

وكتاب الله يأمر باتباع سنة رسول الله ﷺ.. **﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**. وكل ما خالفهما فليس من الإسلام في شيء مهما كان شأن المخالف. ولا عصمة تشريعية ولا تنفيذية لمن لم يعصمهم الله. وكما يقول أبو

حنيفة: «هم رجال ونحن رجال»[١]. وتدافع الناس ليكون لهم شرف السبق إلى البيعة وسابقهم طلحة وسبقهم ومد يده إلى المبايعة..

أول يد بايعت أمير المؤمنين يد شلاّء.. فقال الإمام: «أخلق بها أن تنكث».

وتزاحم الناس للمبايعة.. وكانت أول بيعة في الإسلام من عامة المسلمين وخاصتهم.. وبرضاً منهم.. في ملأ وجماعة من الناس.. وكانت آخر بيعة.. حجة بالغة فما تغني النذر!

أحمد بن حنبل: إن علياً لم تزنه الخلافة بل زانها

لقد مد العباس يده لعلي يبايعه قبل بيعة أبي بكر وقال له:

عم الرسول يبايع ابن عم الرسول فلا يختلف عليك اثنان.

فأجابه: «أحب أن أصحر بها».

لم يكره الرسول ﷺ أحداً على الإيمان عند فتح مكة لأن رسالته لا ينقصها من لم يؤمن ولا يزيدها كثرة من آمن؛ بل قال: «من دخل المسجد الحرام فهو آمن و من دخل داره فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وقال تعالى: **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾**.

وفي تفسير ابن كثير[٢] وصحيح مسلم:

قال قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خمساً بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به؛ فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي؛ ثلاثاً»[٣].

(١) محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه ١٤٦.
(٢) تفسير ابن كثير٤ سورة الشورى آية التطهير وفي صحيح مسلم وكثير غيره.
(٣) البيهقي ١٤٨/٢ ومسند أحمد ٣٦٦/٤ واعتقاد أهل السنة ٧٩/١ والبيان والتعريف ١٦٤/١والإحكام لابن حزم ٧٩/١ والبيان والتعريف ١٦٤/١.

هل هو الخاتم الذي يُنيل الولاية

قال ابن كثير في تفسيره: «خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد والناس يصلون بين راكع وساجد وقائم وقاعد وإذا مسكين يسأل.

فدخل رسول الله ﷺ فقال: أعطاك أحد شيئاً!

قال: نعم. قال: من؟ قال: ذلك؛ قال: وعلى أي حال أعطاكه!

قال: وهو راكع؛ قال وذلك علي بن أبي طالب.

قال فكبر رسول الله ﷺ ثم قرأ: **﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾** وهذا إسناد لا يقدح به»[1].

هناك من تبرعوا بالكثير وجهزوا الجيوش؛ فهل هو الخاتم الذي ينيل الولاية ويوجب لعلي الطاعة! بقوله تعالى: **﴿وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم﴾** أم أنه ما من أحد أكثر منه مصداقاً لقوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾**. يقول القرطبي في تفسيره:

«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا أي صدقوا ولم يشكوا، وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة، أولئك هم الصادقون في إيمانهم. لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب»[2].

صدق عمر

إن علياً لم يراوده شك في ولايته ولكن أحب أن يصحر بها، وأن تكون برضى من الناس لتكون مخالفتهم حجة عليهم؛ لأن من نكث فإنما ينكث على نفسه.

فإمامة الإمام حق له ولا يطعن بها عدم إيمان الناس بها. وإذا لم تقم الأمة معه

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٧١ ومثله رواه الطبراني في الأوسط ١٨/٦ وفي مجمع الزوائد ١٦/٧. و ٩/ ١٣٤

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ٢٩٧.

فهي الخاسرة؛ وهذا ما حدث.

لقد صدق عمر حين قال أن الإمام حري أن يقيم الناس على المحجة البيضاء. وصدق حين تنبأ لعثمان أنه سيحمل أبناء أبي معيط على رقاب الناس، وأن ذلك سيؤدي به إلى القتل.

وهذا ما صدقته الأحداث..

وليته ولّى علياً وأراح الأمة.

وإني حاملكم على منهج نبيكم

فرح الناس بهذه البيعة..

فأمير المؤمنين فوق المطامع ودونه كل الناس سواسية..

ورافق الإجماع لهذه البيعة انتظام عقد من الحسد والحقد.. كل حبة من حباته تعمل لنفسها وقد لأم شملها عداء حاقد لأمير المؤمنين؛ لا تصل جسارتهم إلى البوح به. إذ أنهم يهفون لأمر لا قبل لهم به بوجود أمير للمؤمنين هو الإمام. وهل يضيء السها والشمس ساطعة؟

وسجد الناس شكراً لربهم فقد سارع علي ومنذ توليه الإمارة إلى المساواة بينهم في العطاء. فأزاح عن كاهلهم شعوراً بالظلم دام عشرين عاماً فقد أعاد العطاء كما كان أيام الرسول ﷺ؛ قبل أن يأمر عمر بالبون في تقسيم العطاء حيث فضل: «السابقين على غيرهم..

وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين..

وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة..

وفضل العرب على العجم..

وفضل الصريح على المولى وهكذا سارت سياسة عمر».

ولهجت الألسن بالثناء على سياسة علي. وقالوا أنه لم يستن بالسياسة التي ابتدعها عمر بل أعاد التقسيم وفقاً لما جاء به الرسول وعمل به أبو بكر بعده. وهذا ما

تجلى بإيضاح العدالة التي سيسير بها أول يوم يلي توليه الخلافة:

«يا أيها الناس إنما أنا رجل منكم؛ لي ما لكم، وعلي ما عليكم. وإني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أُمرت به..». ولهجت قلوب وألسن بالشكر لله على نعمة الإسلام.

«ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال..

فإن الحق لا يبطله شيء.. ولو وجدته قد تزوج به النساء.. وملك الإماء ومزق في البلدان لرددته.. فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق..»[1].

كما صنع رسول الله وأبو بكر

وطارت بالجموع الفقيرة أحلامها.. لن تعاني من الحرمان بفضل العدالة في التقسيم وقد كفل الله أرزاق خلقه.. فكيف إذا أعيد إليهم ما اقتطع منهم في عهد عثمان... لا فقر في حكم إمام كهذا.. ولن يستلب أحد حقهم الذي أعطاهم الله إياه.. فالفقر ليس نقصاً في عطاء المولى عز وجل بل من تعدي من ليس له حق على صاحب حق.. مهما كانت الطرق والوسائل لذلك.. حتى لو كانت عطاء أو إقطاعاً أو صلة من حاكم.. ولتنهدم إذن عوامل التفاوت الطبقي.. وهل أكثر من الفقر إذلالاً للنفس! وهل من استكبار أكثر من غنى بلا حق.. يغدو تطاولاً وخيلاء لمن ثمل من حق غيره.

ولكن القلة التي كانت ترتع فيما ليس لها، أدركت بسرعة عاقبة أمرها والمال عندها يفوق كل غال... فستكون عاقبة أمرها خسراً.. خسراً في الدنيا لضيقها وحنقها وخسراً في الآخرة.. لأنها آثرت الحياة الدنيا. وحذرهم الإمام أن يقولوا:

«حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا».. ولكنهم كتموا حسرتهم ولن يطول

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٨/ ١١١.

إخفاؤها.. وسيقولونها ويد الإمام تسترد ما أخذوه بغير حق. ويصغون السمع للإمام يكمل مقالته وهو يرسم معالم سياسته:

«فأنتم عباد الله.. والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن جزاء.. فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي كان من أهل العطاء»[1].

وقرن القول بأمره لكاتبه ابن أبي رافع بالفعل..

وقام على القسمة وقد استوى فيها الكبير والصغير، العربي والأعجمي، السوقة والخاصة فهم شرع الله سواء هذا هو دين الله.

وقد أعلن عمر عزمه على الرجوع إلى مبدأ المساواة بقوله: «وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس.... وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر»[2]:

أفحكم الجاهلية يبغون

ولكن جاهلية التمايز الطبقي أنكرت فعل علي قائلةً: «ما العرب كقريش.. وما العجم كالعرب.. وما الدهماء كالسادة».

ولكن إذا رفضوا حكم الإسلام في هذه فأي حكم يريدون.. أفحكم الجاهلية يبغون...

إن الإمام ماض في تطبيق أحكام الإسلام كما يريده الله..

ولا يضيره أن يقوموا عليه بالنكير.

لقد رفض الإمام الخلافة عندما شرط عليه عبد الرحمن بن عوف أن يسير بسيرة من سبقه لأنه لم يقبل أن يفاضل بين الناس بالعطاء. إذ أن سيرة الشيخين متباينة ولا يمكن أن يكون أمران متباينان سنة كليهما.

ومع وجود النص ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يختار

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج ٨/ ١١١.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٠٧.

أو يحب غير ما اختار الله ورسوله؛ وكل ما يخالف ليس بسنة.

لقد مد ابن عوف يده إلى عثمان فقبل أن يسير بسنة من سبقه[1]؛ وليته فعل..

هل يبايع ابن عوف من يبقي له الزيادة في العطاء ولو خالف الإسلام.. كيف لا وقد زادت هذه الأعطيات في ثروته إلى حد يفوق الوصف.

ويتحدث المؤرخون عن التفاوت في العطاء فيقول اليعقوبي[2]:

وبهذا أوجد عمر بوادر الطبقية في المجتمع الإسلامي..

والتي أصبحت فتيلاً أشعلت نار الصراع الطبقي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج، والصراع العنصري بين العرب والعجم والصريح والمولى[3].

وبعثني لأمحو المزامير والمعازف

لقد شبه طه حسين خلفاء بني أمية بقياصرة الرومان[4] بمنح العطاء على المشمولين به دون تقديم أي عمل أو منتج.

فقد ظهرت في العصر الأموي الثياب المروية والقوهية المستوردة[5].

وعاد الغناء؛ مع أنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«بعثني الله عز وجل هدى ورحمة للعالمين، وبعثني لأمحو المزامير والمعازف»[6].

وأصبح الجو الغنائي من نوع جديد ومصادره أجنبية[7].

(١) طه حسين - عثمان.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٦.
(٣) المرجع السابق.
(٤) طه حسين حديث الأربعاء ١/ ٢٦٤.
(٥) ابن سعد الطبقات الكبرى ٨/ ١٨٤.
(٦) ابن الأثير أسد الغابة ١/ ١٤٦.
(٧) الأصفهاني الأغاني ١/ ٢٥٩ و٣/ ٨٣-٨٦.

وسار مع الغناء شرب الخمر..

واعترض معاوية على مروان بن الحكم حين أقام الحد على ابن أرطأة وقال:

- إنه ليس بحرام[1].

ولا شك في أن هذا النوع من اللهو لا يظهر إلا بعد أن يتوصل المجتمع إلى درجة من الترف حتى يتواجد بين أهله من يتخذ أناساً يضحكونهم ويلهون معهم.

وبلغ الإنكار حداً بلغ ببعضهم إلى القدوم إلى الإمام منكرين عدله وسنة نبيهم ﷺ متذرعين أن الخليفة عمر بن الخطاب قد رفع الناس في العطايا بعضهم فوق بعض درجات؛ فقد روى العقاد[2]: «كان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة»..

حتى ثار التساؤل: هل استعاد ما بذله في حياة الرسول!

أتأمروني أن أطلب النصر بالجور

لقد قال لهم الإمام: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور.. والله ما أطور به ما سمر سمير وما أمَّ نجم في السماء نجماً؛ لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله...

فالإمام يقسم العطاء وفق أمر الله، ولا يضيره أن يرضى أناس ويسخط آخرون وهذه هي السياسة التي يريدها الله. وليس الأمر أن يسترضي الساخطين ويستميل المناوئين لإسكاتهم بذريعة الدهاء السياسي. هذا ما لا يريد الذين يبحثون عن المنافع والمزايا أن يفهموه. ولذا سوف لن يماثل سلوك من قبله فيما يخالف كتاب الله وسنة رسوله.

(١) المسعودي مروج الذهب ٣/ ٦٧
(٢) العقاد، عباس محمود. عبقرية الإمام علي ص١٢١و٤٤.

وعاد طلحة والزبير وقد أركست رأسيهما إلى عنقيهما فكانتا خاضعتين. . ولكن إلى زمن ليس بطويل. . أيطيحان بعثمان ليسويهما علي بغيرهم؟ إنهما ينقمان أنه خالف سنة عمر وهل الحق في ما يخالف سنة رسول الله. . ولكن هناك آذان أُخرى تصغي لهذه الفتنة؛ فلتتجه إليها أفواه الذين يمكرون بالحق لينالوا الباطل. ويبرز من جديد حسد الشجرة الخبيثة. . ولو كان بوسعها أن تحول دون بيعة علي لفعلت. ولكنها أنى لها ذلك والله يريد أن يحفظ الدين ويظهر من علي مصداق اصطفاء الله لآل محمد؛ وهم فرع شجرة الطيب التي أصلها إبراهيم وآله. وأتى سعد بن أبي وقاص الذي لم يبايع فقال للإمام:

ـ «لا أبايع حتى يبايع الناس. . والله ما عليك مني بأس». فأباحه علي حقه كاملاً.

ورفض عبد الله بن عمر البيعة، فسخط الناس عليه و ضاقت صدورهم ووصل الأمر أن طلب الأشتر من الإمام أن يضرب عنقه؛ ولكن الإمام لم يكرهه بل أخذ موثقه ألا يشغب عليه وطلب من يكفله؛ ولما لم يجد قال:

«بل دعوه. . أنا حميله». . هذه رموز من مخالفيه. . ولو سُئلوا جميعاً لِم لم تبايعوا. . هل كان من أماثلهم؛ وهم نظائر فيما بينهم؛ من يرقى إلى مقام الذي ليس له نظير! هل سيقولون:

الحسد. . الحقد. . الضغينة. . الغل. . كراهية الحق. . ضيق الصدور أن ترى أهل بيت الرسول في الموقع الذي ارتضاه الله لهم. أم حب التسلط والارتفاع على أعناق الناس. . والهوى إلى الإمارة. أم هو حب المال يُجمع من حله وحرمه ولو كان من عطاء المستحقين.

وهل كانوا يقومون عليه لو أعطاهم الولايات والأموال من نصيب المحرومين. . أم أنهم رأوه مأمون العدل؛ وغيره غير مأمون الغضب. . أفهل كان عمر ليتركهم ليلة دون بيعة.

لقد رأوا أن يد الإمام لا يمكن أن تطالهم بسوء وإن طعنوا به وبإمارته لأنه لا يمكن أن يحيد قيد أنملة عن الإسلام، حتى ولو حادوا هم عنه وحتى ولو أوقدوا

نيران الثورة عليه. . إلا بحبل من الله.

وكان إرث حقدهم باطل دعواهم، أنهم كانوا من بين الستة الذين أوصى عمر أن تكون الإمرة شورى لواحد منهم. . وهل يدري عمر أن هذه البذرة ستورث هذا النقض وهل كانت تلك الشورى جزءاً من الدين أم رأياً ارتآه عمر؛ ولا فرق إن أخطأ به أم أصاب. ولماذا لم يطالبوا أبا بكر بأن يكونوا من الشورى وهم يرون أنفسهم أكفاءً لإمارة المؤمنين.

لقد قعدوا عن نصرة الحق لأن علياً كان حاملاً لراية الحق. .

وهل يقعدون عن النصرة ـ حقاً كانت أو باطلاً ـ لو تبوأها أحد من قومهم.

هذا أخي ووصيّي وخليفتي

كان النبي ﷺ مثله الأعلى والوحيد في الفكر والعقيدة والبذل للإسلام وحياطته؛ وكذا في المطعم والملبس والمشرب. لقد عاش الإسلام مع محمد ﷺ ومع أمر ربه:

﴿فاصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾ فكيف يُغبن المحروم بما هو حق له! وكيف لا يُنصف الضعيف من قوي عدا عليه! وكيف يسكت عن ظلم مظلوم دون أن يدرأ سيف الظلم عنه!

أوليس الرسول رحمة للعالمين. . أولم يغدق الله على رسوله باسمين من أسمائه فهو بالمؤمنين رؤف رحيم. ألم يقل رسول الله ﷺ لعلي بعد نزول آية **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** «إنه هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»[1].

وهل يقول ﷺ ذلك إذا لم يكن علي يسير بسيرته.

(١) تفسير القرطبي ٦/ ٤٣٥ ومسلم ٤/ ١٩٤٧ ، شرح نهج البلاغة الكبرى ٥/ ٧٥ والترغيب والترهيب ٤/ ٨٦ والمعجم الكبير١٨/ ١٨.

لا أدهن في ديني

لقد عاش علي الإسلام فكان ينطق بالقرآن ويحكم بالقرآن ولا يغضب إلا لله ولذا لم تكن غايته أن يحكم وإنما يريد أن يري الناس كيف يكون حكم الإسلام لذا كان أسوة للناس مع أنه ليس نبياً.

لقد رفع الله الناس بالإسلام مقاماً علياً لا تفاخر فيه ولكن جاهلية قريش آثرت السقوط دركات لتعلو على بعضها درجات. والعجيب أن هناك من المستضعفين من تنازل عن هذا المقام العلي الذي رفعه إليه الإسلام بثمن أو دون ثمن؛ سواء غلا الثمن أو بخس. لقد قال نفر من عامة المسلمين وفقرائهم عند رؤية أبي سفيان بعد أن أظهر إسلامه: «ما أخذت سيوف الله مأخذها من عنق عدو الله»[1].

فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم!! وأتى النبي فأخبره.

فقال الرسول ﷺ له: «لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك»[2].

وينصحه مداهن لم يضمر له شعور الولاء هو المغيرة بن شعبة بقوله: «.. إني مشير عليك أن ترسل إلى عمال عثمان بعهودهم. أقرر معاوية على عمله. وأقرر ابن عامر على عمله وأقرر العمال على أعمالهم. فإنهم يبايعون ذلك ويهدئون البلاد ويسكنون الناس».

ولكن الإمام لا يطلب النصر بالجور وكيف يلقى الله إذا أبقاهم؛ فيقول: والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولى.. لقد قيل للإمام:

أكتب إليهم بإثباتهم، فإذا أتتك بيعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت..

فقال الإمام: «لا أُدهن في ديني ..ولا أعطي الدني في أمري». فعلي لا يجيز

(١) تاريخ الطبري ٢/٢١٧، الكامل في التاريخ ٢/ ٦٢-٦٤، معالم التنزيل ٤/ ٢٧٨.
(٢) محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه ١٤٢.

لنفسه أن تكون سياسته مبنية على الغش والخداع، ولو أناله ذلك إربه في معاوية أو غيره. فالإسلام كل لا يتجزأ. ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة يحمله في عنقه. ولا مكان في الإسلام لما يسمى بلغة العصر دهاء ومداهنة وحنكة سياسية، فمقولة الغاية تبرر الوسيلة أمر يرفضه الإسلام إذا خالف أحكام الشريعة. وهذا ما لا يريد الناس أن يفهموه ولا أن يقروا به، والعجب أن من هؤلاء من لا يملك مالاً ولا جاهاً ولكنه يتمنى أن يكون له مثل ما كان لقارون.

أَوهل يمكن أن يولي عاملاً على عمل وهو يعلم أن هناك من هو أفضل منه.

أوهل يخون الله ورسوله في ما نال من إمامة! أوليس راعياً مسؤولاً عن رعيته! كان علماً للحق فهل يقر الباطل ولو ساعة من نهار! ولو كان المقياس غير الإسلام لأقر الإمام معاوية الذي ينال رتبة الاستحقاق بأهليته للولاية إذا صرف النظر عن كتاب الله وسنة رسوله.

ولو ولى معاوية ساعة من نهار فكيف له أن يخلعه وبأي عذر يعزله عند ذاك.

لقد شاهد ابن عباس المغيرة في اليوم التالي يعود معتذراً أن رأيه كان على غير الصواب. وأن من النصيحة أن يبقى معاوية وغيره من ولاة عثمان..

ويعلمه الإمام بما كان منه في اليوم الأول فيقول: «يا أمير المؤمنين.. أما في الأرض فقد نصحك، وأما في الثانية فقد غشك». ولكن أخلاق القرآن تنبو بعلي عن طلب الحق بأساليب الباطل.. وهذا ليس نقصاً في التدبير بل مثلٌ إسلامي في الأسلوب الذي يجب أن يطبق به الحكم.. ليميز الفرق بين ساع إلى الرئاسة على حساب الدين، ومجاهد في الله وسبيله لا يهتم بأمر الرئاسة إلا ليعلي كلمة الدين.

كما تقشر العصا من لحاها

فعمال علي كما يراهم هم الذين تسمو نفوسهم لترسم الإسلام في سكناتها وخلجاتها لتكون من أكبر الدعاة للإسلام، وليست التي ترتع في مستنقع المفاسد لتجني أكبر المنافع وهي تدفن الإسلام في وحل الآثام.

أوليس من مصاديق الإصلاح مطالبة الثائرين لعثمان إصلاح الولاة ونزع مروان!

فالإسلام الذي يراه الإمام هو الإسلام الذي يبقي الإمام كما وصفه الرسول بمن يحب الله ويحبه. ويبادر علي فيكتب إلى معاوية أن يقبل إليه في وفد من صحبه..

وكان ابن العاص قد كتب إلى معاوية بن أبي سفيان: «ما كنت صانعاً إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه، كما تقشر العصا من لحاها».

الإمام الذي لم ينصفه أحد

لم يكن الأمر على معاوية بغريب إذ هل يمكن لأمير مؤمنين مثل علي لا يحيد عن الإسلام أن يقر من هو مثل معاوية. أوهل يترك عابثاً بالدين مستحلاً أموال الله.. مقطعاً الإقطاعات على أعوانه، منكلاً بمن عاداه! إنها سنة نبوية أحياها الإمام لتبقى على مر العصور أن لا يولّي ولا يترك من لا يحكم بما أنزل الله.

لعد صار الأمر في الشام لغلمان بني أمية يتلقفونه كالكرة.. فهل يتركون شجرة الحقد مطمعاً تكالبت عليه دون أن تناله.. وقد أتاها على طبق من ذهب.. سواء قاربوا الحق أم خالفوه! لا.. وليكن أحدهم ناكلاً للبيعة وليكن خارجاً على الإمام باغياً عليه. لن يبايع وقد أعد للأمر عدته. وها هو عمرو بن العاص يضع نفسه مطية لأهواء معاوية فلم لا يمتطيها.

أولم يتردد أن أم عمرو كانت في عداد الفاجرات تتلقفها مضاجع الرجال[1].. أولم تَلُك الألسن نسب ابن العاص.. أولم يتردد الأمر بين عدة رجال منهم العاص ومنهم أبو سفيان.. فآثرت الفاجرة أم عمرو بن العاص أن تلصق وليدها بالسخي الثري العاص على البخيل الشحيح أبي سفيان. أولم يرضع عمرو من ثديها ما حملته الشجرة الخبيثة من دنايا ومنها حب المال.

وابتسم الهوى لمعاوية فها هو طلحة والزبير ـ وهما من صحابة الرسول ـ يناديان بالثورة انتقاماً لعثمان وهم أول من ألب الناس عليه.

(١) ابن أبي الحديد في شرح النهج.

ليت عائشة لم تذرف دمعاً على باطل ألبسته زي الحق وليس بحق. وكانت بالأمس تثير الناس اقتلوا نعثلاً فقد كفر. لقد أطاعها الناس.. فإذا كان قتل عثمان اليوم باطلاً بزعمها؛ فهل إطاعة الناس لها بالأمس كانت باطلة! وكيف يمكن أن تميط عن نفسها وعن الناس ثمار ما قالت؛ من قبل ومن بعد! وما هو ذنب علي لينال هذا الحقد من الناس..

أم أن عدم وجود الذنب ذنب برأي حملة راية الانتقام لعثمان!

لو كان لعلي ذنب أو هنة أو خطيئة واحدة لعضوا عليها بنواجذهم ولشهروا بها ليعلمها القاصي والداني..

وثالثة الأثافي هي أن من تولى ولاية ليست بحق له، أو نال أعطية غير ما يستحق؛ يبذل النفس والنفيس والدنيا والآخرة ليبقى تابعاً لمن أعطاه، ليحفظ المكانة والمكاسب لنفسه وليبقي رتبته في عين من ولاه. فلذا يزيد الإرهاب إرهاباً والطغيان طغياناً، ويصبح جلاداً لظهور الناس بما يثقل كاهلهم من إتاوات تفرض عليهم، وفتن تحصد نفوسهم بما مزقته من وحدتهم.. وليمت الناس جوعاً.. ولترمل النساء.. وليتيتم الأطفال.. وليعصف بالناس شظف العيش.. فلن يتنازل عما ناله من امتيازات.

بغي تحمل رأس نبي

إن السعي إلى السلطة يجعل المفتون يبرر فعله بأن يقول: لو ابتعدت لجاء من هو مثلي أو أسوأ مني. فالذي أوصل ابن أبي معيط وابن أبي سرح إلى الولاية هو من جاء بعثمان إلى سدة الحكم فيسود القول: أنا خير ممن يكون، وأحق بالعطاء ممن يعطون.

والذي جعل طلحة والزبير يطمحان في إمارة المؤمنين إنما هو الذي رفعهم إلى مقام علي في صف النظائر من أهل الشورى.. وهكذا يدور الأمر.

ولو أن علياً قام بالأمر منذ وفاة الرسول. أوهل كان لمتجرىء مهما بلغ من الشرف القرشي أو المال الأموي ـ بزعمه ـ أن يصل إلى مقام علي. إذ أنه لا الحسب

ولا المال ولا الدهاء بالخديعة من مقومات إمامة المسلمين؛ فالأكثر علماً وقرباً من الله هو الذي يحق له مسك زمام أمور المسلمين لأن القدرة على تطبيق حكم الله هي المعيار.

لقد زُرعت بذور النهم إلى السلطة منذ سقيفة بني ساعدة.

ولو لم تسفر تدابير السقيفة عن تغيير أشرعة سير مركبة التاريخ لما أمكن لمعاوية ـ وهو من الطلقاء ـ وأمثاله أن يكون لهم الحلم بالتسلط على المسلمين. وإذا كان هذا الأمر على هذه الشاكلة مع معاوية فالأمر ليزيد أبعد منالاً..

ولكن لله أمراً في ذلك، إذ كيف سيحاسب يزيد على قتل الحسين إذا لم يرث الحكم من أبيه..

إن من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى إحدى بغايا بني إسرائيل. ولا تزال الدنيا هينة على الله ليحمل رأس الحسين بن علي حفيد النبي المكرم ﷺ إلى أحد صبية بني أمية. ولولا قميص عثمان ما عصف باطل معاوية بحق أمير المؤمنين في خلافته. وما كان له أن يقارع علياً الند بالند. ليته لم يظهر كرهه وحقده وما كمن من خبث الشجرة الأموية. ليته فعل لئلا تقوم عليه الحجة إن لم يصل إلى سدة الخلافة.

لقد ورّث معاوية ابنه يزيد عرشاً قيصرياً.

وها هو يزيد يأمر بقتل الحسين إن لم يبايع. وهو يعلم أنه لا يمكن لمن يحمل إيماناً كإيمان الحسين حفيد رسول الله أن يبايع مثل يزيد..

ويأمر يزيد عبيد الله بن زياد بقتل الحسين وأهل بيت محمد ﷺ. وأرسل جيشاً يقوده عمر بن سعد.. فالبكاء لإظهار حق مضيع يزيده الحزن على جسد مقطع.

والعجب أن من هؤلاء القادة وجندهم من صلى بإمامة الحسين وصلوا على محمد وآل محمد في تشهدهم. ثم انطلقوا يحصدون رؤوس آل محمد بسيوفهم. وا عجبا ماذا سيقبل منهم! أقيامهم بصلاتهم أم فعل سيوفهم! وهل يمكن أن يدخلوا الجنة! لقد نهض الحسين ليعلم الناس أن أمثال هؤلاء سيدخلون النار ولو صلوا

وصاموا.. ألم يعد اللهُ النار آكلي الربا.. وكذلك فإن الذين يأكلون أموال اليتامى إنما يأكلون في بطونهم ناراً.. أولم ينكر الله على المطففين ـ الذين يبخسون المكيال والميزان ـ أن يكونوا مؤمنين باليوم الآخر ولو صلوا وصاموا وزكوا وحجوا. وكل ذلك أقل من حرمة دم المسلم؛ فكيف بمن أمر الله بمودتهم بقوله: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾**.

روى الزمخشري في نزولها: قيل يا رسول الله من هم قرابتك الذين وجبت مودتهم! قال: «علي وفاطمة وابناهما»[1]. لقد سبق أن نفى علي عليه السلام أن يعترضه الريب في خلافة أبي بكر؛ وأبو بكر أجل مقاماً وأعلى كعباً من معاوية، فكيف يعترضه الريب مع معاوية.

لم يقاتل الناس علياً شبهة ،فالشبهة تعترض من تماثل النظائر وأما إذا كان الخصم يعادي ذوي القربى فالأمر يخرج عن اجتهاد أو شبهة. فهل في تبرئة المدان عذر لمعتذر.

اقتلوا نعثلاً..اطلبوا دم نعثل

اقتلوا نعثلاً.. فقد كفر[2]. هكذا كانت تصيح عائشة وهي في مكة قبل مغادرتها. ولما انتهت إلى سرف راجعة لقيها عبد بن أم كلاب وهو عبد بن أبي سلمة ينسب إلى أمه. فقالت له: مهيم.

قال: قتلوا عثمان رضي الله عنه فمكثوا ثمانياً.

قالت: ثم صنعوا ماذا!

قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز؛ اجتمعوا على علي بن أبي طالب.

---

(١) الكشاف ٤/٢١٩- ٢٢٠، تفسير الرازي ٢٧/١٦٦، الصواعق المحرقة باب ١١ فصل ١/ ١٧٠.

(٢) تاريخ الطبري ٣-١٢.

فقالت: والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك! ردوني ردوني!

فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً.. والله لأطلبن بدمه. فقال لها: ولم فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر[1]. قالت:

إنهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول. فقال:

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... والشمس لم تكسف والقمر
وقد بايع الناس ذا تدر ... يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها ... وما من وفى مثل من قد غدر

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت الحجر؛ فسترت واجتمع إليها الناس فقالت: يا أيها الناس إن عثمان قتل مظلوماً ووالله لأطلبن بدمه.

وقرن في بيوتكن..

ما الحجة في تأليب الناس على الإمام!

هل ذنبه أنه نال من حب الرسول ما لم ينله أحد ونال من رفقة الرسول ما لم ينله أحد..

ونالت زوجه فاطمة حب الرسول حتى قال فيها: فاطمة بضعة مني.. يؤذيني من يؤذيها.

أم أن ما كان يؤرق عائشة هو أنه إن فقد ﷺ الولد من أزواجه فقد ناله من

(١) تاريخ الطبري ٣-١٢.

فاطمة وعلي.. وقد قالت عائشة: «ما غرت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة.. وما رأيتها.. فربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة.. فيقول: إنها كانت.. وكانت.. وكان لي منها ولد...

وبلغت الغيرة أوجها فأولاد الرسول ﷺ لم يكونوا من نسائه بل من ابنته فاطمة؛ ومن علي بن أبي طالب الذي حمل ذرية الرسول.. وحب الرسول.. وحياة الرسول. ورسالة الرسول.

ليتها لم تحرض الناس على الثورة بعد أن عادت إلى مكة بدل أن تعود إلى المدينة..

لقد قال تعالى لنساء الرسول: ﴿وقرن في بيوتكن﴾.. وليتها بقيت في بيتها واتقت مخالفة الآية..

وأين التقوى في طلب دم عثمان في البلد الحرام، وفي حمل الناس على حرب شعواء بالزحف على المدينة وفيها أمير المؤمنين.. الإمام الشرعي للبلاد..

ليتها لم تأنس لفرع الشجرة الخبيثة من بني أمية والمعزولين من ولاة عثمان، وأقرباء عثمان والطامعين في سلطان استعيد منهم وليس لهم كسعيد بن العاص والوليد بن عقبة. وكالحضرمي أمير مكة في زمن عثمان... الذي يسألها: ما ردك يا أم المؤمنين!

ـ ردني أن عثمان قتل مظلوماً. فطار قلبه فرحا وسأل.

ـ فما ترين!

ـ أرى أن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر.. فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام!

ليت عائشة وجدت من الأقوال ما يصح فيها أنها قولة حق يراد بها باطل.. ليتها وجدت ذريعة يرضاها العقل. كانت تعلم أنها لن تجد ذريعة حق تجبه بها الناس، فهل هي ذريعة باطل يراد بها باطل يموّه بالحق.

استمالا السفيه بالطمع وضربا الضعيف بالبلاء

وكأن الغيظ الذي يأكل طلحة قد زاد فيه ندمه وهو يعطي من نفسه على نفسه حجة خالدة لعلي عليه السلام حين قال له:

ـ «أبسط يدك يا طلحة لأبايعك».

ـ «بل أنت أحق بها... أنت أمير المؤمنين فابسط يدك...»..:

ولعله أزاح الغشاوة عن عينيه حين عرف أن جهوده في الخلافة أصبحت في مهاوٍ سحيقة حين قال:

ـ «ما لنا في هذا الأمر إلا كلحسة أنف الكلب..»[1].

وأظهر مع الزبير خيانة بيعتهما بقوله لعلي.

«... ولكن بايعناك على أنا شريكان في الأمر..».

وراح طلحة والزبير يشيعان الطعن في علي ويكثران من باطل الكلام فيه؛ وهما ينظران إلى عصبة لهما بالكوفة والبصرة. وتبلغ علي مقالتهما فيستشير ابن عباس بأمرهما فيقول له: «أرى أنهما أحبا الولاية فولّ البصرة الزبير وولّ طلحة الكوفة فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان». فأجاب علي: «ويحك يا ابن عباس.. إن العراقين بهما الرجال والأموال. ومتى تملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع وضربا الضعيف بالبلاء وقويا على القوي بالسلطان. ولو كنت مستعملاً أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام».

ويزين لطلحة نزواته جذور عصبيات قبلية فهو ابن عم أبي بكر ولم يفده أن ابنه محمد قد أنكر عليه فعله. أما الزبير فقد نالته عدوى نزوات طلحة وأغراه بها ابنه عبد الله ابن أسماء بنت أبي بكر.

وتلتقي الأهواء مع جذور الأواصر وتتقد بشعلة عائشة بوهج من قبيلة تيم؛ فتثمر الفتنة عن أمر قد قدر.

(١) يراجع ابن أبي الحديد في شرح النهج.

لقد قال الإمام: «ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله..».

فالجذور الوراثية تنقل الطباع كما تنقل الصفات الجسمية.. وللبيئة أثرها؛ وهذا ما ظهر في غلبة بعض الصفات في عبد الله بن الزبير.

وثارت الفتنة بما استنهضوا من الموالي والعبيد والأعراب؛ وكان في ذلك سوء الأحدوثة، وغرهم حلم علي بهم وأمنهم غضبه؛ ولم يطيعوا أمره بالتفرق متذرعين بالطلب بدم عثمان. فما كان من الإمام إلا أن صاح فيهم مشيراً إلى جموع الناس التي نهضت على عثمان[1]:

«دونكم ثأركم فاقتلوه».

فأسرع طلحة يبتز الفتنة قائلاً: «يا أمير المؤمنين.. دعني آتي البصرة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل..».

وتلاه الزبير يطلب الذهاب إلى الكوفة. ولكنّ ما يبيّتون ليس بخاف عليه فقال: «دعوني حتى أنظر في الأمر».

كيف يوليهم الإمام وهو إنما يولي من يصلح ما أفسده من سبقه؛ وهذا ما كان يذوي الأطماع في نفوس الطامعين.

وكان مما يزيد في حنقهم أنه لا يختار وفق أهوائهم بل يولي العامل الذي يعلم أنه لا يفوقه بقدراته وفضائله أحد على المصر الذي يوليه عليه.. وهذا أمر لم يكن يرضي ذوي المطامح؛ إذ لم يألفوا ذلك ممّن سبقه.. ونسوا أن من الحق أن لا يحابي الإمام أحداً.

لم يكن الإمام ينظر إلى الولاة كضرع يدر المال فيولي من يضمن له من الحلب أكثر. لأن اقتطاع المال من الناس بغير حق أو إعطاءه لاستمالة المناوئين أمر يحاربه الدين ويثير نقمة المظلومين..

وهذا ما ألب الطامعين ـ بما لا يحق لهم ـ على الإمام؛ فقد هموا بما لم ينالوا

(١) يراجع ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة.

وطمحوا إلى سلطان ما هم ببالغين إناه.

فالتقت دعواتهم مع دعوات عائشة بمكة ومع دعوات النفوس المفتونة بنصرة الباطل؛ وما أكثرها! والتقت أغصان الفتنة على أمر قد بذر.

إنهم ما أسلموا ولكن استسلموا

ويسارع عمارة بن شهاب عامل علي على الكوفة بالعودة إلى المدينة، وهو يرسم صورة واحدة لمن يؤلبون الناس على علي. وكأنهم شجرة واحدة؛ جذعها الأهواء وفروعها غل يحمل ثماره من محاربة الحق.. لِم يحاربون علياً.. وبأي ذنب.. هل ذنبه أنه حملهم على الإسلام.. وقتل صروح جاهليتهم..

لقد قال الإمام: «إنهم ما أسلموا ولكن استسلموا». والسعار في نار قلوبهم ينتظر نافخ كير فيها. إذ ليست لعلي حرمة نبوية تحميه؛ وإن كانت الآيات في ولايته باهرة فيه.

إذ أنه حين قصد عمارة الذي ولاه الإمام دار الإمارة في الكوفة لقيه طليحة بن خويلد ـ وهو من بني أسد وقد ادعى النبوة في زمن الرسول ـ فقال له ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلاً وإن أبيت ضربت عنقك.

فعاد عمارة وهو يقول: أحذر الخطر ما الشر خير من شر منه، ورجع إلى علي بالخبر.

أوليس غريباً أمر الناس يشهرون السيوف بوجه عامل الإمام؛ ويقفون صفاً مع طليحة بن خويلد مدعٍ للنبوة أوليسوا على شاكلته ولو دون دعوى النبوة!

وعاد سهل بن حنيف من طريق الشام؛ دون إجابة من معاوية الذي كان يبيت أمره. ورجع غيره بمصير مماثل إلا أبو موسى الذي أظهر الطاعة. فدعا علي طلحة والزبير يشاورهما ـ ويقطع معاذيرهما ـ فقال: «إن الذي كنت أحذركم قد وقع يا قوم وإن الأمر الذي وقع لا يدرك إلا بإماتته وإنها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستنارت».

ولكنهما لم يأسفا على ما بدر منهما من فتنة هم ممن أوقدها بل قالا له: فأذن

لنا أن نخرج من المدينة.. فإما أن نكابر وإما أن تدعنا.

فقال: «سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بدا الكيُّ».

وبدا للناس ما يبيت معاوية من النكث في الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر؛ فقد أرسل إلى علي طوماراً لا يحمل إلا: «من معاوية إلى علي».

مني يطلبون دم عثمان

بماذا تفسر رسالة معاوية هذه.. هل يفخر أنه لم يبدأ كتابه باسم الله ولم يلق التحية! هل يتباهى بنكوله عن مناداة علي بإمارة المؤمنين.

إنه لم يصب الإمام فحسب بل أصاب الإسلام.

قال أمير المؤمنين للرسول: ما وراءك!

قال: آمن أنا!

قال: نعم إن الرسل آمنة لا تقتل.

قال بما علمه إياه معاوية: ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود... وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق.

فقال: مني يطلبون دم عثمان... اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان... نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله فإنه إذا أراد أمراً أصابه.

لقد أصر الإمام أن تكون بيعته على ملأ وجماعة لتكون طاعة عن قبول من الناس ومضى، لأنه لا يألو جهداً في تطبيق أحكام الإسلام، فإن لم ينهض معه الناس بجناح فسيحملون عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة.

وكان يعلم أن قريشاً لن تطيعه، وسوف تفقده القوة التي تكمن في وحدة الصف الإسلامي كي يكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وإذا لم تطعه أمته فأنى له أن ينهض بدولة الإسلام لتنشر النور في العالم؛ وهي تعاني من التمزق والفتن في لحمتها! وليتهم اقتصروا على عدم طاعته، إذن لهان الخطب. ولكنهم أجمعوا

على حربه، وبذلوا النفس والنفيس لصده.

لماذا! لو خالف أحكام الإسلام لنعوا عليه ذلك. ولو ولى أقاربه لوجدوا ذريعة للاحتجاج، ولو استأثر بالفيء ونال من بيت مال المسلمين بحق ودون حق لكان واجباً عليهم أن يأخذوا على يده. ولكن كل ذلك لم يكن! ما الأمر إذاً!.. لقد حاربوا عدم مخالفة أحكام الإسلام، إذ لم يولهم الولايات ولم يعطهم الإقطاعات ولم يفاوت في العطيات ولم يقرب ذوي الصلات.. وهذا ما كانوا يرونه من خلال سيرته في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وهو أحق الأئمة بلقب الإمام

لقد حمل سيفه راية الإسلام في كافة معارك الإسلام لأنه عاش الإسلام في قلبه وروحه ودمه وكانت لا تأخذه في الله لومة لائم. وحتى في معركة تبوك التي تمنى فيها أن يكون له شرف الجهاد كما في غيرها قال له الرسول: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. ولم تعترضه الريبة في أي أمر لله ورسوله كما اعترضت غيره من الصحابة في بدر وأحد وحنين والحديبية وغيرها.

وثبت مع قلة حول الرسول حين ألقى الأكثرون ما بأيديهم؛ وقد هم جمع منهم أن يطلبوا الأمان من أبي سفيان[1].

وحمل وحده النصر للإسلام في الخندق..

ونال مدحة الله وغيره ينالون اللوم لأنهم لم تركوا مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين أمرهم ربهم أن يقدموا بين يدي نجواهم صدقة فنالوا عتابه تعالى بقوله في سورة الجمعة: أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات.

ثم رفع الله تعالى عنهم الحكم بعد أن كشف ما في باطنهم؛ ومثبتا عملا لعلي عليه السلام بآية لم يعمل بها أحد قبله ولم يعمل بها أحد بعده[2].

(١) تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي ـ آية: إذ تصعدون ولا تلوون وما بعدها عن موقعة أحد ـ آل عمران.

(٢) تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي ـ آية النجوى.

وقام في صلاة الجمعة مع القلة القليلة مؤثراً ما عند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة وهو سبحانه خير الرازقين؛ حين انفض الناس عن الرسول سعيا[1] وراء اللهو والتجارة؛ ونالوا التثريب بقوله تعالى: **﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾**.

إن لكل إنسان هدف يضعه نصب عينيه؛ فهذا يروم سلطة وهذا يسعى إلى مال وهذا يتطلع إلى شهوة ودنيا عريضة. وكل يرى نفسه فوق ما يبغي.

أما الإمام علي فلم يكن نصب عينيه غير الله فصغرت نفسه أمام ربه وسمت روحه لترتقي في معارج العظمة فهانت الدنيا وما فيها في عينيه ولم يعد يرى لطاعة ربه بديلا ولعبادته سبيلا فلذا حق له الطهر مع أهل البيت في آية التطهير. وحقّ لأهل البيت طلب الله من الناس موادتهم في قوله تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾** فالله يعلم كم سينكل المسلمون بأهل بيت نبيهم فشدد الوصية لهم لعلمه بشدة المعاداة لهم وما سيعانونه من الناس.

أليس الأمر في إنكار الحق بعد تأكيده؛ حذو تأليه من قال في المهد صبياً: **﴿إني عبد الله﴾**.

وكان حرص الإمام على الدين أقوى من أي أمر آخر لحقن دماء المسلمين. وكان دافع غيرته على الإسلام شديداً لدرجة أوضح فيها الإمام ما في نفسه حين بويع أبو بكر حين قال: «والله لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين..». ولو بدأت الفتنة عند وفاة الرسول متزامنة مع ردة معظم أهل الجزيرة ماذا كان حال الإسلام!

كيف يفعل المسلمون هذا مع من جعلت مودته أجراً للرسالة وقد كثرت أحاديث الرسول بشأن ولايته، وكان من المصطفين من آل محمد الذين لا تصح الصلاة إلا بالصلاة عليهم!

لقد أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بإنفاذ سرية أسامة وهو في أيامه الأخيرة..

(١) تفسير ابن كثير يذكر أن من بقي مع الرسول (ص) إثنا عشر رجلاً وفي تفسير القرطبي مثل ذلك وكذا في بقية التفاسير.

وكرر الأمر لما رأى من تقاعس الصحابة المتذرعين بأن مرض الرسول والبقاء بقربه أجلّ شأناً من السرية حتى قال ﷺ :

لعن الله من تخلف عنه. وما ذاك إلا ليبقي علياً لتكون له الخلافة بحيث تتم دون نزاع البيعة للإمام. وليتهم فعلوا..

فالإمام أحق لقب به وهو أحق الأئمة بلقب الإمام[1].

(١) عباس محمود العقاد عبقرية الإمام علي (ص) ١٢٨.

الفصل الثامن

الناكثون والجمل

لولا أن أعصي الله عز وجل.. وأنك لا تقبله مني لخرجت معك.. فهذا ابني عمر.. وإنه والله لأعز علي من نفسي..... ويخرج معك فيشهد مشاهدك.. فاستوص به خيراً يا أمير المؤمنين.

أم المؤمنين..أم سلمة

لعبد الله بن الزبير أمير المؤمنين من معاوية...

عن الأحنف بن قيس قال: يا زبير يا حواري رسول الله ﷺ يا طلحة نشدتكما بالله أقلت لكما من تأمراني به! فقلتما علياً! فقلت تأمراني به وترضيانه لي؛ فقلتما نعم. فقالا: نعم ولكنه بدل[1]!!. أدرك الأحنف أن من بدّل ليس الإمام!

ويذهب طلحة إلى أمير المؤمنين وفي ركابه الزبير، ويطلبان الإذن من جديد بالسفر للعمرة. فيقول: والله ما العمرة تريدان!

ـ والله ما نريد إلا العمرة! لقد اضطرهم كشف ما في نفسيهما إلى حلف كاذب.

ـ بل الغدرة ونكث البيعة.

فأقسما بالله جهد أيمانهما لدفع التهمة عن نفسيهما. فطلب منهما أن يؤكدا بيعتهما ببيعة ثانية ففعلا. ﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه**﴾ هكذا يقول تعالى.

أما وقد بايعا من جديد فالناكث الوحيد معاوية. ويأمر أمير المؤمنين زياد بن حنظلة بالمسير إليه قائلاً: يا زياد تيسر. فيسأل: لأي شيء يا أمير المؤمنين.

ـ لغزو الشام. فيقول له ناصحاً:

ـ بل الرفق والأناة أمثل؛

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فيجيبه:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

(١) مصنف ابن أبي شيبة ج: ٦ ص: ١٩٧.

لو سار الجيش لهزم معاوية. ولكن صحت مقالة الإمام إذ ها هما طلحة والزبير ـ وقبل أن يسير الجيش إلى معاوية ـ قد تظاهرا عليه ونكثا البيعة ثانية.

لقد جيّشا جيش الفتنة التي أيقظتها عائشة وعزموا على المسير إلى البصرة فيقول الإمام:

«إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين». وكان معاوية قد قطعه فعلاً لا قولاً بإذكاء فتنة داهية بكتاب كاذب إلى طامع مفتون هو عبد الله بن الزبير الذي كان لا يألو جهداً في حث أبيه على القيام على الإمام.

«لعبد الله بن الزبير أمير المؤمنين. من معاوية..

سلام عليك.. أما بعد فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين.. وقد بايعت لطلحة بن عبد الله من بعد. فأظهر الطلب بدم عثمان.. وادع الناس إلى ذلك. وليكن منكما الجد والتشمير.. أظفركما الله وخذل مناوئكما والسلام»[1].

ما أخبثه من كتاب.. مكر معاوية به أموراً عدة: منها خلع علي بن أبي طالب؛ والتمهيد لولاية نفسه بإلباس الولاية أو لصقها بعبد الله بن الزبير بإحياء العصبيات القبلية التي أماتها الإسلام. إن معاوية يعلم أن عبد الله ليس كأبيه فنصفه ليس هاشمياً. فهو بذلك يكون قد أعطى أمراً لا يملكه لمن لا يستحقه. ويكون قد أذكى حماس طلحة والزبير في مقارعته علي بن أبي طالب أمير المؤمنين الشرعي. وهو يعلم أن قتالهم لعلي إنما يصبّ في إنائه.. ويكون قد أوغر صدر طلحة وألهب حسده وأطماعه! ويكون قد أفنى جموع المسلمين؛ بما لا يقدر معه الإمام إن كتب له النصر أن يقوى على منازلته. وحتى لو فعل فإن من السهل إنكار بيعته وشرعته.. وعلى الإسلام السلام. ويصعد طامح جديد إلى زمرة المعارضة.. معارض جموح.. عدو لدود لعلي في قلب جيش طلحة والزبير.. إنه عبد الله بن الزبير. ولكن ليت هذا الطامح وعى الفتنة ونظر إلى رضى الله وحفظ الإسلام. ليته كان

(١) شرح النهج ج١ باب٨ ص ٢٣١.

متبصراً بما يدور في خلد معاوية وهو يقرأ رسالته إليه.. أوهل يمكن لمعاوية أن يرضى بابن الزبير خليفة!

سيذوق ابن الزبير وبال أمره من بني أمية وستكون عاقبة أمره خسراً.. ولا ينبئك مثل خبير.

البسوا قميص عثمان

وتقاسموا قميص عثمان بينهم، فالكُمَّان لبسهما طلحة والزبير، ولبس القميص بنو أمية وآل عثمان، وأما قبة القميص فلعائشة.. وفتح القميص ليدخل منه المنشقون عن الأمة التي شطرتها الفتنة.. ورفعوا جميعاً شراع راية القتال..

وليكن البدء بجمع المال لتيسير أشرعة المركب الحرام!.. ولكن من أين المال! ليتهم ما مدوا أيديهم إلى المال الحرام تحتجزه وتستبيحه. ليتهم ما سقطوا جميعاً في مستنقع المال الحرام. فها هو ابن عامر يحمل أموال البصرة، ويعلى بن منية يحمل أموال صنعاء. وبدل أن يعطوا المال الذي يجمع في موسم الحج إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بذلوه ناراً للفتنة. وأقرهم عائشة وطلحة والزبير لتسيّر أشرعة المال الحرام سفينة الفتنة الحرام.

ولكن ما بال الجياع الذين ينتظرون الخراج! فالمال ليس لعلي بل للناس. لقد قال الإمام:

دع عنك قريشاً فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله قبلي..

ليس مقالة الإمام حباً في السلطة لأنه هو الذي يقول عن نعله الذي يخصفه: «والله لهي أحب إلي من إمرتكم؛ إلا أن أُقيم حقاً أو أدفع باطلاً».

لقد اجتمع بنو أمية مع من نهض للطلب بدم عثمان.. والعجيب في الأمر أن الذين قاموا بالأمس رفعاً للظلم ونصراً للمظلومين، قاموا اليوم لأنهم لا يريدون الحق ولا يرضخون للعدل.. لقد قاموا لأن أعطياتهم قد تساوت مع غيرهم.. فماذا كان الأمر لو تولوا هم مقاليد الحكم! ألم يكن يتغير ابن عفان بعثمان جديد!

وهل جاء الإسلام إلا للمساواة! فإذا لم يحقق الإسلام هذه المساواة فما الذي يدعو رجلاً من فارس أو من الروم إلى الانصياع إلى الإسلام! الله سبحانه يريد أن يقدم الإسلام للناس نموذجاً سامياً يخلصهم من كسرى وقيصر وإلا فهل يستبدل قيصراً بكسرى أوكلاهما بحاكم أموي. إن ما يريده الناس من الإسلام هو المساواة ومن يقبل بدين يجعل لقرشيٍ من المزايا والعطايا ما يفوق حصته..

ولقد دأبت الأديان على رفع الناس إلى سوية واحدة ليقوم الناس بالقسط.

والذين يرتضون النظام القائم هم الذين ينتفعون من المزايا التي ينالونها، فالذين يريدون من علي أن يسلك سلوك عثمان ينظرون إلى إبقاء امتيازاتهم. ولذا طلب ابن عوف من الإمام ـ عندما عرض عليه البيعة ـ أن يقوم بسنة الشيخين لأنها تبقي التفاضل في العطاء وهذا لم يقبله علي. والذين يريدون التغيير هم إما ساعون إلى إحقاق الحق والعدل وإما غير راضين عن نصيبهم في النظام القائم. فإذا كان النظام قائماً فإن فرعون النظام يوحي للمرتزقة ممّن حوله أن تقول في دعاة الحق: أتذر هؤلاء ليفسدوا في الأرض. وهو يعلم أنهم لا يقولون ذلك حباً به بل حفظاً على مقامهم الذي يتكسبون به. فيقول فرعون: «سنذبح أبناءهم ونستحي نساءهم» فلذلك يجب على الأمة المسلمة أن تقوم على الظالم لأنها إذا سكتت تكون خنوعة أو راضية فإن لم تأخذ على يده بقول أو فعل يوشك الله أن يعمّها بعقاب. وما العبادات من صلاة وصوم وحج إلا أركان يبنى عليها الإسلام.

أما إذا كان الدين طقوساً بلا نظام إلهي يحكم بين الناس بالقسط فإنه ليس بدين يستهوي المظلوم.. فالذي يسعى إليه المستضعف هو أن يجد معيناً يخلصه من ظلمه أكثر من اهتمامه بأن تكون صلاته لصنم أو لفرعون أو لكسرى أو لنيرون. مع أن فطرته تدعوه إلى عبادة الله الواحد الصمد.

أمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة

وتستمر تعبئة الحشود واستمالة الأنفس.. ولابد أن كل امرىء يجد في فطرة نفسه صوتاً يصيح به ليرتدع عن ظلمه وليبدي ندمه وأسفه على ما فرط في جنب الله. ولكنه كلما توغل في منازعة داعي الحق زاد صمماً عن قوة الحجة وسطوع البرهان.

ليت عائشة سمعت مقالة ضرتها ـ أم سلمة ـ وكلتاهما من زوجات الرسول ﷺ لتكونا معاً على الحق كيلا تنشطر الأمة فالمتبوع مسؤول عن أفعال تابعيه، والتابع مسؤول عن هذا الاتباع: «ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل من منهمل إلى منهمل.. ما كنت قائلة وقد هتكت حجابه الذي ضرب الله عليك؟..

ألا لو أني أتيت الذي تريدين ثم قيل لي: ادخلي الجنة، لاستحييت أن ألقى الله..

لقد قال الرسول لأم سلمة حين طلبت أن تكون من مرتبة أصحاب الكساء: «أنت على خير.. ولكنك لست منهم».

ليت عائشة استجابت لمقالة أم المؤمنين أم سلمة، وليتها بقيت في بيتها وقد قال الله لنساء النبي ﴿وقرن في بيوتكن﴾، وليتها سعت في لأم شمل المسلمين ومنع تشتتهم. لكن عائشة كانت على تنافر مع أم سلمة فهل تصغي لها الآن.. ليتها وافقتها الرأي ولم تعارضها وهي تعلم أن الرسول قال لها أنت على خير. فلم تعارض من هي على خير. كم تمنى المسلمون لو أن عائشة وقفت مع الإمام أولا أقل من ترك الأمر. وليتها فعلت كأم سلمة وهي تتحدث عن علي وظلم الناس له، وهو الأثير على قلب الرسول.. إلى صف من يقف الرسول في أي نزاع بين علي وأي طرف آخر كائناً من كان؟ لا ريب في أن الرسول كان ينصر علياً دائماً لا لأنه ابن عمه بل لأنه مع الحق والحق يدور معه. وهذا ما أناله حب الله له فكيف يخلص لله من يخاصم حبيباً له. أوَ يطمع بعد هذا أن ينال رضى الله من يعادي حبيباً له أوَهل يتقرب إلى الله بذلك! وهل يغفر للذين يحاربون علياً وهم يجهلون حقيقته. وهل من الحق محاربته دون تدبر أو تفكر. ومن يفعل ذلك يكن قد قصر في مقدمات هجومه على الحق. أوَيعذر من يحارب محمداً ﷺ مصدقاً قول أبي جهل أن محمداً كذاب أشر أو قول أبي سفيان إنه لساحر. لقد روى ابن حوشب رضي الله عنه عن ابن عم له؛ قال: دخلت مع أبي على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن علي رضي الله عنه فقالت رضي الله عنها: تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ. وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه. لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم

فألقى عليهم ثوباً فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً قالت فدنوت منهم فقلت يا رسول الله وأنا من أهل بيتك . فقال ﷺ: تنحي[1]؛ الحديث. أوليس في الصلاة على محمد وآل محمد في كل صلاة تنبيهاً للغافلين..

ليت عائشة ما مضت قدماً ولئن غاصت أقدام طلحة و الزبير في طين المطامع فإن التغيير لأناس لا مطامع لهم أدنى إلى تغطية الحقيقة على الذين ارتابت قلوبهم. وليتها ما تظاهرت من جديد مع ضرتها الثانية حفصة بحجة الإصلاح بين الناس. فقد حذرهما الله إن تظاهرتا على رسول الله كما يقول تعالى: ﴿**وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير**﴾. إن حفصة كما عجمتها عائشة لينة العود معها وقد أملت منها الكثير ولكن حفصة انصاعت لأمره تعالى: ﴿**وقرن في بيوتكن**﴾. وليت عائشة حذت حذوها في ذلك.

لقد تذاكرتا أحداث الماضي وسعدتا بود الماضي ولا ريب في أنهما تمنيتا لو لم تنزل بهما سورة التحريم حيث يقول تعالى: ﴿**أن تتوبا إلى الله فقد صغت** ـ أي مالت إلى الباطل ـ **قلوبكما**﴾. أوليس التظاهر على علي من جديد مصداقاً للآية وهما تعلمان مكانة علي من الله ورسوله. فكيف الأمر إذا كان علي هو صالح المؤمنين[2]..

وتجتمع أدغال المطامع متسربلة بمقر عائشة ومعهم مروان بن الحكم يتداولون الأمر. وما منهم إلا وله مطمع في دنيا يصيبها أو إمارة يتولاها وما منهم إلا من زينت له نفسه سوء عمله فرآه حسناً. وتقول عائشة رأيها بالمدينة: «المدينة ليس لنا بأهلها طاقة، فإن من معنا لا يقرنون بما بها من غوغاء» ليتها تروت قبل أن يقول قائل: «فإلى أين تريد أم المؤمنين إن لم يكن للقضاء على من تسميهم بأنهم غوغاء وتتهمهم بقتل عثمان وهي تريد الثأر له». إلى الشام!

ويقول الزبير: نعم إلى الشام فيها الرجال والأموال وعليها ابن عم الرجل ومتى نجتمع يولنا معاوية. فيقول يعلى بن منية محذراً «أيها الشيخان قدرا قبل أن ترحلا..

(١) تفسير ابن كثير، سورة الأحزاب ،آية التطهير. وروي عن أم سلمة قال لها ﷺ: أنت على خير ولست منهم.

(٢) تفاسير ابن كثير والقرطبي والطبري للآية.

إن معاوية قد سبقكم إلى الشام وفيها الجماعة، وأنتم تقدمون عليه غداً في فرقة وهو ابن عم عثمان دونكم.. أفرأيتم إن دفعكم عن الشام أو قال أجعلها شورى، أتقاتلونه؟. أم تجعلونها شورى فتخرجا منها!

هذا هو الأمر إذن.. أين الإصلاح.. أين دم عثمان.. أين القميص.. بل أين الطريق للوصول إلى سدة الحكم.. وكيف يكون الأمر إذا أوقد ابن أبي سفيان الحرب علينا.. وما أسهل أن تطيح رؤوس المهاجمين.. ويخلو الأمر لمعاوية عند ذاك. وكان الرأي لما قاله ابن عامر: اذهبا إلى البصرة فإن لي بها صنائع.. اذهبا إلى البصرة أيها الشيخان فإن غلبتم علياً فلكم الشام، وإن غلبكم علي كان معاوية لكم جُنَّة.

لله در الحسد ما أعدله

وسارعت الفتنة إلى مكاتبة صنائع ابن عامر في البصرة، وكعب بن سور في اليمن، والمنذر بن ربيعة من ربيعة والأحنف بن قيس في البصرة.. واستثاروا فيهم السيادة القبلية أيام الجاهلية ومنّوهم ما وسعهم.. ولكن الحق صفعهم بجواب ابن ربيعة: «إنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر».

أولم يستنهض طلحة والزبير البعيدين على عثمان!.. فكيف يخذلونه بالأمس حياً ويدّعون أن له حقاً عليهم ميتاً! ولا بد أنهم ذكروا رفض سعيد بن العاص بتسويل ابن عامر عامل عثمان في البصرة وقال فيه:

«... يدعوكما إلى البصرة وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق وهم في طاعة عثمان»! كل ذلك لم يقعدهما، كما لم يثنهما خذلان عبد الرحمن بن عمر لهما حتى بعد أن كلمته حفصة بطلب منهما.. وكان الرد على كتبهم إلى من حسبوهم أنصاراً لهم في البصرة: «ما لنا ولهذا الحي من قريش أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه ويدخلونا في الشرك بعد أن خرجنا منه؟ لقد قتلوا عثمان وبايعوا علياً فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم».

إن ما حدث كان حرياً بطلحة والزبير وقد كانت حجتهما داحضة أن يتوبا إلى الله. ولكن ما داخلهما من الحسد لم يترك فسحة للحق.. وها هما ينفقان الأموال ثم

ستكون عليهما حسرة ليسير معهما من لا يملك جهاز المسير للحرب.

عسكر وعائشة وكلاب الحوأب

وترنح عسكر ـ وهذا اسم الجمل الذي يحمل عائشة ـ وهو يتباهى بأنه يحمل أم المؤمنين بدل أن يبكي على ما يحل بدين محمد على يد من كان حرياً بهم أن يكونوا أنصار علي الذي يحبه محمد ﷺ . . أولا أقل أن يعتزلوا كعبد الله بن عمر الذي ثبط أخته حفصة زوج الرسول عن اللحاق بعائشة. وكان هناك من غلبه شيطانه في الجولة الثانية ولحق بهم وهو سعيد بن العاص وهو الذي قال لصاحبة الهودج:

ـ أين تريدين يا أم المؤمنين!

ـ البصرة.

ـ وما تصنعين بها! ثم قال مشيراً إلى طلحة والزبير ومتعجباً لأن قتلة عثمان ليسوا في البصرة: فهؤلاء هم[1] قتلة عثمان معك يا أم المؤمنين! وقال لمروان ساخراً: وأنت أيضاً تريد البصرة! ثم أردف سعيد: إن هذين الرجلين قتلا عثمان وهما يريدان الأمر لنفسيهما. فلما غلبا عليه قالا: نغسل الدم بالدم والحوبة بالتوبة.

ويروي العقاد[2]: «إنهما يطلبان في دم عثمان ولاية ليست لهما، وأموالاً جُنيَ للمسلمين من دونهم. فقد كانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك». «وبلغ الثمن من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار. وخلف ألف فرس وألف أمة»[3] . أولمثل هذا الغلول من مال المسلمين يتنافس المتنافسون! وينادي المغيرة وقد عظم الأمر في عينه بعد أن بان له النكث والغدر في فعال طلحة والزبير: تذهبون وتأركم على أعجاز الإبل! اقتلوهم ـ يقصد ـ طلحة والزبير ـ ثم ارجعوا إلى منازلكم يا قوم. ثم نادى قومه: أيها الناس! من كان هنا من ثقيف فليرجع.

(١) تاريخ الطبري ٣/ أحداث الجمل.

(٢) و(٣) عباس محمود العقاد عبقرية الإمام علي ص ٤٤.

ماذا كان قد حدث لو قتل مروان؛ أو غيره ممن سمع مقالة المغيرة؛ طلحة والزبير! ألا تخمد الفتنة. ولكن مروان بن الحكم طريد رسول الله بدأ فتنة جديدة بمكر ودهاء. إذ قال لهما عندما أذّن للصلاة بعد الخروج من مكة: أيكما أسلم بالإمرة بالصلاة[1]! الصلاة عمود الدين، فكيف تستغل الصلاة لإثارة الفتنة! وهل هذا من الدين!

لقد قال عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله . . . وقال محمد بن طلحة: على أبي محمد. إنه إيقاع بين طلحة والزبير اللذين تشاحّا عليها ثم تلاحّا. . ومروان يبتسم. فأرسلت عائشة إلى مروان ـ لحسم الموقف بإحياء العصبيات القبلية ـ فقالت مخرجة الأمر من ابن عمة علي وابن عمة الرسول ﷺ:

ـ ما لك أتريد أن تفرق أمرنا ليصل ابن أختي (أسماء بنت أبي بكر). فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير حتى قدم البصرة. وليت عائشة عاشت لترى ما فعل الأمويون به. وكان معاذ بن عبيد الله يقول: والله لو ظفرنا ما خلى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر. إنهم يتنازعون الأسلاب ولما تبدأ المعركة. . ماذا كان سيحدث لو انتصرا! هل يقتتلان بعد ذلك! ومع من سيكون الناس عندئذ!

لقد قال أمير المؤمنين فيهما: كان كل منهما حامل ضب لصاحبه، وعما قليل يكشف قناعه. والله لو أصابوا الذي يريدون لينتزعن هذا نفس هذا، وليأتين هذا على هذا. . .

ابن أم المؤمنين في جيش أمير المؤمنين

إنها على خير كما قال الرسول ﷺ . . وظهر الخير فيها بعين دامعة وقلب يتفطر أسى: «إلى علي أمير المؤمنين. . . من أم المؤمنين

يا أمير المؤمنين. . . لولا أن أعصي الله عز وجل، وأنك لا تقبله مني

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ،ص ١٠.

لخرجت معك.. فهذا ابني عمر وإنه والله لأعز علي من نفسي، ويخرج معك فيشهد مشاهدك فاستوص به خيراً يا أمير المؤمنين...».. هذا ما فعلته أم سلمة.

ليت عائشة فعلت كأم سلمة، إذ هل يمكن لفعلين متناقضين أن يكونا مثابين كليهما.

لقد قطع المتآمرون كافة سبل السلام. لقد أصاب قيس بن سعد بن عبادة حين قال: «والله ما غمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة لأنهما عندنا حلالا الدم لنكثهما بعد البيعة» أين المسير...

هل إلى الكوفة وبها شيعة علي ليستثيروا بهم العصبية القبلية؛ لعلهم يرون الانتصار للعصبية والقربى ولو على حساب الحق والدين حين يتألفهم طلحة والزبير!

أم إلى البصرة وقد ذاق أهلها حلاوة المساواة على يد عامل علي فيها.. أم إلى الشام؟.. لا.. فمعاوية.. لا يمكن أن يعينهم إلا إذا احتلب ثمار النصر كاملة... وهم يعلمون ذلك جيداً... فلتكن البصرة.

ليموتن رجل منكم في فلاة من الأرض

جاء علياً الخبر عن طلحة والزبير وعائشة، ماذا سيفعل أمير المؤمنين.. إنّ تجنب الحرب في البصرة سهل على علي بن أبي طالب؛ فهو يسعى لحقن دماء المسلمين ما وجد إلى ذلك سبيلاً؛ فأمّر على المدينة تمام بن العباس، وبعث إلى مكة قثم بن العباس[1] فما عليه إلا أن يسبق المتآمرين ويقطع عليهم طريق البصرة ويدعوهم إلى السلم. وخرج وهو يرجو أن يأخذهم بالطريق ويعترضهم.. وتمضي المطايا لعلها تسبق الركب الذي يستعجل المنايا.. ويهتف دليل الطريق: الربذة.. فيها قبر الرجل الذي وصفه الرسول ﷺ بأنه صادق اللهجة.. وبأنه يموت وحده.. لقد نفاه عثمان.. وقال فيه الرسول: «ليموتن رجل منكم في فلاة من الأرض».. إنه أبو ذر الذي قال لعلي: «رحمكم الله أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول الله...».

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ١٠.

ولكن الذي يحمل الفتنة يستعجل لظاها.. فقد سبق أصحاب الجمل. واستبان له أن قد فاتوه. ولا بد من تجهيز المال للجيش ليكثروا في عين عدوهم فلا يستهين بهم...

فإن كنت محسناً أعانني وإن كنت مسيئاً استعتبني

ويكتب علي لأهل الكوفة ما يفطر الأكباد «أما بعد فإني خرجت من حيي هذا إما ظالماً أو مظلوماً، وإما باغياً وإما مبغياً عليه. وإني أُذكّر الله من بلغه كتابي هذا لما نفر إلي فإن كنت محسناً أعانني وإن كنت مسيئاً استعتبني».

هل شك لحظة في أنه على الحق.. أم أنها حجة على من تشدق فأوّل.

وها قد أتاه وهو في طريقه إلى البصرة خبر عن الأشعري والي الكوفة من عامر بن مطر يقول له: «إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك، وإن أردت القتال فما هو بصاحبه». إنه يخذّل الناس عن نصرة الإمام. وا عجبا كيف أحل لنفسه أن يخالف الإمام برأيه علماً أنه لا تجوز مخالفة الإمام الحق؛ فكيف والإمام لم يسرع إلى البصرة إلا لكي يصد الناس عن الحرب.. وهل يحل له أن يدلي على الإمام بشروطه وما هو إلا من رعية الإمام وفي ولايته. لقد أدى تردده وتقاعسه عن إرسال جيش لنصرة الإمام إلى تحزب الناس وتشرذمهم فطغى جمع منهم. وهذا ما سبب إعاقة رسوله إلى الكوفة محمد بن أبي بكر رضي الله عنه عن الإجابة.

هؤلاء هم الناس كما وصفهم رب العزة..

﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

أكثرهم لا يعقلون وأكثرهم لا يشكرون وأكثرهم لا يعلمون، وأكثرهم للحق كارهون، بل هم قوم يجهلون، وأكثرهم لا يؤمنون وأكثرهم فاسقون وأكثرهم كافرون وأكثرهم مشركون وأكثرهم معرضون.

ويقول في القلة المؤمنة: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**.

فالمهانة لحقت بعامل أمير المؤمنين على البصرة عثمان بن حنيف.

والصد والأذى أصاب حكيم بن جبلة.

ورجال عائشة دخلوا البصرة في ثياب الغزاة؛ أوَهذا حكم الله في مسلميها!

وقتل حزب طلحة والزبير جماعة كبيرة أُلصقت بها تهمة قتل عثمان.

هل سيستوي هؤلاء في حسابهم يوم القيامة؟

هل يستوي القاتل والمقتول؟ من هم البغاة في كل موقف..

وإذا كانت تلك أمة قد خلت؛ أليس لها من حساب!

أوليس فرعون أمة قد خلت! فلم كثر ذكره في القرآن!.. أليس تحذيراً من الوقوف مع فراعنة العصور. وبراءة من الوقوف مع الظلم.. كائناً من كان.

أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ـ إياك أن تكونيها يا حميراء

وقاد عسكر ـ الجمل الأذنب ـ الركب؛ لقد شروه من العرني ـ صاحبه ـ بألف درهم لما امتاز به من السرعة.. وصاح العرني بعد أن غذّ بهم المسير: الحوأب.

وعن الزهري قال: فسمعت عائشة رضي الله عنها نباح الكلاب؛ فقالت: أي ماء هذا؟ فقالوا: الحوأب.

فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون إني لهي. قد سمعت رسول الله ﷺ لم يقول وعنده نساؤه: ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب[1].

ردوني.. ردوني. هكذا صاحت عائشة.

ليتها سمعت قول أم سلمة رضي الله عنها وهي الآن تذكر قول الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى: «أيتكن صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط».

لقد قالت أم سلمة عند ذاك: «أعوذ بالله ورسوله من ذلك».

(١) تاريخ الطبري ج٣، ص١٥.

لأنه ﷺ قد ربت على ظهر عائشة.. وأردف:

«إياك أن تكونيها يا حميراء».. ولكنها كانتها فهل تعود!

لقد صاحت: أنا صاحبة كلاب الحوأب.

فأرادت الرجوع.. لقد تزلزل الناس، واضطرب الجيش وكان قربان عدم رجوعها ولحوقهم بها وصمة عار جديدة.

شهادة كاذبة وأيمان بالغة أقسمها عبد الله بن الزبير (ربيب عائشة وحفيد أبي بكر) مع من أتاها من الأعراب..

ليشهدوا الزور بعد أن آذوا العرني لأنه نطق بكلمة الحوأب.

فزعم أنه قال كذب من قال إن هذا الحوأب. ولم يزل حتى مضت. وكانت أول شهادة زور سجلها تاريخ الإسلام على هذا النحو.

كانت عائشة تعلم أن الرسول يناجي علياً على عادته وهو وحده الذي نا ل شرف آية المناجاة، وكانت غيرتها شديدة من علي كلما أطالا نجواهما وتصرخ بعلي «ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة، ألن تدعني يا ابن أبي طالب ويومي»..

وتزداد غيرتها والرسول يقول: «ارجعي وراءك والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم إلا وهو خارج من الإيمان». وزاد اضطرابها أن أم سلمة التي وصفها الرسول أنها على خير قد أرسلت ابنها مع الإمام..

ليتها ما رضخت لعصف الغيرة التي تدفعها لتحيد عن الطريق، ولكنها أبرمت أمراً فلم تصغ لأم سلمة، حتى بعد أن ذكرت حديث الرسول ونهيه.. ليتها رجعت أدراجها.

هل تلام عائشة أم طلحة والزبير اللذان خرجا بها أم عبد الله بن الزبير الذي حلف بشهادة كاذبة ومن معه ممن شهدوا!.. أم أنهم جميعاً مشتركون.. وهل يمكن أن تقف كلاب الحوأب عن النباح في أذهانهم بقية حياتهم.

يا ليتها قدمت للإمام الشرعي جيوشها بعددهم وعدتهم.. لكان في ذلك حفظاً

للأمة، ونجاة من الاستدراج الإلهي.. ولكن جاءها السؤال بعد أن غذّت في المسير.

نقتحم البصرة؟.. هل نسير على أشلاء من يقومون علينا؟

وجاءها عمير التميمي فنصحها قائلاً: «فعجلي ابن عامر فليدخل، فإن له صنائع يلقون الناس حتى تقدمي فيسمعوا ما جئتم فيه.. وفعل الرجل فعلته في البصرة. فزاد أنصار فريق عائشة وتردد فريق آخر وبقيت طائفة على ولائها للإمام ووالية عثمان بن حنيف.. ولكن ما العمل والفتنة قادمة لتنتشر أسرع من انتشار النار في الهشيم..

وعلي لا يمكن أن يرضى بقتالهم حتى يستنفد كل طريقة في السلم. فالمسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله. وإذا هم انتهكوه فإنه لا ينتهكه.

فليكن سبيل الدعوة إلى حقن الدماء بالحسنى؛ ويرسل رسولين إلى عائشة هما عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي وهما ممن شهدت لهما العقول بالحكمة والتدبير.

«اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً»[1]

ويحاور رسولا الإمام عائشة فأطنبت في ذكر عثمان، وليتها انتبهت إلى سبق مقالتها: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر» وليتها عملت بالحكمة حين جاءها القول: «فهل معك عهد من رسول الله في هذا المسير...»!

لم يدر ذلك بخلدها، ولو تفكرت لاعتذرت وأنابت، ولكنها أصرت فقالت: «غضبنا لكم من السوط والعصا ولا نغضب لعثمان من القتل». ويسألان طلحة: «ما أقدمك علينا».

«الطلب بدم عثمان».. ولكن هل شارك أهل البصرة في قتل عثمان.. لا.. باعتراف طلحة والزبير وعائشة.. وهل شارك أهل البصرة في بيعة علي.. لا..

(١) شرح نهج البلاغة ج ٦ باب ٧٩ ص ٢١٥ و ج ٢٠ باب ٤١٣ ص ٢٢.

باعتراف طلحة والزبير وعائشة.. فلِم تجيش الجيوش إلى البصرة! هل لأن طلحة أو الزبير اختاراها..

أولو اختارا غيرها ألاقت المصير نفسه.. أية شرعة هذه؟

ولكن طلحة كشف عما في نفسه وقال لعمران وأبي الأسود: «يا هذان.. إن صاحبكما لا يرى معه في هذا الأمر غيره.. وليسَ على هذا بايعناه».

فقال أبو الأسود لصاحبه بعد أن فارقا طلحة: «أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك يا عمران». هذه هي الحقيقة؛ لقد ذهب الذهب بأحلامهم. وقول طلحة والزبير أنهما بايعا تحت حد السيف فرية كاذبة لم يصدقها أحد.

إذ أن علياً لم يكره أحداً على بيعته وفي موقفه مع سعد وابن عمر وغيرهما شواهد.

يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «أما أصحاب الجمل فعندنا هالكون كلهم إلا عائشة وطلحة والزبير، ولولا التوبة لحكم لهم بالنار لإصرارهم على البغي[1]. وأما عسكر الشام بصفين فإنهم هالكون كلهم. لا يحكم لأحد منهم إلا بالنار لإصرارهم على البغي وقوتهم عليه؛ رؤساؤهم والأتباع جميعاً»[2].

فالوقوف مع الإمام واجب شرعي ومن رضي بفعل قوم أُشرك معهم. ونصرة الإمام من نصرة الدين. وعدم نصرته خذلان له وإضعاف للدين...

كيف لا وقد ثبت على طلحة والزبير نكث البيعة وإخلاف العهود.

لقد طلب الصحابة صريح النص في ولاية علي:

ـ يا رسول الله إنا لا ندري قدر ما تصحبنا.. فلو أعلمتنا ليكون لنا مفزعاً..

وكأن كل ما ورد في علي لا يفي بالغرض فقال ﷺ..

ـ «أمكا إني أرى مكانه».. مشيراً إلى علي. ثم أردف:

(١) مع أن تاريخ الطبري يذكر أن طلحة قد قتل في المعركة على ما سيأتي.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢/ ٤.

ـ «لو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران».

لقد سألت عائشة: يا رسول الله من كنت مستخلفاً عليهم!

ـ «خاصف النعل».

ـ «ما أرى إلا علياً يا رسول الله».

ـ «هو ذاك».

يروي مسلم في صحيحه[1] عن ابن عباس: وخرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وخرج بالناس معه قال فقال له علي: أخرج معك. قال فقال النبي ﷺ: لا فبكى علي. فقال له أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس بعدي نبي إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي. قال ابن عباس: وقال له رسول الله ﷺ أنت ولي كل مؤمن بعدي ومؤمنة. وقال ابن عباس: وسد رسول الله ﷺ أبواب المسجد غير باب علي. فكان يدخل المسجد جنباً وهو طريقه ليس له طريق غيره. وقال ابن عباس وقال رسول الله ﷺ من كنت مولاه فإن مولاه علي.

جئنا نطلب الدراهم

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج:

«لو عاش؛ يقصد رسول الله ﷺ؛ أكان يرضى لك يا ابن أبي سفيان أن تنازع علياً الخلافة وتفرق هذه الأمة! أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا ثم ينكثا لا لسبب؛ بل قالا جئنا نطلب الدراهم»[2]. ويقول، عن فعل عائشة بعلي «ولو كانت فعلت بعمر ما فعلت به وشقت عصا الأمة عليه ثم ظفر بها؛ لقتلها ثم مزقها إرباً إرباً»[3].

(١) يراجع صحيح مسلم للمزيد.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢٠٢.
(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢٠٢.

ويحدث طارق بن شهاب كيف ثاب إلى الحق فيقول[1]: خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان رضي الله عنه. فلما انتهينا إلى الربذة وذلك في وجه الصبح إذا الرفاق وإذا بعضهم يحدو بعضاً؛ فقلت: ما هذا! فقالوا: أمير المؤمنين. فقلت: ما له! قالوا: غلبه طلحة والزبير. فخرج يعترض لهما ليردهما فبلغه أنهما قد فاتاه فهو يريد أن يخرج في آثارهما. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون آتي علياً فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين. أو أخالفه! إن هذا لشديد! هذا أعظم.. فخرجت فأتيته، وأسفر الصبح لذي عينين.

ثم يرد هذا الأمر شورى على ما فعله ابن الخطاب

وصل أصحاب الجمل البصرة وعليها عثمان بن حنيف. فقال لهم عثمان:

ما نقمتم على صاحبكم؟ فقالوا: لم نره أولى بها منا وقد صنع ما صنع.

لم يأخذ عثمان على يدهم في باطل دعواهم وخاف الفتنة. مع أنهم قبلوا قوله: «على أن أصلي بالناس حتى يأتينا كتابه»؛ يقصد أمير المؤمنين. لقد فعل برأي أقوام آثروا تأخير النهوض عن حفظ الحق الممزق لرتق ما انفتق؛ ريثما يُعلِموا الإمام ويأتيهم جوابه.

لقد وثقوا بعدوهم ولكن سيبهظهم ما يحيق بهم من غدر وظلم وكل آت قريب.

فنار الفتنة تحصد الهشيم ولا تنتظر التأخير..

والعجب من أنه كيف يظن القاعد أنه يحمي الدين وابن عامر جاد في تقطيع أوصال المسلمين... لقد حق القول أن من رضي بالزحف لا يطير.

واستعرت الفتنة.. الإمام يخاف على دماء المسلمين وخصومه تلهث في سعيها إلى الإمارة. وازداد اللغط بين الناس.. وحسمت عائشة الأمر:

«أيها الناس كان الناس يتجنون على عثمان، ويزرون على عماله، ويأتوننا

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٠.

بالمدينة فيستشيروننا فنتظر في ذلك؛ فنجده برياً تقياً وفياً، ونجدهم فجرة كذبة غدرة».

ليتها قالت ذلك قبل مقتل عثمان بدل قولها: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر».. إذن لتغير وجه الأحداث؛ ولم تنس في مقالتها أن تجني لطلحة والزبير فقالت:

«ثم يرد هذا الأمر شورى على ما فعله ابن الخطاب».

إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة

وأتى جارية بن قدامة السعدي يقطع اللجاج إذ قال:

يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح.

إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك. إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك وإن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك.. وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني.

وانفلت آخر يحمل كتاباً من طلحة يؤلب فيه الناس على الإمام ولم يكن بوسع طلحة الإنكار فاعترف. ولكنه تذرع بأن خروجه تكفير على ما بدا منه؛ وهذا يستوجب أن يُقتص منه لا أن يقوم بفتنة جديدة. فسألهما:

ـ فما تأمراني به!

ـ بايعنا على قتال علي ونقض بيعته..

ـ أرأيتما إن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعون إليه، ما نصنع!

ـ لا تبايعه.

فقال هازئاً وقد بدا له سوء فعلتهما:

ما أنصفتماني.. أتأمران أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهي في أعناقكما!...

وأتى آخر فقال: «أرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكم»!

ـ لا.

ـ ما أنا إذن منكما في شيء.

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة وكان محمد رجلاً عابداً فقال[1]:

ـ أخبرني عن قتلة عثمان.

فقال: نعم دم عثمان ثلاثة أثلاث؛ ثلث على صاحبة الهودج يعني عائشة، وثلث على صاحب الجمل الأحمر يعني طلحة، وثلث على علي بن أبي طالب.

وضحك الغلام ـ وقد بانت له الفرية ـ وقال:

ألا أراني على ضلال صدقْتَ في الأولين.. أخطأت في الثالث. ولحق بعلي.

فسارع طلحة ينكر على ابنه مقالته وصاح به مغضباً:

ـ كن كعبد الله بن الزبير، فوالله ما أنت بخير منه، ولا أبوك دون أبيه، وكف عن قولك أو فارجع إن نصرتك نصرة رجل واحد وفسادك فساد عامة.

أَوَهل كلمة الحق فساد.. وعما قليل سيقولون وهم يرونه قتيلاً:

لقد قتله بره بأبيه.. مع أن عصيان الوالدين لنصرة الحق هو وحده سبيل الجنة.

فالمحاربة إنما هي لعلي أمير المستضعفين المقهورين الذين أذلهم ما كانوا يعانون من ظلم وتجويع وقد أصبحت الأموال والخراج إقطاعات لصنائع الولاة وأصبحت التجارة ودولة المال بأيدي حفنة ظنت أنها أعلى درجة من أصحاب الحقوق المحرومين.

نكث البيعة ومفارقة الجماعة

ها قد عاد ظل الماضي الثقيل الذي رزئوا به أيام عثمان..

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ١٥.

فها هو ابن عامر الذي نزعوه عن البلدة..

وها هو ابن عقبة الفاسق الذي صلى بهم أربعاً وقال أزيدكم..

وها هو مروان ابن الوزغ طريد رسول الله كما سماه الرسول ﷺ.

كم ود الناس لو أن عائشة لم تكن منهم...

أوهل يعود الناس سواسية لو كان النصر لهؤلاء؟ ويفصح حكيم بن جبلة الذي ود لو قاتل وحده جموع غزاة الجمل: «إنها قريش.. إنها قريش ليرديّنها جبنها والطيش..».

ويشد حكيم مع القلة ممن معه على المهاجمين الذين فوجئوا وبهتوا فغلبوا؛ ثم أمرتهم عائشة فانسحبوا والناس تحصبهم بالحجارة. ثم جنحوا إلى تغيير مواقعهم فعبروا وادي الموت خلال القبور إلى دار الرزق حيث عسكروا لياناموا وقد عزموا أن يفيقوا ليثأروا. وصح ما وقر في خلد ابن حنيف والي البصرة ـ الذي عزف عن محاربتهم بما عاهدهم به ـ من أن حزب الجمل يعد العدة لنقض عهدهم معه. فرأى أن يعد العدة لا تهيئة لحرب بل إيثاراً لسلم مع تحسب لغدر.

من قبل أن يجتمع العار والنار

لو قص ابن حنيف جناحي طلحة والزبير لما بترت قوائم حكيم بن جبلة انتقاماً لهزيمة الأمس ولما وصل الأمر إلى السيوف تحصد الرؤوس والنبال تحمل المنايا.

ثم تعاهدوا على المهادنة للتحقق من مبايعة طلحة والزبير لأمير المؤمنين. فإن كانت عن رضا دخلا في ما دخل فيه الناس وإن كانت كرهاً كانت لهما البصرة.

ولكن حتى إن أُكرها فلم تكون لهما البصرة! فهي لأمير المؤمنين بايعا أم نكلا وخلافة الإمام لا تتوقف على بيعتهما.. فبأي شرعة ينالان البصرة!

أولو توجها إلى الشام أكان معاوية يقبل بشرطهما أم أنه يطيح برأسيهما.

أولم يعاهدا ابن حنيف على قبول دعوته السلمية ثم نقضوها!

فأي عهد يحفظون.

لقد بايعا راضيين فكيف يقفان أمام الله والناس ناكثين ويدعيان أنهما كانا مكرهين!

أولم يقل لهما علي في كتاب لو نشراه لتفرقت عنهما جموع ممن جيش لقتال الإمام يقول فيه: «وإن كنتما بايعتما كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية.. ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان..».

«.. فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما، فإن الآن أعظم أمركما العار..

من قبل أن يجتمع العار والنار».

ولكنهما أخفيا الكتاب..

والله عليم بما يكتمون.. والناس شهود على ما يفعلون.. ولكنهم لجّوا في طغيانهم يعمهون.. وأنشبوا فتنة كؤوداً؛ إذ لم يمض إلا يومان والرسول إلى الإمام لما يعد؛ حين دفعوا عبد الرحمن بن عتاب ليؤم الناس.

وأُشهرت السيوف؛ ولم تغن عن الحق لقلة النصير.

وما يفعل أربعون أمام جموع المهاجمين الناكلين الناقضي العهد..

فقتل الأربعون جميعاً وسالت دماؤهم في بيت من بيوت الله.

وازدهى الباطل بنصر هتك فيه حرمة بيت الله وحرمة الدم المسلم الحرام وحرمة البغي على إمام الحق..

وزادوا نقض العهد بمن انقض منهم على دار الإمارة التي فيها عامل الإمام علي عثمان بن حنيف؛ إذ لم تعد إمامة الصلاة تعنيهم.

وتسللوا إليها وغدروا بحراسها بدل أن ينبذوا إليهم على سواء.

وهذا أمر إلهي للمعاهد وإن لم يكن مسلماً.

فماذا إذا كان من المسلمين أو في جيش الإمام الحق!

أليس هذا بغياً على بغي!

فقاتلوا التي تبغي

واقتتلوا بدار الرزق قتالاً شديداً من حين بزغت الشمس إلى أن زال النهار وقد كثر القتلى في أصحاب ابن حنيف، وزادت الجراحات في فريقه فظهر حزب الجمل وأخذوا عثمان بن حنيف أسيراً وهو أعزل. ثم أرسلوا أبان بن عثمان إلى عائشة يستشيرونها في أمره.

قالت: اقتلوه[1]!!!

فقالت لها امرأة: نشدتك بالله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله ﷺ.

قالت: ردوا أباناً فردوه.

فقالت: احبسوه ولا تقتلوه.

قال: لو علمت أنك لهذا لم أرجع.

فقال لهم مجاشع بن مسعود: اضربوه وانتفوا شعر لحيته.

فضربوه أربعين سوطاً ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه[2]. وهو لا يملك إلا أن قال: أما إنك لم تفتني بها يا مروان.

لقد خشوا غضب الأنصار فنالوه في شعره وجسده.

ثم قام طلحة والزبير خطيبين يستعتبان الناس ليتوبوا وهم الأولى بالتوبة. إذ كيف يقابلون ـ ومروان فيهم ـ الله وقد استباحوا البصرة ونهبوا بيت المال وسفكوا الدم الحرام في مساجد الله ومثّلوا بعثمان حياً.

لقد خطبا ونالا من علي ثم قالا: يا أهل البصرة توبة بحوبة إنما أردنا أن

(١) و(٢) تاريخ الطبري ٣ / ١٠.

يستعتب أمير المؤمنين عثمان ولم نرد قتله فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه.

فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا.

فقال الزبير: فهل جاءكم مني كتاب في شأنه!

ثم ذكر قتل عثمان.. وما أُتي إليه وأظهر عيب علي.

فقام إليه رجل من عبد القيس فقال: أيها الرجل أنصت حتى نتكلم!

فقال عبد الله بن الزبير: وما لك والكلام.

فقال العبدي: يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك فضل. ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم.

فلما توفي رسول الله ﷺ بايعتم رجلاً منكم والله ما في شيء من ذلك؛ فرضينا واتبعناكم.

ثم مات واستخلف عليكم رجلاً منكم فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا.

فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا.. ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئاً.. فقتلتموه عن غير مشورة منا..

ثم بايعتم علياً عن غير مشورة منا.. فما الذي نقمتم عليه فنقاتله!

هل استأثر بفيء.. أو عمل بغير الحق.. أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه وإلا فما هذا..

لقد ساهم الزبير فكان من المدحضين؛ فهموا بقتل ذلك الرجل فقامت من دونه عشيرته. فأخروا قتله رغم ما أبدى لهم من الآيات حتى حين.

فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من كان معه فقتلوا سبعين رجلاً[1].

لقد رأت عائشة ثورة حكيم بن جبلة على عثمان فقالت تظهر التسامح وتخشى الثأر: «إن حكيماً في الجمع، لا تحبسا عثمان ودعاه».

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ١٨.

ويحمل حكيم بمن معه متظاهراً بأنه يريد نصيبه من بيت المال ويطالب بعثمان بن حنيف. فقال ابن الزبير: لا نخلي سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع طاعة علي.

هذه هي الغاية ابتزاز سلطان علي ولو ستر بدعوى الثأر لعثمان.

وتتكرر أحاديث الألسنة قبل السيوف؛ فيسألهم الإمام:

ـ بم تستعجلون سفك الدماء.

أجاب ابن الزبير: «بدم عثمان بن عفان».

فسألهم مستفسراً ليقيم الحجة عليهم: فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان؟!

هل قتله الذين قتلوا في المسجد!

أم الذين اغتيلوا في القصر!

أم قتلى عبد القيس!

أهذا هو القصاص!

ويصيح حكيم: اللهم إن حكمك عدل فاشهد!

ونطقت السيوف فأفصحت، وقاتلهم حكيم حتى أخرجهم من القصر. ولكن كان لمكانة عائشة أكبر الأثر في النصر بمن معها من القيس والأزد والرباب.

قتلتني وسادتي

وزحف طلحة لحكيم وهو في ثلاثمائة رجل. وجعل حكيم يضرب بالسيف قتال الأبطال؛ حتى كمن له رجل فضرب رجله فقطعها.. فحبا حتى أخذها فرمى بها صاحبه فأصاب جسده فصرعه؛ فأتاه حتى قتله ثم اتكأ عليه؛ وقال: يا فخذ لن تراعي.. إن معي ذراعي. فأتى عليه رجل ورأسه على الآخر؛ فقال: ما لك يا حكيم!

قال: قُتلت.

قال: من قتلك!

قال: وسادتي! فاحتمله فضمه في سبعين من أصحابه.

فتكلم يومئذ حكيم؛ وإنه لقائم على رجل وإن السيوف لتأخذهم فما يتعتع ويقول: إنا خلفنا هذين وقد بايعا علياً وأعطياه الطاعة، ثم أقبلا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان بن عفان. ففرقا بيننا ونحن أهل دار وجوار.. اللهم إنهما لم يريدا عثمان[1].

ومات حكيم مجهراً بالحق وغدر الناكلين.

ونادى منادي الزبير وطلحة بالبصرة: ألا من كان فيهم من أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم. فجيء بهم كما يجاء بالكلاب فقتلوا دون عذر أو توبة؛ فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعاً إلا حرقوص بن زهير فإن بني سعد منعوه.

ثم خافا ثأر القبائل فمالا إلى شراء النفوس؛ فأمرا للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وحقوقهم وفضّلا بالفضل أهل السمع والطاعة.

أليس من قتلهم طلحة والزبير اليوم من الغزاة هم الذين نصروا طلحة والزبير أيام عثمان. أليس ما حدث من القتل كافياً للثأر لعثمان والعودة إلى طاعة أمير المؤمنين!

لم ترو كثرة القتلى نهم الزبير الذي أخذته العزة بالإثم فنادى:

ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي، فإما بيّته وإما صبّحته؛ لعلّي أقتله قبل أن يصل إلينا[2].

اللهم انصر من نصره واخذل من خذله

هكذا دعا الرسول. ويصل ابن حنيف إلى علي.وهو يحمل آثار المثلة والتنكيل به وهو حي.. ويصل محمد بن أبي بكر يحمل له تخاذل أبي موسى الأشعري وتثبيطه للناس بقوله: «إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة، والخروج

(١) الاستيعاب ١/ ٣٦٧.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ١٩.

سبيل الدنيا، فاختاروا أيها الناس».

لقد اختار لهم الأشعري قبل أن يختاروا وأقعدهم قبل أن ينهضوا.. فثاقلوا إلى الأرض وقد زين لهم أن العقود سبيل الدنيا. ومتى كان القعود سبيل الدنيا والآيات تنبىء خلاف ذلك؟.. أوليس تخذيل أنصار علي هو انتصار لأنصار أعدائه؟. إن الرجل وإن كان والياً للإمام بمشورة صحبه؛ فإنه لا يخفي أن هواه مع عثمان ومن شايعه! لقد حاجه بن جعفر ثم عمار بن ياسر ثم الأشتر ثم ابن عباس ثم الحسن سبط رسول الله. ولكن قلبه قد أغلق دون مفاتيح الحق. ومضى ممعناً في عناده راكباً هواه عاصياً لمولاه. حتى أرسل له أمير المؤمنين يطلب منه النهوض بمن معه أو يبتعد.. ولكن الأشعري ما انفك يخذّل الناس وهو يعلم أن ذلك يترك الإمام في عزلة؛ وإن ظن نفسه يعتزل الفتنة.. أوهل يترك الراعي غنمه ويترك الذئب بينهم مؤثراً اعتزال الفتنة أوهل هي الحكمة في كلماته: «أغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار حتى تنجلي هذه الفتنة».

ومن للذين تذبحهم سيوف الفتنة ومن للحق الذي تدك قوائمه أعاصير الباطل.

ليت عائشة ما حملت وزر ما وقر في قلب الأشعري في كتابها له: «.. فثبطوا الناس من منع هؤلاء القوم ونصرتهم، واجلسوا في بيوتكم...».

وساهمت بأن أردفت إلى ابن صوحان: «من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين، حبيبة رسول الله، إلى ابنها زيد أما بعد فإذا أتاك كتابي فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل فخذّل الناس عن علي..».

وأُتي كتابا عائشة إليه وإلى أهل الكوفة وقد كان طلب كتاب العامة فضمه إلى كتابه فأقبل بهما؛ وقال:

أما بعد أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فلما فرغ من الكتاب ثار زيد بن صوحان ـ الذي كانت تعده عائشة ابناً خالصاً لها ـ وثار الناس. لقد اتضح لهم أن القعود ليس اعتزالا للفتنة بل تقوية لدعوة العصاة الذين قاموا على علي. فقال: «أُمرَت بأمر وأُمرنا بأمر أمرت أن تقر في بيتها..

وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة.. فأمرَتنا بما أُمرت به، وركبتْ ما أُمرنا به»[١].

وتهاوى الناس فقام أبو موسى يخذل الناس ويسكت الرجل فقال: أيها الناس

شيموا سيوفكم وقصوا رماحكم وأرسلوا سهامكم واقطعوا أوتاركم والزموا بيوتكم. خلّوا قريشاً.. وأطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم. ويشقى بحرّ هذه الفتنة من جناها.

فقام زيد فشال يده المقطوعة فقال: يا عبد الله بن قيس رد الفرات عن مورده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ.. وإلا فدع عنك ما لست مدركه؛ ثم قرأ:

﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[٢].

هلك من ليس له حكيم يرشده

وهكذا فعل الأشعري.. كان تثبيطه الناس عن الحق دعوة مبطنة لنصرة الباطل.. وكانت كلماته وأفعاله تقصم قوة الإمام.. وهو يفصح بين الحين والآخر عن نواياه حين يظهر أن بيعة عثمان ما تزال في عنقه.. ما ذاك إلا لعزل الناس عن الإمام في بلدة أذعنت لما يحمل الإمام من حق. حاجّه الناس فحجّوه. ووصل به الأمر عندما ذكر له طلحة والزبير ومعاوية مع فرقة الحجاز الناكلة أن قال «أولئك خير الناس». فكان جواب الناس له: بل غلب عليك غشك.

ولكن لكل دعوة أنصار. وآثر أناس ممن فتنهم الأشعري بمقالته أن يرسلوا لهم رسلاً تجلي لهم الحقيقة؛ ولكن قبل أن يفعلوا أتاهم الحسن بكتاب الإمام وفيه الخير اليقين لموقف شريح بن هانىء يقول فيه: لا تخلفوا عن دعوته أيها الناس والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه.

لقد قال الحسن إن علياً يقول:

إني أُذكّر الله رجلاً رعى لله حقاً إلا نفر، فان كنت مظلوماً أعانني وإن كنت

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥.

ظالماً خذلني.. والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني ثم نكثا ولم أستأثر بمال ولا بدلت حكماً.

ويسيء الأشعري إلى عمار بن ياسر الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه ملىء إيماناً من رأسه إلى أخمص قدمه مشهراً ما وقر في قلبه وأمضى به لغير الله؛ ـ ودون أن يستحي من وجود الحسن ـ بقوله:

«يا أبا اليقظان أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار».

فقال عمار: لم أفعل ولم تسؤني.

وأقبل الحسن على أبي موسى فقال: يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا! فوالله ما أردنا إلا الإصلاح.. ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء.

فقال: صدقت بأبي أنت وأمي. ثم تذرع بأنها فتنة. مع أنه لو كان صادقاً لوجب عليه أن يدعو أنصار عائشة وطلحة والزبير إلى القعود كما يفعل مع أنصار الإمام علي عليه السلام.

وقام عبد خير الخيواني إلى أبي موسى فقال[1]:

يا أبا موسى هل كان هذان الرجلان ـ يعني طلحة والزبير ـ ممن بايع علياً؟

قال: نعم

قال: هل أحدث حدثاً يحل به نقض بيعته!

قال: لا أدري!

قال: لا.. دريت! فإنا حتى تدري يا أبا موسى. هل تعلم أحداً خارجاً من الفتنة التي تزعم أنها هي فتنة...

يا أبا موسى غلب عليك غشك.

وثبت خطأ الأشتر في الأشعري الذي نصح الإمام بإقراره.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥.

ولعلها حجة على الأشعري وقد حسب أن لن يخرج الله أضغانه.

أنت فيها قاعداً خير منك قائماً

واستجاب الإمام لطلب الأشتر بالذهاب إلى الكوفة لتدارك الموقف. فذهب حتى دخل الكوفة وقد اجتمع الناس في المسجد الأعظم. فجعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلا دعاهم؛ ويقول: اتبعوني إلى القصر.

فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس.

فاقتحم القصر فدخله وأبو موسى قائم في المسجد يخطب الناس ويثبطهم ويقول[1]:

أيها الناس إن هذه فتنة عمياء صماء تطأ خطامها. النائم فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، والساعي فيها خير من الراكب؛ إنها فتنة باقرة كداء البطن أتتكم من قبل مأمنكم تدع الحليم فيها حيران كابن أمس.

وعمار يخاطبه والحسن يقول له: اعتزل عملنا لا أم لك وتنح عن منبرنا.

ولما لج قال له عمار منكراً: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ. أجاب: هذه يدي بما قلت.

فقال له عمار: إنما قال لك رسول الله ﷺ هذا خاصة؛ فقال: أنت فيها قاعداً خير منك قائماً. ثم أردف عمار: غلب الله من غالبه.

لقد دأب الأشعري على تخذيل الناس عن الإمام بدعوى سلامة الدين والدنيا، مع أن سلامة الدين والدنيا إنما تكون بلزوم الإمام علي بن أبي طالب، والجهاد معه ومقاتلة من قاتله؛ ليكون مصداق حديث الرسول ﷺ «اللهم انصر من نصره واخذل من خذله».

إنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.. وهل يحب الله من يقاتل حبيباً له.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٨.

هل أخفى الأشعري ما وقر في قلبه ليكون سيف الفتنة أمضى!

لقد عمِه الأشعري في طغيانه ولم يعمل باليسرى. فكشف له الحسن بعد الحسنى عن كتاب له من الإمام جاء فيه: وقد بعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر يستنفران الناس وبعثت قرظة بن كعب والياً على المصر فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً فإن لم تفعل فإني قد أمرته أن ينابذك فإن ظفر بك أن يقطعك آرابا[1].

أية نفس هذه التي تنصاع للقهر والشدة بدل أن تنصاع للحق!.

فنزل أبو موسى فدخل القصر فصاح به الأشتر:

اخرج من قصرنا لا أم لك أخرج الله نفسك فوالله إنك لمن المنافقين قديماً.

قال: أجّلني هذه العشية فقال هي لك ولا تبيتن في القصر الليلة.

ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر وقال إني قد أخرجته فكف الناس عنه.. وقعد الأشعري مذموماً مدحوراً.. ليته سلم الحق ولم يخذّل عنه ولم ينصر الباطل. خسر الإمارة وبقيت له الذلة والتبعة.

وقامت جموع الناس ولحقت بالإمام الذي نزل في ذي قار.

وآثر الإمام الصفح وأن لا يقاتل إلا من قاتله فقال:

إن شغب شاغب استعتب فإن أبى قوتل[2].

جل عن الأمر العتاب

هكذا كانت إجابة عائشة للقعقاع بن عمرو ـ ابن الحنظلية صاحب رسول الله ﷺ الذي أرسله الإمام إليها وإلى طلحة والزبير يدعوهم إلى عدم القتال بقوله: «.. لكي لا يفتقوا في الإسلام فتقاً ولا يشقوا جماعة»..

ليتهم جنحوا إلى السلم..

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٦.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨.

لقد جبل الله الإنسان على تمييز الحق..

والذي لا يذعن له مؤثراً أهواءه حجته داحضة عند ربه. لأن نكوله ليس لأنه ما تبين الحق بل لأنه ذل لأطماعه بإذعانه لوسوسة شيطانه.. أفي قلوبهم مرض أم ارتابت قلوبهم.. هذه هي النفس البشرية وزلاتها! ما أسهل على الله حسابها؛ وقد خاب من دساها والعاقبة الحسنى لمن زكاها. لقد قال طلحة والزبير ومن معهم لعلي: «إنك سرت مسيراً له ما بعده ولست راضياً دون دخولنا في طاعتك؛ فلسنا داخلين أبداً واقض ما أنت قاض».

لم يثنهم أن قال لهم القعقاع أنهم قتلوا ستمائة رجل بدم عثمان؛ ولم ينج إلا الحرقوص بن زهير الذي أجاره قومه! والخوف من الستة آلاف منهم هي التي أوقفتهم عن قتالهم.

لو كان غير علي لسفك دماءهم؛ إنه لا يظلم الناس ولو ظلموه إذ لا سبيل له إلا ما أمر به الله.

إنه يعلم ما في نفوسهم ولكنه لا يحاسبهم على ما فيها بل على ما بدر منها.. وإكمالاً للحجة بعد الحجة بعث أمير المؤمنين سفراءه ولكن سورة الباطل لا ترضى لظمئها غير الدم.

ونهض أبو الجرباء يدعو لقهر علي وأردف كعب بن سور قائلاً:

وما تنتظرون يا قوم بعد توردكم أوائلهم.. اقطعوا هذا العنق من هؤلاء.

أية عنق هذه! أليست عنق علي! أنسي قوله لطلحة والزبير من قبل: «إن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله! وإن يك مظلوماً فغيركما أولى به.. وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل..».

وروي أن علياً قال لطلحة يوم الجمل[1]:

نشدتك الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول:

من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه! قال نعم:

(١) الاعتقاد ١/ ٣٧٣.

قال: فلم تقاتلني!

قال: لم أذكر..

الآن؛ والإمام قد ذكّرك فما الذي أمضى عزمك! والإمام بالله ناشدك!

رؤيا كليب الجرمي

قال أهل البصرة لكليب الجرمي واثنين معه:

ـ انطلقوا حتى تأتوا علياً وأصحابه فسلوهم عن هذا الأمر الذي قد اختلط علينا.

فخرجوا حتى إذا دنوا من العسكر طلع عليهم رجل جميل على بغلة. فعادت لذهن كليب من مخزون الذكرى قولته لقومه:

«رأيت فيما يرى النائم في زمان عثمان بن عفان أن رجلاً يلي أمور الناس مريضاً على فراشه، وعند رأسه امرأة والناس يريدونه. فلو نهتهم المرأة لانتهوا؛ ولكنها لم تفعل فأخذوه فقتلوه».

ثم ذكر حديثه للناس: فكنت أقص رؤياي على الناس في الحضر والسفر فيعجبون ولا يدرون ما تأويلها. فلما قتل عثمان وأتانا الخبر، قال أصحابنا: رؤياك يا كليب. فانتهينا إلى البصرة. فلم نلبث إلا قليلاً حتى قيل: هذا طلحة والزبير معهما أم المؤمنين. فراع ذلك الناس وتعجبوا فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضباً لعثمان وتوبة مما صنعوا من خذلانه، وأن أم المؤمنين تقول غضبنا لكم على عثمان في ثلاث إمارة الفتي وموقع الغمامة وضربة السوط والعصا فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث إليه حرمة الشهر والبلد والدم.

فقال الناس أفلم تبايعوا علياً وتدخلوا في أمره.

فقالوا دخلنا واللج على أعناقنا. وقيل: هذا علي قد أظلكم.

ثم قال لصاحبيه: أرأيتم المرأة التي كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس

الوالي. فإنها أشبه الناس بهذا. ففطن أنا نخوض فيه فلما انتهى إلينا؛ قال: قفوا! ما الذي قلتم حين رأيتموني.

فأبينا عليه فصاح بنا وقال: والله لا تبرحون حتى تخبروني فدخلتنا منه هيبة فأخبرناه وهو يقول والله لقد رأيتَ عجباً.

فقلنا لأدنى أهل العسكر إلينا: من هذا! فقال: محمد بن أبي بكر؛ فعرفنا أن تلك المرأة عائشة.

ويحدث كليب فيقول: وانتهينا إلى علي فسلمنا عليه ثم سألناه عن هذا الأمر. فقال:

عدا الناس على هذا الرجل وأنا معتزل فقتلوه. ثم ولوني وأنا كاره ولولا خشية على الدين لم أجبهم، ثم طفق هذان في النكث، وأخذت عهودهما عند ذلك، وأذنت لهما في العمرة. فقدما على أمهما حليلة رسول الله ﷺ فرضيا لها ما رغبا عنه، لما لا يحل لهم ولا يصلح فاتبعتهما لكيلا يفتقوا في الإسلام فتقاً ولا يخرقوا جماعة.

ثم قال أصحابه: والله ما نريد قتالهم إلا أن يقاتلوا وما خرجنا إلا للإصلاح.

فصاح بنا أصحاب علي بايعوا فبايع صاحبي وأما أنا فأمسكت وقلت:

بعثني قومي لأمر فلا أحدث شيئاً حتى أرجع إليهم.

فقال علي: فإن لم يفعلوا. فقلت لم أفعل.

فقال أرأيت لو أنهم بعثوك رائداً تبتغي لهم مساقط الغيث، فرجعت إليهم فأخبرتهم عن الكلأ والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب.. ما كنت صانعاً.

قلت: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء.

قال: فمد يدك.

إنها دعوة الحق.. لا يمكن لعاقل أن لا يستجيب لها.. ولو خالفها من الناس من خالفها، شريفاً كان أم وضيعاً، غنياً كان أم فقيراً. ولكن الناس أكثرهم لا

يفقهون وأكثرهم لا يعلمون وهم لأهوائهم وباطلهم يؤثرون. وقد أنكر الله عليهم مثل أقوالهم:

﴿ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾، ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾، ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾.

ومن عبادة الذي فطرني أن أحب وأقف مع من يحبه الله ورسوله.

ومد الرجل يده.. وانطلق يدعو الناس إلى الإمام وهو يقول:

فوالله ما استطعت أن أمتنع فبسطت يدي فبايعته. وكان يقول: علي من أدهى العرب.

ضربك الله بها بيضاء لامعة، لا تواريها العمامة[1]

أصحاب الجمل يسعون إلى الدماء وعلي لا يألو جهداً ليحقنها. الدماء طريقهم إلى السلطة وحقنها طريق الحق الذي يسلكه علي حتى وإن كانت دماؤهم.

سِلمهم أن ينزل علي إلى سلطانهم ليزيدوا في القتل..

وسِلمه يعني الحكم بما أنزل الله.

إنهم يعلمون أنهم لو كانوا يحاربون غيره لاقتص منهم، وهذا ما كان يجرّئهم على مقاتلته. إنه لا يعمل لنفسه بل لله.

وأما هم فهل يعملون لله أم لعثمان أم للأمة أم لأنفسهم.

أم أنهم يغررون بالناس وهم يقودونهم إلى لظى حرب دون أن يحددوا غايتها! وهذا أدهى ما في الأمر. إذ أنهم لم يجدوا لأنفسهم أية معذرة في رد دعوة علي عليه السلام.

لقد لاقت دعوته صدى كبيراً في النفوس التي أزيحت عن عينيها غشاوة الباطل فهاءت إلى هدى إمامها.

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٩ باب ٣١٧ ص ٢١٩.

فانضمت إليه وهو يكف اليد عن بدء القتال بعد وصوله إلى البصرة.

وفعلت سفارة القعقاع فعلها فقد انضم إلى الإمام رجالات بكر بن وائل وعبد القيس.

ولكن طلحة والزبير كانا يشيعان أن علياً سيفعل بالناس ما فعلوه هم بهم مع أنهم يعلمون أنه لا يسلك غير سبيل الإسلام وهو حكم الله لا يحيد عنه ولو حادوا. حتى أن الأحنف قال للإمام: «يا أبا الحسن إن أقواماً بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً تقتل رجالهم وتسبي نساءهم».

فأجابه: «ألم تسمع قول الله عز وجل **﴿لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر..﴾** يا أحنف.. إنهم قوم مسلمون وما مثلي من يخاف هذا منه».

ويطلب من الأحنف أن يكف الناس عنه.

ويرسل علي صحابياً آخر هو أنس بن مالك ليذكر طلحة والزبير بكلام رسول الله صلى الله عليه وآله لهما يحذرهما من فتنة يقومان بها على علي وهما له ظالمان.

ويقول ابن أبي الحديد أن علياً قال للناس: أنشدكم الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لي وهو منصرف من حجة الوداع: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[1]. فقام رجال فشهدوا بذلك.

فقال عليه السلام لأنس بن مالك: لقد حضرتها فما بالك!

فقال أنس متذرعاً بكبر سنه: «إني أُنسيت الأمر».

هل نسي فعلاً أم أن صحبته للرسول صلى الله عليه وآله ستكون حجة عليه يوم القيامة!

فقال أمير المؤمنين منكراً عليه أن يكون ناسياً: وهل تضيع الثمرة من حديث الرسول بادعاء صحابته النسيان؟ «إن كنت كاذباً ضربك الله بها بيضاء لامعة، لا تواريها العمامة»[2].

(١) شرح نهج البلاغة مجلد ٤ ج ١٩ ص ٣٨٨.
(٢) نهج البلاغة ج ١٩ باب ٣١٧ ص ٢١٩.

وسارع عذاب الدنيا إلى أنس بن مالك صاحب الرسول ﷺ.

ليت هذا الصحابي ذكّر طلحة بقوله ﷺ ليهتدي إلى الحق من يأنس به؛ ولو فعل لما نالته دعوة الإمام.

لقد أصيب بالبرص إصابة لا تواريها لا العمامة ولا اللثام الذي سعى لإخفاء برصه به.

ولئن أخفى قسماً منه في الدنيا فالله لا تخفى عليه خافية.

وهل يفيده اعترافه بقوله: أصابتني دعوة العبد الصالح.

أليس في أنس بن مالك تنبيه لمن أراد أن يذّكر ويحذر أن يصيبه ما أصابه!

أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً فهل أعددتما عند الله عذراً

وزحف جيشا السلم والحرب فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه سلاح.

فقيل لعلي: هذا الزبير. قال أما إنه أحرى الرجلين إن ذكّر بالله أن يذكره. وخرج طلحة؛ فخرج إليهما علي فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم.

فقال علي: لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً فهل أعددتما عند الله عذراً.

هذا ما يغفله أو يتغافل عنه الكثيرون في أقوالهم واعتقاداتهم؛ وفي ولائهم وفي عملهم وفي ما تقترفه أيديهم. ويتابع الإمام علي عليه السلام: «فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً. ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دماءكما! فهل من حدث أحل لكما دمي!».

قال طلحة: ألّبت الناس على عثمان.

قال علي: يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

وقال للزبير: «قد كنا نعدّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك.. ففرق بيننا وبينك..».

وتدور نفس الزبير بين الإذعان للحق والمكابرة بالباطل؛ فيقول:

ـ أطلب دم عثمان

ـ دم عثمان! بل أنت وطلحة وليتماه! ثم يذكّره الإمام علي عليه السلام من جديد:

ـ يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إلي فضحك وضحكت إليه فقلتَ: لا يدع ابن أبي طالب زهوه[1]؛ فقال لك رسول الله ﷺ: «صه إنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت له ظالم»!

فقال: اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا.. والله لا أقاتلك أبداً.

فانصرف علي إلى أصحابه فقال: أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم.

ليت الزبير بيَّن قبل أن يقتل

ورجع الزبير إلى عائشة فقال: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا.

قالت: فما تريد أن تصنع! قال أريد أن أدعهم وأذهب.

فقال له ابنه عبد الله: أحسست رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد.

قال: إني قد حلفت ألا أقاتله. وأحفظه ما قال له فقال: كفّر عن يمينك وقاتِلْه. فدعا بغلام له يقال له مكحول فأعتقه فقال عبد الرحمن بن سليمان التيمي:

أعجب من مكفر الأيمان ... بالعتق في معصية الرحمن

وقال رجل من شعرائهم:

يعتق مكحولاً لصون دينه ... كفارة لله عن يمينه

والنكث قد لاح على جبينه

(١) شرح نهج البلاغة ج ٢ باب ٣١ ص ١٦٧.

وليته صرف عنه حين عاد من يستطلع له أخبار الإمام قائلاً فيما قال: «. . . ثم لقيت عمار بن ياسر. .».

فقال منكراً: ابن ياسر إنه ليس فيهم. فرد عليه:

«بلى والله أيها الأمير». فقال ابن الزبير مشدداً الإنكار وهو يعلم أنه فيهم: «والله ما جعله الله فيهم».

إنه يعلم أن الرسول ﷺ قد أنبأ أن عماراً تقتله الفئة الباغية. وهو الآن يقاتل مع الإمام علي عليه السلام.

بل ليته صُرف عن الأمر قبل أن يحمل أمه عائشة إلى البصرة. لقد انبلج الصبح وبدت الشمس لذي عينين. . ووا أسفا على الذين لهم أعين لا يبصرون بها. ولكن ليته بعد ذلك لحق بجيش علي ليقاتل البغاة. إذن لما لحقه ما أصابه!

إنها خطوة واحدة. .

يتم بها الانتقال بين الضلال والهدى. .

ليته نصر الإمام بدل أن يترك الطرفين. . لقد مضى فتبعه عمرو بن جرموز الذي أنكر عليه فعله بقوله له:

أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله. . قتلني الله إن لم أقتلك.

فلما لحقه نظر إليه الزبير وكان شديد الغضب قال: ما وراءك!

قال: إنما أردت أن أسألك.

فقام غلام للزبير يدعى عطية كان معه يحذره منه.

فقال الزبير: ما يهولك من رجل!

وحضرت الصلاة. .

فقال ابن جرموز: الصلاة.

فقال الزبير: الصلاة.

فنزل؛ واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه في جربان درعه فقتله، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه؛ وخلّى عن الغلام. ثم دفنه بوادي السباع ورجع إلى الناس بالخبر.

فأخبر علياً فقال:

سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ[1].

ليت الزبير بيَّن للناس أجمعين أنه ظلم الإمام بقيامه عليه. .

وليته أصلح وبيَّن للناس أن من يقاتل الإمام علي عليه السلام أولا يقف في صفه ظالم له.

إذ ليته أذعن إلى قوله تعالى: ﴿**إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم**﴾.

فهل ينال التوبة من تاب ولم يبين ولم يصلح، أو من بين ولم يصلح؛ أو من أصلح ولم يبين إذا كان قد تاب!

بيعة بيد شلاّء وقتال بيد غير عصماء

ليت طلحة ما أخفى توقه إلى الخلافة في سقيفة بني ساعدة! وليته ما حسد عليها عمراً حين نالها من أبي بكر! وليته ما بكى عليها ثالثاً حين انتهت إلى عثمان! لعله نظر إلى أنه أهل لها وهو ينظر إلى نفسه بين الستة الذين ضمتهم الشورى! لقد بذر له عمر البذرة وهو يعلل النفس ولظى انتظار ثمرتها يكويه. وليته ما حرض الناس على عثمان يعلل نفسه بالآمال لنيلها!

وليته ما بايع علياً بيده الشلاء التي حق قول الإمام بها أخلق بها أن تنكث؛ إذاً لما كان من الناكثين. وليته ما اتهم الإمام بدم عثمان وهو منه براء حين قال له: يا أبا محمد ما جاء بك!

فقال: دم عثمان.

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ٥٦.

فقال الإمام: قتل الله من قتله.. هل ميز طلحة قول الإمام أكان دعاء أم تعريضاً!

ويعنفه علي على إخراج عائشة بعد نكث البيعة: «ليس أعظم الحدث أن أخرجتم أمكم.. أكان رضا رسول الله يا أبا محمد أن تهتكوا ستراً ضربه عليها وتخرجوها منه..».

ليته لم يصم سمعه عن قول الإمام، وليته أذعن للحق وأنقذ الناس ونفسه من فتنة غاشمة.. وتركه الإمام قائلاً: «أما إنه لمقتول غداً في الرعيل الأول». لقد صدق قول الإمام فيه «منتفخ النحر عاقص القرن». وأذعن أهل الحق لإمام الحق. فقد خرج من المدينة في سبعمائة فصاروا بذي قار سبعة آلاف؛ وها هم الآن عشرة آلاف. ولكن خصومهم في ميدان الصراع ثلاثون ألفاً. واهاً لهؤلاء الناس.. قاتلهم في بدر كافرين وعصف برؤوس مشايخهم.. وقاتلهم في أحد وصبر مع القلة حول الرسول.. وجندل صنديدهم عمرو بن عبد ود في الخندق. وقد أنقذهم من الذل إذ لم يقم إلى عمرو أحد.. وثبت مع القلة في حنين.

قال المشركون عن الرسول ﷺ إنه ساحر وكاذب ومجنون فتربصوا به كيد المنون..

وها هم يختلقون الأكاذيب ويلفقون الأحاديث..

ولم يكفهم ذلك؛ فأشهروا من ثمار الشجرة الخبيثة مسموم السيوف..

ليلغوا في دمه ودم من معه.. إنهم يتنكرون لبيعته وهي رابع بيعة؛ مخالفين سلوكهم عن ما سبقها من بيعات.. كانت بيعته من الأمة عامة وهذا ما لم يحدث في بيعة أي ممن سبقه.

والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين

«وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم..».. ولكنه مع غدرهم وفتنتهم يعف عن مجاراتهم في غدرهم ويقول لجنده:

ـ لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فإنكم وبحمد الله على حجة..

وكفكم عنهم حتى يبدأكم حجة أخرى.. وبدأ الغدر..

وحمل إلى الإمام علي عليه السلام ضحيته وقد أصيب بسهم صرعه..ولم يكن آخر الغدر بل أوله.

فقال: أعذروا إلى القوم

ـ إلى متى! قد والله أعذرنا وأُعذرت إن كنت تريد الإعذار..

والله لتأذنن لنا في لقاء القوم أو لننصرفن.

وزاد الغدر وقتل رجال علي واحداً بعد واحد.

وأُشرعت السيوف وبدأ الباغون يضربون جند الحق؛ ولو سألهم سائل أن يجيبوا بصدق لم يقاتلون فما عساهم قائلين.. إنهم يضربون أنفسهم فمضر تضرب مضر.. وربيعة تضرب ربيعة . والذي لا يرعى ذمام الإسلام لا يأبه لصلة رحم.

حم لا ينصرون اللهم انصرنا على القوم الناكثين

هذا هو شعار الإمام.. وسالت الدماء.. ومع ذلك قال الإمام لصحبه دون أن يخفى عليه غدرهم:

«أيكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه.. وهو مقتول».. إنه يعلم أن الشجرة الخبيثة لا ترضى حكم الله.. ولو كانت ترضاه لما قاتلت. ولكن عسى أن تهفو إلى الحق بقية منهم تنهى عن الفساد في الأرض.. ولتقم عليهم حجة بعد حجة.. وينهض فتى من الكوفة يقدم نفسه إلى سهام الغدرة ويقول:

أنا يا أمير المؤمنين.

ويردف الإمام: «..فإن قطعت يمينه أخذه بيساره، وإن قطعت يساره أخذه بأسنانه..».

أوهل يبقى هؤلاء القوم على الإسلام إن حل بالغلام ما أنبأ به الإمام.. فهم يقتلون حامل كتاب الله.

ويدفع إليه المصحف وقد رآه عازماً على الفداء ويقول: «اعرض هذا عليهم، وقل:

هو بيننا وبينكم.. الله الله في دمائنا ودمائكم..».

ويندفع الفتى ليحقن دماء القوم.. حاسراً أعزل.. إلا من كتاب الله.

ولكنهم رموه وأصابوا يمينه التي تحمل كتاب الله، فحمله بشماله فعقروها؛ فأمسكه بأسنانه وهو يردد:

كتاب الله بيننا وبينكم.. الله الله في دمائنا ودمائكم..

بماذا يوصف هؤلاء.. أين إسلامهم.. أين وصايا نبيهم.. أليس المصحف كتابهم!

ويصيح الإمام وهو يرى ما حل بالغلام: «حل قتالهم.. الآن طاب الضراب».

ويخشى كعب بن سور أن يهزم أصحاب الجمل وهو يرى علياً يعد جيشه؛ فيسارع إلى عائشة لترسل من يحمل كتاب الله..

ولكن الرسول يقتل في أتون المعركة وعائشة قائمة على جملها والأحزاب من حولها.

ويتكرر النداء ليستعر القتال..

وارتفع ذو الفقار عالياً..

سيفٌ قال فيه الإمام:

والله ما قتلت أحداً بسيفي هذا إلا أوردته النار.

الموت ليس منه فوت يدرك الهارب ولا يترك المقيم

ويقبل ابن جهين على علي يقول: تالله ما رأيت كاليوم قط.. إن بإزائنا لمائة

ألف سيف وقد هزمت ميمنتك وهزمت ميسرتك وأنت تخفق نعاساً!

فهتف بين أصحابه: الموت ليس منه فوت يدرك الهارب ولا يترك المقيم.

ودفع الراية إلى ابنه محمد قائلاً: تقدم.. فأجاب: لا أجد متقدماً إلا على سنان الرماح.

فارتفع ذو الفقار عالياً واندفع علي صائلاً.. ونزلت صولته على الأحزاب مثل صاعقة ثمود. فصاح بنوه والأشتر وعمار وغيرهم: نحن نكفيك يا أمير المؤمنين..

ويقدم إليه أحدهم شربة عسل ليروي عطشه. فيقول الإمام ضاحكاً وكأن القتال تنادم وسمر:

ـ إن عسلك هذا لطائفي!

ـ نعم وعجباً منك يا أمير المؤمنين أن تعرف الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر.

فابتسم وقال: إنه والله ما ملأ صدر عمك شيء قط ولا همه شيء.

وحملت ميمنة أمير المؤمنين على ميسرة أهل البصرة فاقتتلوا ولاذ الناس بعائشة أكثرهم من ضبة والأزد. وكان قتالهم من ارتفاع النهار إلى قريب من العصر.. وجذ ذو الفقار الرقاب. قال رجل للإمام: «وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائه».

فرد عليه: أهوى أخيك معنا!

قال: نعم.. فقال له الإمام مقولة يدعو بها الناس مدى العصور ليكونوا معه وينالوا ثواب ذلك: فقد شهدَنَا.. وشهد عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان.

روي أن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها ثم قال: شاهت الوجوه؛ ثم نفح بها مشركي مكة في بدر. وها هي عائشة تخاطب من يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وترمي بالحصباء قائلة: شاهت الوجوه[1]! فمن

(١) شرح النهج ج ١ باب ١٣ ص ٢٥٧.

الذي أجيبت دعوته! ويكمن طلحة مختبئاً من السهام وقد لاح له السراب فيما كان يرجوه نصراً. ولكن مروان بن الحكم يكشف عن غدر جديد ويرميه بسهم يرى فيه الانتقام لعثمان[1].

وسقط طلحة وسقطت معه أسراب الرؤوس في أتون السعي للسلطان والثأر والضغائن.. ويطلب من خادمه أن يدخله ولكن لم يطل به الأمر فكل ما فوق التراب تراب.

ما تركت تيمياً إلا قتلته بعثمان

قال عبد الملك بن مروان: «لولا أن أبي أخبرني أنه رمى طلحة فقتله ما تركت تيمياً إلا قتلته بعثمان»[2].

غاب الزبير..

وها هو طلحة قد هوى..

ليت عائشة أوقفت نزيف الدم بدل أن تؤجج أواره؛ فقد أرسلت إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن بن الحارث: اثبتا مكانكما! وها هي تستجمع الجموع التي شتّتتها الهزيمة. ويلبيها ابن عتاب وابن هشام قائدا الجيشين فازدلفت مضر البصرة لمضر الكوفة حتى زوحم علي. ودعت يمن الكوفة يمن البصرة فرشقوهم[3].

ليتها سألت نفسها من سيحمل دماء القتلى! ما الإجابة!

ماذا يجيش في صدرها لتثني على الأزد كما استنهضت غيرهم ليجالد وهي ترتجز:

وجالد من غسان أهل حفاظها ... وضب وأوس جالدت وشبيب

(١) العقد الفريد ٣/ ١٠٣-١٠٤.

(٢) و(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢/ ٤٣١.

وما أرخصه من ثمن للدماء إذا كان بيتاً من الشعر وما أغلاه ثمناً للدماء إذا كان نار جهنم.

ثم أحاطت بها بنو ضبة. فقالت تشد عزيمتهم: ويها جمرة الجمرات.

حتى إذا رقوا خالطهم بنو عدي.

وقتل رجال من بني محدوج؛ وكانت الرياسة لهم من أهل الكوفة، وقتل من بني ذهل خمسة وثلاثون رجلاً؛ فقال رجل لأخيه وهو يقاتل: يا أخي ما أحسن قتالنا إن كنا على حق. قال: فإنا على الحق إن الناس أخذوا يميناً وشمالاً وإنما تمسكنا بأهل بيت نبينا فقاتلا حتى قتلا[1].

ويتصدع قلب علي وهو يرى الولوغ في الدماء. ليس إلا قتل الجمل فهو الصنم الذي تذبح له القرابين فينادي: ـ من رجل يحمل على الجمل؟

فاستجاب له أصحابه.. ضحوا بدمائهم لوقف نزيف دم أعدائهم.

صنم اسمه عسكر

ويدعو الإمام مالكاً الأشتر وعماراً بن ياسر قائلاً:

اذهبا فاعقرا هذا الجمل فإن الحرب لا يخمد ضرامها ما دام حياً.. إنهم اتخذوه قبلة.

لقد أخذ ابن يثربي برأس الجمل وقتل عليان بن الهيثم وزيد بن صوحان وهند بن عمرو وهو يزهو ويرتجز بأنه يفتك بدين علي..

فناداه عمار: ..فإن كنت صادقاً فاخرج من هذه الكتيبة إلي.

فترك الزمام في يد رجل من بني عدي.. مستهيناً بالتسعين سنة من عمر عمار. فلما أصبح بين أصحاب عائشة وأصحاب علي، زحم الناس عماراً حتى أقبل إليه. فاتقاه عمار بدرقته فضربه فانتشب سيفه فيها؛ فعالجه فلم يخرج. فخرج عمار إليه لا يملك من نفسه شيئا. فضرب عمار رجليه فقطعهما، فوقع على استه وحمله

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ٤٨.

أصحابه. فأتي به علي فأمر بضرب عنقه..

لقد فقدت قريش في بدر سبعين من صناديدها..

وها هي جثث مثلها تعد سبعين أمام عسكر..

قبل قليل كان رجال من الأزد يأخذون بعر الجمل فيفتونه ويقولون بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك[1].. وها هم يشمون دماءهم التي خلت من الطيب.

ثم ترك العدوي وهو عمرة بن بجرة زمام الجمل وخرج فنادى وكان من أشد الناس صوتاً: من يبارز! فبرز إليه ربيعة العقيلي وهو يقول:

يـــا أمنـــا أعـــق أم نعلـــم والأم تغـــذو ولـــداً وتـــرحـــم
ألا تـــريـــن كـــم شجـــاع يكلـــم وتُختلـــى منـــه يـــد ومعصـــم

ثم اضطربا فأثخن كل واحد منهما صاحبه فماتا[2].

وتسأل عائشة عن ممسك الخطام فيقال لها: محمد بن طلحة.

محمد بن طلحة الذي حاول ثني أبيه عن محاربة الحق فغلبه أبوه على أمره وأمره بالبقاء.. وما لبث أن سقط في الرغام.

فقال فيه الإمام: «هذا رجل قتله برّ أبيه».

لقد أغفل قوله تعالى: ﴿**وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما**﴾.

وتسأل عائشة الذي أتى يمسك خطام جملها.

ـ ابن أختك عبد الله. فصاحت وقد خافت أن يقتل..

ـ واثكل أسماء.

ويثقل مالك الأشتر بابن حزام الذي وقف في الطريق ويقطع رجله. ثم هوى

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ٤٩.
(٢) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ٤٥.

على رأس ابن الزبير فجرحه جرحاً شديداً، وضرب عبدالله الأشتر ضربة خفيفة واعتنق كل واحد منهما صاحبه وخرا إلى الأرض يعتركان.

فقال عبد الله بن الزبير اقتلوني ومالكاً. لم يكونوا يعرفون أن الأشتر هو مالك ولو عرفوا لقتلوه. قال علقمة: قلت للأشتر قد كنت كارهاً لقتل عثمان فما أخرجك بالبصرة. قال: إن هؤلاء بايعوه ثم نكثوا..

وكان ابن الزبير هو الذي أكره عائشة على الخروج فكنت أدعو الله عز وجل أن يلقينيه فلقيني كفة لكفة[1].

كرّوا.. فرّوا

وزاد القتل حتى قتل على الخطام أربعون رجلاً

وقالت عائشة: ما زال جملي معتدلاً حتى فقدت أصوات بني ضبة.

ونادى علي: دونك الجمل يا ابن دلجة.

فيصدع الرجل ويتغلغل بين بني ضبة قومه وقد سقط الكثير منهم دفاعاً عن الجمل.

فقال القعقاع يشير عليه بوسيلة تقنعهم: يا بجير بن دلجة صح بقومك الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين.

فقال يا لضبّة يا عمرو بن دلجة.. ادع بي إليك؛ فدعا به.

فقال: أنا آمن حتى أرجع. قال: نعم.

وسارع إلى ساق البعير فهوى عليها بضرباته ثم رمى بنفسه على شقه.. فجرجر البعير.

وهوى الصنم على الأرض وقد نال من القرابين ما لم ينله أكبر ملوك الأرض.

وهتف علي: أيها الناس أنتم آمنون.

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ٤٨.

وكان له في رسول الله أسوة حسنة إذ ها هو مناديه يقول: «ألا لا يتبع موليٍ ولا يجهز على جريح ولا يقتل مستأسر؛ ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن تحيز إلى معسكر الإمام فهو آمن.. وردد القعقاع لمن يليه أنتم آمنون واجتمع هو وزفر على قطع بطن البعير. وحملا الهودج فوضعاه.

الآن يمدون له الكفوف.. وقد أنقذهم من الحتوف..

لقد طحنتهم المنايا ولم تبق منهم إلا بقايا.

وحاول قوم من الأزد أن يغيروا من جديد فلقيهم محمد بن الحنفية يصدهم، فاندفع نحوه غلام منهم صائحاً[1]: كرّوا.. كرّوا..

ولما نالوا منه صاح: فرّوا.. فرّوا..

نحن على دين علي بن أبي طالب

وعن أبي رجاء قال: رأيت رجلاً من رجال الجمل قد اصطلمت أذنه قلت أخلقة أم شيء أصابك:

قال أحدثك بينا أنا أمشي بين القتلى يوم الجمل فإذا رجل يفحص برجله وهو يقول:

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم ننصرف إلا ونحن رواء

قلت: يا عبد الله قل لا إله إلا الله.

قال ادن مني ولقنّي فإن في أذني وقراً.

فدنوت منه فقال لي ممن أنت؛ قلت رجل من الكوفة. فوثب على أذني كما ترى ثم قال:

إذا لقيت أمك ـ يقصد عائشة ـ فأخبرها أن عمير بن الأهلب الضبي فعل بك هذا.

(١) تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ٤٨.

لقد قمعت غدرتهم.. فضرعوا بذلتهم: «نحن على دين علي بن أبي طالب..».

آلآن وقد عصيتم وحاربتم وغدرتم وكنتم من المفسدين! اليوم يترككم علي لبارئكم والله أعلم بما في نفوسكم..

وكان أول ما سعى إليه علي هو نجاة عائشة.

ثم أمر بعسكر وقد قطعت قوائمه أن يقتل ويحرق ويُذرى وقال[1]: لعنه الله من دابة..

فما أشبهه بعجل بني إسرائيل..

لم يكن طلحة حياً ليتعظ بآية ختم بها الإمام مقالته وإن بقيت تتردد عبر القرون:

﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾.

وبايع موسى بن طلحة وقد ظن الناس أنه مقتول بايع أم لم يبايع..

إنهم لم يعرفوا الإمام.. ولم يوفوه حقه.

الحمد لله الذي قضى لي على لسانك

أمر علي بحمل الهودج من بين القتلى فوضع إلى جنب البعير، وأرسل إليها أخاها محمد بن أبي بكر الذي كان يقاتل معه.

فأقبل محمد بن أبي بكر إلى الهودج ومعه نفر فأدخل يده فيه.

فقالت تعيره: ابن الخثعمية!

قال: أخوك البار.

قالت: عقوق!

(١) تاريخ الطبري ج ٣، ص ٢٩ - ٣٠.

قال مؤثراً الرفق: يا أخية هل أصابك شيء!

قالت: ما أنت من ذاك.

ورمته بأنه ضال فأجابها برفق: «أما سمعت رسول الله يقول علي مع الحق والحق مع علي».

وقال لها عمار بن ياسر: كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه!

قالت: من أنت!

قال: أنا ابنك البار عمار!

قالت: لست لك بأم!

قال: بلى؛ وإن كرهت.

وجاء أعين بن ضبيعة المجاشعي حتى اطلع في الهودج.

فقالت: إليك لعنك الله.

فقال يذكرها بحديث رسول الله ﷺ وقد منع نفسه من الرد عليها: والله ما أرى إلا حميراء.

وانتهى إليها الإمام؛ فقال:

ـ كيف أنت يا أمه. قالت بخير. قال يغفر الله لك. قالت ولك.

وتصيح بمالك الأشتر: يا مالك أنت الذي صنعت بابن أختي ما صنعت!

«نعم لولا قرابته من رسول الله ما اجتمع منه عضو إلى آخر».

وعاود عمار مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾.

ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليكم.

فقالت: أبو اليقظان!

قال: نعم!

قالت: والله إنك ما علمت لقوال بالحق.

قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك[١].

أقرعوا على أمكم عائشة

وهرع الناس لاقتسام الغنائم.. فقال الإمام: لا يطلبن عبد خارجاً من العسكر، وما كان من دابة أو سلاح فهو لكم. وليس لكم أم ولد، والمواريث على فرائض الله؛ وأي امرأة قتل زوجها فلتعتد أربعة أشهر وعشراً.

فخاصموه وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم.

فقال: كذلك السيرة في أهل القبلة.

فأنكروا عليه؛ فقال:

فهاتوا سهامكم وأقرعوا على عائشة فهي رأس الأمر وقائده[٢].

ففرقوا رهبة وأذعنوا وقالوا نستغفر الله..

هل كان غير علي يفعل ذلك فيمن يقوم عليه!!

وورد في شرح النهج[٣]: «كل أهل الجمل هالكون إلا من ثبتت توبته منهم».

إنها كف يهودية

«متى أشفي غيظي إذا غضبت! أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي لو صبرت، أم حين أقدر عليه فيقال لي لو عفوت»!

لقد قاصص رجلين قال أحدهما لعائشة: «جزيت عنا أمنا عقوقاً».

وقال الآخر: «يا أمنا توبي لقد خطئت».

وإذا بعائشة تجير خصومه وهم يجتمعون في دار صفية بنت الحارث..

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٥٨ وقد أخرجه الطبري بسند صحيح عن أبي يزيد المديني.

(٢) ابن أبي شيبة ٧/ ٥٣٧.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣ / ٢٩٦.

لقد استباحوا شهامته وقد غرتهم سماحته . .

وها هم يتظاهرون على خصومته وقد أمنوا من نقمته .

فقد أغرتهم عائشة على الكيد له بعصاتهم وسفهائهم وهو غير آبه بولائهم .

كانوا أقل من ريشة في قبضة وإن أجارتهم عائشة .

وأرسلت في طلب من كان جريحاً فضمت منهم ناساً وضمت مروان فيمن ضمت .

وينجو ابن الحكم ـ ابن الوزغ . . (فقد كان الحكم يسترق النظر ويتطلع على بيت النبوة فسماه الرسول ﷺ الوزغ) بشفاعة الحسن والحسين . . ويمد يده ليبايع الإمام . فيعف علي عن تناولها ويقول لهما لا له :

«أَوَلم يبايعني بعد مقتل عثمان . . لا حاجة لي في بيعته . . » .

«إنها كف يهودية . . »

«أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه . . وهو أبو الأكباش الأربعة . .

وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر . . » .

وسينبىء الزمان من أخباره ما فيه مصداق قول الإمام .

فالفتنة لا تلد إلا الفتن .

حصاد الشوك

وأوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزد يدعى وزيرا، وقال :

ائت أم المؤمنين فأعلمها بمكاني وإياك أن يطلع على هذا محمد بن أبي بكر فأتى عائشة فأخبرها .

فقالت : علي بمحمد .

فقال : يا أم المؤمنين إنه قد نهاني أن يعلم به محمد .

فأرسلت إليه فقالت : اذهب مع هذا الرجل حتى تجيئني بابن أختك .

فانطلق معه فدخل بالأزدي على ابن الزبير .

قال : جئتك والله بما كرهت وأبت أم المؤمنين إلا ذلك .

فخرج عبد الله ومحمد وهما يتشاتمان . .

فـذكـر محمـد عثمـان فشتمـه وشتـم عبـد الله محمـدا حتـى انتهـى إلـى عائشة[1] .

ليتها ما جمحت من جديد عن الطاعة ليتها كانت ترد كرم يده كرماً لا عقوقا، وبره معروفاً لا نكراناً . كان يعلم ما يجيش في صدرها فصوره بقوله : أدركها رأي النساء، وضغنٌ غلى في صدرها كمرجل القين . ولو دعيت لتنال من غيري ـ ما أتت إلي ـ لم تفعل . . ولها بعدُ حرمتها الأولى وحسابها على الله تعالى .

وجاش ما بنفسها عندما سمعت خبر مقتله : «وقر عيناً بالإياب المسافر» .

وأمر الإمام بتجهيز مسيرها إلى المدينة، وأرسل لها ابن عباس . .

فأشاحت بوجهها عنه وقالت مغضبة :

يا ابن عباس ؛ أخطأت السنة فقعدت على وسادتنا في بيتنا بغير إذننا!

ليتها لم تقل ما قالت . .

فقد دفعته إلى الرد بالقول :

ـ وليس هذا بيتك الذي أمرك الله أن تقري به .

فأمعنت في إثارته، وليتها لم تفعل إذ انه ذكرها بما كان من أبي بكر والرسول يريد أن يوصي لعلي .

وعادت الذكريات . . أيام مرض النبي ﷺ ؛ لما مرض مرضه الذي مات فيه وكان في بيت عائشة .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٧ .

فقال: ادعوا لي علياً[1].

فقالت: ألا ندعو أبا بكر يا رسول الله..

ثم قالت حفصة: ألا ندعو عمر، الحديث.

وأنه لما حضروا رفع رأسه فلم ير علياً فسكت ولم يتكلم.

فقال عمر: قوموا عن النبي ﷺ فلو كانت له إلينا حاجة ذكرها. حتى فعل ذلك ثلاث مرات[2].

وأن رسول الله ﷺ أرسل علياً بدلاً من أبي بكر ليبلغ سورة براءة وهو يقول:

لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني.

وما هذا إلا تأكيد على أنه هو الذي اختاره الرسول لا غيره قام به الناس أم تركوه.

وأن رسول الله وضع أبا بكر وعمر وكافة رجالات قريش بإمرة أسامة بن زيد وأكد على إنفاذ السرية..

وهم يتقاعسون ويتعللون بمرض الرسول ﷺ حتى قال:

أنفذوا بعث أسامة لعن الله من تخلف عنه[3].

وأن أبا بكر هرع مع معاوية وعمر إلى سقيفة بني ساعدة ساعين إلى الخلافة وجثمان الرسول لا يزال بأيدي أحبته...

وليتها لم تحرضه على ما قال.

* * *

(١) الأحاديث المختارة ٩ / ٤٩٨-٤٩٩.

(٢) سنن ابن ماجه١/ ٣٩١ومسند أحمد ١/ ٣٥٦ ومعتصر المختصر ١/ ٧٦ وشرح معاني الآثار ١/ ٤٠٥ والأحاديث المختارة٩/ ٤٨٢.

(٣) شرح النهج ج ٦ باب ٦٦ ص ٥٢.

قبض الريح

وضاعت الأحلام في السراب وغمرت الدماء طمع الطامعين بالخلافة. ورفضت بعيراً قدمه لها مالك الأشتر وردت سلامه بالقول: لا سلم الله عليه. ولكن الإمام قابل إساءتها بالإحسان ونكرانها بالمغفرة وثورتها بالحلم. وجهزها بما يليق بها وزادها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالعطايا والمال الكثير. وأمر ابنه محمداً أن يبلغها والحسن والحسين أن يرافقاها نهاراً وليلة..

وجهزها علي بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معه؛ ولو ممن حاربه إلا من أحب المقام. ويروي الطبري: «واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات متلثمات وقد تسربلن بلباس الرجال. وقال تجهز يا محمد فبلغها. فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها حتى وقف لها وحضر الناس؛ فخرجت على الناس وقالت: يا بني نعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك؛ إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وإنه عندي على معتبتي من الأخيار»[1].

ولكنها سخطت من جديد وهي ترى الأربعين من عبد قيس وقد أوكلوا لرعايتها وحفظها؛ وبلغ بها أن قالت في علي: «هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي».

ولكن ما إن وصلت الرحلة إلى غايتها وحملت إلى دارها..إذا بالأربعين يكشفن عن نقابهن ويقلن لها: إنما نحن نسوة.

وكانت عائشة تقول: وددت أني كنت ثكلت عشرة مثل ولد الحرث بن هشام، وأني لم أسر مسيري الذي سرت. وروي أنها ما ذكر مسيرها قط إلا بكت حتى تبل خمارها وتقول يا ليتني كنت نسياً منسياً[2].

فهل تجوز بعد مقالتها إثارة النزعات في ما وضح الحق فيه!

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠.

(٢) الاعتقاد ١/ ٣٧٣.

دار الخبال

مكرت قريش برسول الله ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه وقد قال له ربه: وكأين من قرية هي أشد من قريتك التي أخرجتك.. لقد عانى منهم الرسول قبل الهجرة وبعدها، قبل الفتح وبعده. وبموت محمد ﷺ.. فقد علي الرفقة وبقيت له المعاناة، وبقيت له أحقاد الشجرة الخبيثة إرثاً لحقد لا يخبو.. لن تنصره قريش بل ستخذله. فلتكن الكوفة حاضرة له فهي أقرب إلى الشام.

يقول الإمام: لو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني..

كان يعتق رقابهم فيحقدون، يمن عليهم فيجحدون، يؤمنهم فيتآمرون، يعفو عنهم فيطغون.. ينير لهم سبلهم فيحجمون، يريهم الصراط فينكبون.

اشتروا آجالهم بذلتهم وكرمه بخستهم.. هذه ثمار الشجرة الخبيثة.. إنك لا تجني من الشوك العنب.. لقد أصبح له قصر الإمارة في الكوفة الذي مات الكثيرون دونه؛ فيقول لأصحابه:

«قصر الخبال لا تنزلوا فيه».

أية عظمة تلك التي تظهر في الإمام.. أية أسوة يقدمها الإسلام لمن هو غير نبي؛ هذا هو الإيمان الحق ـ طوعاً لا كرهاً ـ بالله الواحد القهار وبالدار الآخرة. إيمان لا يجامعه حب الدنيا لأنه ينقصه وكان يقول للدنيا: «هيهات غري غيري.. لا حاجة لي فيك فعيشك قصير وخطرك يسير وأملك حقير..».

المؤمنون يجالدون شهواتهم حذراً من عصف أهوائهم أما هو فقد قهر نفسه فزكت وزرعها إيماناً فباليقين نبتت وبالقرب من الله رقت. غيره يستذل الناس ليعظموه وهو ينهى عن الذلة لغير الله الذي يعز من يشاء لقد ترجل له دهاقنة الأنبار إجلالاً؛ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فصعقتهم إجابته: «ما هذا الذي صنعتموه».

فقالوا: «خلق منا نعظم أمراءنا يا أمير المؤمنين». فقال مؤكداً:

«والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقّون به على أنفسكم في دنياكم وتشقون به في آخرتكم».

وما أخسرها من مشقة وراءها العقاب

ولكن الناس اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل؛ والإمام يدعوهم في أُخراهم ليحفظوا دينهم ويفوا ببيعتهم.

فالناكثون ينالون من حق الأمة ويفرقون كلمتها ويذهبون ريحها. فالعصيان غراس سيوف في جسدها، والباطل يضعفها، والمبطلون يهيضون بجناحها؛ وكثير ما هم؛ لذا كان يقول لأصحابه: «لقد قعد عن نصرتي منكم رجال، فأنا عليهم عاتب زارٍ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يُعتبوا؛ ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة».

إنها دعوة ليلتئم المسلمون تحت راية واحدة هي حزب الله؛ لأنه من لم يكن من حزب الله فهو في حزب الشيطان سواء قام على الإمام أم قعد عن نصرته. فهو يقول لوفد الأشراف المتخلفين عن البيعة:

«.. والله لئن كان من شك في فضلي ومظاهرة علي إنكم لعدو».

إذ لا معذرة لمن يشك في مقامه ومن يتحرَّ الحق يهدِه الله إليه.

لا تخفى على الإمام وسائل معاوية في استمالة رجالاته وها هو يحذر زياد ابن أبيه من الاستجابة لإغراء معاوية؛ وهو يلوح له بنسبه يلحقه به؛ فيقول لزياد: «وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزلّ لبك ويستغلّ غربك. فاحذره فإنما هو شيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته ويستلب غرّته». فهل ينتصح.

وتهفو للحق قلوب..

وتمتد للإمام أذرع.. وتعاهده سيوف.

وهذه حال سليمان بن صرد الذي وفى ما عاهد الله عليه حتى قتل بين يدي

الحسين ابن علي في كربلاء. ومن مثل الحر بن زيد الرياحي؛ مضى بأمر عمر بن سعد لقتل الحسين؛ فانتهى مقتولا بمقاتلة من كان يقودهم.. لقد أبان ما فاض من الحق في نفسه وقد خيرها بين عطية يزيد ونار الآخرة بقتل الحسين، وبين أن يقتل ناصرا الحسين فاختار الجنة.

كتب الله لأغلبن أنا ورسلي

وقامت دولة الإمام.. وارتفعت راية الإيمان.. فلينعم الناس بالإسلام.. ويحق الله الحق بكلماته.. فقد قيض الله تعالى لكتابه من يقوم بحدوده.. ولسنة رسوله من يحييها.. بلا زيادة ولا نقصان.. لقد أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته وها هو باب مدينة العلم الذي أُمر الناس باتباعه يقوم بينهم بالقسط. وليس من السنة ما يخالف أمر الرسول وفعله؛ فهي ماتقاس به أعمال الناس وأفعالهم وعلى اتباعها جزاء الناس بعد حسابهم.

إن الناقمين على عثمان إنما ثاروا لأنهم فقدوا العدالة في الرعية وفقدوا الأسوة في الولاة.. وكانت ثورتهم شرخ كبير في جسم الدولة المسلمة، فقد تجرأ الناس على إمامهم؛ وأثمرت تلك الفتنة قيام الناس في الجمل بمقارعة الإمام الحق. وهذا شرخ آخر. وكل شرخ جديد يهيض بالإسلام أكثر وأكثر.. وستنبت بذرة نكول معاوية والخوارج فتناً تميز الخبيث من الطيب.. ولكنها توهن الإسلام. القرآن بين أيديهم وسنة رسول الله ﷺ يعرفونها؛ ولكن إقامة الدين قد أنكروها. فلكي ينعم الناس بنعمة الإسلام لابد لهم من إمام يحفظ دينهم ويقيم حدوده، ينصف مظلومهم ويقتص من ظالمهم ليأمن الخائف الفقير ويغاث الضعيف المستجير.

الكل سواسية.. لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وإذا لم يقم الحاكم بذلك، فما الذي يدعو غير المسلم أن يقبل الإسلام إذا كان الإسلام لا يبدله خيراً من كسرى وقيصر وفرعون. إن نبذ العدالة والمساواة يدعو الناس إلى التمسك بجاهليتها وقبليتها وعاداتها.

لقد ساوى أبو بكر في العطيات فوهت النزعات العصبية. ومايز عمر في

العطايا فتذمر الناس ولكن قبضة السيطرة وإن أخمدت كوامن النفوس فقد أحارت الناس. هل هذه سنة لم يعمل بها الرسول وأبو بكر؛ أم أنها غير ذلك؛ ومهما يكن فإن التفاوت أصبح أمراً واقعاً. ولكن هناك من عده تغييراً في الإسلام وابتعاداً عنه وكانت بذرة نبتت أكثر وأكثر في خلافة عثمان؛ فأصبحت ثلماً نالت فيه حاشية عثمان من الامتيازات والعطايا ما أحدث تمايزاً كبيراً في طبقات المجتمع. ثم أصبحت في عهد معاوية قانوناً يعمل به.

لقد أدّت الهوة التي أحدثها الابتعاد عن الدين إلى التجرؤ على أمور أخطر وكلما أحدثت ثلمة جديدة كان التباعد الذي تحدثه عن الدين أكبر والعودة إلى سواء الصراط أصعب. وهذا ما جعل الأمر شديد الصعوبة على الإمام؛ إذ كيف يرضى من اعتاد العطايا الكثيرة أن يسوى بغيره أو أن يسترد منه ما ناله بغير حق. وحصد الإمام إرثاً ثقيلاً من سياسة عثمان فقد أحدثت بدعة جديدة بالثورة على الخليفة وهذا أمر لم يكن ليخطر على بال الناس في زمن عمر.

لقد أتى الإسلام ليعلم الناس أن التفاوت في العطيات ظلم؛ وأن إغداق الهبات دون حق ليس من الله في شيء. ولكن من الناس من استمرأ الظلم وسكت على تفاوت العطيات بعد أن خمدت جذوة الحق وقيامه على الباطل في نفسه. فالذي ثار ليس الناس وإنما ما وقر في نفوس الناس من إسلام على من يخالف تعاليم الإسلام؛ وهذا ما أثمر التغير الاجتماعي الذي أعاد الإمامة إلى الإمام بعد أن حسرت عنه سنين وسنين. فالله لا يرضى أن ينادى بسلام قولاً ولا يتخذ به عملاً؛ لأنه يكون حكماً بغير ما أنزل الله لينتفع بذلك طائفة تريد أن تجعل الإسلام مزرعة لنماء ثرواتها وسلطانها. فالثائرون لم يحاربوا الإسلام وإنما المترفون من قريش الذين رفعوا راية عثمان لا راية الإسلام.

لقد ثار الأشتر وصعصعة بن صوحان بعد أن ادعى سعيد بن العاص والي عثمان أن سواد العراق قنية خالصة لقريش. وثار الناس على واليه الوليد بن عقبة الذي صلى بهم الصبح أربع ركعات وهو سكران. أَوَهل يقر رسول الله ﷺ ولاة كهؤلاء أم أنه ينزل فيهم عقابه! هذا ما يتحدث به الناس؛ فكيف يوليهم عثمان!

فالذين قاموا على علي سابقاً ولاحقاً هم الذين لا يريدون أن يحكم الإسلام

كما يريد الله. فلذا وقفوا مع عثمان وهو قرشي وقاموا على علي وهو كذلك قرشي. ومن وقف معه هم الذين هاجموا الاستكبار الذي أذلهم به أنصار عثمان وناصروا الحق الذي مثله علي.

وقوف للصلاة مع الحق وللمال مع الباطل

والعجب أن ترى بين المستضعفين في كل زمان ومكان من لا يقف مع الحق في علي أو في غيره؛ أو يحاول أن يوفق بين الحق والباطل؛ غافلاً عن استحالة جمع النقيضين؛ وما ذاك إلا لما استحكمت سجية الاستكبار في نفسه، وهو يسعى لما يعرف أنه لا سبيل له إلى الوصول إليه، فهو يهفو إلى الاستكبار وإن فقد مقوماته، ولو ملك لكان موقفه وفعله بين المستكبرين أدهى وأمر. ولذا فتح الإسلام قلوب العباد قبل أن تذعن له قلوب أكابر مجرمي البلاد.

وتبقى طائفة تخادع الله ورسوله في صلاتها وزكاتها ولا يضيرها أن تقف في صف الفئة الظالمة، فهي تعطي الله نصيباً من عباداتها وتعطي الظلمة نصيباً من ولاءاتها؛ يسخرها فتتفانى في تلبيته طمعاً في مغنم أو سلطة. وما أكثر الذين يظنون أنهم يكسبون الدنيا بولاء الظلمة؛ ويحسبون أنهم سينالون الآخرة بشعائر العبادات.

أولئك هم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ألم يقل تعالى: ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾!

هل تقبل صلاة من قتل أو حارب الحسين وأهل بيت نبيه؛ وهم يقولون سيغفر لنا!

أولئك ينادون من مكان بعيد.

لقد قال تعالى لإبراهيم عندما طلب الإمامة لولده بقوله: ﴿**ومن ذريتي**﴾!

فقال تعالى: ﴿**لا ينال عهدي الظالمين**﴾.

يقول الزمخشري[1]: «وقالوا في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة..

(١) كمال مصطفى شاكر، أحسن القصص الطبعة الثالثة ص ٩٩.

وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته، ولا يقبل خبره، ولا يقدم للصلاة».

وفي تفسير ابن كثير: «الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً»[1].

من استرعى الذئب ظَلم

وعن ابن عيينة[2]: لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة والإمام إنما هو لكف الظلم؟! فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه يكون كما جاء في المثل:

من استرعى الذئب ظَلم.

ويقول تعالى: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾، والنهي يتناول الانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم. ناهيك عن السماح لهم بالمداخلة في إدارة أمور المجتمع ـ ولاية عامة ـ أو ولاية أمور الفرد الحيوية.

وأورد الزمخشري في كشافه: «ولما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ في الدين:

عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن.. أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه. وليس هكذا أخذ الله الميثاق على العلماء؛ قال الله سبحانه: لتبيننه للناس ولا تكتمونه.. واعلم أنك أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت؛ أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل البغي بدنوك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك.

(١) تفسير ابن كثير للآية المذكورة.
(٢) كمال مصطفى شاكر، أحسن القصص الطبعة الثالثة ص ٩٩.

اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء.. والسلام».

وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء.

وقال رسول الله ﷺ: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب ان يعصى الله في أرضه.

وقد سئل سفيان (الثوري) عن ظالم أشرف على الهلاك في برية: هل يسقى شربة ماء؟

فقال: لا. فقيل له: يموت! فقال: دعه يموت.

وكان أبو حنيفة يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علي رضوان الله عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتسمي بالإمام والخليفة، كالدوانيقي (أبو جعفر المنصور) وأشباهه.

وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عد آجره لما فعلت[1].

وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني كنت مكان ابنك.

* * *

(١) الزمخشري، الكشاف ١ / ١٨٤.

الفصل التاسع

صفـين

الغايات والوسائل

وكانت الدولة الأموية وخلافة معاوية من القروح الآكلة في جسم الدولة الإسلامية. كيف ننشر الإسلام

روجيه غارودي

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه

استقام لمعاوية أمر الشام وأصبح أهلها طوع بنانه. لقد أكمل ما بدأه أخوه يزيد الذي سبقه إليها بتولية من عمر. وها هو يدعي أنه ولي دم عثمان؛ مع أنه هو الذي خذله.

إنه يستغل أهواء النفوس ويشتري لهو الحديث مغروراً بالناس في أمر علي واضعاً على أعينهم غشاوة بعد أُخرى. إنه يعلم أنه يملك سلاح المكر والخديعة. وهو سلاح لا يمكن لعلي أن يستعمله؛ وإن كان مما لا ينقصه. فهو لا يقر استبقاء معاوية ريثما تستقيم له الأمور ثم خلعه ـ بعد ذلك. إنه لا يذعن لرأي أصحابه في مقابلة معاوية غدراً بغدر وكيداً بكيد. ولو فعل لكان إذاً مثله. إنه يتخذ من رسول الله ﷺ أسوة، ليكون هو في نفسه أسوة للحاكم والمحكوم من الناس.

إنه يقدم للناس المثل أنه يمكن لمن هو غير نبي أن يسلك سبيل النبي ﷺ على بصيرة ولا يحيد عن أوامر الله ورسوله قيد أنملة؛ سواء أطاعه الناس أم عصوه؛ رضوا أم كرهوا.

ولو فعلوا لنعموا ببركات السماء والأرض ولنالوا الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

لقد أدت معارضة معاوية للإمام إلى وضع جيوشه ليحارب الإمام بدلاً من توجيهه للفتوحات. وهكذا أوقف معاوية انتشار الدعوة الإسلامية وامتداد ثغور الإسلام. ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ بل جيّش الجيوش ليذبح المسلمون بعضهم بعضاً.

لقد أشار جرير بن عبد الله ـ والي همدان في خلافة عثمان ـ على الإمام أن يرسله إلى معاوية، ليدعوه إلى البيعة ويقر له بإمارة الشام.

فأجابه الإمام إلى طلبه؛ وأنفذه إليه قائلاً: «ائت معاوية بكتابي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه، وأعلمه أني لا أرضى به أميراً وأن العامة لا ترضى به خليفة..». ويح الناس! يأبى لهم الإمام أن يكون عليهم من هو مثل معاوية وهم يسعون إلى معاوية لمحاربة الإمام!

ويرد معاوية على الرسول الذي يحذره من فتنة تثلم الدين قائلاً: «انظر وننظر ونستطلع رأي أهل الشام».

ونظر معاوية إلى ثمار فتنة الجمل..

غوغاء البصرة يقتلون عامل الإمام في سجستان ويمدهم كسرى برجال من كابل قبل أن يعيد ابن عباس راية الإمام خفاقة.

وخراسان قد انسلخ أهلها من الطاعة وصبأ أهلها عن الدين؛ إلى أن قوّمهم خليد وأوقع بالمرتدين وأتى ببنات كسرى أسيرات.

اللهم أمرتني فلم أأتمر

ليت معاوية يجنح للسلم! لأن زلزلة الاستقرار تدك صروح الإسلام التي يسعى علي لإعلائها. وليت ذلك أمر يهتم له معاوية بدل أن يسعى لمد ألسنة اللهب إلى دولة الإمام. وبدل أن يرسل قطاع الطرق وشذاذ الآفاق لينهشوا من أطراف رقاع المسلمين. لقد ابتغى إلى ذلك الوسيلة؛ فليأت عمرو بن العاص من فلسطين.

ويطلب عمرو النصيحة من ولديه فيقول له عبد الله: «فقرّ في منزلك فلست مجعولاً خليفة، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا توشك أن تهلك فتشقى فيها».

ويقول محمد: «فالحق بجماعة أهل الشام فكن يداً من أياديها واطلب بدم عثمان».

أين الإيمان في كلتا الدعوتين! فالأولى تحذر من الشقاء لأن الخلافة أمر بعيد المنال؛ أَولو كان قريب المنال فهل يهلك ويشقى. والثانية تؤثر الفتنة ولو لم تُجْن

ثمارها. ولكن ماذا على عمرو أن يتقرب إلى معاوية بالإشارة عليه بالمطالبة بدم عثمان. وسيأتي عليه يوم يذكر فيه ـ إن نفعت الذكرى ـ ما سيكون حاله وهو على شفير قبره وهو يعترف لله.. وقد استوفى نصيبه من الدنيا.

«اللهم أمرتني فلم أأتمر.. وزجرتني فلم أزدجر..».

ويروي ابن سعد عنه أنه كان يظن نفسه من أهل الجنة وينقل قوله: «ثم ولينا أشياء بعد؛ فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي».

هل مثل في ذهنه قوله تعالى:

﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين..﴾ ﴿حكمة بالغة فما تغنِ النذر﴾.

لقد ذاق عمرو حلاوة مصر لما ولاه إياها عمر وقد نقم على عثمان لأنه نزعها منه. وها هو يطلب الثمن من مراوِغه معاوية: مصر طعمة.

فقال الداهية وهو يعلم ما توسوس به نفس عمرو:

إني أكره يا أبا عبد الله أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا. فأنكر عليه عمرو مكره وقال: «دعني عنك».

فيعرض عليه ابن هند العراق مع أن الإمام فيه؛ إنه يعطي ما لا يملك لمن لا يستحق ويقول له ساخراً منه وقد خدعه:

«ألا تخبرني بأي رأي تعيش في قريش.. أَعطيتَ دينك ومنّيت دنيا غيرك»[1].

السيف للمسلمين والجزية لقيصر

يروي ابن سعد في الطبقات الكبرى[2]: لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ما عاش. ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وعنائه وسعيه فيه. وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر فلم يفعل معاوية. فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالطا وتميز الناس وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما. فدخل بينهما

(١) ابن قتيبة؛ الإمامة والسياسة، ص ٩٧ يعرض الحادثة بلفظ آخر.
(٢) ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/٢٥٨.

معاوية بن حديج فأصلح أمرهما وكتب بينهما كتاباً وشرط فيه شروطاً لمعاوية وعمرو..

وأن لعمرو ولاية مصر سبع سنين وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية. وتواثقا وتعاهدا على ذلك وأشهد عليهما به شهوداً.. ثم مضى عمرو بن العاص على مصر والياً عليها وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين فوالله ما مكث بها إلا سنتين أو ثلاثاً حتى مات».

ويقول مروان بن الحكم وهو يراهم ينتهبون تراث الإمام:

«وما لي لا أشتري كما اشترى عمرو»!

فقال له معاوية بخبث: يا ابن العم إنما تشتري لك الرجال.

ليت معاوية في سعيه إلى دنيا عريضة وسلطان مترامي الأطراف، اشترى لنفسه ولعمرو بن العاص ومروان بن الحكم بالعمل على توسعة رقعته بفتوح جديدة بدل أن يهاجم بلاداً مسلمة ويفتك بأناس مسلمين؛ إذن لما لحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ.

ليته ادخر سيفه لقيصر بدل أن يعطيه الأعطيات ليأمنه على دولته. وبدل أن يشحذ سيفه للفتك برقاب المسلمين. أوَلا تقوم دولته وسلطانه إلا بقهر أتباع محمد ﷺ لتطالهم وتطال ما بذلوه في رفع كلمة الله.

ها هو ابن النابغة المستشار ـ الذي لم ينل إلا وعداً غاراً بولاية مصر ـ يبدأ بالدفع من دينه كما وصفه معاوية ـ حين استشاره معاوية في أنباء ثلاثة بلغته: «أن محمد بن أبي حذيفة قد كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه وهو من آفات هذا الدين».

فقال عمرو: ما يتعاظمك من رجل خرج في أشباهه أن تبعث إليه خيلاً تقتله أو تأتيك به.

«وأن قيصر زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام»!

فأهد له من وصفاء الروم ووصائفها، وآنية من الذهب والفضة، وسله

الموادعة فإنه إليها سريع[١].

«وأن علياً نزل الكوفة تهيؤاً للمسير إلينا».

كيف تمر خيانة عظمى بهذه السهولة[٢]

ويرسل معاوية مالك بن هبيرة الكندي إلى ابن أبي حذيفة فيستعصي عليه ولكنه يراوغ إلى أن يخرج محمد ثم يقتله.

يدخر معاوية سيفه وجنده لحرب المسلمين، ويدفع إلى قيصر جزية في شكل هدية؛ ثروات من الذهب والفضة وحساناً من الجواري وكثيراً من الغلمان ليهادنه. يقول محمد الغزالي: «ماذا كان موقف الفقهاء من الحكام الذين جلبوا الهزائم وأحلوا قومهم دار البوار».

«كيف بلي المسلمون بأولئك الرؤساء؟ كيف وصلوا إلى مناصبهم؟ هل ناقش الفقهاء الطرق التي وصلوا بها إلى الحكم؟ هل كانت هناك أجهزة تشير عليهم وتضبط أعمالهم؟».

«هناك حكام ارتدوا بتعاونهم مع الصليبيين؛ فهل أُعلن ارتدادهم؟

وكيف تمر خيانة عظمى بهذه السهولة؟»[٣].

ليت عمرو بن العاص أفاد من ذكائه في درء الفتنة بدلاً من تأجيجها؛ إذاً للقي من لدن من يدافع عنه عذراً فقد قال له: «أرى أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط، وهو عدو لجرير، فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان. وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه أبداً.

ولم يقتصر التغرير على شرحبيل وهو في حمص بل تعداه إلى أقوام من اليمن وقحطان. ولكن كلمة الحق سيف ينال المضلين إذا وجدت من يقولها؛ وها هو

(١) عبد الفتاح عبد المقصود؛ علي بن أبي طالب- صفين.
(٢) محمد الغزالي، هموم داعية ٤٤.
(٣) محمد الغزالي، هموم داعية ٤٤.

عياض الثمالي يقولها لشرحبيل».

«دع قول المضلل فإن ابن حرب ناصب لك خدعة..».

ويقول له ابن غنم الأزدي: «.. إنه قد ألقي إلينا قتل عثمان، وأن علياً قتله.. إن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحكام على الناس. وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه..».

لم ينخدع شرحبيل بمكيدة معاوية وهو يدعي أنه رجل من سواد القوم لا مطمع له في شيء. ولكنه ما لبث أن سقط في أتون نزواته وقد سعره من سعى لإغوائه بالوقوف مع معاوية. وكان هذا نصراً لمعاوية الذي ما لبث أن دلاه بغرور مخرجاً إياه من حمص ليمنيه أقاليم أُخرى.

الإمارة والنفس الأمارة

كان معاوية يدعي أنه واحد من أهل الشام. «له ما لهم وعليه ما عليهم». ثم ألّب الناس على أنه منهم، ثم طلب الإمارة على الشام؛ وما لبث أن ضاقت عليه الشام فسعى إلى الخلافة.. وها هو شرحبيل يطلبها له..

هكذا تسول النفس خطوة واحدة.. ذنب واحد وأتوب.. وأكون قد كسبت الدنيا والآخرة. والشيطان يدليه بغرور ويغفله أن هذه الخطوة إنما هي مقدمة لأُخرى ثم تتبعها خطوات؛ ومن الخطوات ما لا رجعة بعده.

لقد كانت لشرحبيل فرصة تحسس خطواته قبل أن تزل قدم بدل ثبوتها.. ولكن بعد أن زلت قدمه فالهاوية بعيدة القرار في الدنيا والآخرة. وليت خطواته كانت حلباً لنفسه بدل أن تكون إرثاً لم يخطر في بال معاوية أن يناله على طبق من ذهب. أليس من الطلقاء الذين لا تحق لهم المشورة فضلاً عن نيل ولاية.

جرير

لقد سبق من الأشتر حين أراد الإمام توجيه جرير إلى معاوية أن حذره منه قائلاً لعلي: لا تبعثه فوالله إني لأظن هواه معه.

فقال علي: دعه حتى ننظر ما الذي يرجع به إلينا. فبعثه إليه وكتب معه كتاباً يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير، وما كان من حربه إياهما؛ ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته. وأن عليه اعتزال الولاية والبيعة دون قيد أو شرط.

ولكن كيد معاوية ومكره جعله يحتال بحيلة في أمر لا يمكن للإمام أن يقبله فقال لجرير:

ـ اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية.

ـ وتبايع!

قالها جرير موافقاً هوى معاوية في أمر لم يفوضه له الإمام. ويكون بذلك قد خان إمامه بعد أن خدع بمحدثه.

ـ اكتب بما أردت. قالها معاوية وهو يعلم أن كتابته غير ملزمة له.

فجاء الرد من الإمام الذي لم تخف عليه مراوغة معاوية:

«أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم؛ ثم خيره بين حرب مجلية أو سلم محظية. فإن اختار الحرب فانبذ له وإن اختار السلم فخذ بيعته».

والله ما معاوية بأدهى مني

نبذ الإمام بمعاوية على سواء كما يأمر القرآن إذ لا مكر ولا أساليب خبث وغدر متسربلة باسم السياسة؛ وهي ليست من الإسلام في شيء. فليعلم الناس أن الحكم ليس هدفاً كما يتخذه ابن هند بل وسيلة لينعم الناس بالاسلام وتمتلىء الأرض قسطاً وعدلاً.. لقد قال عليه السلام: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى العرب». والعجب العجاب ممن يفاخر بسياسة معاوية وقد شغفه مكره وخداعه للإسلام والمسلمين؛ وينعى على الإمام أنه لم يقرعه غدراً بغدر وكيداً بكيد غافلاً عن قوله تعالى: ﴿**فإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**﴾.

فهل لمسلم أن يطلب الحق بالباطل أو يرضى بالخيانة والمكر مسمياً لهما دهاء سياسياً.

هذا هو الإسلام، لا غدر ولا مداهنة، لا إقطاعات ولا هبات.. فالحق والعدل هما عماد المجتمع الصالح، أما الأعطيات والامتيازات فمفسدة تمزق لحمة نسيج المجتمع وتغرس الفتنة بين المحرومين والمحظيين. والشعور بالحرمان يكوي الفتنة بمياسم النيران؛ فتتأجج الثورة في القلوب وتستعر بنفخ التفاوت. فإذا وصل المرجل إلى الغليان تلجأ سيوف الترف إلى قمع ثورة الضعف؛ وهذا ما حدث عند بداية الثورة على عثمان، أو تلهب سياط المستضعفين ظهور المستكبرين وهذا ما أدى إلى مقتله. يقول محمد الغزالي: «وقد تماسك التاريخ الإسلامي في القرن الأول لما رمي بسيئات الملك العضوض والحكم الأموي الغاشم فلم يتحطم كيان الإسلام ولا انهارت دعوته.. لإخلاص جمع من الصحابة والتابعين»[1].

وكان المسلمون يعرفون أن الإمام هو وحده رجل الدين والدولة القادر على إرساء دولة الإسلام على أسس العدل الإلهي. أما الذين بايعوا الإمام ليكون لهم كما كان عثمان لمروان فما عرفوا الإمام وما رضوا عدالة الإسلام. لأنهم أرادوا الإسلام جابياً لجيوبهم ليكونوا دعائم سلطانه في مجتمع يغلي بحرمانه.. والذين ثاروا على عثمان لم يثوروا على شخص عثمان وشخص مروان بل ثاروا على ما حاق بهم من ظلم. وقد تجلى هذا في ندم عمر في آخر أيامه على مخالفته سنة الرسول وفعل أبي بكر في المساواة في الأعطيات وود لو أنه حفظ المنهج الإلهي في التوزيع الذي لا يفرق بين قرشي وحبشي. ولما أصدر كعب الأحبار فتواه: «أنه لا بأس أن يأخذ الحاكم من بيت المال ما شاء لينفقه فيما ينتويه من أمور ويعطي من يشاء من الناس». صرخ أبو ذر بكعب وأعمل عصاه في صدره: «يا ابن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا»[2].

(١) محمد الغزالي الإسلام المفترى عليه ٣٤.
(٢) محمد الغزالي الإسلام المفترى عليه ٨٤.

لا إمامة لظالم

ماطل معاوية جريراً واستنظره ودعا عمراً فاستشاره فيما كتب به إليه فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ويلزم علياً دم عثمان ويقاتله بهم فأرسل معاوية سهام كيده للإمام قائلاً: «وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان..

فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين».

وبعث معاوية إلى زياد بن خصفة التيمي فخلا به وقال:

«أما بعد يا أخا ربيعة فإن علياً قطع أرحامنا وآوى قتلة صاحبنا وإني أسألك النصر عليه وعشيرتك. ثم لك عهد الله جل وعز وميثاقه أن أوليك إذا ظهرت أي المصرين أحببت.

قال زياد: «أما بعد فإني على بينة من ربي وبما أنعم علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين».

ثم قام عنه.

فقال معاوية لعمرو بن العاص منكراً عدم الرد على من جبههم بالحق وكان إلى جنبه جالساً وقد بهتوا فلم يجيبوا: ليس يكلم رجل منا رجلاً منهم فيجيب!

فكانت إجابة علي بن أبي طالب لمعاوية: وما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له.

وقال شرحبيل بن السمط لعلي: إني إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبته به!

فقال علي: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبته به. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ بالحق فأنقذ به من الضلالة وانتاش به من الهلكة وجمع به من الفرقة ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه ﷺ.

ثم تحدث الإمام عن استخلاف أبي بكر..

ثم استخلاف أبي بكر عمر.. وقال في ذلك: «وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله ﷺ فغفرنا ذلك لهما».

ثم حكى عن ولاية عثمان فقال: «فعمل بأشياء عابها الناس عليه فساروا إليه فقتلوه.. ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي بايع فأبيت عليهم.

فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس.

فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عز وجل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب. لم يزل لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين.

فلا غرو إلا خلافكم معه له وتَدَعون آل نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً. ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة.

هل يمكن لمؤمن يدعى إلى كتاب الله أن يحاجج فيه، أو يصرف الأمر إلى غير جهته بالقول! فقالوا له: اشهد أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً.

فقال الإمام: لا أقول إنه قتل مظلوماً ولا إنه قتل ظالماً.

ولكن كان الرد ممن لا يريد الحق: فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء.

فقال علي: **﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾** ثم أقبل علي على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالهم منكم بالجد في

حقكم وطاعة ربكم[1].

لقد قيل لمعاوية وقد أغرى الناس في قذف الإمام بالباطل بعد مقتله:

ـ إنك يا أمير المؤمنين قد بلغت ما أملت فلو كففت عن الرجل.

فقال معاوية يظهر كرهاً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله: «لا والله.. حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً. أليس هذا مناهضة لقوله تعالى: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**. وقوله: **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾**.

صدق الله وطهر أهل البيت من الباطل الذي قذفهم به أعداؤهم وهم بذلك من الظالمين.

فالفاسق لا يصلح للإمامة..

وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته ولا يقبل خبره ولا يقدم للصلاة»[2].

قال ابن كثير عن مجاهد: «لا يكون إمام ظالم يقتدى به.

وقال: أما من كان منهم صالحاً فأجعله إماماً يقتدى به».

وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين.

فإن تنصر عثمان ميتاً فقد خذلته حياً

ويشعل ابن هند الفتنة ويرسل سهماً منها إلى سعد بن ابي وقاص يذكره أن طلحة والزبير كانا له شريكين..

ويرسل سهماً آخر إلى عبد الله بن عمر يغويه بوعد كاذب بالإمارة وإلى محمد ابن مسلمة ـ الأنصاري ـ ليلين له قياده بعد أن رفض قومه الوقوف مع عثمان.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٨٠-٨١.

(٢) الزمخشري، الكشاف ١ / ١٨٤.

فرد عليه ابن عمر: «وما أنا كعلي في الإيمان والهجرة؛ ومكانه من رسول الله ونكايته في المشركين! فأغن عنا نفسك».

وأجاب سعد بن أبي وقاص: «.. غير أن علياً قد كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه. فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما.. والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت».

ورد محمد بن مسلمة: «لعمري ما طلبت إلا الدنيا ولا اتبعت إلا الهوى، فإن تنصر عثمان ميتاً فقد خذلته حياً».

ويرسل معاوية أحد جواسيسه إلى الكوفة يندس فيها ويقول لعلي:

«أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا على إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم؛ لا ها الله لا نفعل».

وسارعت السيوف إلى رأس هذا الأفاك الأشر ليقطع قتله دسيسته، وقد سعى في ري بذور فتنته؛ قبل أن ينال البغي من عواقب مكره بغيته. لئلا تطيح الرؤوس وأئمة الضلال تحصد الثمار.

فاصعد المنبر واشتم علياً

قالوا شبهة لو لم يأمر الله إبليس أن يسجد لآدم لما نال الحكم بأنه رجيم!

والردُّ: لو لم يأمر الله إبليس أن يسجد لآدم لما بان من المكتوم من كفره ما يوجب له النار.

ولو لم يقم معاوية على الإمام لما محّص إيمان من وقف معه.

لقد دبت فتنة ابن هند في أوصال الأمة، ولن تعدم أن تجد من أنصار الإمام منافقاً يبدي النصرة ويكتم الخذلان، أو مكاتبة معاوية سراً أو إجابته خلسة أو نصح الإمام بمهادنته والإشارة إليه بإقراره. لقد أخفق معاوية مع عبد الله بن عمر فسعى يحرض أخاه عبيد الله».

«إن لك اسم أبيك، فانظر بملء عينيك، وتكلم بملء فيك؛ فأنت المأمون

المصدق فاصعد المنبر واشتم علياً واشهد عليه أنه قتل عثمان».

هل يتقرب إلى الله من يفعل ذلك أو يبرره أو يرضى به.. إن معاوية يعلم أن عبيداً ليس كأخيه، فقد سبقت منه الخطوة الأولى يوم أصغى للشيطان فعدا على الهرمزان فقتله.

ولو لم يطع الشيطان في قتله لما ثنّى بقتل ابنة أبي لؤلؤة.

ولو أقام عثمان الحد عليه لما ثلّث بقتل جفينة النصراني بغير ذنب. ولنجا اليوم من مكيدة جديدة للشيطان. ما زالت في أذنه قولة علي لعثمان: «أقد الفاسق فإنه قد أتى عظيماً».

لم يستجب عثمان لنصيحة الإمام لأن ابن عمر من موالي الطبقة الحاكمة فلم تطله يد العدالة، التي تقول لهم على لسان الرسول ﷺ: «لقد أهلك الذين كان من قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد».

سقط عبيد الله في الفخ وسر معاوية الذي يكفيه أن يستجيب لبعض ما أمره وهو يقول: «أما شتمه فإنه علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم؛ فما عسى أن أقول في حسبه. وأما بأسه فهو الشجاع المطرق؛ وأما أيامه فما قد عرفت. ولكني ملزمه دم عثمان».

ولم يلبث معاوية أن أظهر ازدراءه بالمخدوع وبما سيفتي به على الإمام فقال لابن النابغة عمرو بن العاص:

«أما والله لولا قتله الهرمزان ومخافته علياً على نفسه ما أتانا أبداً.. ألم تر إلى تقريظه علياً»!

كلاهما يعلم أن التهمة كاذبة والشهادة ملفقة ولكنه الهوى يحلب المنى. إنه سيتحرك ولكن بخيوط من يملي عليه، وسيتكلم ولكن كما يشاء له سيده؛ وسيقف أمام الناس وسيغضب لعثمان كما شاء له سيده أن يفعل. ليخيل للناس أن المتكلم هو عمر.. ويقف معاوية ضاحكاً من صنائعه بابن عمر وأمثاله وكل يظن أنه ذو شأن.. وكل ألعوبة بيد معاوية..

وتحدث عبيد الله وذهل معاوية إذ أنه لم يطعن بعلي فقال له بمكر:

ـ ابن أخي أنت بين عيٍّ أو خيانة. فأجابه:

ـ كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان، وعرفت أن الناس محتملوها عني فتركتها..

وقنع معاوية من الغنيمة بأن ابن عمر إلى جانبه.. تكلم أم صمت.

ودسيسة أُخرى كانت من عمر بن سعد لأبيه ابن أبي وقاص؛ ولكن الأب لم يكن كالابن إذ قال لابنه:

يا بني لو كنت غامساً يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي..

ونمت الشجرة الخبيثة بازدياد فروعها بابن العاص فهو صحابي؛ وقد منّاه معاوية بأن له مصر طعمة. وهذا شرحبيل يرفع راية معاوية أيضاً.. وسينال الناس من ابن سعد أكثر مما أمل معاوية من أبيه.

لم لا تسب علياً

ليت لمعاوية من صحابة رسول الله ﷺ حاشية تردعه عن فتنة تحصد رؤوس المسلمين. وليت القراء والمحدثين أفتوا بالحق وما وضعوا الأحاديث واختلقوا من الروايات ما يرفع معاوية ويبرر تجاوزه حدود الله؛ إذن لوقوا الأمة من كارثة حلت بها وفرقة فتت شملها؛ ولوقوا أنفسهم من عاقبة الكذب على الله ورسوله.

ليتهم فعلوا كأبي حنيفة النعمان وأفتوا بمناهضة الباطل وكانوا أعلاماً لنصرة الحق لا تأخذهم في الله لومة لائم.

وليت معاوية ومن معه لم يزيدوا ما هم فيه ولم يحرضوا الناس على الإفك والأكاذيب.. فقد كانوا يوغرون صدور الناس ليقعوا في علي.

وقد كثرت الروايات في قول معاوية لمن عنده: لم لا تسب علياً.

وفي المستدرك[١] قال سمعت سعد وقال له رجل إن علياً يقع فيك أنك تخلفت عنه.

فقال سعد: والله إنه لرأي رأيته وأخطأ رأيي.. إن علي بن أبي طالب أعطي ثلاثاً لأن أكون أعطيت إحداهن أحب إلي من الدنيا وما فيها:

لقد قال له رسول الله ﷺ يوم غدير خم بعد حمد الله والثناء عليه: هل تعلمون أني أولى بالمؤمنين؛ قلنا نعم.

قال: اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

وجيء به يوم خيبر وهو أرمد ما يبصر؛ فقال:

يا رسول الله إني أرمد..

فتفل في عينيه ودعا له فلم يرمد حتى قتل.

وفتح عليه خيبر.

وأخرج رسول الله ﷺ عمه العباس وغيره من المسجد.

فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علياً!

فقال: ما أنا أخرجتكم وأسكنته ولكن الله أخرجكم وأسكنه[٢].

أبو حنيفة يفتي

وقد سبق ذكر ما أورد الزمخشري: «وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علي رضوان الله عليهما وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمي بالإمام والخليفة؛ كالدوانيقي (أبو جعفر المنصور) وأشباهه»[٣].

وكم من فرق بين أولئك القراء الذين يسعون في كسب جوائز السلاطين عن طريق السير في ركابهم والإفتاء بما يسند عروشهم وبين أبي حنيفة.

(١) المستدرك ٣/ ١١٣- ١١٥.
(٢) المستدرك ٣/ ١١٣- ١١٥- ٤٦٨٠.
(٣) الزمخشري، الكشاف ١/ ١٨٤.

يقول الغزالي[1]: «فلما أراد معاوية أن يتجه بشكل الحكم إلى غير ما عرف في دولة الخلافة، لاحظ المعترضون عليه من صحابة رسول الله ﷺ أن هذا الاتجاه روماني لا إسلامي، وقالوا في وصفه: كلما هلك هرقل قام هرقل». ثم أضاف:

«ولكن هذا الأسلوب الروماني كتبت له السيطرة؛ وبلغ من اجترائه أنه استولى على منابر الجمعة يلعن من فوقها ممثلي الاتجاه الإسلامي الصحيح». وقد تماسك التاريخ الإسلامي في القرن الأول لما رمي بسيئات الملك العضوض والحكم الأموي الغاشم؛ فلم يتحطم كيان الإسلام ولا انهارت دعوته، إذ أن إشراق العقيدة وعمق الإخلاص وروح الجهاد وتوفر جمهور كبير من الصحابة والتابعين على خدمة الدين ـ ولو في ظل الأثرة الباغية ـ كان له أثره في بقاء موجة الفتح[2].

سياسة بلا عقيدة أم عقيدة بلا سياسة

كان معاوية يريدها لعلي عقيدة بلا سياسة ولنفسه سياسة بلا عقيدة. إذ لا يضيره أن يقتصر على أن يفتي ما يشاء ويعلم الناس من الأحكام ما يريد ما دام هو الخليفة الآمر الذي لا يفعل إلا ما يحلو له. وما كان علي ليرضاها لنفسه عقيدة بلا سياسة ولا لمعاوية سياسة بلا عقيدة.. إذ كيف يمكن لإمام بلا سلطة أن يقيم الحدود.. ويحفظ الثغور.. وينشر الدين.. ويحارب الفساد ويمضي أحكام الله.. إن بيعة الناس للإمام إنما هي لأنهم حماة الإسلام في دولة يقودها الإمام علي بن أبي طالب.

فمن نكث فإنما ينكث على نفسه

لا يضير الإمام أن ينحاز الناس إلى معاوية لهاثاً وراء أعطية أو منصب. فالمال

(١) الغزالي الإسلام المفترى عليه/ ٣٥.

(٢) يراجع أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ للدكتور ابراهيم شموط، والدولة الأموية للدكتور عبد الشافي محمد بن عبد اللطيف للمزيد عن موضوعات وأباطيل الدولة الأموية والعباسية.

مال الله وإن الحكم إلا لله. فمن أراد الله فليأت علياً ومن هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها أو إمارة يحكمها ولو باع لذلك دينه بدنيا غيره فهو إلى ما هاجر إليه. وها هو يقول لعبد الله ابن زمعة الذي يطلب هبة من بيت المال: هذا المال ليس لي ولا لك.. إنما هو فيء المسلمين وجلب أسيافهم.. فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم».

إنه راع للأمانة ولا يرضى الله أن تكون الأمانة بيد خائن. سواء كانت الأمانة إمرة المؤمنين أم إمامة الصلاة أم خزانة بيت مال المسلمين.

لقد قيل للإمام وقد رأوه في ثوب خلق في يوم قارس:

«يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً؛ ثم أنت تفعل هذا بنفسك!».

فكانت إجابته إجابة تفصح عن قائلها: «ما أرزأكم شيئاً.. ما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة».

هذه هي سيرة علي فكيف يرضى الناس بغيره. ومع أن هذه سيرته فقد كان ينهى عن التقتير تشبهاً به لمن يملك السعة؛ فهو يقول لأحد أصحابه: «ويحك يا عاصم لست كأنت. إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره».

ويقول للأشعث بن قيس: «إن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك..».

والمراقبة تتبعها المحاسبة.

الإمارة لأصحاب معاوية غنى وسلطة وإتراف.. ولأصحاب علي قدوة ورعاية للأمة وسعي في شؤونها.. والناس أحرار فيما اختيارهم لما سيحاسبون عليه.

هل أدرك الناس هذا الفرق فلزموا الإمام أم أنهم أدركوه وهوت أنفسهم إلى دنيا معاوية سواء نالوا من دنياه أم لم ينالوا.

ليست غاية علي أن يكون في موضع الإمامة؛ بل أن يعلم الناس كيف يجب أن

يكون الإمام وكيف يجب أن تكون سيرته وسجاياه؛ وكيف يجب أن يسلكوا مع أئمة الحق أو مع أئمة الضلال.

أتئن من قذى ولا أئن من لظى

من الناس من كان ينتظر أن ينال العطايا من الإمام كما يفعل معاوية مع بطانته؛ وكان الإمام يعلمهم أنه لو سلك كسلوك معاوية ما كان له أن يحاربه. وإذا كان ما يحمل الإمام من شرعة الإسلام ما يستوجب محاربة معاوية فكيف للناس أن يطلبوا منه العطايا الباطلة في الوقت الذي عليهم أن يحاربوه لو فعل ذلك!!

لقد بكّت قاضيه شريح بن الحارث قائلاً: «بلغني انك ابتعت داراً بثمانين ديناراً وكتبت كتاباً وأشهدت فيه شهوداً..»!

«لقد كان ذلك يا أمير المؤمنين».

«يا شريح أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتاب، ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصاً أو يسلمك إلى قبرك خالصاً؛ فانظر يا شريح لا تكون قد ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك.. فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة».

ولم يكن نصيب أخيه عقيل لما جاء إليه يسترفده أكثر مما ناله غيره فقد عرض عليه الإمام دراهم هي كل ما يملك من حر ماله، فطلب عقيل أن يعطيه من بيت المال فقال له الإمام: «تقيم إلى يوم الجمعة».

فلما صلى الإمام عليه السلام الجمعة قال له:

«فما تقول فيمن خان هؤلاء أجمعين»! قال عقيل: «بئس الرجل».

فرد الإمام: «فإنك أمرتني أن أخون هؤلاء وأعطيك».

وروي أنه حمى حديدة وقربها من أخيه فلما ذعر قال له الإمام: «أتئن من حديد حماها إنسانها للعبه وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه.. أتئن من قذى ولا أئن من لظى».

أما معاوية؛ فلما ذهب إليه عقيل أمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم. ومئات أخرى لقضاء حوائجه.

بيت مال المسلمين عند إمام المتقين مال الله يقسم بين الناس كما أراد الله، وبيت مال المسلمين عند معاوية مال الله يملكه معاوية ينفقه كما يحلو له.

ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين

ودخل قيس بن سعد بن عبادة عامل الإمام مصراً.. وسر الناس وهم يسمعون ما تهفو نفوس الحق إلى سماعه: «الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين.. أيها الناس، إنا قد بايعنا خير ما نعلم بعد محمد نبينا، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله. فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم».

هذا هو الإسلام كما يريده نبي الإسلام وهذا ما يستوجب من المريبين من دعاة معاوية أن ينضموا بإسلامهم إلى الإمام الحق. لم يأخذ قيس هؤلاء المريبين كما أمره الإمام، فكان أن تنادى أصحاب المكر لعقر البيعة. وبدل أن يفل حد قائد مكيدتهم مسلمة ابن مخلد الأنصاري فقد آثر مهادنته واكتفى بأن قال له:

ويحك.. أعليَّ تثب.. فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلتك..

وقعد قيس لا يوتر قوساً ولا يبري نبلاً..

إن دعَة قيس بشائر نصر لمعاوية الذي يعدّ العدة ويبيّت المكر.. فالحديد لا يفله إلا الحديد. ولم يكتفِ معاوية بذلك بل أرسل إليه يستميله ويمنيّه ويدس السم في نفثه قائلاً: «.. فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل تابعنا على أمرنا. ولك سلطان العراقين إن أنا ظفرت ما بقيت. ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان. وسلني غير هذا ما تحب، فإنك لا تسألني عن شيء إلا أوتيته..

إنه يطلب نقض ولاء حق في عنقه لعلي لينال بالباطل غرور الدنيا. لقد فكر فقدر.. فرأى قيساً هش العود وقد آثر الراحة فمناه بالأمل.

ونفثت الفتنة سمومها ونالت من قيس كما نالت من ابن العاص وعبيد الله بن عمر. أما ابن سعد فقد هوى إليها وأبوه يأبى أن يلج في غمراتها. فكان أن ناهض الابن أباه والأخ أخاه والقريب قريبه.. أوهل يكون نقيضان على حق؟

لقد أجاب قيس ما يدحض افتراءات معاوية ولكنه دس ما يثلج صدره:

«.. وأما ما سألتني عن مبايعتك على الطلب بدم عثمان، وما عرضت علي من الجزاء به فقد فهمته. وهذا أمر لي فيه فكر ونظر، وليس مما يعجل إلى مثله.. وأنا كافل عنك.. حتى ترى ونرى..».

ورقص ابن هند طرباً فقد عثر الرجل ولكن معاوية أراد المزيد فصده قيس لعناده. فتجافيا ثم تناجزا. لقد رأى فيه معاوية صنواً له يعد ويخلف، يعاهد وينكل، يخاصم ويفجر.

طاغوت من طواغيت إبليس

لم ييأس معاوية وعاد يغري ابن قيس فكتب له: «فلم أرك تدنو فأعذك سلماً.. ولم أرك تباعد فأعدك حرباً».

ثم هدده قائلاً: «وإن لم تفعل ملأتها عليك خيلاً ورجلاً».

ألم يعد معاوية عمرواً بأن له مصر طعمة.. فأين وعده لهذا الرجل فيفضحه قيس مستعصياً..

«.. أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة، وأقولهم للحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله. وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم للزور وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من الله ورسوله وسيلة..».

ويقول فيه: «طاغوت من طواغيت إبليس..».

هل يترك ابن هند قيساً ومصر.. وما فيها من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم.. وكنوز ودر ثمين.. وثمر طلعها نضيد! لا فليكد مكيدتين معاً فيهدده بأنه بين أمرين.. العزل من علي.. والنكال منه قائلاً:

«إنك يهودي ابن يهودي. إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك. وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك..».

ثم رمى معاوية سهماً ساماً آخر بأمر لم يقع؛ فقد خطب في أهل الشام قائلاً:

«إن قيساً قد تابعكم فادعوا له ولا تسبّوه.. ولا تدعوا إلى غزوه. فإنه لنا شيعة، تأتينا كتبه ونصيحته سراً».

لم تنطل الحيلة على الإمام ولكن أصحابه يشيرون عليه بعزله درءاً للفتنة.. وبدلاً من أن يتجه قيس على إمامه ليفتضح إفك ابن هند كتب إلى معاوية:

«للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد... ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسلام، وأجبتك إلى قتال قتلة عثمان».

كان يقول عنه بالأمس طاغوت من طواغيت إبليس واليوم يظاهره.. لقد طمع فضل، وهوى فذلّ.

لقد قال المرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن معاوية وحزبه: «نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله؛ فأحلوا حرامه وحرموا حلاله واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل». أو كما قال عمار بن ياسر:

«إن سفك دمائهم والجد في جهادهم لقربة عند الله».

إلى النخيلة

سد معاوية كل سبل السلام ولم يترك سلاحاً إلا سلّه. فاندفعت جيوش الإمام من الكوفة إلى النخيلة ووصلت الفرات. وقبل كل خطوة باسم الله.. ومع دلوك الشمس إلى غسق الليل.. حي على الفلاح ومع قرآن الفجرالمشهود.. قد قامت الصلاة: «أيها الناس.. من كان مشيعاً ومقيماً فليتم الصلاة فإنا قوم على سفر..

ومن صحبنا فلا يصم المفروض. والصلاة المفروضة ركعتان..».

ويستقبل آثار كسرى فيقول: «إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين. إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية».

ويقدم له بعض الدهاقنة الهدايا والأطعمة فيقول:

«أما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم؛ أخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئاً إلا بثمن . . ».

«يا أمير المؤمنين، نحن نقوّمه ثم نقبل ثمنه . . ».

لم يخف عليه مرماهم؛ وقد تاقوا أن يأخذ منهم شيئاً؛ إذ لا أحد يقدم شيئاً بلا ثمن؛ فقال: «إذن لا تقوّمونه قيمته . . نحن نكتفي بما دونه».

وعندما يلحوا ليقبل هديتهم أجابهم: «ويحكم نحن أغنى منكم». ألا يشبه هذا قول سليمان: بل أنتم بهديتكم تفرحون.

ها هنا محط رحالهم ومناخ ركابهم

ها هنا مهراق دمائهم

وما ذاك يا أمير المؤمنين

ويتجه بصر الإمام صوب الحسين أحد الثقلين من آل محمد ليرمقه بنظرة حانية تخفي دمعة قانية ثم يخاطب أصحابه قائلاً: «ثقل لآل محمد ينزل هاهنا، فويل لهم منكم، وويل لكم منهم . . .

ويل لهم منكم؛ تقتلونهم . .

وويل لكم منهم؛ يدخلكم الله بقتلهم النار . .

لقد كان اليهود يقتلون النبيين فهل تقتل ذرية خاتم النبيين بيد المسلمين . . المسلمون يصلون على محمد وآل محمد . . فهل سيكون من سيوفهم من يحصد رؤوس آل محمد.

إنكم تقتلونني بأمر من الحرام الذي ملأ بطونكم

هكذا قال الإمام الحسين يجلّي لهم ما حل بنفوسهم من الرين الذي أدى بهم

إلى قتله. وما التأكيد في كتاب الله على المودة في القربى إلا لما سيظهر من هذه السيوف. فالمال الحرام والسلطة الحرام وتولي من يقول الله فيهم: ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ هي مما أوصل المسلمين إلى سفك الدم الذي حرم الله استباحته . . كل يوم كربلاء . . إنها جدول الدم . .

ما كان للحسين أن يبايع يزيد، وما كان له أن يتخلف عن الاستجابة لكتب أهل الكوفة الذين استغاثوا به ليخلصهم من ولاتهم . . وقد قاسوا من زياد بن أبيه (أمه سمية معروفة بالعهر) الذي ألحقه معاوية بنسبه ليكون أخاً له من أبي سفيان، على الرغم من تذكره أن الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقد جاء في تاريخ الإسلام: «فالأمويون لم يعتنقوا الإسلام إلا سعياً وراء مصالحهم الشخصية»[1]. وهم أول من ابتدع وبشكل سافر في التاريخ الإسلامي نظماً وتقاليد بعيدة عن الإسلام، وحولوا الخلافة إلى ملك كسروي وحكم قيصري[2]. لقد مضى الحسين لينصر من استنصره غير آبه بمقالة الفرزدق عن الناس: قلوبهم معك . . وسيوفهم مع بني أمية[3]. لقد أبى الحسين أن يبقى في المدينة كما قال له عبد الله بن عمر. أما ابن الزبير فقد قال: «إن شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك وإن لم تشأ البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع ولا تعصى»[4].

لقد أصر يزيد على أخذ البيعة من الإمام الحسين، فانطلق إلى الكوفة قبل أن يعلم بمقتل رسوله إلى الكوفة بن عمه مسلم بن عقيل على يد ابن زياد. . لقد عزم الحسين أن يؤدي واجبه كإمام؛ وأن يكون إماماً إلى يوم القيامة لكل من يقتدي به في النهوض على السلطان الجائر ولو أدى به ذلك إلى الموت . . وأرسل زياد بن أبيه عمر بن سعد لقتل ابن بنت رسول الله ﷺ في أسوأ مجزرة دموية في تاريخ الرسالة السماوية.

قام جيش ابن سعد بسفك دم أهل البيت وحز رأس الحسين ووطء جسده

(١) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام ٢٧٨ -٢٧٩.
(٢) رسالة في معاوية والأمويين للجاحظ؛ عزة العطار ١٦.
(٣) تاريخ الطبري ٤ / ٢٩٠.
(٤) عباس محمود العقاد - أبو الشهداء ٤٣.

الشريف بالخيل وحمل ذرية رسول الله وبناته سبايا مع الرأس الشريف إلى يزيد في دمشق؛ غير آبه بقول الرسول الكريم ﷺ؛ كما أورد القرطبي في تفسير آية المودة: حرمت الجنة على من ظلم أهلي وآذاني في عترتي؛ ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة[1].

جند الله وجند معاوية

وينطلق الإمام في خمسين ألف من رجاله.. فرسان في النهار.. رهبان في الليل. أخلصوا عبوديتهم لله قاصم الجبارين مبير الظالمين.. الذي من خشيته ترعد السماء وسكانها والأرض ومن يسبح في غمراتها.. لقد صدق رسول الله ﷺ فقد أصبحت بأيديهم كنوز كسرى وتاج أمته؛ وأورثهم أرضهم وديارهم.. وها هم ينطلقون إلى كسرى جديد يلبس لباس الإسلام.. في بلد نصر الله المسلمين بفتحه، وأسكن معاوية في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ليقوم المسلمون بالقسط؛ لا ليسيروا بسيرة من سبقهم من الروم.

يقول الغزالي: «فإن أعمال معاوية بن أبي سفيان ـ من قبل ومن بعد ـ كانت لتحطيم الديموقراطية الإسلامية في ميدان السياسة.. وتنصيب أسرة عبد شمس على ملك عريض كملك دي بوربون أو هابسبورغ في أوربا. وإعادة الأمر كسروية وهرقلية، كما عرف صحابة رسول الله أخيراً وبعد فوات الأوان»[2].

كان علي وسيفه مع الله وكان المسلمون معه لأنه مع الله. وكان الله معه ومعهم لأنهم يجاهدون في سبيل نصرة دينهم. وكان الإسلام هدفهم وكان السلام سبيلهم. والله لا ينصر من كان سبيله غير الإسلام وإن ادعى أنه يعمل للإسلام. فكيف إذا كان السبيل يهدم الإسلام!

«قدِّموا إلى الأشعث شيئاً تهيجونه على علي». هكذا مكر معاوية.

(١) تفسير آية القربى- القرطبي.
(٢) الغزالي الإسلام المفترى عليه / ٨٥.

كان الأشعث عاملاً لعثمان على أذربيجان. ونال من أموال المسلمين بغير حق. فلما طلب علي منه البيعة قال وهو يعلم نهج ابن هند الذي لا يؤاخذه بخيانته كما لم يؤاخذه عثمان: «إن كتاب علي قد أوحشني وهو آخذي بمال أذربيجان.. أنا لاحق بمعاوية».

نصحه صحبه وهو يعلم أن معاوية ليس بموليه: «الموت خير لك.. أتدع مصرك وجماعة قومك؛ وتكون ذنباً لأهل الشام»!

قالوا: إن سياسة علي هذه هي التي هزمته مع خصومه؛ ولكن هذا الانهزام كما يقول الغزالي: «وانهزام هذه السياسة وخذلان أصحابها هو الذي أصاب المسلمين بهزائم نقضت عروتهم وأذهبت دولتهم.

أإذا انهزم الشرف في معركة هانت بين الناس مبادىء الشرف!

وهل الاستنجاد بالدين لحراسة الأملاك الباطلة إلا أن اللصوص يستنجدون برجال الأمن ليعينوهم على إخفاء الجريمة والتعفية على آثارها! فأي خيانة للدين والأمانة أشد من هذا الموقف المريب»[1].

أإذا هزم المسلمون في معركة هل يقف الناس مع أبي سفيان والمشركين. فالذين لجأوا إلى معاوية ونصروه وحفظوا عرشه كرجال الشرطة الذين ينضمون إلى اللصوص لينالوا من غنائمهم.

ونال الأشعث من ابن هند ولاية الميمنة في أهل العراق..

أم حسبتم أن لن يكشف الله أضغانكم! لقد كشف الطلقاء ما في نفوسهم: «من معاوية.. أما بعد..

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

لقد صدقت مقالة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو يفضح جاهلية معاوية وقبليته: «كيف يبايع معاوية علياً وقد قتل أخاه حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة

(١) الغزالي الإسلام المفترى عليه / ٩٦.

في موقف واحد.. والله ما أظن أن يفعلوا ولن يستقيموا لكم دون أن تقصد فيهم المران وتقطع على هامهم السيوف..».

وتسرع جموع الحق فالجنة موعدهم وقد استوفى الإمام السبل مع خصومه في محاجتهم فقد كرر الدعوة حتى ملوا.. وكان من مع علي علماً لمن أراد الحق..

حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا الخضر بن أبان الهاشمي ثنا علي بن قادم ثنا أبو إسرائيل عن الحكم قال شهد مع علي صفين ثمانون بدرياً وخمسون ومائتان ممن بايع تحت الشجرة[1].

لا غدر في منهج علي ولا خيانة؛ وفي صفوف الخصوم نقيض. فقد تأسى مالك الأشتر بإمامه ودعا خصومه إلى الحق عندما تلاقوا في سور الروم ولكنهم أبوا. وما كان من أبي الأعور السلمي إلا أن تأسى بسيده وغدر بمالك الأشتر ليفتك به على حين غرة، ولكن الله نصر الأشتر ومن معه على خصومهم؛ فهربوا تواريهم ظلمتان من أنفسهم ومن الليل.

وكان موعدهم الصبح.. أليس الصبح بقريب! فقد شرد بهم الأشتر من خلفهم واقتفى أثرهم. ونكل أبو الأعور عن مبارزة شريفة. وارتدت أحزاب ابن هند هاربة إلى شفير الصحراء.

لا سقاني الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا

وصل معاوية إلى أرض المعركة، فرأى الماء بحوزة الإمام، وسيوف الحق مشرعة مع الإمام فكيف له أن يقارعهم! ليس له إلا الفتنة وهي أفتك من السيف.. فيرسل من بعيد من يحفر الأخاديد.. ثم يرسل قولة تحمل سهماً بل سماً لجند الإمام: «إني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فخذوا حذركم».

فيحذر علي جنده وقد ارتاعوا: «ويحكم إن الذي يعالج معاوية لا يستقيم له ولا يقوى عليه.. وإنما يريد أن يزيلكم من مكانكم، فانتهوا عن ذلك ودعوه».

(١) المستدرك ٣/١١٣- ١١٥- ٤٥٥٩.

لكنهم سمعوا وما وعوا؛ وليتهم ذكروا عاقبة مخالفة الرماة لنبيهم في أحد!.. وعاودهم الإمام:

لا تغلبوني على رأيي!

ولكنهم غالبوه.. ومنهم من حاجه.. ومنهم من جبن..

ويسخر الشيطان من ثمار الفتنة في جند علي.. فأصبحت أفئدتهم هواء وريحهم هباء وفكرهم خواء. زاغت أبصارهم وبلغت قلوبهم حناجرهم، ونبذوا قول إمامهم.

«لنرتحلن.. لنرتحلن والله.. فإن شئت فأقم وإن شئت فارتحل..

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وهم يولون مدبرين.. بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم.. فزها ابن هند بمكيدته وصاح:

لا سقاني الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يقتلوا بجمعهم..

ثُم أردف بخيلاء: هذا والله أول النصر.

ولكنه لم يعدم من يصفع غروره ويبشره بعاقبته بإجابته: «هذا والله أول الجور لقد شجعت الجبان وبصرت المرتاب وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك». وفر بدينه إلى علي بن أبي طالب.

وجرت سفن ابن هند بغير ما تهوى أشرعته.. ولم يصغ إلى نصيحة عمرو بن العاص: «إنك تعلم أنه الشجاع المطرق ومعه أهل العراق وأهل الحجاز.. ولقد سمعته أنا وأنت وهو يقول (عند بيعة أبي بكر)[1]: لو استمكنت من أربعين رجلاً..

وعاد البغي من جديد.. ويصر الوليد بن عقبة المبشر بالنار ومن معه على منع الماء.. وصالوا بما استفاق من جاهليتهم الكامنة: «اقتلهم عطشاً قتلهم الله..». هذه هي جنود ابن هند.

ويفيء جند الحق إلى إمامهم كما يفتقد البدر في الليلة الظلماء فيقول الإمام.

(١) يراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد لإنكار الإمام البيعة.

للأشتر بأسى:

«ألم تغلبني على رأيي، أنت والأشعث؛ فدونكما..

ويستجيب الأشعث للدواء؛ وهل من شفاء دون سيف ورمح؛ كما قال الإمام!

ويصيح بقومه: «يا معشر كنده لا تفضحوني اليوم ولا تخزوني أنا أقارع لكم أهل الشام.

وعلا الأشتر بخيله.. ودارت الدوائر على الباغي؛ فنسي دم عثمان بعد أن لم تعد له حاجة بقميصه. ونسي قتلة عثمان.. فقد أتوا بدم كذب.

فسقط ابن فيروز وبأسه وقد قدّ الأشتر ظهره برمحه..

وخر فارس الشام مالك بن أدهم..

وصرع الأحلج قسورة العرب..

كم تركوا من ثكالى ويتامى وحزانى وأيامى.. وابن هند مدّرع في خصامه تحميه جثث أنعامه وقد غرر من حوله وقد ساقهم كالأكباش أمامه. وليحملن أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم.

هل سيذيقهم الإمام من كأس بغيهم؛ لقد فضح ابن النابغة عمرو بن العاص معاوية حين قال له:

«علي..؟ إنه لا يستحل منك ما استحللت منه».

ويرسل الإمام شبث بن ربعي إلى معاوية عله يذكّر أو يخشى.

ولعل دماء المسلمين تدخر للفتوحات بدل إهراقها في الفتن؛ فيحذره من عواقب مسلكه ثم يقول: «والله لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً ولئن أصبت ما تتمناه، لا تصيبه حتى تستحق صلى النار».

وبهت معاوية ومن معه من طغام.. لقد هزم معاوية وما من محاسب له على هزيمته، وجند الإمام يحاسبونه على سعيه بهم إلى النصر.

ومهما يكن فقد حاز جند الإمام الماء..

وذكروا قسم معاوية..

لا سقاني الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا..

لقد طلب الجزاء من الله.. وعنده سبحانه الجزاء الأوفى.

هل هي بدر أُخرى تعود!

أخذت عبيد الله بن عمر العزة بالإثم لما ذكّره الإمام بما بدا منه: «أنت قاتل الهرمزان بعد أن كان أبوك فرض له الديوان وأدخله في الإسلام»!

فصاح يتهم الإمام بالجلي من الباطل قائلاً:

«الحمد لله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان وأطلبك بدم عثمان».

فأجابه الإمام: «لا عليك.. سيجمعني وإياك الحرب غداً».

الإمام يأنف أن تراق دماء المسلمين وابن هند يتهافت بباطل من الذرائع وداحض من الحجج وإن كان له الضعف من الجند..

فالأخ يقاتل أخاه..

والابن يحارب أباه.. والقريب يقارع قريبه..!

لم يراود جند محمد ﷺ الشك بأنهم على حق، ولم تراود أذهان صحب علي أنهم على الصراط المستقيم.. ولكن الكثير ممن مع معاوية يوقنون أنهم ينصرون الباطل في سبيل الذهب والإمارة والنزعات الجاهلية.

ويهتف عمار بن ياسر يحرض الناس على القتال: «يا أهل الإسلام.. أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله!

ألا إنه معاوية.. فالعنوه لعنه الله، وقاتلوه فإنه ممن يطفىء نور الله ويظاهر أعداء الله..

فيقول له رجل: يا أبا اليقظان.. ألم يقل رسول الله: قاتلوا الناس حتى يسلموا فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم..

ففصل علي الخطاب قائلاً: «بلى . . والله ما أسلموا، ولكن استسلموا، وأسرّوا الكفر حتى يجدوا عليه أعواناً».

ثم يشد على جند معاوية ويقتحم الصفوف، فيصل إلى عمرو بن العاص. فينخلع قلبه رعباً من سيف الإمام. . ويسعى لفتنة جديدة، فيرفع رقعة سوداء في رمح كانت لواء لرسول الله ﷺ صائحاً: «هل تدرون ما أمر هذا اللواء! . . هذا لواء عقده رسول الله».

ولكنه انتكس وقد فضح الإمام مكيدته بالقول: «إن عدو الله أخرج له رسول الله هذه الشقة؛ فقال: من يأخذها بما فيها. فقال عمرو: وما فيها يا رسول الله. قال: فيها ألا تقاتل بها مسلماً ولا تقربها من كافر.

فأخذها؛ فقد والله قربها من المشركين وقاتل بها المسلمين».

ابنا خليفتين يقتتلان

الحق بيِّن والباطل بيِّن. فعمار تقتله الفئة الباغية كما قال رسول الله ﷺ وعمار مع علي وعلي مع الحق[1]. أوَهل من عذر لمن لا يحارب من يحارب علياً؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «النظر إلى وجه عليعبادة»[2] فمن أراد الحق وقف مع علي كما وقف معه عمار أمس واليوم وكل يوم. فلله الحجة البالغة.

إنهما ابنا خليفتين يقتتلان

محمد بن أبي بكر وعبيد الله بن عمر.

كان أولهما مع الإمام وثانيهما مع ابن هند. . . والتقيا. . ثانيهما يريد أن ينازل صاحبه.

فينخس دابته صائحاً بابن أبي بكر يريد قتله. . لينصر معاوية:

(١) المستدرك ٣/١١٣- ١١٥.
(٢) المستدرك الحديث ٤٦٨٢.

أنا أبارزك. . . فهلم إلي!

ترفّع محمد عن مبارزته، فقد ادخره الله لأمر ذي شأن.

منذ قابيل وهابيل كان صراع الحق والباطل. . وإذا لم ينهض جند الحق لنصرة حقهم؛ فالباطل سيحصدهم.

لم يمد علي يده ليقتل معاوية؛ بل أُعذر أيما إعذار في إقامة الحجة بعد الحجة. فعندما ملك معاوية الماء ومد يده ليقتل علياً وجنده بحبس الماء عنهم ما مد علي يده لقتله بحبس الماء عنه عندما حاول قحم الماء بل قال له: «إنا لا نكافيك بصنعك، هلم على الماء فنحن وأنتم فيه سواء». .

وما كان جواب ابن هند على دعوة علي إلى السلم إلا أن قال:

«. . انصرفوا من عندي، فليس بيني وبينكم إلا السيف. . ».

وزأرت السيوف لتدور المنايا على شفاه الصراع.

وما أعجب ابن النابغة يدعو ابنيه عبد الله ومحمداً ليقوما على جند حراسة المنبر؛ وهو يعلم فداحة افترائه وتعدي سيده. .

إنه يخوض حرباً ـ قد يقتل فيها ـ ليجني غيره قطافها. وما أعجبه من غارس يحصد غيره ما زرعه.

لقد دسّى نفسه وقدمها لقمة سائغة لقرينه الذي يراوغه بوعد إثر وعد.

وما على معاوية أن يعد بما لا يملك! وأين الدهاء في من يقبل!

هل مصر تكون عوضاً عن الجنة

ها هو ابن العاص يقر بأنه قد خسر الدنيا والآخرة وقد اشترى حرب علي بوعد معاوية له بولاية مصر. . ويقول لسيده:

«وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة!. . وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار!!».

وينتفض معاوية حذر أن يسمع الناس قائلاً: «رويداً لا يسمع الناس كلامك.. ولك حكمك يا أبا عبد الله».

ويدفع الإمام أزده قبالة أزد معاوية.. وخثعمه إلى خثعم معاوية..

وأسرع الأخ يحمل الموت لأخيه.. لولا فتنة معاوية لاجتمعوا تحت راية الإمام لفتوحات الإسلام. ولكن معاوية جعل الأمة تضرب يمينها بشمالها وتقطع رقبتها بسيفها، فالحميم يقتل حميمه..

وتفطر قلب الإمام وفاضت رحمته خوفاً من سفك الدماء. فالحرب علقم مذاقها، ومتى سعرت استعرت؛ والقتل يولد الضغائن. أما من سبيل لحفظ الدم قبل نزفه! ويصيح بجنده ليكرر ما فعله بالبصرة في حرب الجمل؛ إنه يفتح قلبه لمن يحاربه عسى أن يعشو إلى ضوئه من يحب النور: «من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم فيدعوهم إلى ما فيه..»!

«أنا صاحبه يا أمير المؤمنين..». ولم يتقدم أحد غير هذا الغلام البطل.

«فدونك».

وكما حدث لرسول الإمام للسلم في يوم الجمل فقد سفك رجال ابن هند دم الغلام وهو يدعوهم إلى كتاب الله.. وبتروا الكف التي تحمل المصحف.. وجرحوا الصدر الذي يحمل الرحمة.. وسفكوا الدم الذي يكره سفك دمهم. دعاهم إلى كتاب الله فأبوا أن ينصروا حزب الله ليبقوا في حزب معاوية.

هبّ الإمام وقد سدوا كل السبل؛ واستوى على فرسه مسبحاً..

«سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين».. ثم رفع يديه مناجياً..

اللهم نشكو إليك غيبة نبينا، وقلة عددنا، وكثرة عدونا، وتشتت اهوائنا، وشدة الزمان بنا.. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. اللهم أعنا بفتح تعجله، ونصر تعز به سلطان الحق.. سيروا على بركة الله..

والتقى جند أمير المؤمنين بجيش معاوية. فحرض رجاله:

أتخشونهم.. فالله أحق أن تخشوه.. واستجابوا لقد نصروا الله فنصرهم.

هل رأيت نسراً يفزعه صغير القنابر

ورأى معاوية الموت القادم من يمنة جيش الإمام؛ يحمله عبد الله بن بديل الخزاعي مع مائة من رجاله.

فحشد جنده في الميمنة وأحاطوا بهم. فاندفع الإمام وهو يرى ميمنته وقد كثر فيها القتل..

وقال لابنه الحسن الذي خشي عليه من غدر معاوية وجنده:

«يا بني.. إن لأبيك يوماً لن يعدوه، ولا يبطىء به السعي ولا يعجل به المشي..».

لكل أجل كتاب.. وكتابه لقاء الأحبة..

محمد وفاطمة وأبي ذر وجعفر وابن رواحة وصحابة أخيار.

ويسعى الأحمر، مولى أبو سفيان أن ينال من علي ـ كما نال وحشي من حمزة وحظي من هند بعطيتها ـ لينال حظوة وأعطية من سيده.

وأنى لفأر أن ينال من سبع؛ فحاول الغيلة، ولكن يد الإمام كانت أسرع من مكيدته فحملته من صهوة جواده وضربت به الأرض، فاختلط دمه بالتراب ولم يستسغه الرغام.

وساح على الأرض دم شاهد غدر آخر.

واستنجد الموقف بالنبوغ العسكري للإمام في قيادة المعركة..

فنادى وقد تأزم الموقف: «ألا رجل يشتري نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته»!

فيلبيه أبو الحارث الجعفي: يا أمير المؤمنين مرني، فوالله ما تأمرني بشيء إلا صنعته.

فيعلمه الإمام بخطته ويسدد خطوته ففك حصار جنده بغيته: «يا أبا الحارث شد الله ركنك.

احمل على أهل الشام حتى تأتي أصحابك فتقول لهم:

أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام..

ويقول لكم هللوا وكبروا من ناحيتكم، ونهلل ونكبر من ها هنا..

واحملوا من جانبكم.. ونحمل من جانبنا».

والتقى التكبير بالتهليل على أمر قد قدر..

وقُذف في قلوب جند معاوية الرعب.. وقد ظنوا أن جند الإمام قد مُدوا وقد مزق التكبير أمعاءهم كما قدت السيوف رقابهم.

وجاء نصر الله.

ويحث مالك الأشتر همم قومه المتقاعسة قائلاً:

«اجلوا سواد وجهي يرجع في وجهي دمي..

والذي نفس مالك بيده، ما من هؤلاء رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله..».

وأتبع القول بهجمة مع فتية من همدان آثروا ما عند الله بجهاد أعدائهم رأب صدع الميمنة.

واندفع جند اليمن يودع بعضهم بعضاً ويتربصون إحدى الحسنيين فيشدون على خصومهم.

ويرمق الأشتر بنظرة حانية يزيد بن قيس وهو في الرمق الأخير، مقترباً من روح وريحان وجنة نعيم فيقول:

«هذا والله الصبر الجميل، والفعل الكريم. ألا يستحي الرجل أن ينصرف قبل لم يقتل ولم يُقتل ولم يُشف به على القتل..».

ويشق ابن بديل الصفوف نحو قبة ابن هند، ويشق بحسامه أجساد من تدرع بهم ابن هند؛ فيشلون ببأسه ويذهلون بشجاعته، فينخلع قلب معاوية فيصيح بهم: «ويلكم الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح».

قاتلهم بشرف فحصبوه بخسة، مزق جمعهم بشجاعته فمزقوه بالحصى والصخر..

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ويزين ابن النابغة وكان يختبىء هو ومعاوية خلف الحريث وهو غلام لمعاوية الإقحام على علي ويدليه بغرور.

فيصيح الحريث: «يا علي.. أقدم..».

فإذا هي آخر دعواه وآخر خطواته، وقد سعى إلى ناره بقدمه.

فقد قال له علي هازئاً:

«أيها العبد الغرير.. اثبت».

وطاح رأسه بسيف الإمام فثبت في الرغام.

ولو كانت هذه هي النهاية لهان الأمر.

وما كان ربك بظلام للعبيد.

عورة عمرو بن العاص تقبح وجه التاريخ

وينظر الإمام وقد تساقطت الرؤوس مع السيوف في فتنة ضحك لها الشيطان؛ فيدعو معاوية فيخرج بعد طول اختباء؛ فيدعوه للبراز قائلاً: «ابرز إلي فأينا قتل صاحبه فالأمر له».

فيسقط قلبه في معدته وقد غص بريقه. فيسأل نظيره في الدهاء ابن النابغة فيقول ابن العاص ساخراً مشجعاً: اغتنمه!

- ويحك.

- أنصفك الرجل.. إن نكلت عنه لم تزل سبّة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي.. اغتنمه منتهزاً. فذعر معاوية وصاح بندّه مؤثراً البقاء مع الذل مضيفاً الجبن إلى مفاخره.

ـ ما أحمقك.. ليس مثلي يخدع عن نفسه.. والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً إلا سقى الأرض من دمه.. إن تريد إلا أن أُقتل.

فقال ابن العاص متباهياً ومزرياً بخصمه:

ـ والله لو علمت أني أموت ألف موتة لبارزت علياً في أول لقاء.

وضحكت الأقدار وسخرت البطولة وانتشى العار؛ فقد طمع ابن النابغة أن ينال من علي غرة، فكان أن حمل عليه الإمام فلما كاد أن يخالط (يصاب) رفع ثوبه وشغر برجله لتبدو سوأته فصرف عنه الإمام وجهه تكرماً وشمماً. لم يعرّ العار ثياب عمرو بن العاص لأنه بنفسه نزع إهابه لتظهر سوأته فهي جزء من باطنه. وكانت وصمة عار لهذا الصحابي الذي أخزى أسوة الصحبة أمامه عفة الإمام مرتمياً أمام مكشوف السوأة بادي العار بعد أن ألقى درعه وحسامه خوفاً من أن يورده الإمام حِمامه. وعجب الناس من إفلات ابن النابغة من القتل فقال لهم علي عليه السلام:

فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه.

ويسأل معاوية ابن النابغة عن صنيعه فيقول وعلى وجهه غبرة ترهقها قترة: لقيني علي فصرعني.

فيسخر معاوية مستهزئاً بضعة نظيره ويقول له: احمد الله وعورتك.

فثارت بقية من تعزز باطل في عمرو قائلاً: «ماأشد تغبيطك علي في أمري هذا.. وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه، أفترى السماء قاطرة لذلك دماء.

فيزيد معاوية من سخريته بقرينه قائلاً:

«كلا ولكنها معقبة لك خزياً يا أبا عبد الله».

رجالها ذبّح ونساؤها إماء

هذا نذر معاوية في ربيعة ميسرة أهل العراق. واندفعت الخضرية لتلبي نذر معاوية، واستماتت حمية ذي الكلاع، وشمخ ابن عمر وهو يرى كثرة جند معاوية وهي تحمل الموت إلى ربيعة علي.

ليتهم وقفوا مع الإمام ورأبوا صدعهم إذاً لتماسكت لحمتهم بدل أن تنال منهم سيوف الأشتر وجنده وهم يرفعون صيحات الله أكبر.

وتهوي أحلام معاوية مع سقوط القتلى من جنده. ورأى أركان عرشه تهوي وقد خبطت المنايا صدور جنده.

لم يذهب دم ابن بديل هدراً بل أذهب الله به على يد علي وجنده المئات من جند عدوهم.

وكر جند معاوية ولكنها كانت كرة خاسرة.

وتكسرت ميسرة معاوية وهي تهوي على ميمنة الإمام وهوت خيوله تئن بمعاصي فرسانها.. واختلط الدم بالتراب وكل ما فوق التراب تراب.

واختلطت الهامات بالطين وقد تعب الطين من أوزار ما سقط عليه من طين..

لو حارب الكفر كفراً لما تعب الطين.. ولكن ما ناء بكلكله هو أن دماء المسلمين تهدر باسم الدين..

وسكبت الشمس الحزينة خيوط غروبها ليطوي الظلام ما شربت الأرض من دماء ذهبت لتلقى ربها بصحائف أعمالها.

ألم يقل الإمام أنه ما قتل أحداً بسيفه إلا أورده النار...

سكن الليل.. ونام الجند..

ولكن سيف الغدر لم ينم. وماذا على معاوية لو أرسل عبيد الله بن عمر بكتيبته الخضرية ليباغت ربيعة في عتمة الليل!

وعن الأسود؛ قلت لعائشة: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد في الخلافة.

قالت: وما يعجب! هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر وقد ملك فرعون مصر أربع مئة سنة[1].

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٤٣.

اجتهد فأخطأ..هذا زوجي القاطع الظالم

وزحف ابن عمر في خفية وخيفة.. فالغدر سلاح والمباغتة فرس والظلام دثار. وتوقدت في ظلمة الغدر شرارة قدت جأشه وقطعت أوصاله؛ إنها كلمات الحسن حفيد الرسول ﷺ؛ وكيف ينسى والحسن قاتلها؛ سيصرعك الله ويبطحك لوجهك يومك أو غدك..

وتخادع النفس صاحبها بتسويل شيطانها؛ إن كانت دعوة فهل هي مجابة! وإن كانت إخباراً من رسول الله ﷺ فوقوعها واقع لا محالة.. وكلا الأمرين وقعه كبير ومآله خطير. فليكن الغدر أمنية النفس بالنصر.. ولكن ابن ياسر يقول له من جديد: «صرعك الله»!

هل يخسر الدنيا والآخرة ليحفظ لمعاوية عرشه!

ولكن معاوية ينطق الشهادتين ويصلي ويؤم رعيته فهو مسلم!

لقد قال رسول الله ـ ﷺ لعمار: ..وسوف تقتلك الفئة الباغية وها هو عمار يقول له:

«يا ابن عمر.. بعت دينك بالدنيا من عدو الله والإسلام».

كيف يقاتل رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ولكن أليس لكل مجتهد نصيب.. فإن من اجتهد فأخطأ نال أجر اجتهاده!هذه أدهى وأمرّ! فهل يحق له الاجتهاد والآيات تحرم الاجتهاد مع النص: ﴿**ما كان لهم الخيرة**﴾.

لقد قال تعالى في خادعي أنفسهم: ﴿**أولئك الذين كذبوا على أنفسهم**﴾.

وتسد كلمات عمار بن ياسر عليه المنافذ: فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك.

وتهوي بأذنه صاعقة جديدة.. إنها الشيبانية بنت هانىء إحدى نسائه التي تكره له أن يقاتلهم فتقول: «أخاف أن يقتلوك!» فيهت قائلا: «ويحك»... فتردف:

«وكأني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألُهم أن يهبوا لي جيفتك».

فيهوي بقوسه عليها ويشجها ويقول بصلف؛ وقد أخذته العزة بالإثم: «ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك».

ويمضي من جديد.. ولكن تومض في رأسه من جديد كلمات علي.. عندما نجا من قصاص من قتلهم بغير حق بعفو من عثمان؛ وهل يُضيع الله دم الهرمزان: «لئن فاتني في هذا اليوم.. لا يفوتني غيره». وجاء اليوم التاسع من الحرب وسقط ابن عمر..

وحقت كافة النبوءات.. واستجاب الله دعاء عمار بن ياسر..

وتوسلوا إلى الإمام وقد عرضوا على ربيعة عشرة آلاف في جثته؛ فأبى وقال: «قد أجبتهم إلى ذلك، فاجعلوا جيفته لبنت هانىء بن قبيصة زوجته؛ فتمضي إلى ربيعة وتقول: أنا بنت هانىء بن قبيصة.. وهذا زوجي القاطع الظالم قد حذرته.. فهبوا لي جيفته.

يا خالد لك إمرة خراسان إن لم تتم

وانشقت الصفوق الخمسة التي تحمي معاوية وسقط ثلاثة منها وخرقت ربيعة الرابع!

وأصبح خالد بن المعمر في هجومه على مشارف الخامس! ولكنه لم يُتم!

فقد أتاه رسول معاوية يقول: «إنك قد ظفرت.. لك إمرة خراسان إن لم تتم».

وبدل خالد نعمة الله كفراً وأحل نفسه دار البوار؛ فقد باع الآخرة بإمارة خراسان.. لقد نكص المهاجم على عقبيه وأحبط النصر.

لقد كان معاوية يقول بلا خداع:

«والله لأستميلن بالأموال ثقات علي ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته».

إنه لا يعذر نفسه أمام الله ولا يطلب من غيره أن يعذره؛ فالعجب ممن يبحث له عن العذر؛ متذرعاً بأنه يحتاط لدينه؛ مع أن الاحتياط للدين إنما يكون بتجنب إعذار من لا عذر له، وإقامة الحد على من استوجبه. فالعفو عن حد من حدود الله خروج على حكم رب العزة. وقد حذر رب العزة من ذلك كما حذر من تجريم البريء.. فكيف يعذره الناس إذاً! وهل يحتاط المرء لدينه بإعذار فرعون وينجيه من الغرق إن لم يغرقه الله متذرعاً بأنه قال: ﴿آمنت برب العالمين رب موسى وهارون﴾.

أولم يقل الرسول ﷺ: إذا رأت أمتي الظالم ولم تأخذ عليه أوشك الله أن يعمهم بعقاب. أوليس وصول أمثال معاوية إلى السلطة عقاب عاجل من الله!

ذو الكلاع حامل الموت الأحمر .. يقتل

قال الإمام لهاشم بن عتبة بن أبي وقاص: إن بإزائك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر.. فينطلق هاشم قائلاً: أما والله لتعلمني يا امير المؤمنين، إن شاء الله، ألف بين جماجم القوم.

ويستحثه عمار بن ياسر مازحاً: «أقدم يا أعور.. لا خير في أعور لا يأتي الفزع..».

ويصيح معاوية فزعاً وهو يرى المرقال يزحف نحوه: «أعور بني زهرة؛ قاتله الله». ثم ينظر إلى عمار.. اليوم يحاربه وقد كان تحت أقدام قومه في الجاهلية حيث كان الحكم للاّت والعزى ومناة الثالثة الأُخرى.. قتلوا أمه ونكلوا بأبيه فمات واليوم يحاربه..

أبشروا آل ياسر إن موعدكم الجنة. لقد ادخر الله عماراً ليدخل الجنة اليوم تحت راية علي قتلاً بسيوف جند معاوية. إنه يحمل الطمأنينة لجيش الإمام بأنهم على الحق ويحمل النار لخصومهم لتقتله جاهلية بثوب جديد.. إنه يقابل أناسا يتحرقون شوقاً لقتله..

وأعجب به من شوق لجهنم.. وسقط ذو الكلاع بوطأة الهجوم.. وسعر القتال الشديد ثلاثة أيام ولياليهن، آخرهن ليلة الهرير.

وفي اليوم الثالث قال عمار للمرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ـ وكم من فرق بينه وبين أخيه ـ ومعه اللواء يومئذ: احمل فداك أبي وأمي.

فقال هاشم: يا عمار رحمك الله إنك رجل تستخفك الحرب، وإني إنما أزحف باللواء زحفاً رجاء أن أبلغ بذلك ما أريد وإني إن خففت لم آمن الهلكة فلم يزل به حتى حمل. وقاتل المرقال قتال الأبطال قبل أن يقتل. ولكن هجومه دك ذا الكلاع في كتيبته التي سقطت مع قائدها في الموت الأحمر لتنال جزاء ما قدمت لمعاوية من ولاء.

ولكن وا عجباً لمعاوية؛ قام ذو الكلاع بأمر جيشه ولما قتل ولما تنقض الحرب فرح بموته!

فقد بلغه أن ذا الكلاع ثبت عنده أن علياً بريء من دم عثمان، وأن معاوية لبّس عليهم ذلك؛ فأراد التشتيت على معاوية؛ فعاجلته منيته بصفين سنة سبع وثلاثين.

وبعد أن قتل ذو الكلاع أرسل ابنه إلى الأشعث ـ وكان في الميسرة ـ يطلب جثة أبيه.

فقال له الأشعث: إني أخاف أن يتهمني أمير المؤمنين! ولكن عليك بسعد بن قيس فإنه في الميمنة. وكانوا قد منعوا أهل الشام تلك الأيام أن يدخلوا عسكر عليّ لئلا يفسدوا عليهم. فأتى ابن ذي الكلاع معاوية فاستأذنه في دخول عسكرهم إلى سعد بن قيس فأذن له. فلما ولى قال معاوية: لأنا أفرح بموت ذي الكلاع مني بمصر[1].

قل لي من معك أعرف من أنت

مع علي آيات الله وأحاديث رسوله الصادق الأمين ﷺ.
ومع علي مالك الأشتر.
ومع علي الأحنف بن قيس..

(١) الاستيعاب ٢/ ٤٧٢.

ومع علي سهل بن حنيف..

ومع علي أبو أيوب الأنصاري..

ومع علي صعصعة وجارية وابن صرد وابن عباس..

ومع علي من صحابة رسول الله عمار بن ياسر. كان لا يسلك وادياً من أودية صفين إلا تبعه أصحاب محمد ﷺ.

وروى الحكم قال: شهد مع علي صفين ثمانون بدرياً وخمسون ومائتان ممن بايع تحت الشجرة[1].

ومع معاوية.. شهادة من رسول الله ﷺ بأنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم المشورة فضلاً عن البيعة.

ومع معاوية عمرو بن العاص ابن النابغة..

ومع معاوية ذو الكلاع وابن عمر عبيد الله..

ومع معاوية عتبة الذي لا يستحيي أن يخفي وتره وهو يقول محدثاً صحبه: «إن أمرنا وأمر علي لعجب.. ليس منا إلا موتور.. أما أنا فقتل جدي واشترك في دم عمومتي يوم بدر. وأما أنت يا وليد فقتل أباك وأيتم إخوتك.. وأما أنت يا مروان...».

وينتهز معاوية الفرصة ليؤجج حقد الانتقام قائلاً: «هذا إقرار فأين المغير».

فيتهكم الوليد به وقد أعرض عن مبارزة علي ويسخر من عمرو بن العاص وقد أنقذت سوأته رقبته وإن هتكت رجولته.. فتغضب اليمنية قائلين:

«تولي علينا من لا يقاتل معنا! ولِّ رجلاً منا وإلا فلا حاجة لنا فيك..».

ويحمل جند معاوية فيكرون.. فتصعقهم ضربات الحق وسيوفه فيفرون..

ويحمل علي والأشتر ويهجم عدي بن حاتم مع أهل العراق ولم يبق لأهل الشام صفاً إلا نقضه ولا كتيبة إلا خرقها. واستمر بهجومه حتى أفضى إلى مضارب

(١) المستدرك ٣/١١٣- ١١٥ - ٤٥٥٩.

معاوية وهو يرتجز في كتيبة خصمه:

أضـــربهـــا ولا أرى معـــاويـــة الأخـــزر العيـــن العظيـــم الخـــاويـــة

إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن، فهلم إلي

ويحاول عروة بن داود الدمشقي أن ينبري لعلي ردئاً لسيده معاوية صائحاً:

إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن، فهلم إلي.

فقال الإمام لهذا المغرور وهو يهوي عليه بسيفه:

ـ اذهب يا عروة فأخبر قومك!

ولكنه لم يعش ليخبرهم بل سمعوا صراخ ابن عمه فزعاً جزعاً.

وضاعت أسراب من أحلام معاوية في برق سيف الإمام؛ فدعا بفرسه لينجو؛ ووضع قدمه في الركاب ثم تريث فهو يؤثر البحث عن مكيدة جديدة. فيصيح:

ـ تباً لهذه الرجال أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة؛ أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع.

فقال له الوليد بن عقبة: ابرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته!

ولكن أنى لجبن معاوية هذا المقام؛ فتثور حمية بسر بن أرطاة. ولكنه بعد أن تباهى بمناجزته قمعته حسرته خوفاً من منيته. ثم سول له شيطانه قوة شجاعته مقسماً على ملاقاته، ولكنه حنث عند لقائه بعد أن أسقطه علي بضربته فسقط الطين على تربته؛ فاتخذ من ابن العاص نجماً من النجوم يهتدي بقدوته، فكشف عن سوأته؛ فأشاح عنه علي بصفحته وأبقى له عيشته بذلته.

ويصرخ ابن العاص خوفاً على ولديه وهو يرى نظيره غير آبه لموتهما متغافلاً عن تحذير علي له: «وطلبت فضله اتباع الكلب الضرغام يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما يلي إليه من فضل فريسته». ويقول لمعاوية: «أولو كان يزيد بن معاوية إذن لصبرت».

تقتل عماراً الفئة الباغية

وذكر عمار قول رسول الله ﷺ عندما طلب شربة ماء فأتي بشربة من لبن: وآخر زادك شربة من لبن وسوف تقتلك الفئة الباغية. فالتحم بكتيبة ذي الكلاع؛ ونادى وهو يحمل ما يزيد على التسعين من سني عمره: هل من مبارز!

فبرز إليه رجل من السكاسك فاضطربا بسيفيهما؛ فقتل عمار السكسكي.

ثم نادى: من يبارز! فبرز إليه رجل من حمير فاضطرباً بسيفيهما فقتل عمار الحميري وأثخنه الحميري. ويزأر البطل من جديد: من يبارز! فبرز إليه ابن جون السكوني (أو السكسكي) وأبو العادية الفزاري (أو المزني) فاختلفا ضربتين وقد كانت يده ضعفت؛ فانتحى عليه خصمه بضربة أخرى فسقط. فضربه بسيفه حتى برد. وصرخ الناس ذعراً: قتلت أبا اليقظان قتلك الله.. فقال علي: إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل بن ياسر وتدخل به عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد..

رحم الله عماراً يوم أسلم ورحم الله عمارا يوم قتل ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً. وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عمارا قد وجبت له الجنة.. فليهنأ بها.

إن عمارا مع الحق والحق معه يدور عمار مع الحق أينما دار وقاتل عمار في النار.

قال عمار: ادفنوني في ثيابي فإني مخاصِم.. لا تغسلوا عني دماً ولا تحثوا علي تراباً[1].

حق منصف على لسان عنيد

وجاء معاوية رجلان يختصمان في عمار كل يدعي قتله فقال عبد الله بن عمرو: ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول[2]: تقتله الفئة الباغية. فرد معاوية: فما بالك معنا! قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ؛ قال

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٢٦١-٢٦٢.
(٢) فيض القدير ٦ / ٣٦٥-٣٦٦.

أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه! فأنا معكم ولست أقاتل!. رواه أحمد ورجاله ولما قتل عمار جاء قاتله عمرو بن العاص؛ فقال: فما كان آخر منطقه؟ فقال سمعته يقول:

اليـــوم ألقـــى الأحبـــه محمـــداً وحـــزبـــه

فقال عمرو: صدقت. أنت صاحبه.. أما والله ما ظفرت يداك، ولكن أسخطت ربك.

وكان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إن قاتله وسالبه في النار.

فقيل له: فإنك هوذا تقاتله! فقال مخادعاً: إنما قال قاتله وسالبه[1].

فهو معجزة للمصطفى

قال القاضي في شرح المصابيح يريد معاوية وقومه[2]: «وهذا صريح في بغي طائفة معاوية الذين قتلوا عماراً في وقعة صفين. وأن الحق مع علي وهو من الإخبار بالمغيبات! يدعوهم أي عمار؛ يدعو الفئة ـ وهم أصحاب معاوية ـ الذين قتلوه بوقعة صفين في الزمان المستقبل إلى الجنة أي إلى سببها وهو طاعة الإمام الحق؛ ويدعونه إلى سبب النار وهو عصيانه ومقاتلته. قالوا وقد وقع ذلك في يوم صفين؛ دعاهم فيه إلى الإمام الحق ودعوه إلى النار وقتلوه.. فهو معجزة للمصطفى وعلم من أعلام نبوته.

قال القرطبي وهذا الحديث من أثبت الأحاديث وأصحها. ولما لم يقدر معاوية على إنكاره؛ قال إنما قتله من أخرجه. فأجابه علي بأن رسول الله إذن قتل حمزة حين أخرجه. قال ابن دحية وهذا من علي إلزام مفحم لا جواب عنه وحجة لا اعتراض عليها[3].

وقال الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتاب الإمامة: أجمع فقهاء الحجاز

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٤٣/ ٢٤٤.
(٢) فيض القدير ٦ / ٣٦٥-٣٦٦.
(٣) فيض القدير ٦ / ٣٦٥-٣٦٦.

والعراق من فريق الحديث والرأي منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي والجمهور الأعظم من المتكلمين والمسلمين أن علياً مصيب في قتاله لأهل صفين كما هو مصيب في أهل الجمل وأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له[1].

ابن هند وابن النابغة

أراد معاوية أن يتشفى من ابن العاص فقال له:

ـ يا عمرو هل غششتني منذ نصحتني!

ـ لا والله!

ـ بلى والله . . يوم أشرت علي بمبارزة علي وأنت تعلم ما هو. فجاءه الداهية من حيث أتاه:

ـ دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنيين. . إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفاً إلى شرفك. . وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ففهم الشريك مرمى شريكه؛ وقال يقر بلسانه ما وقر في جنانه:

ـ الثانية شر من الأولى. . ويقول الإمام في ابن العاص[2]:

عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن فيَّ دعابة. . .

لقد قال باطلاً ونطق آثماً. أما وشر القول الكذب. .

إنه ليقول فيكذب ويعد فيخلف ويسأل فيلحف ويخون العهد ويقطع الإل[3]. .

ويقول عنه أنه عند الحرب: كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبّته (السبة هي الاست).

(١) فيض القدير ٦ / ٣٦٥-٣٦٦.
(٢) ابن أبي الحديد-شرح نهج البلاغة ٢ / ٩٩-١٠٠.
(٣) هو العهد والميثاق.

أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت ويمنعه من قول الحق نسيان الآخرة. وإنه لم يبايع معاوية حتى شرط له أن يؤتيه أُتيته ويرضخ له على ترك الدين رضيخته.

ويذكر الواقدي أن ابن العاص كان يؤذي الرسول ويهيج الصبيان على هجائه؛ ونال لعن الرسول بعدما روع ابنته زينب بكعوب الرماح في هودجها فأجهضت.

وذكر الزمخشري[1]: كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمة لرجل من عنزة، فسبيت فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي ثم أعتقها. فوقع عليها أبو لهب وأمية بن خلف وهشام بن المغيرة وأبو سفيان والعاص بن وائل في طهر واحد فولدت عمرو؛ فادعاه كلهم. فحكّمت أمه به. فقالت هو من العاص بن وائل؛ وكان ينفق عليها كثيراً. وقالوا وكان أشبه بأبي سفيان. وقال المبرد[2]: كان اسمها ليلى. وفي الاستيعاب[3] كان اسمها سلمى وتلقب بالنابغة.

ولو كان ينجيني أن أهرب هربت

دخل ابن عباس على عمرو بن العاص في مرضه وقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله!

قال: أصلحت من دنياي قليلاً وأفسدت من ديني كثيراً؛ فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت؛ لفزت. ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت ولو كان ينجيني أن أهرب هربت. فصرت كالمنجنيق بين السماء والأرض؛ لا أرقى بيدين ولا أهبط برجلين. فعظني بعظة أنتفع بها يا ابن أخي.

فقال له ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله! . .

فقال عمرو: تقنطني من رحمة ربي! اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى!

(١) الزمخشري - ربيع الأبرار
(٢) الكامل في التاريخ للمبرد
(٣) الاستيعاب - ابن عبد البر

قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله! أخذت جديداً وتعطي خلقاً!

فقال عمرو: ما لي ولك يا ابن عباس! ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها[1]..

هل نسي إقراره لمعاوية بقوله له: لنعلم مخبآتك يا ابن العاص..

وهل تذهب دماء الفتنة هدراً وولاء من لا ولاء له هباء!

وغاص الأشتر في قلب أعدائه واندفع نحو قبة معاوية. وقد علا التكبير في نداءاته وهوت مع كل تكبيرة أشلاء من خصمائه. وانخلع قلب ابن هند فلا طاقة له بما يدرأ عنه هجوم الأشتر؛ لقد أتاه من كل مكان فصاح وقد اصابه الهلع:

ـ قد هلكنا. ثم استنجد بابن النابغة..

ـ لنعلم مخبآتك يا ابن العاص. ولكن ابن النابغة لم ينطق؛ فحثه على شحذ ظبا كيده فقال يذكره بمصر: لا أعطيك من ديني حتى تعطيني من دنياك.

ـ مصر طعمة

ـ ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا. ماذا يريد معاوية فتنة داهية غير ذلك!

ـ ادعهم إلى كتاب الله. فصاح مناديهما:

ـ يا أهل الشام من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه. ونجم قرن جديد للشيطان في فجر الجمعة الثانية من صفر.. يا أهل العراق.. كتاب الله بيننا وبينكم.

قال أبو القاسم البلخي: «وما زال عمرو بن العاص ملحداً ما تردد في الإلحاد والزندقة وكان معاوية مثله»[2].

(١) الاستيعاب - ابن عبد البر ٣/ ١١٩١

(٢) ابن أبي الحديد-شرح نهج البلاغة ١/ ١٣٧.

كلمة حق يراد بها باطل

رأى الناس المصاحف قد رفعت فخدعوا.. وتوقفوا عن القتال بعد أن وصلوا بنصرهم على غايته وقالوا: نجيب إلى كتاب الله عز وجل وننيب إليه.

قال علي يكشف غدراً غرق جنده في مستنقعه: عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم.. فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال.. ويحكم إنهم لا يعلمون بما فيها وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة.

فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله.

فقال لهم: «فإني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه». لقد حق قول رسول الله ﷺ في الناس وفتنتهم..

«سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية».

وخدعت عنزة كما خدع بنو راسب ومراد وتميم وهم يسمعون: «لا حكم إلا لله»؛

أي حكم هذا وأي تحكيم ومن الحكم! لقد صدقوا قول عدوهم وطووا صفحاً عن نصح إمامهم.. لقد أعطى معاوية الجزية لقيصر وعلم جنده أن ينادوا: «من لجهاد الروم.. من للترك.. من للكفار». ولم يسمعوا قول الإمام فالمكر قد طغى ولقي من النفوس هوى..

«وقد طلبوا حقاً هم ضيّعوه وتذرعوا بعدو هم نصروه».

ولم يأبه الأشعث ومن معه لتحذير علي بقوله: «إنها كلمة حق يراد بها باطل». وما كان منهم إلا أن قالوا: أكلتنا الحرب.. قتلت الرجال. أجب القوم إلى ما دعوك إليه فإنا قد فنينا.

وذابت حشاشة الإمام وهو يرى أي عظيمة يقترفون، وأي جهل يقولون! ومتى كان يحق للجند معارضة أميرهم.. «.. كنت أمسي أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً وكنت ناهياً فأصبحت منهياً.. قد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون..

ليت من معه من القراء كانوا أحسن حالاً من عوام الناس، إذاً لما قال لهم: ربَّ عالم قد قتله جهله؛ وعلمه معه لا ينفعه.

قليل فقط كالأشتر تمسكوا بالحق وعلموا أن عدم نصرة الحق نصر للباطل.

لقد قال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ثم السنبسي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان! إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله.. قال: فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي..

أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا.. وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم.

قالوا يرومون وسيلة تبقي لهم رأيهم في معارضته: ابعث إلى الأشتر فليأتك.

وكان الأشتر يثخن في قتال معاوية ليحمل النصر لمن تخاذل.

فأرسل إليه. فقال: قل له ليس هذه الساعة.. إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني.

فقال له القوم وبئس من قول: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل».

قال: من أين ينبغي أن تروا ذلك! رأيتموني سارررته! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية. ولكنهم بدل أن ينكسوا على رؤوسهم استكبروا بغير حق وهددوه بالقتل.. فابعث إليه فليأتك وإلا والله...

فأرسل الإمام: «أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت». فأبلغه ذلك. قال له: المصاحف؛ قال: نعم.

قال: أما والله لقد ظننت حين رفعت أنها اختلاف وفرقة. إنها مشورة ابن العاهرة ألا ترى ما صنع الله لنا أينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم..

فأعلمه يزيد بن هانىء رسول الإمام بفعل القوم، وأعلمه بتهديدهم.

فقال: لا والله سبحان الله. ثم أقبل حتى انتهى إليهم فقال: «يا أهل العراق يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم ظَهراً وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها».. وقد والله تركوا ما أمر الله عز وجل به فيها وسنة من أنزلت عليه ﷺ. فلا تجيبوهم.. أمهلوني عدو الفرس فإني قد طمعت في النصر.

قالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك.

قال: فحدثوني عنكم وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم؛ متى كنتم محقين؛ أحين كنتم تقاتلون وخياركم يقتلون.. فأنتم الآن إذ أمسكتم عن القتال مبطلون..

قالوا وقد تذرعوا بباطلهم: دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله عز وجل وندع قتالهم لله سبحانه.. فاجتبنا.

فقال: خدعتم والله ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم «.. يا أصحاب الجباه السود كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا وشوقا إلى لقاء الله عز وجل.. فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت. وما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون.

فسبوه فسبهم فضربوا وجه دابته بسياطهم، وأقبل يضرب بسوطه وجوه دوابهم. فصاح بهم علي فكفوا. ولم يتركوه إلا أن يقبل خديعة القوم. فقال للناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً.

الأشعث سوس بقمح وعور بكيال

طار الأمر من يد علي كما أُجهض النصر من سيف الأشتر. ولاح لسان الباطل على لسان الأشعث بن قيس كما نبتت بذرة حب الاستعلاء التي بذرها له عتبة بن أبي سفيان:

ـ لو كان معاوية لاقياً غير علي للقيك.. أنت رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن.

وها هو يدلي برأيه على الإمام:

ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل.

قال: ائته إن شئت فسله. فأتاه فقال: يا معاوية لأي شيء رفعتم هذه المصاحف.

قال بمكر: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عز وجل به في كتابه.. تبعثون منكم رجلاً ترضون به ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله..

ثم نتبع ما اتفقا عليه.

لم يقل له الأشعث أن الحق مع الإمام وأنه لا يحق لأحد مناقشة هذا الحق؛ وتغافل عن أن الإمام على بينة من ربه وأن معاوية سينكل عن قبول التحكيم لو تم بغير ما يريد.

وكانت إجابة الأشعث :هذا الحق. فانصرف إلى علي فأخبره بالذي قال معاوية.

فقال الناس: فإنا قد رضينا وقبلنا.

وقال أهل الشام كما أراد لهم معاوية: فإنا قد اخترنا عمرو بن العاص.

فقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: فإنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري.

قال علي: فإنكم قد عصيتموني في أول الأمر.. فلا تعصوني الآن. إني لا أرى أن أولّي أبا موسى.

فقال الأشعث وزيد بن حصين الطائي ومسعر بن فدكي: لا نرضى إلا به فإنه ما كان يحذرنا منه وقعنا فيه.

قال علي: فإنه ليس لي بثقة؛ قد فارقني وخذّل الناس عني ثم هرب مني حتى آمنته بعد أشهر.. ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك.

قالوا: ما نبالي أنت كنت أم ابن عباس لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية

سواء؛ ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر.

ولكن هل ابن العاص من علي و معاوية سواء:. فقال علي: فإني أجعل الأشتر.

قال الأشعث: وهل سعر الأرض غير الأشتر.

لقد سبق منه أن أظهر سبب خوفه من الإمام حين قال لخاصته وقد أتاه كتاب منه:

«إن كتاب علي قد أوحشني؛ وهو آخذي بمال أذربيجان وأنا لاحق بمعاوية».

وتعنت المتعنتون وأصروا، وشد في أزرهم أهل اليمن الذين قال فيهم حكيم العرب ابن صفوان: «.. ملكتهم امرأة وأغرقتهم فأرة ودلّ عليهم هدهد». ولو بقي ابن صفوان لزاد: وارتد منهم بنو دليجة بعد وفاة نبيهم فقاتلهم زياد بن لبيد الأنصاري، وازدادوا كفراً باللجوء إلى الأشعث يستنصرونه وملّكوه فصباً؛ ولما لاح نصر ابن لبيد غدر بقومه وطلب الأمن لنفسه وعشرة من أهل بيته وفتح الحصن يبيح بني قومه بعد أن استنصروه على من هزموه. وهذه غدرة أُخرى ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة.

قال علي وقد عموا وصمّوا كثير منهم: فقد أبيتم إلا أبا موسى.

قالوا: نعم. قال فاصنعوا ما أردتم.

فبعثوا إليه وقد اعتزل فجاء حتى دخل العسكر.

وجاء الأشتر حتى أتى علياً وقال وقد قرح قلبه ابن العاص: فوالله الذي لا إله إلا هو لئن ملأت عيني منه لأقتلنه.

وقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض وبمن حارب الله ورسوله أنف الإسلام. وإني قد عجمت هذا الرجل وحلبت أشطره؛ فوجدته كليل الشفرة قريب القعر. وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم[1].

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٠٠- ١٠٢.

فرح معاوية.. وهلّل ابن العاص:

ماذا أبقت الدنيا لعلي!

«أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي.. أشهود كغيّاب.. وعبيد كأرباب..».

قضي الأمر.. وفرح معاوية.. وهلل ابن العاص!

في معركة بدر اختار الرسول ﷺ النفير ولكن الناس آثروا عير أبي سفيان والمغانم؛ فقال تعالى يعاتبهم: ﴿**وتودون لو أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾. وحذرهم من اختيارهم: ﴿**ويريد الله أن يحق الحق بكلماته**﴾. وبعد النصر شاور الرسول ﷺ أصحابه في أمر الأسرى فآثر أكثرهم الفداء وأخذ المال فحذرهم من أن اختيارهم سيؤدي بهم إلى أن يقتل منهم في المعركة التالية مثل عدد الأسرى. فأصروا بذريعة كسب المال في الدنيا ونيل الجنة لمن يقتل منهم. فلما كانت أحد وخالفوا فهزموا عاتبهم تعالى: ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم**﴾. قالوا: فإنما أصابنا هذا لأنا قبلنا الفداء يوم بدر من الأسارى وعصينا النبي ﷺ يوم أحد[1].

واليوم قدّم الناس أبا موسى الأشعري ليكون حكماً بحجة أنه من صحابة رسول الله ﷺ فحذرهم الإمام من أنه ليس أهلاً لذلك؛ وفي ما سبق منه بيانه وأن مغبة اختيارهم وخيمة العاقبة؛ فألحوا فأنكر عليهم عدم طاعته في رأيه، ولكنهم أصروا حتى أصبح اختيارهم قدراً مقدوراً. والأحنف بن قيس قول له بقلب يعتصره الأسى: «لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك».

أريها السها وتريني القمر

سأل علي بعد استخلاف ابي بكر: ما قالت الأنصار!

(١) تفسير الطبري ٤/ ١٦٥.

ـ قالت منا أمير ومنكم أمير.

ـ فهلاّ احتججتم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم.

ـ وما في هذا من الحجة عليهم.

ـ لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية لهم... فما قالت قريش!

ـ احتجت بأنها شجرة الرسول.

ـ احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

«أما أمر الكتاب الذي أراد رسول الله ﷺ أن يكتبه يوم الخميس: على ما يقول ابن حزم مبرراً ذلك ومردفاً: «وإن كانوا قد عوقبوا على ذلك؛ بأمر رسول الله ﷺ إياهم بالخروج عنه؛ وإنكاره عليهم التنازع بحضرته»..

ولقد ولد الامتناع من ذلك الكتاب من فرقة الأنصار يوم السقيفة ما كاد يكون فيه بوار الإسلام لولا أن الله تداركنا بمنّه..

فلو كتب ذلك الكتاب لانقطع الاختلاف في الإمامة. ولما ضل أحد فيها لكن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وقد أبى ربك إلا ما ترى. وهذه زلة عالم نعني قول عمر رضي الله عنه يومئذ قد حذرنا من مثلها»[1]

فعلي يعلم أن دحض حجتهم لا يمنعهم من المضي لينالوا ما هموا به.. وربما قال قائل أن أحاديث الرسول في تولية الإمام علي إرشادية غير ملزمة.. وهذا مسلك يفتح باب التأويل أمام المغرضين والمستشرقين ليؤولوا من الأحاديث ما يحلو لهم. وهذا ينسف السنة نسفاً. على أنه إذا اختار الله ورسوله للمسلمين أمراً ما كانت لهم الخيرة. وإذا كان إرشاداً غير ملزم لاستوى القول وعدمه وحاشا أن يكون في أحاديث رسول الله ﷺ لغو من القول. وحتى إذا كان إرشاداً؛ أليس الأخذ بالرشاد سداد.

(١) الإحكام - ابن حزم ٨/ ٤٩٥.

قالوا لو عهد إلينا رسول الله عهداً لأنفذناه.. ألم يعهد إليهم إنفاذ سرية أسامة!.

يقول ابن سعد: «فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة. فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم بن حريش. فتكلم قوم وقالوا:

يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين!

فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً. فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلي»[1].

وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ فجعل يقول أنفذوا بعث أسامة[2].

فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فدخل أسامة من معسكره والنبي مغمور. فطأطأ أسامة وكان بها جل الصحابة وأبو بكر وعمر فيهم.. وكرر الأمر حتى قال: لعن الله من تخلف.. الحديث.

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله عز وجل هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة.

فقلنا: من أهل بيته، نساؤه؟

قال: لا وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها.. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده[3]. وقال إن

(١) الطبقات - ابن سعد ٢/ ١٩٠.
(٢) المرجع السابق.
(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٨٧٥ حديث ٢٤٠٨.

الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ثم أخذ بيد علي فقال من كنت وليه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه فقلت لزيد سمعته من رسول الله ﷺ قال ما كان في الدوحات رجل إلا رآه بعينه وسمع بأذنه[1].

وقدم معاوية في بعض حجاته فأتاه سعد، فذكروا علياً.. فنال منه معاوية؛ فغضب سعد فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول له ثلاث خصال لأن تكون لي خصلة منها أحب إلي من الدنيا وما فيها.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه وسمعت النبي ﷺ يقول أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وسمعت رسول الله ﷺ يقول لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله[2].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾؛ الضحى. قال من رِضى محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار ومرّ أن المراد من أهل بيته المؤمنون من بني هاشم والمطلب أو فاطمة وعلي وابناهما[3]. الحديث.

لا جعل الله لي إذن في السماء مصعداً

وحذروا الأشعري من عاقبة خيانة الإمام بما حمل أمانة فقال:

«لا جعل الله لي إذن في السماء مصعداً، ولا في الأرض مقعداً».

فبعث علي أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثي، وبعث معهم عبد الله بن عباس؛ وهو يصلي بهم ويلي أمورهم؛ وأبو موسى الأشعري معهم.

وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشأم حتى توافوا بدومة الجندل بأذرح.

وحضر جمع من الصحابة منهم عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير.

(١) السنن الكبرى- البيهقي ٥ / ٤٥.
(٢) مصنف ابن ابي شيبة ٦ / ٣٦٦.
(٣) فيض القدير ٤ / ٨٠.

فكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشأم عن شيء. وإذا جاء رسول علي جاؤوا إلى ابن عباس فسألوه:

ـ ما كتب به إليك أمير المؤمنين! فإن كتمهم ظنوا به الظنون.

ـ فقالوا: ما نراه كتب إلا بكذا وكذا.

فقال ابن عباس: أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به ويرجع لا يعلم ما رجع به ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون.

والتقى الحكمان..

فقال عمرو بن العاص:

يا أبا موسى ألست تعلم أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً.

قال: أشهد!

قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه!

قال: بلى. قال: فإن الله عز وجل قال ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً. فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت. فإن تخوفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة فإن لك بذلك حجة تقول إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم.. وهو أخو أم حبيبة زوجة النبي ﷺ وقد صحبه فهو أحد الصحابة.

ثم عرّض له بالسلطان فقال إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة..

فقال أبو موسى: يا عمرو اتق الله عز وجل فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح.. إنما هو لأهل الدين والفضل.

مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب!

وأما قولك: إن معاوية ولي دم عثمان فولّه هذا الأمر؛ فإني لم أكن أولّ معاوية وأدع المهاجرين الأولين.

وأما قولك لي بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشي في حكم الله عز وجل.

ولكنه سرعان ما خان حكم الله بلا رشوة فقد قال:

أما والله لئن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه!

فقال له عمرو وقد وجدها فرصة للقمة سائغة: إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه!

فقال: إن ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة!

لم يحذر أبو موسى من ابن العاص مع أن الإمام لم يغفل أن يوصيه:

قل له إذا أنت لقيته إن علياً يقول لك: إن أفضل الناس عند الله عز وجل من كان العمل بالحق أحب إليه ـ وإن نقصه ـ من الباطل وإن جرّ إليه فائدة وزاده. يا عمرو والله إنك لتعلم أين موضع الحق، فلم تجاهل! إن أوتيت طمعاً يسيراً كنت به لله وأوليائه عدواً؛ فكأن والله ما أوتيت قد زال عنك. ويحك فلا تكن للخائنين خصيماً ولا للظالمين ظهيراً! أما إني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم وهو يوم وفاتك؛ تمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة ولم تأخذ على حكم رشوة!

قال أبو موسى: «فبلغته ذلك فتمعر وجهه؛ ثم قال: متى كنت أقبل مشورة علي أو أنتهي إلى أمره أو أعتد برأيه! فقلت له: وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته؛ فقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه.

فقال: إن مثلي لا يكلم مثلك.

فقلت له: وبأي أبويك ترغب عني بأبيك أم بأمك النابغة!».

دومة الجندل

قال أبو مخنف حدثني أبو جناب الكلبي أن عمراً وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام.

يقول: إنك صاحب رسول الله ﷺ؛ وأنت أسن مني فتكلم وأتكلم. فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في كل شيء.. اغتزى بذلك كله أن يقدمه فيبدأ بخلع علي.

كان كلاهما خائن لمن ولاه! فقد أراده عمرو على معاوية فأبى وأراده على ابنه فأبى وأراد أبو موسى عمراً على عبد الله بن عمر فأبى عليه.

فقال له عمرو متخابثاً: خبرني ما رأيك!

قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا.

لجمت الفرحة لسان ابن النابغة وهو يسمع خيانة خصمه لمولاه؛ فقال له:

فإن الرأي ما رأيت!!! فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون..

فقال يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق.

فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة.

فقال عمرو: صدق وبر.. يا أبا موسى تقدم فتكلم!

ويحك والله إني لأظنه قد خدعك

فتقدم أبو موسى ليتكلم فقال له ابن عباس: ويحك والله إني لأظنه قد خدعك. إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده فإن عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت في الناس خالفك!

وكان أبو موسى مغفلاً فقال له: إنا قد اتفقنا. ثم تقدم فقال:

أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة؛ فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه. وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم.

وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ثم تنحى.

مصير الأمة بين كلب وحمار

وأقبل الغادر فقال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية! فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب دمه وأحق الناس بمقامه!!

فقال أبو موسى: ما لك لا وفقك الله غدرت وفجرت إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وحمل شريح بن هانىء على عمرو فقنعه بالسوط. وحمل على شريح ابن لعمرو فضربه بالسوط. وقام الناس فحجزوا بينهم. وكان شريح بعد ذلك يقول:

ما ندمت على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ألا أكون ضربته بالسيف آتياً به الدهر ما أتى.

قال ابن عباس: قبح الله رأي أبي موسى وأمرته بالرأي فما عقل.

فكان أبو موسى يقول حذرني ابن عباس غدرة الفاسق؛ ولكني اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة. ثم انصرف عمرو وأهل الشأم إلى أميرهم يبشرونه بنتاج غدرهم. وقام علي على منبر الكوفة حين اختلف الحكمان؛ فقال:

قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة.

غالبوه على رأيه فغلبوا..

وا عجبا.. إمام الحق لا يطاع.. والناس لأمر معاوية مذعنون.. لقد صدق قول الإمام..

لا رأي لمن لا يطاع.

* * *

الفصل العاشر

الخـــوارج

المـارقـــون

هؤلاء يقولون لا إمـــرة إلا لله..

إنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر

رمتني بدائها وانسلت

عاد الناس إلى الكوفة يجترون آلامهم وقد خذلوا إمامهم. لم يكن لهم عذر فيعتذرون، وضيعوا نصرهم فكيف يتباهون. وتئن نفوسهم بأوزار مخالفة إمامهم؛ فماذا يقولون لعاذلهم وهم من يحق فيه اللوم! وما كان منهم إلا أن ألقوا اللوم على إمامهم قائلين: «فلو أنه كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك؛ إذن كان هو الحزم». .

وما أهون أمر هؤلاء مع إيلامهم للإمام أمام تلك الطائفة من القراء التي انحرفت إلى حروراء وهي تعارض الإمام! لقد أنكروا تحكيماً هم طلبوه ولوحوا له بالسيف ليقاتلوه.

وأصبح في أعينهم علي ومعاوية سواء، الحاكم والمحكوم سواء والكل رعية الله لا رئيس ولا مرؤوس؛ ولذا أحجم حرقوص بن زهير عن رئاستهم، وحذا حذوه حمزة بن سنان وشريح بن أوفى. ولما رأى عبد الله بن وهب أن لا مناص من رئيس قبل الرئاسة مستحلاً لنفسه ما حرمه على أمته خشية الفتنة والحرب. . ونادوا:

«البيعة لله» شعاراً لهم يريدون أن يحاربوا المسلمين على تطبيقه.

وقال لهم الإمام وهو يوسع صدره ليحقن دماءهم وهم يغالون في مناجزته: «نعم لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله. . إنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر».

لقد قال قراء الشام لقراء العراق:

«نحن قوم نقرأ القرآن وليس يخفى علينا منه شيء. فأفهمونا الأمر الذي استحللتم عليه دماءنا».

فأجابوا: «فارقناكم في تفسيره ولم نفارقكم في تنزيله. نحن وأنتم نشهد أنه من عند الله».

لقد قصد معاوية الزيغ في التأويل ليعطي لنفسه صبغة الشرعية في أمر يعرف أنه ليس من أهله، أما الخوارج فقد زاغوا بأنهم حمّلوا معتقدهم على القرآن، بأن طلبوا تأويل رأي ارتأوه من آيات الله فخبطوا خبط عشواء. فكلا الفريقين مؤوّل وكلا الفريقين خالف الحق.

فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله

وكان حديث الرسول لعمار بأنه ستقتله الفئة الباغية عصمة لمن طلب الحق من سبل الحق، فلا يزيغ عنه بتأويل من يبتغي الفتنة. وكان أمر الله هدى لمن أراد أن يذكّر وهو يسمع قول الإمام الذي يقيم الحجة بعد الحجة ليكون كل فريق على بصيرة من أمره. ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة:

وهذا ما فعله الإمام في خطاه وسعيه مع معاوية..

الإصلاح أولاً: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**﴾.

﴿**فإن بغت إحداهما فقاتلوا التي تبغي**﴾ وهذا هو المسعى الثاني. ونهاية المسعى ﴿**حتى تفي إلى أمر الله**﴾. ولكنهم لم يفيئوا بل لجأوا إلى الكيد والغدر برفع المصاحف لخداع الناس.

أعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن

لقد انشق جند الإمام. وظهرت الخوارج ثمرة جديدة للفتنة التي سقاها معاوية وتعهدها قبل مقتل عثمان؛ لذا قاتل مع علي جلُّ الصحابة، إذ لم تكن معالم الحق خفية على من أراده؛ وقد أوضحها الإمام لمن أرادها؛ فها هو سعد بن أبي وقاص يعتذر عن القعود عن النصرة بعد أن لامه الإمام قائلاً: «يا علي! أعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن! أخاف أن أقتل مؤمناً فأدخل النار». فقال الإمام يبطل حجته ويبين

أنه لا يحق لأحد أن يدعي أنه لم يتبين وجه الحق: وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله فإنه قال:

﴿**فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾. لقد قال رسول الله ﷺ: «والله لا يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة ولا يؤمن بي إلا دخل النار». فاتباع رسالة رسول الله ﷺ رشد وخلافها غي ولا عذر لمدع أنه لم يتبين وجه الحق في نبوته.

ولو كان باب الهوى في التأويل عذراً مقبولاً للمتأولين لانشقت الأمة طرائق قدداً مقبولة العذر؛ وهي تقتل بعضها بعضاً باسم الدين وكل يدعي الجهاد في سبيل الله. هذا مع عدم وجود الإمام بين الناس؛ فكيف إذا كثرت الشواهد من القرآن والسنة على أنه مع الحق.

لقد ملأتم قلبي قيحاً

وأكثر الحرورية الجدال حتى مل من يحاجهم في دحض باطلهم..

فقد طعنوا في مبدأ التحكيم.. وطعنوا في قبول التحكيم.. وطعنوا في الحكمين.. وطعنوا في وقف الحرب..

وحجوا ولجوا.. ولكنهم لم يذعنوا. ويسوق الطبري ما نصه:

«لما قدم علي الكوفة وفارقته الخوارج؛ وثبت إليه الشيعة فقالوا:

في أعناقنا بيعة ثانية نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت.

فقالت الخوارج: استبقتم أنتم وأهل الشأم إلى الكفر كفرسي رهان بايع أهل الشأم معاوية على ما أحبوا وكرهوا، وبايعتم أنتم علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى.

فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بسط علي يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ. ولكنكم لما خالفتموه؛ جاءته شيعة فقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت.. ونحن كذلك؛ وهو على الحق

والهدى ومن خالفه ضال مضل»[1].

وفي المستدرك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

لما خرجت الحرورية اجتمعوا في دار وهم ستة آلاف..

قلت: أخبروني ماذا نقمتم على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار!

قالوا: ثلاثاً..

أما إحداهن؛ فإنه حكّم الرجال في أمر الله. وقال الله تعالى: إن الحكم إلا لله. وما للرجال وما للحكم!

والأُخرى؛ فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم. فلئن كان الذي قاتل كفاراً لقد حل سبيهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم.

والثالثة؛ إنه محا نفسه من أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين..

فقلت لهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنة نبيه ﷺ ما يرد به قولكم أترضون! قالوا: نعم.

فقلت: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم ما قد رُدَّ حكمه إلى الرجال في ثمن ربع درهم في أرنب ونحوها من الصيد؛ فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ـ إلى قوله ـ يحكم به ذوا عدل منكم﴾**.. فنشدتكم الله! أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم! وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصيّر ذلك إلى الرجال. وفي المرأة وزوجها قال الله تعالى: **﴿إن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾**. فجعل الله حكم الرجال سنّة مأمونة..

وأما قولكم قاتل ولم يسبِ ولم يغنم؛ أتسبون أمكم عائشة ثم تستحلون منها ما يستحل من غيرها! فلئن فعلتم لقد كفرتم وهي أمكم. ولئن قلتم ليست أمنا لقد كفرتم؛ فإن الله يقول: **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾**.

(١) تاريخ الطبري ٣/١٠٩-١١٠.

فأنتم تدورون بين ضلالتين، أيهما صرتم إليها صرتم إلى ضلالة.

وأما قولكم محا اسمه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم. قد سمعتم أن النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب.

فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين:

اكتب يا علي هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله.

فقال المشركون: لا والله ما نعلم أنك رسول الله لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك! فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنك تعلم أني رسول الله..

أكتب يا علي هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله. فوالله لرسول الله خير من علي، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه. قال عبد الله بن عباس فرجع من القوم ألفان.

(هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)[1]. ولكنهم عادوا إلى المحاجة من جديد: «فهذه الآية بيننا وبينك.. أعدل عندك ابن العاص! وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا! فإن كان عدلاً.. فلسنا بعدول ونحن أهل حربه، وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا. أغفل الخوارج أن الذي اختار ابن العاص هو معاوية لا الإمام، وأغفلوا أن الإمام هو الذي حذر الناس من خدعة التحكيم، كما حذر الناس من اختيار الأشعري حكماً.

فخرج علي وهم يخاصمون ابن عباس فقال: انته عن كلامهم ألم أنهك رحمك الله! وقال لهم علي: «فما أخرجكم علينا»!

قالوا: يوم صفين.

قال: أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف؛ فقلتم: إلى كتاب الله. قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. إني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً؛ فكانوا شر أطفال وشر رجال. امضوا على حقكم

(١) المستدرك للحاكم ٢/١٦٦ - حديث ٢٦٥٦.

وصدقكم فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهناً ومكيدة على رأيي. وقلتم لا بل نقبل منهم؛ فقلت لكم اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إياي. فلما أبيتم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن. فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكمهما، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء.

قالوا له: فخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء!

فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن؛ وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال.

قالوا: فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم.

قال: ليعلم الجاهل ويتثبت العالم. ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ادخلوا مصركم رحمكم الله.

ولكنهم عادوا فلجوا في طغيانهم وهم يعمهون ووصل بهم الأمر أن طلبوا من الإمام أن يتوب بقولهم: صدقت قد كنا كما ذكرت وفعلنا ما وصفت. ولكن ذلك كان منا كفراً فقد تبنا إلى الله عز وجل منه..

فتب كما تبنا نبايعك!! وإلا فنحن مخالفون!

وقام علي في الناس يخطبهم فقال رجل من جانب المسجد:

لا حكم إلا الله...

فقام آخر، فقال مثل ذلك؛ ثم توالى عدة رجال..

فقال علي: الله أكبر كلمة حق يلتمس بها باطل.

أما إن لكم عندنا ثلاثاً.. لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا.

مع كل ما بدا منهم قال الإمام فيهم: «إن سكتوا عممناهم (أي عمّهم بالعطاء)، وإن تكلموا حججناهم وإن خرجوا إلينا قاتلناهم»[1].

(١) تاريخ الطبري ٣/١٠٩.

هذا هو الإمام الحق والدين الحق. كان همه أن يفيئوا إلى الهدى بعد أن غشيت أبصارهم؛ وكان غمه أن يضطروه إلى قتالهم.

ولكن كيف قاتل الإمام معاوية وأنف من قتال الخوارج! لقد سلك الإمام مع الفريقين بما يأمر به الدين. لقد أقام الإمام الحجة على معاوية مرات ومرات قبل أن يصل الأمر إلى السيف. مع أن معاوية ناكل للبيعة خارج على إمام الأمة. فقد شق عصا الطاعة وخرج عن الجماعة. إن كلاً من الفريقين ـ معاوية والخوارج ـ يدعو إلى السلطة المطلقة؛ الأول بهتاناً بدعوى المطالبة بدم عثمان مع أنه هو الذي خذل عثمان، والثاني بدعوى الحق الإلهي؛ وكل أحل لنفسه ما حرم على أمته.

ولكن لم مالأ الناس بعد ذلك معاوية.. ثم حكموا بكفر الخوارج؛ وهم من القراء الذين ثفنت جباههم من كثرة السجود لله. لقد أظهرت الوقائع أن الكثير من الناس عبيد للحاكم لا عبيد للحق. فلو انتصر الخوارج وهزم معاوية لوقفوا يمجدون المنتصرين ويشيدون بعبادتهم وسجودهم؛ ويفضحون المهزوم بأنه باغ خرج على الإمام وأنه من الطلقاء، وأنه أوضع الأحاديث عن الرسول وأنه استأثر ببيت المال واشترى النفوس ودفع الجزية لقيصر وفتت الأمة..

ويقول الإمام في الفريقين: «ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه». فكلاهما مبطل ولا يقبل منه الاجتهاد. ولا يحق له الاجتهاد إذا قصر به عن الوصول إلى الحق.

لا حياة لمن تنادي

كان هم الإمام أن يكافح الشجرة الخبيثة؛ فمعاوية لا يكل في نصب المكائد. وكان عليه أن يستنهض الهمم المتداعية من رجاله. فالحديد لا يفله إلا الحديد والسيف أصدق أنباء من الكتب. ولكن فتنة معاوية أوهت عزائم الرجال. الجند في الكوفة خمدت عزائمهم؛ حتى ابن عباس واليه بالبصرة لم يمتثل ولم ينهض إلى النخيلة.. والعاصفة حول الجميع تهددهم باستئصال شأفتهم. ولم يجتمع مع جارية بن قدامة السعدي والأحنف الذي سبقه إلى النخيلة إلا مئات قليلة. أين الآلاف الستة.. أين غيرهم من الموالي والعبيد.. نداء بلا تلبية.. كان التخلف عن القيام

مع الرسول ﷺ نفاق وعار.. وها هو اليوم استكانة بلا عار فقد خارت العزائم ونخر الخواء الروحي الهمم.. تحسبهم رجالاً فإذا هم خشب مسندة.. هياكل تحملها عظامها.. وقد اثّاقلت إلى الأرض. ولم ييأس الإمام وكرر النداء تلو النداء. وبادر من الكوفة سعيد بن قيس الهمداني وقومه: يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة؛ أنا أول من أجاب.. وثنى معقل بن قيس ثم عدي بن حاتم فزياد بن خصفة فحجر بن عدي.. ولكن فشا الجدل بينهم؛ إلى أين المسير أإلى الشام! أم إلى قتال الخوارج. وقد شاع في الناس أنهم يعيثون في الأرض فساداً. تراهم يومها كما تراهم في كل زمان وقد ورمت أقدامهم من القيام وثخنت ثفناتهم من السجود وقد غرهم حسن عبادتهم.. ولكنهم ليسوا على شيء.

النهروان

وتخلف الحرورية عن الإمام، ودعاهم ابن وهب إلى الذهاب إلى اختيار بلد والاجتماع لإنفاذ حكم الله. قال شريح: نخرج إلى المدائن ونأخذ بأبوابها، ونخرج منها سكانها، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا.

فقال زيد بن حصين: إنكم إن خرجتم مجتمعين اتبعتم ولكن اخرجوا وحداناً مستخفين. ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان يمنعكم إخوانكم من أهل البصرة. فأقروه. وكتب عبد الله بن وهب إلى من بالبصرة يعلمهم ما اجتمعوا عليه ليرفدوه. وذهبوا إلى ساباط فأسرع إليهم سعد بن سعود مخلفاً على المدائن ابن أخيه المختار بن عبيد الله. فناجزهم فتواروا في عتمة الليل إلى النهروان. ويخرج بخوارج البصرة مسعر بن فدكي؛ فيرسل إليهم ابن عباس أبا الأسود الدؤلي ويوشك أن يوقع بهم ولكنهم يتوارون في ظلمة الليل ليلتقوا مع أصحابهم في النهروان.

يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم

وعن أبي سعيد الخدري قال: جاء أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بوادي كذا فإذا رجل حسن الهيئة متخشع يصلي فيه. فقال: اذهب إليه فاقتله. قال فذهب إليه أبو بكر فلما رآه يصلي كره أن يقتله فرجع. فقال

النبي ﷺ لعمر: اذهب فاقتله. فرآه يصلي على تلك الحالة فرجع ولم يفعل ما أمر به. فقال: يا علي اذهب إليه فاقتله. فذهب علي فلم يره. ولو رآه لقتله كما أمره الرسول ﷺ. فقال ﷺ: إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لا يعودون فيه فاقتلوهم هم شر البرية[1]. لقد طلبوا الحق بزعمهم فأصابتهم شبهة أعجبتهم فسقطوا في هاويتهم. والتذرع بأنهم اجتهدوا فأخطأوا ليس بمنجيهم. فقد قال فيهم رسول الله ﷺ إن فرقة تخرج عند اختلاف من الناس تقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق علامتهم رجل منهم يده كثدي المرأة. وعن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله ﷺ يقول: ثم إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله. قال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله. قال: لا. قال عمر: أنا هو يا رسول الله. قال لا ولكن خاصف النعل. قال وكان أعطى علياً نعله يخصفه[2]. وها هو خاصف النعل يجهز جيشه لقتاله.

قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين

اجتمعوا بالنهروان أربعة آلاف من القراء وعليهم زيد بن حصين وعبد الله بن وهب. يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم؛ مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

كانوا مثلاً يعلم الناس أن صلاة الخوارج وكثرة تعبدهم وقراءتهم للقرآن لم تكن سبباً كافياً لدخول الجنة بعد أن حاربوا إمامهم. وكتب الإمام إليهم: «أما بعد فإن هذين الرجلين.. قد خالفا كتاب الله، واتبع كل منهما هواه بغير هدى من الله. فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا للقرآن حكماً؛ فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون. فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه والسلام».

فما كان منهم إلا أن كتبوا إليه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك إنما غضبت لنفسك. فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك؛ وإلا

(١) نيل الأوطار ٧/ ٣٥٠.
(٢) صحيح ابن حبان ١٥/ ٣٨٥.

فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

فلما قرأ كتابهم أيس منهم فرأى أن يدعهم ويمضي بالناس إلى أهل الشأم حتى يلقاهم. وخطب الناس يحثهم على جهاد معاوية فقال: «أما بعد فإنه من ترك الجهاد في الله وأدهن في أمره كان على شفا هلكة؛ إلا أن يتداركه الله بنعمة. فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفىء نور الله. قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين الذين ليسوا بقراء للقرآن ولا فقهاء في الدين ولا علماء في التأويل؛ ولا لهذا الأمر بأهل سابقة في الإسلام».

وكتب علي إلى عبد الله بن عباس يأمر الناس بالشخوص مع الأحنف بن قيس فشخص معه منهم ألف وخمسمائة رجل. فاستقلهم عبد الله بن عباس، فخطب فقال: «أما بعد يا أهل البصرة فإنه جاءني أمر أمير المؤمنين يأمرني بالنفير إليه مع الأحنف بن قيس.. ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألفاً سوى أبنائكم ومواليكم... ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلاً.. فإني موقع بكل من وجدته متخلفاً عن مكتبه عاصياً لإمامه»[1]. وأمر أبا الأسود الدؤلي فحشر الناس فاجتمع ألف وسبعمائة وانطلقوا إلى علي بالنخيلة فكانوا ثلاثة آلاف ومائتي رجل من أهل البصرة.

المارقون.. يهلك فيّ اثنان محبٌ غالٍ ومبغضٌ قالٍ

حكم الخوارج على المسلمين بالردة. والردة كفر يستوجب التوبة. فكل من لا يقر على نفسه بالردة ويعلن التوبة ينال منهم جزاء ردته.

لقد قاسى منهم الإمام الكثير؛ فقد شعبوا رأي الناس؛ فتشتتوا طرائق قدداً وزادت الهوة بينهم. فكان من الناس من تفانى في ولائه للإمام وقد آلمه من عادى الإمام وحاربه في الجمل وصفين وتلاهم الخوارج. وبين هؤلاء وهؤلاء فرق شتى.

وزادت هموم الإمام وهو يرى اختلاف الناس فيه.. أناس كفروه وطلبوا منه التوبة! وأناس حاربوه ولعنوه على المنابر. وأناس رفعوه إلى مرتبة الألوهية.. وينجو الذين سبقت لهم الحسنى.. وهم الذين لم يكتموا محاسنه.. وأقروا

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٤.

بمناقبه.. وأخلصوا له الطاعة.. وحفظوا مقامه لحبه لله ورسوله، وحب الله ورسوله له. فهم كما قال له رسول الله ﷺ: فيك مثل من عيسى بن مريم أبغضته اليهود فبهتت أمه، وأحبته النصارى فرفعته فوق قدره».

لقد أكثروا من المغالاة فيه حتى أن منهم من قالوا: هدينا لوحي ضل عنه الناس وعلم خفي عنهم. ومنهم من افترى على رسول الله ﷺ الصادق الأمين وما هو على الغيب بضنين بأنه كتم من الوحي تسعة أعشار؛ تركت لعلي ليكشفها. ومنهم من نسب إليه قوى غيبية خارقة كقولهم: «لم يمت.. وإنه لفي السماء».. حتى بعد أن طواه التراب. ومنهم من أوغل في الضلال بإنكار البعث والنشور والحساب قائلين:

«إنما الثواب والعقاب ملاذ هذه الدنيا ومشاقها». ومنهم من لا يقومون بأركان الإسلام من صوم وصيام بدعوى أن حب الإمام يغنيهم عن الحساب والعقاب.

وسأل الإمام بعضهم عن سبب إفطارهم دون سفر أو مرض فأجابوا: «أنت أنت».

فصاح بهم: «ويلكم إنما أنا من عبيد الله». ويسجد عبودية لله، ويلصق خده بالتراب. ولوح بالحرق بالنار إن لم يرجعوا عن القول بربوبيته؛ فيصرون: «من يعذب بالنار إلا الله».

ومنهم من قالوا: «أنت خالقنا ورازقنا».

وقالوا: «لو شاء لأحيا عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيرين».

وهناك من غالى في بغضه، سواء أخفى غله أم جهر به. ومنهم من تقلب بين هذه وتلك؛ كالنجاشي الشاعر.

إليات ورؤوس في رمضان

أفاض النجاشي الشاعر في مدح الإمام في شعره وفي ذكر صفات لابن أبي سفيان ما كان هجاء له.. ولكنه انحاز إلى معاوية.

فقد مر بأبي سماك الأسدي في رمضان فدعاه إلى الشراب قائلاً:

هل لك في رؤوس وإليات مشويات قد وضعت في التنور في أول الليل فأصبحت قد أينعت واهترأت. وراوده أن يفطر فأجابه فبلغ علياً ذلك. فهرب أبو سماك وأخذ النجاشي فجلده علي ثمانين ثم زاده عشرين.

فقال له: ما هذه العلاوة.

فقال لجرأتك على الله في شهر رمضان وصبياننا صيام.

فهرب إلى معاوية وهجا علياً[1].

في النخيلة: مقدام وأقزام

قتل الخوارج رسول الإمام ابن العبدي الذي أرسله إليهم ليحقن دمهم؛ وكان قتله انتصاراً لقرن جديد للشيطان؛ إنهم أولئك الذين يتذرعون بضرورة البدء بقتال الخوارج ثم يأتي أمر معاوية بعد ذلك.. إنهم لا يريدون القتال فخالفوا إمامهم... كيف يقاتل الإمام بقوم لا يريدون القتال. هل تقوم الجماعة بإمام بلا مصلين. صعب عليه ما بدا من خوارهم وهو على رأسهم فمشوا معه أبداناً بلا قلوب.. هياكل بلا أرواح.

كانوا أقزاماً وكان يصنع النصر وحده بالقلة القليلة التي استجابت لندائه. كما في موقعة الخندق كان جيشاً وحده يحمل النصر، وكما في أحد ثبت حين تخلفوا، وكما في بدر فتك برؤوس صناديد قريش مع عمه حمزة وقلة معهم. كان يعلم أن النصر بيد الله وكان وثوقه بما بيد الله أكثر من وثوقه بما بيده. فكان ينفق ما بيده فيأتيه النصر من الله. قال له قائل ينصحه: «لا تسر.. إنك إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك». فسأله الإمام منكراً: «من أين علمك بما تقول»! فأجاب: من طريق النجوم. فتبسم ضاحكاً من قوله وقال ساخراً:

«أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر! إنك لتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك المجد دون ربه. لأنك بزعمك هديته الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر.. ألا

(١) الإصابة ٦/٤٩٢.

فمن صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله». ثم قال للناس يحذرهم وتبقى كلمته إلى اليوم وقد شاعت الأبراج وعلوم التنجيم والعرافة والشعوذة: «أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر؛ فإنها تدعو إلى الكهانة. فالمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار».

وصاح بالناس وهو يلهب الأرض بفرسه: «سيروا على بركة الله».

وأرسل إليهم صعصعة بن صوحان فناشدهم الحق وقال: علام تقاتلون خليفتكم فردوا: مخافة الفتنة. ألا في الفتنة سقطوا. فقال الإمام: لا تبدأوهم بقتال حتى يحدثوا حدثاً.

الفساد في الأرض

وها هو رجل ثاب إلى رشده وترك الخوارج يخبر العجب من إفسادهم. فقد مر بهم عبد الله بن خباب ثم ذكر قتلهم له ولجاريته. قالوا له: فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي ﷺ لعل الله ينفعنا به. قال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أن فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه. يمسي فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً، ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً.

فقالوا: لهذا الحديث سألناك؛ فما تقول في أبي بكر وعمر! فأثنى عليهما خيراً.

قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها. قال إنه كان محقاً في أولها..

قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده!

قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها. والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً. فأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم؛ حتى نزلوا تحت نخل مواقر فسقطت منه رطبة؛ فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه.

فقال أحدهم: بغير حلها وبغير ثمن! فلفظها وألقاها من فمه. ثم أخذ سيفه فأخذه بيمينه فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه بسيفه.

فقالوا: هذا فساد في الأرض فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره.

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم بأس إني لمسلم ما أحدثت في الإسلام حدثاً، ولقد قلتم لا روع عليك.

لقد قال لهم عبد الله بن خباب: أنا أعظم حرمة من هذه التمرة.

قالوا فهل سمعت من أبيك حديثاً يحدث به عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي.. فإن أدركتم ذلك فكن يا عبد الله المقتول.

قال واحد منهم: ولا أعلمه إلا قال ولا تكن يا عبد الله القاتل. قال: نعم.

لقد أخذوه فذبحوه بغير ذنب وسال دمه في الماء.. وأقبلوا إلى المرأة فقالت: إني إنما أنا امرأة ألا تتقون الله! فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيء وقتلوا أم سنان.

فبلغ علياً فأرسل إليهم وقد هاله ذلك: أقيدونا بقاتل عبد الله بن خباب.

فقالوا: كلنا قتله!

فأنفرهم ليقيم عليهم الحجة كتيبة كتيبة ثم زمراً ثم جماعات ثم فرادى وكلهم يقول: «كلنا قتله».

وكأنما غرهم حلمه عليهم وهو يضن بدمهم فتجرأوا وقالوا: ولنقتلنك كما قتلناه.

لم يغضب لنفسه ولم ينتقم من سفههم بل أرسل أبا أيوب منادياً:

«عباد الله! من جاء منكم هذه الراية ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن.

ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن.

عباد الله لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم».

ولانت قلوب للحق منها فدوة بن نوفل الأشجعي وخمسمائة فارس معه فانصرف قائلاً:

-والله ما أدري على أي شيء أقاتل علياً.

وأضاء الحق قلوب آخرين فانضموا إلى الإمام.

وترددت نفوس آخرين فهجروا ساحة القتال.

هذه هي حال الناس مع كافة الدعوات؛ سواء كانت دعوات حق أم دعوات باطل ينقسم الناس حيالها إلى فريقين يختصمون. وقلة أولئك الذين يستجيبون لدعاة الحق والهدى. وكثير أولئك الذين يقولون:

إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون.

أو يقولون: ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا.

أو يقولون لدعاة الحق: وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين.

أوَهل أدّى دخول رسول الله ﷺ إلى مكة يوم فتحها إلى دخول الإيمان قلوب جميع أهلها. لقد سبق القول منه تعالى: ﴿**وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾. أولو كانت لهم القوة؛ هل كانوا يذعنون لرسول الرحمة.

اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويفعل علي مع الخوارج كفعل الرسول ولو كان غيره لفعل الأفاعيل.

يروي أنس بن مالك قال: ثم دخلت مع النبي ﷺ على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعوده وهو مريض وعنده أبو بكر وعمر رضي الله عنهم؛ فتحولا حتى جلس رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ أنه لن يموت إلا مقتولا.

وحدث أبو أيوب الأنصاري في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ثم أمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين[1].

(١) المستدرك ٣/ ١٥٠ ومجمع الزوائد ٦/ ٢٣٥ ومثله في أسانيد كثيرة كأبي يعلى وغيره.. =

والتقوا بالنهروان

وفي صحيح ابن حبان؛ ذكر علي رضوان الله عليه الخوارج فقال: فيهم رجل مخدج اليد أو مودن اليد لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما وعد الله على لسان نبيه ﷺ لمن قتلهم. قال فقلت لعلي أسمعته من رسول الله ﷺ؟ قال إي ورب الكعبة إي ورب الكعبة إي ورب الكعبة[1].

وأتبع الخارجة صيحتهم لا حكم إلا لله بهجومهم تسبقه صيحتهم:

الرواح الرواح إلى الجنة. ونسوا قول الإمام أنها: كلمة حق يراد بها باطل.

وينطلق فتى من الخارجة يفتك بالناس ويقول متباهياً:

- أقتلهم ولا أرى علياً..

فجرته خطاه إلى حتفه وقاده زهوه إلى حفرته؛ إذ سرعان ما أوردته الإمام بضربته فهوت على هامته فهوى إلى تربته.

والله لا يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة

واقتتلوا قتالاً شديداً فجعلت خيل علي لا تقف لهم. تهاووا أمام عدوهم. فقال علي يحثهم: يا أيها الناس إن كنتم إنما تقاتلون لي فوالله ما عندي ما أجزيكم. وإن كنتم إنما تقاتلون لله فلا يكونن هذا فعالكم. فحمل الناس حملة واحدة فانجلت الخيل عنهم...

ولكن الخارجة حملوا بشدة وخرقوا جيش الإمام وهم يظنون أنهم نصروا.. فإذا برماة الإمام وفرسانه تحيط بهم؛ وقد قدتهم يمنته وميسرته فكان عاقبة أمرهم خسراً.

لقد سبق أن قال له زرعة بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال

= والناكثون (أهل الجمل) والقاسطون (أهل صفين) والمارقون (الخوارج).

(١) صحيح ابن حبان ١٥/ ٣٨٦.

في كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه. فقال له علي:

بؤساً لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً تسفي عليك الريح. فقال: وددت أن قد كان ذلك.

فقال له علي: لو كنت محقاً كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا.

وسقط زرعة تسفي عليه الريح إلى جهنم مع من من مصارعهم دون النطفة كما أنبأ الإمام:

والله لا يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة[1].. إذ لم يقتل من أصحابه إلا سبعة.

وصاح الإمام: اطلبوا الرجل الذي فيهم! فطلب الناس الرجل فلم يجدوه حتى قال بعضهم:

غرنا ابن أبي طالب من إخواننا حتى قتلناهم.. فدمعت عين علي فدعا بدابته وانطلق يطلب ذا الثدية؛ ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو جبرة والريان بن صبرة بن هوذة فوجده الريان بن صبرة بن هوذة في حفرة على شاطىء النهر[2]، في أربعين أو خمسين قتيلاً قتلى بعضهم على بعض. فجعل يجر بأرجلهم حتى وجد الرجل ذا الثدية تحتهم.

فقال علي: الله أكبر وفرح وفرح الناس[3]. فلما استخرج نظر إلى عضده فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة له حلمة عليها شعرات سود فإذا مدت امتدت حتى تحاذي طول يده الأُخرى ثم تترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة. قال علي: الله أكبر والله ما كُذبت ولا كَذبت. وحق قول رسول الله ﷺ فقد قاتل علي الناكثين في الجمل، والمارقين من الخوارج، والقاسطين؛ معاوية ومن معه.

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٥٥٥.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ١٢٣.

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٢٣٨.

إن القاسطين كانوا لجهنم حطباً

قال الإمام لجنده: إن الله قد أحسن بكم وأعز نصركم، فتوجهوا من هذا إلى عدوكم!

قالوا وقد ثبطت هممهم: يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا؛ ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا.

وكان الذي تولى ذلك الكلام الأشعث بن قيس فأقبل حتى نزل النخيلة فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، ويوّطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم.. فأقاموا فيه أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالاً من وجوه الناس قليلاً وترك العسكر خالياً[1].

ثم قام فيهم خطيباً فقال[2]:

عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة والهوان من العز؛ أوَكلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة.. وكأن قلوبكم قاسية.. فأنتم لا تعقلون..

وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون..

لله أنتم.. ما أنتم إلا أسود الشرى في الدعة.. وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس..

ما أنتم لي بثقة.. ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون.

إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل، وبات لذل من وادع وغلب..

والمغلوب مقهور ومسلوب.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٢٣.

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ١٣٤ والسنن الكبرى ٥/ ١٢٥ والمعجم الكبير ١/ ١٠٧.

الفصل الحادي عشر

الغـــارات

سيـف الفســـاد

إذا نسي أنه أسد
لم ينسوا أنهم كلاب
عباس محمود العقاد

عبقرية الإمام ١٢٦

اقطع رأس الأفعى تسكن ذيولها

عجز معاوية عن النيل من الإمام في حرب شريفة رغم كل سبل المكر والخداع التي جاءت بها شجرته وعصبته. ففكر وقدر لينجح فيما دبر. فرأى أن يرسل أعوانه في غارات على الآمنين تفتك بالمسافرين وتسلب المقيمين وتنشر الذعر وتدب الهلع؛ فيضح الناس على الإمام وقد ضاع الأمان. فتفقد دولة الإمام هيبتها فتقوم الناس على إمامها. إنه يعلم أن الإمام لا يفعل مثل فعله. فسيف الغدر والبغي لا يسله الإمام مهما أسرف معاوية في طعن أمة محمد ﷺ به. إنه يتمنى أن يفعل الإمام مثل أفاعيله ليقيم عليه النكير؛ كان مما يؤرقه أنه لن يفعل ما يخالف الدين؛ وكان مما يفرحه قول الناس أن معاوية أقوى من علي في ذلك وهو لا يأبه لمخالفة الشريعة. وسيساعده في ذلك تقاعس جند الإمام عندما يأمرهم وهم يختلقون الأعذار عندما يستنهضهم. ولو قاموا مع الإمام كما أمرهم لما وصل بهم الحال إلى هذا التمزق. وقد قتل منهم أكثر مما كان يقتل لو أطاعوه.. لقد تكرر ذلك منهم.. ولم يعتبروا إن الحرب هي كرّ وفرّ.. أما أوامر ابن هند لقادته فقد أصبحت: أغرّ وافتك.. انهب وفرّ.

فيوم للضحاك على واقصة في طريق الحجيج.. في الشهر الحرام..

ويوم للنعمان بن بشير في عين تمر.. ويوم لابن مسعدة في تيماء..

ويوم لابن أبي أرطأة، عاث فساداً حتى وصل صنعاء.. ولا يأبه ابن هند إن عاد المغير أم لم يعد؛ فقد اشترى منهم الكثير. وقد باعوا أنفسهم له؛ وما عليه إن دفعوا الثمن! لقد اطمأن معاوية إلى أن الأمة لن تنظر إليه كما تنظر إلى الخوارج؛ وقد مرقوا من الدين مع ما يعلمونه من شدة تعبدهم؛ لأن من معه صدقوا أو ارتضوا خديعته بأنه يطلب دم عثمان؛ وأنهم ليسوا فئة باغية رغم أحاديث الرسول في علي ومقتل عمار بن ياسر في حربه معه. وإنه لعجب وقوف الناس مع معاوية ومنهم من

يعلم أنه على الباطل؛ وعجب وقوف كثير من الناس مع أمثال معاوية ويزيد؛ ممن يذكرهم الناس بأنهم من أهل الفضل والخير. وقد انضووا طائعين تحت أجنحة المغنم أو الشهوة أو السلطة. ليقال أنهم مع علية القوم في بلدتهم أو من أكابر مترفيها.. وكم من خاذل للحق وهو يعرفه.. وهل خدع امرؤ بأكثر مما خدع نفسه.

لذا كان الإمام يريد رأس الأفعى، فإن قطعها سكنت ذيولها.

محمد بن أبي بكر أميراً لمصر

وبدأ عهد جديد لمصر فقد أرسل الإمام محمد بن أبي بكر والياً عليها. فأوصى المصريين بالطاعة ونبذ الفرقة وحذرهم من فتنة الباطل: «وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند.. واعلموا أنه لا سواء إمام الهدى وإمام الردى، ورضيُّ النبي وعدو النبي...»، ولقد سمعتم رسول الله يقول: إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً. أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه.. ولكني أخاف عليهم كل منافق اللسان؛ يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون.. وتنبهت جماعة خربتا؛ فابن أبي بكر ليس بمنخدع فيهم. وتوقياً للقتال خيرهم بين الالتحاق بجماعة المسلمين أو الخروج من مصر. فمكروا وطلبوا الإرجاء وهو أيسر الأسلحة لتهيئة الغدر. فالهدنة تقوي الماكر، فيستكمل عدته وهو آمن بوعد خصمه.. أفاد معاوية من الهدنة ولكنه لم يهادن، بل أعد جيش الغزو وأرسل إلى معاوية بن حديج الكندي ومسلمة بن مخلد الأنصاري قائلاً: «فالزما أمركما وجاهدا عدوكما وادعوا المدبرين عنكما إلى هداكما، فإن الجيش قد أطل عليكما فاندفع ما تكرهان ودام ما تهويان»...

أفاق محمد بن أبي بكر من غفلته بعد أن خرجوا عن طاعته ونكلوا في هدنته فأرسل مع ابن الكلبي بعثاً من قوته.. فهزم أهل خربتا ابن الكلبي وبعثته.

فخرج معاوية بن حديج الكندي ثم السكوني فدعا إلى الطلب بدم عثمان فأجابه أناس آخرون.. وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر. وقد سعرت بها الفتن.

بلغ علياً وثوب أهل مصر على محمد بن أبي بكر فكتب إلى مالك بن الحارث الأشتر فأقبل فحدثه حديث أهل مصر وخبره خبّر أهلها وقال: ليس لها غيرك أخرج رحمك الله فإني إن لم أوصك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة. وكتب معه إلى أهل مصر يأمرهم بالسمع له والطاعة[1]:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أمة المسلمين الذين غضبوا لله حين عصي في الأرض وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر فلا حق يستراح إليه ولا منكر يتناهى عنه.. أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عبيد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعادي حذار الدوائر أشد على الكفار من حريق النار..

إن لمعاوية جنوداً من عسل

أتت معاوية جواسيسه فأخبروه بتولية علي الأشتر فعظم ذلك عليه وقد كان طمع في مصر؛ فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد من محمد بن أبي بكر. فالمحارب ليس كالمسالم. فقال: إنه ليأتي وعامة أهل مصر أهل اليمن وهو يماني. وكتب إلى دهقان بالعريش: إن احتلت في الأشتر فلك عليَّ أن أخرج خراجك عشرين سنة[2].

ولما اطمأن إلى خيانة الرجل أقبل معاوية يقول لأهل الشأم مظهراً الضراعة إلى الله يطلب منه أن يكفيه الأشتر: إن علياً وجّه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه. فكانوا كل يوم يدعون الله على الأشتر.

الله يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؛ وذهبُ معاوية يفتن من يبيع نفسه للذهب ويجلب السوء؛ ويُخدع الناس فيظنون أن الله استجاب دعاء معاوية.

وخرج الأشتر من العراق فلما انتهى إلى القلزم، قدم على امرأة من حمير يقال لها ليلى بنت النعمان. فتلطف له الدهقان وبالغ في إكرامه والإطناب في مدح بني هاشم وسأله: أي الشراب أحب إليك! قال العسل قال عندي عسل من عسل برقة لم

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٢٧.
(٢) الثقات ٢/ ٢٩٨.

ير مثله، وقدم له كأس ابن هند؛ أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سماً فسقاه إياها. فلما شربها مات. فبلغ ذلك معاوية فقال: إن لله جنوداً في العسل[1].

وأقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر فقام معاوية في الناس خطيباً: «أما بعد فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان قطعت إحداهما يوم صفين (يعني عمار بن ياسر) وقطعت الأُخرى اليوم يعني الأشتر».

ويتفطر قلب علي على الأشتر ويقول: «وهل موجود كمالك.. أما والله ليهدّن موته عالَماً، وليفرحن عالَماً.. على مثل مالك فلتبك البواكي».

ويرسل إلى ابن أبي بكر مزيلاً موجدته: «إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً.. اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته»..

لم يكن يخفى أنه ما كان لمعاوية هم إلا مصر. وكان لأهلها هائباً خائفاً لقربهم منه وشدتهم على من كان على رأي عثمان. وكان معاوية يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب علي لعظم خراجها. وجاء في تاريخ الطبري[2] أنه (أي معاوية): دعا عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أبي أرطاة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومن غيرهم أبا الأعور عمرو بن سفيان السلمي وحمزة بن مالك الهمداني وشرحبيل بن السمط الكندي؛ فقال لهم:

أتدرون لم دعوتكم إني قد دعوتكم لأمر مهم أحب أن يكون الله قد أعان عليه.

فقال القوم كلهم أو من قال منهم إن الله لم يطلع على الغيب أحداً وما يدرينا ما تريد. فقال عمرو بن العاص: أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها، والكثير عددها وعدد أهلها؛ أهمك أمرها إذاً لتسألنا عن رأينا في ذلك. فإن كنت لذلك دعوتنا وله جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأي رأيت. ففي افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك. قال له معاوية مجيباً أهمك يا بن العاص ما

(١) الثقات ومعجم البلدان ١/ ٤٥٤ وقد روي عن ابن العاص قوله مثل ذلك.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ١٢٧.

أهمك. وذلك لأن ابن العاص كان صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب على أن له مصر طعمة ما بقي.. ما كان لمحمد بن أبي بكر أن يستجيب لإغراء معاوية وإغواء ذهبه فكتب إليه قائلاً: «وقد بعثت إليك قوماً حناقاً عليك يستسقون دمك ويتقربون إلى الله بجهادك وقد أعطوا الله عهداً بك.. ولكن أكره أن أمثل بقرشي»[1].

وكتب إليه عمرو بن العاص وقد أرسله معاوية على رأس جيش لغزو محمد بن أبي بكر في مصر: «تنح عني ببدنك يا ابن أبي بكر فإني أكره أن يصيبك مني ظفر».

طوى محمد كتابيهما وبعث بهما إلى علي وكتب معهما: أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أداني أرض مصر واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم وقد جاء في جيش لجب خراب وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل».

وطلب من الإمام أن يمده بالرجال والأموال؛ فأجابه:

أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن ابن العاص قد نزل بأداني أرض مصر في لجب من جيشه خراب؛ وأن من كان بها على مثل رأيه قد خرج إليه؛ وخروج من يرى رأيه إليه خير لك من إقامتهم عندك. وذكرت أنك قد رأيت في بعض من قبلك فشلاً فلا تفشل وإن فشلوا. فحصّن قريتك واضمم إليك شيعتك واندب كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة والنجدة والبأس، فإني نادب إليك الناس على الصعب والذلول. فاصبر لعدوك وامض على بصيرتك وقاتلهم على نيتك وجاهدهم صابراً محتسباً.. وإن كانت فئتك أقل الفئتين فإن الله قد يعز القليل ويخذل الكثير. وقد قرأت كتاب الفاجر ابن الفاجر معاوية والفاجر ابن الفاجر عمرو المتحابين في عمل المعصية والمتوافقين في الحكومة المنكرين في الدنيا قد استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم. فأرسل محمد إلى معاوية:

أما بعد فقد أتاني كتابك تذكرني من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه، وتأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح.. وأنا أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم في الوقعة. وإن تؤتوا النصر ويكن لكم الأمر في الدنيا؛ فكم لعمري من ظالم قد نصرتم

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٣٠.

وكم من مؤمن قتلتم ومثلتم به. وإلى الله مصيركم ومصيرهم وإلى الله مرد الأمور، وهو أرحم الراحمين والله المستعان على ما تصفون والسلام.

وكتب محمد إلى عمرو بن العاص: «أما بعد فقد فهمت ما ذكرت في كتابك يا ابن العاص. زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر وأشهد أنك من المبطلين.. وتزعم أنك لي نصيح وأقسم أنك عندي ظنين.. وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمري وندموا على اتباعي فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء فحسبنا الله رب العالمين وتوكلنا على الله رب العرش العظيم والسلام».

لأدخلنك جوف هذا الحمار يا ابن أبي بكر

قال معاوية بن حديج لمحمد بن أبي بكر: لأدخلنك جوف هذا الحمار ثم لأحرقنه عليك بالنار.. إنها سنة كونية تتكرر مع كل صبح وتشرق مع كل عدوان.. إذا نشطت قوى البغي وأعدت العدد في العلن أو الخفاء وقابلها الحق دون عدة كانت لها الغلبة.

أعدت جرثومة الفساد في خربتا أحزابها، وابن أبي بكر واثق من وعدها أن لا تثور عليه ولكن هل للبغاة عهد! لم يقاتل ابن أبي بكر أئمة البغي فإنهم لا أيمان لهم.. فكان أن أعدوا عدتهم وردفهم معاوية بابن العاص.

فقام محمد بن أبي بكر يندب الناس للقتال ووضع عليهم كنانة بن بشر قائلاً: فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة الضلال ويشبون نار الفتنة ويتسلطون بالجبرية قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بالجنود.. عباد الله فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم في الله انتدبوا إلى هؤلاء القوم رحمكم الله مع كنانة بن بشر. فانتدب معه نحو من ألفي رجل. وخرج محمد في ألفي رجل واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد. فأقبل عمرو نحو كنانة فلما دنا من كنانة سرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة. فنهضت كنانة بجناح ووقف الحق على ساق فكسر كتائب أهل الشام وهو يشد عليها بمن معه. ارتاع عمرو بن العاص الذي أذهلته الهزيمة وأدماه أن تضيع عليه مصر. ولما رأى تكرر تكسر كتائبه مراراً؛ بعث إلى معاوية بن حديج السكوني يستنجده؛ فأتاه واشتد أزر الباطل بقوة القاسطين الذين لم يحفظوا

عهدهم مع ابن أبي بكر، فأحاط ابن حديج بكنانة وأصحابه واجتمع أهل الشام عليهم.

فلما رأى ذلك كنانة بن بشر نزل عن فرسه ونزل أصحابه وكنانة يقول: **﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾** فضاربهم بسيفه حتى استشهد رحمه الله. وأقبل عمرو بن العاص نحو محمد بن أبي بكر وقد تفرق عنه أصحابه لما بلغهم قتل كنانة حتى بقي وما معه أحد. وقد تقاعس رجال الإمام عن المسير لنجدته. ولم ينطلقوا من الكوفة لنجدة ابن أبي بكر مع مالك بن كعب إلا بعد فوات الأوان؛ فقد جاء عبد الرحمن بن حسيب الفزاري عين الإمام من الشام ينبئه بمقتل ابن أبي بكر؛ ولم تكن جند الكوفة قد وصلت بعد أن غذت المسير خمسة أيام؛ وقال: يا أمير المؤمنين قلما رأيت قوماً قط أسر ولا سروراً قط أظهر من سرور رأيته بالشأم حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر. وحزن الإمام على محمد بن أبي بكر حتى رئي ذلك في وجهه وتبين فيه؛ فقد رباه في حجره وقد تزوج أمه أسماء بنت عميس بعد وفاة أبي بكر.

وقال: أما إن حزننا عليه على قدر سرورهم به لا بل يزيد أضعافاً.

لم يذودوا عن حياضهم فهدّموا.. ولو أطاعوا إمامهم قبل التحكيم لكانت هزيمة معاوية محققة، ولو لم ينخدعوا بالتحكيم لكان لهم النصر ولحموا دماءهم من حرب الحرورية. ولو لم يكرهوا الإمام على القبول بالأشعري لما أصابتهم أوزار خديعة التحكيم، ولو مضوا مع الإمام إلى حرب ابن هند لما ضاعت قوتهم في حرب الخوارج. ولو أطاعوه ونهضوا امتثالاً لأمره لما قوي عدوهم ولما حل ما حل بابن أبي بكر؛ فقد كان مصرعه جريمة تنأى الوحوش عن القيام بمثلها.

نداء الدم أم نداء الحق

لم يحاربوه بل طاردوه فقد خرج محمد يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق فأوى إليها وقد انتهى القتال.. وقد توجب عليهم أن يتركوه وقد وضعت الحرب أوزارها. وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط، وخرج معاوية

بن حديج في طلب محمد يبحث عن مكان لأنيابه حتى انتهى إلى علوج في قارعة الطريق فسألهم: هل مر بكم أحد تنكرونه!

فقال أحدهم يشي به: لا والله إلا أني دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس. فقال ابن حديج وقد تعطش إلى سفك دم سبق له أن آمنه: هو هو ورب الكعبة.

عبد الرحمن بن أبي بكر ومحمد بن أبي بكر

وانطلقوا بأمر إمامهم الذي لم يرع حرمة ولا إسلاماً ولا إنسانية، فجرُّوه يتلظى عطشاً؛ نحو فسطاط مصر؛ هل عاد أبو جهل يعذب بالرمضاء من يقول: أحد أحد. ووثب عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص وكان في جنده؛ لقد راودته الدنيا فلم يستعصم وولغ في الدماء؛ وبنداء الدم لا الحق سعى ليشفع إلى أخيه؛ فراوغه عمرو فصاح به: أتقتل أخي صبراً!... ابعث إلى معاوية بن حديج فانهَه.

فبعث ابن العاص يأمره أن يأتيه بابن أبي بكر. فقال معاوية: أكذلك قتلتم كنانة بن بشر وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر؛ هيهات أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر. فقال لهم محمد وقد قدَّ العطش حلقه كما شقت الرماح بدنه: اسقوني من الماء. الأسير لا يعذب ولا يمثل به. ولكن ابن حديج عرّض بمقتل عثمان: لا سقاه الله إن سقاك قطرة أبداً إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه. والله لأقتلنّك يا ابن أبي بكر ويسقيك الله الحميم والغساق. فقال محمد لجلاده: يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت (يقصد عثمان) إنما ذلك إلى الله عز وجل يسقي أولياءه، ويظمىء أعداءه أنت ومن تولاه أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا.

فصاح الطاغوت: أتدري ما اصنع بك؛ أُدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار. فقال له محمد وقد أضاء الإيمان قلبه: إن فعلتم بي ذلك فطالما فعل ذلك بأولياء الله. وإني لأرجو هذه النار التي تخوّفني بها أن يجعلها الله علي برداً وسلاماً؛ كما جعلها على خليله إبراهيم وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها

على نمرود وأوليائه. إنّ الله يحرقك ومن ذكرته قبل، وإمامك (يعني معاوية)، وهذا وأشار إلى ابن العاص. نار تلظى عليكم كلما خبت زادها الله سعيراً. فقال معاوية كأنما يجد العذر وقد أحس بنار آثامه وفعاله: إني إنما أقتلك بعثمان. قال له محمد: وما أنت وعثمان إن عثمان عمل بالجور ونبذ حكم القرآن وقد قال الله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾.. فقد برأنا الله إن شاء الله من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه على مثاله.

أعمى ابن حديج عن النور بصره وعن الحق أذنيه؛ واستكبر ابن النابغة بغير الحق.. والمكابر لا يُعذر. ولجم الباطل عبد الرحمن بن أبي بكر عن نصرة أخيه. وترك ابن حديج يورد أخاه حمام الموت ويورد نفسه سوء الأحدوثة بما فعل فيه من مِثله.

يروي ابن أبي الحديد: قال الحسن عليه السلام لمعاوية بن حديج؛ «أنت الشاتم علياً عند ابن آكلة الكباد! أما والله لئن وردت الحوض ولن ترده لترينه مشمراً عن ساقيه حاسراً ذراعيه يذود عنه المنافقين»[1]. لقد سبق أن أرسل ابن العاص رأس بنان بطريق الروم إلى أبي بكر؛ فلم يرض بذلك. فقال له عمرو: ولكنهم يفعلون ذلك بنا.

فأجابه: أتستنون بفارس والروم. لو علم أبو بكر كيف ستكون المثلة بابنه؛ أكان يدع عمرو بن العاص للولاية أو يدع ابن الخطاب وتولية معاوية وعمرو!! لقد سبق أن أنبأ رسول الله من أخبارهم.. فقد أوّلت عائشة لأسماء زوجة أبي بكر مناماً لها رأت فيه أبا بكر مخضوب الرأس واللحية بأنه سيقتل؛ فينفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتله بعد أن سمع بكاءها ويقول «ليس كما عبرت عائشة، ولكن يرجع أبو بكر صالحاً (سليماً من القتل)، فيلقى أسماء.. فتحمل منه بغلام، فتسميه محمداً يجعله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين.. وصدق رسول الله.. فقد غضب معاوية فقدم ابن أبي بكر وفعل ما تبرأ منه الإنسانية فضلاً عن الدين؛ فقد قتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار. فلما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وأخذت في دبر الصلاة

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٧.

تدعو على معاوية وعمرو. ثم قبضت عيال محمد إليها فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها[1].

قصر الناس في نجدة ابن أبي بكر فسامتهم أيدي معاوية الذل. لقد قال لهم الإمام: «فإن هذا صريخ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله وولي من عادى الله. فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعاً منكم على حقكم هذا.. عباد الله إن مصر أعظم من الشام وأكثر خيراً.. فلا تغلبوا على مصر فإن بقاء مصر في أيديكم عز لكم وكبت لعدوكم...

لا عطر بعد عروس

نهض الإمام لموعد اللقاء بكرة فأقام حتى انتصف النهار يومه ذلك؛ فلم يوافه منهم رجل واحد. فرجع فلما كان من العشي بعث إلى أشراف الناس فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب؛ فقال:

الحمد لله على ما قضى من أمري وقدر من فعلي وابتلاني بكم أيتها الفرقة ممن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت..

لا أبا لغيركم ما تنتظرون بصبركم والجهاد على حقكم.

الموت والذل لكم في هذه الدنيا على غير الحق فوالله لئن جاء الموت وليأتين ليفرقن بيني وبينكم وأنا قالٍ وبكم غير ضنين. لله أنتم لا دين يجمعكم ولا حمية إذا أنتم سمعتم بعدوكم يريد بلادكم ويشن الغارة عليكم...

أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام؛ فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء.

وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة وطائفة منكم على العطاء فتقومون عني وتختلفون علي!

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٣١ ـ ١٣٣.

فقام إليه مالك بن كعب الهمداني ثم الأرحبي فقال:

يا أمير المؤمنين اندب الناس فإنه لا عطر بعد عروس، لمثل هذا اليوم كنت أدخر نفسي والأجر لا يأتي إلا بالكرّة اتقوا الله وأجيبوا إمامكم وانصروا دعوته وقاتلوا عدوه أنا أسير إليها يا أمير المؤمنين.

فأمر علي مناديه سعداً فنادى في الناس ألا انتدبوا إلى مصر مع مالك بن كعب ثم إنه خرج وخرج معه علي فنظر فإذا جميع من خرج نحو ألفي رجل.

فقال سر فوالله ما أخالك تدرك القوم حتى ينقضي أمرهم.

فخرج بهم وما سار إلا خمساً حتى قتل محمد بن أبي بكر وأذن بقتله على المنبر في الشام.

ميثم التمار.. أين ربك

دخل في حجه على أم سلمة رضي الله عنها[1].

ـ من أنت.

ـ مولى علي بن أبي طالب.

ـ أنت هيثم.

ـ بل أنا ميثم.

ـ سبحان الله! والله لربما سمعت رسول الله ﷺ يوصي بك في جوف الليل.

ثم دعت بطيب، فطيبت لحيته؛ فقال: أما إنها ستخضب بدم!!

ـ من أنبأك هذا!

ـ أنبأني سيدي. فبكت وقالت:

ـ إنه ليس بسيدك وحدك وهو سيدي وسيد المسلمين.

ولما عاد إلى الكوفة أدخل على ابن زياد وقيل له: هذا كان من آثر الناس عند

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ١/ ٢١٠ ـ ٢١١.

أبي تراب. فسأل عبيد الله متثبتاً: ويحكم هذا الأعجمي! فقيل له؛ نعم. فسأله عبيد الله:

ـ أين ربك.

ـ بالمرصاد!

ـ بلغني اختصاص أبي تراب (هو الإمام علي) لك.

ـ قد كان بعض ذلك فما تريد!

ـ وإنه ليقال أنه قد أخبرك بما سيلقاك!

ـ نعم؛ إنه أخبرني.

ـ ما الذي أخبرك أني صانع بك. قال ميثم:

ـ أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة وأنا أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهرة. فقال عبيد الله:

ـ لأخالفنه!

ـ ويحك وكيف تخالفه! إنما أخبر عن رسول الله ﷺ وخبر رسول الله عن جبرائيل وأخبر جبرائيل عن الله.. أخبر فكيف تخالف هؤلاء. أما والله لقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه؛ أين هو من الكوفة. وأني لأول خلق الله لجم في الإسلام بلجام كما يلجم الخيل.

فأمر ابن زياد بحبسه مع المختار. فقال للمختار في السجن:

ـ إنك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين عليه السلام.. فتقتل هذا الجبار الذي نحن في حبسه وتطأ بقدمك هذا على جبهته وخديه...

ومرت الأيام وأُخرج المختار ليضرب عنقه؛ ولكن سرعان ما أتى البريد بكتاب من يزيد بتخلية المختار وقد شفع له زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وقال عبيد الله في ميثم: لأمضين حكم أبي تراب فيه. فقال رجل لميثم:

ـ ما كان أغناك عن هذا يا ميثم. فابتسم ميثم وقال بإيمان ثابت:

ـ لها خلقت ولها غذيت.

وصلب على خشبة رفعت له على باب عمر بن حريث واجتمع الناس حوله. فقال عمر: ولقد كان يقول لي أني مجاورك. فكان يأمر جاريته أن تكنس تحت خشبته وترشه وتجمر بالمجمر تحته... فجعل ميثم يحدث بفضائل بني هاشم ومخازي بني أمية وهو مصلوب على الخشبة. فقيل لابن زياد: قد فضحكم هذا العبد فالجموه فأُلجم فكان أول خلق الله أُلجم في الإسلام.. وفي اليوم التالي فاضت منخراه وفمه دماً.. فلما كان اليوم الثالث طعن بحربة فمات. وكان مقتله قبل قدوم الحسين عليه السلام بعشرة أيام[1].

ودارت على الباغي الدوائر وقَتل المختار ابن زياد ووطأه بقدمه.

تقديس للنظام الحاكم

يقول روجيه غارودي: «إن أول انحطاط في المجتمع الإسلامي ابتدأ بالثورة الأموية المضادة اجتماعياً وسياسياً والتي رافقها تضليل وتحريف ديني حول اليقظة الدينية إلى عملية تقديس للنظام الحاكم»[2]. ليس العجب من معاوية ويزيد والمستفيدين منهم في السلطة أن يشوهوا الحقائق ويحرفوا الناس عن الحق وأهله. ولكن العجب من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.. ومن الذين يقولون ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا.. ومن الذين لاذوا بالذين استكبروا وقالوا نحن أكثر مالاً وأعز نفراً. لقد نال أولياء الباطل ما سعوا إليه. فلم تُبرر المخالفة من أعمالهم بدل التبرؤ منها. فمن رضي بفعل قوم أُشرك في جزائهم فكيف يرضى من يتبع الحق أن يضيف إلى صحيفة عمله ما برئت منه يداه.

لقد ذهب نوح وغرق قوم نوح، وأخذت عاد ريح صرصر عاتية، ودمدم ربك على مدائن صالح بذنبهم فسواها، ومات أبو لهب وكانت مقاتلهم عبرة لمن أراد أن

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ١/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٢) روجيه غارودي كيف ننشر الإسلام.

يذكّر. فهل يجوز القول أن على المرء أن يحتاط لدينه بعدم التعرض للظلمة الغابرين مؤوّلاً قوله تعالى ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ بعدم الخوض في ذكر ما مضى مع أن الآية للدلالة على أن كل امرىء بما كسب رهين؛ فقفوهم إنهم مسؤولون. ها هو معاوية بن يزيد يقول: «أيها الناس.. ألا إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به لقرابته من رسول الله وسابقته في الإسلام وهو علي ابن أبي طالب ولقد ركب بكم ما تعلمون، حتى أتته منيّته، فصار في قبره رهين أعماله.. ثم تقلد أبي يزيد الأمر من بعده. ركب هواه.. وأخلفه الأمل وقصر به الأجل.. ثم صار في قبره رهين ذنبه وأسير إثمه وإن من أعظم الأمور علينا علمه بسوء منقلبه.. وقد قتل عترة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم وخرب الكعبة[1].. ما أنا بالمتقلد أمركم ولا بالمحتمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم»[2].

الجاحظ: عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة

يقول الجاحظ وهو عثماني الهوى في تسمية عام استيلاء معاوية على الحكم عام الجماعة بعد أن تنازل الحسن لما رأى من الوهن في عسكره:

«وما كان عام جماعة بل عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة؛ والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصباً قيصرياً..

ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا وعلى منازل ما رتبنا حتى رد قضية رسول الله رداً مكشوفاً وجحد حكمه جحداً ظاهراً في ولد الفراش وما يجب للعاهر؛ مع اجتماع الأمة أن سمية لم تكن لأبي سفيان فراشاً وأنه إنما كان بها عاهراً..

فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار»[3].

ويقول الجاحظ: «كيف نصنع بنقر القضيب بين ثنيتي (شفتي) الحسين عليه السلام...

(١) الكندي ٤٥ ـ ٤٦.
(٢) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن ـ طبع مصر صفحة ٢٨٨.
(٣) نص القول للجاحظ وهو مأخوذ عن كتاب أبي هريرة لأبي رية ١٦٢ ـ ١٦٣.

وحمل بنات رسول الله حواسر على الأقتاب العارية والإبل الصعاب..

والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك في بلوغه، على أنهم إن وجدوه وقد أنبت قتلوه، وإن لم يكن أنبت حملوه، كما يصنع أمير جيش المسلمين بذراري المشركين!

وكيف تقول في قول عبيد الله بن زياد بين إخوته وخاصته:

«دعوني أقتله فإنه بقية هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء، وأقطع هذه المادة»[1].

أخبروني على ما تدل هذه القسوة وهذه الغلظة بعد أن شفوا أنفسهم بقتلهم ونالوا ما أحبوا فيهم..

أتدل على نصب وسوء رأي وحقد وبغضاء ونفاق..

أم تدل على الإخلاص وحب النبي ﷺ.

حذو النعل بالنعل

قال رسول الله ﷺ: ثم ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل؛ حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك[2].

وكان جريان الأحداث مصداقاً لما قاله رسول الله ﷺ. فقد تخاذل اليهود ولم يقوموا مع أنبيائهم وحرفوا الكلم عن مواضعه ليأ بألسنتهم وطعناً بالدين وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله، وافتروا على الله الكذب وقتلوا أنبياءهم.. وترى من أفعال المسلمين ما يصْدُقُ فيه قوله ﷺ...

لقد كان هناك من أسلم وهو يسمع قوله ﷺ وهو يخبر بالمغيبات ويتنبأ بالفتوحات: «فيوشك أن يفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه».

(١) المرجع السابق.
(٢) صحيح الترمذي ٥/ ٢٦ واعتقاد أهل السنة ١/ ١٠٠.

فالنفع قريب والمال وفير والسلطة غارّة. وهناك من أسلم وقد رأى رايات الإسلام تعلو فخاف أن لا يلحق بالركب. وهناك من أسلم لأن رئيس عشيرته قد أسلم اقتداءً به لا سعياً وراء الحق.. وهناك المنافقون والمرجفون والذين في قلوبهم مرض.

وكل ذلك مما حدّث عنه الله تعالى في كتابه العزيز.

وهناك أيضاً من كان مصداق قوله تعالى:

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ ولم ينكث؛ حتى وإن نكث غيره؛ ووقف مع الله يتلو: **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسوف يؤتيه أجراً عظيماً﴾**. وكان مع من وقر الإيمان في قلبه وقد نالوا من وصفه تعالى ليميزهم مَن جهِلهم: **﴿أشداء على الكفار.. رحماء بينهم﴾**..

﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾.

﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾.

وقد ثبتوا ولم ينكلوا وقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين لم يستنوا بسنن الناكثين والعاصين، مغفرة وأجراً عظيماً.

أما رأيت البغلات الشهب:

عجب أمر الناس.. منهم من يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله..

ومنهم من يستجيب للغنائم فإذا أعطوا منها رضوا..

ومنهم من يتباهى بماله وجاهه ويقول إنما أوتيته على علم عندي..

ومنهم من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته مصيبة انقلب على عقبيه خسر الدنيا والآخرة..

ومنهم من يولي أعداء الله لينال مغنماً أو منصباً أو إقطاعاً أو أعطية ويحرف قوله تعالى: **﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾** و**﴿من يتولهم**

منكم فإنه منهم﴾. **﴿وقد كفروا بالحق لما جاءكم﴾**.

وفيكم سماعون لهم.. لينالوا المغانم والمزايا بإيجابهم إلى ما يريدونه.

ومنهم من يطلب لنفسه الإمرة والعلو ويعطيها مشتهياتها، وهو يدعي أو يظن أنه يسعى في مصالح المسلمين وفقرائهم وأيتامهم.

ذهب عبد الله بن الزبير الذي اشتهر بين الناس بعبادته إلى أخته امرأة عبد الله بن عمر لتكلم زوجها أن يبايعه لنزع سلطان بني أمية. فاستجابت وأكثرت من ذكر عبادته ونسكه؛ فقال لها عبد الله:

ـ أما رأيت البغلات الشهب التي كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم مكة!

ـ بلى.

ـ فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته.

وأما علي عليه السلام فيقول للوالي الذي يوليه ينصحه في اختيار حاشيته:

«وليكن آثرهم عندك أقولهم بمرّ الحق لك».

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأض ولا فساداً﴾.

لقد حاج يهودي علياً في أمته؛ بعد أن جرح المسلمين بأنهم اختلفوا في محمد وهو جنازة بأيديهم؛ فقال له: «لقد اختلفنا عنه لا فيه، وأما أنتم فما أن جاوز بكم نبيكم البحر ومررتم على قوم يعكفون على أصنام لهم حتى قلتم: يا موسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة.

وحواريو عيسى ما أسرع أن نكثوا بعد أن قالوا نحن أنصار الله وبعد أن حذر الله من ينكث. ووصل الأمر بأن كان منهم من وشى به إلى قيصر.

ولقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فباعوها بعرض هذا الأدنى.

لقد كتب أبو الأسود إلى الإمام بعد أن رأى تنعم والي الإمام على البصرة عبد الله بن عباس يعلمه بأمره:

«أما بعد فإن الله جل وعلا جعلك والياً مؤتمناً وراعياً مستولياً وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمان ناصحاً للرعية فلا تأكلُ أموالهم ولا ترتشي في أحكامهم. .

وإن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك فلم يسعني ذلك فانظر رحمك الله فيما هناك واكتب إلي برأيك فيما أحببت أنته إليك والسلام».

فسارع الإمام إلى التحقق فكتب إلى ابن عباس في ذلك فأجابه:

«أما بعد فإن الذي بلغك باطل وإني لما تحت يدي ضابط قائم له وله حافظ فلا تصدق الظنون والسلام». ولكن الإمام أراد التثبت فكتب إليه:

«أما بعد فأعلمني ما أخذت من الجزية ومن أين أخذت وفيم وضعت»!

وكتب إلى أبي الأسود: «أما بعد فمثلك نصح الإمام والأمة وأدى الأمانة ودل على الحق وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت إلي فيه من أمره ولم أعلمه أنك كتبت فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح فإنك بذلك جدير وهو حق واجب عليك والسلام».

وأجاب ابن عباس: «فقد فهمت تعظيمك ما بلغك أني رزأته من مال أهل هذا البلد فابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعن عنه والسلام»[1].

لقد كان الإمام يذكّر الناس بعهدهم الذي نبذوه وبيمين هم حلفوه. فاتهموه بأنه لم يبق معاوية وحاسب ولاته ولم يقطعهم الإقطاعات ولم يغفل عمن نال من مال المسلمين. . وأنه لو سار بسياسة معاوية لما لجأ إلى معاوية من لجأ منهم. غفلوا عن أن إبقاء معاوية يعني رضاه عن تغيير الدين وشراء النفوس بالإقطاعات والهبات من نصيب المحرومين. . وأغفلوا عن أنه لا كرامة إلا للتقوى.

لقد قال لهم: «أتريدونني أن أطلب النصر بالجور». فحاربوه. . فحجهم:

«والله لو كان المال مالي لسوّيت بينكم. . .

والمال مال الله. . . يقسم بينكم بالسوية. لا فضل فيه لأحد على أحد».

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٥٤.

وقالوا لو انصرف إلى الفتوحات. . ونسوا أن الفتوحات ليست لجبي الخراج؛ بل هي قتال في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ الذين يستغيثون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها لينعموا بالعدل الذي لا يقيمه إلا حكم الله.

أوَهل يُقبل أن يكون قيصر في بلاد المسلمين ثم ينهض المسلمون فيقاتل الذين يلونهم من الكفار ليتم استبدال قيصر بقيصر.

وليس الجهاد لكي يذهب قيصر لا يصلي ولا يصوم، ويأتي قيصر يصلي ويصوم. ثم يفسد بما ملك من ذهب، ويشتري النفوس وهو يغدق العطايا والأراضي والصناعات والزراعات على صنائعه الذين حلوا محل من سبقهم. فيفسدون في الأرض ويخالفون الدين ويتخذون مال الله دولاً وعباد الله خولاً ـ كما يقول الإمام ـ وهم يسمون أنفسهم مسلمين.

يقر المؤرخون (من أمثال كليفورد بوسوورث): «إن الذي غزا أتراك آسيا الوسطى لم يكن المسلمين بل كان الإسلام ذاته. فقد كان المتصوفون والدعاة المتجولون ومعظمهم من الأتراك، يتنقلون بين القبائل التي لم يتم إخضاعها فيما وراء النهر. ينشرون الدين البسيط، دين الكفاح الذي ازدهر على الحدود بين الإسلام والوثنية»[1].

وحتى مارتن لوثر في مؤلفه المسمى «النصح بالصلاة ضد الأتراك»[2]. فقد حذر بأن الفقراء المضطهدين على أيدي الأمراء وأصحاب الأملاك والمواطنين الجشعين يفضلون على الأرجح العيش تحت ظل الأتراك بدلاً من المسيحيين من أمثال هؤلاء.

يقول برنارد لويس: «وكان الفلاحون المسحوقون يتطلعون بأمل إلى أعداء أسيادهم»[3].

(١) يراجع The legacy of Islam, C.I. Bosworth

(٢) نشر عام ١٥٤١.

(٣) Le Cycle de Crois, Gaston Paris صفحة ١٢٠ ـ ١٢٨.

فالبذرة الحضارية في الإسلام تتمثل في العدالة التي يحملها والمساواة التي يفرض على الولاة إقامتها في الوقت الذي يحث الناس على المطالبة بها. فلا ولاة مسلمون بلا إقامة حكم الله. أوَهل يمكن دعوة الناس إلى التوحيد في العقيدة والتوحيد في الولاية والتوحيد في المساواة بين الناس. وواقع حال الولاية ينافي ما تنادي به الأقوال.

وكانت أفعال الإمام تسبق أقواله لأنه كان يبدأ بنفسه:

«إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها».

وبينما كان يأمر من وسّع الله عليه في رزقه أن يوسع على نفسه وأهله، كان يرفض طلبهم في التوسعة على نفسه ويقول عن ثوبه الخلق:

«تذل له النفس..

ويخشع له القلب..

ويقتدي به المؤمنون».

وهل يكون للأغنياء وهم يرون الإمام وثيابه أن يتباروا في التباهي بفاخر الثياب ويفخروا بغالي ثمنها ويأتوا بها من أصقاع الأرض؛ هذا إن لم يجعلوا من ترفهم قدوة ترهق المستضعفين في السعي لتقليدها دون أن يصلوا إليها. وكيف يصلون إليها وهي تُحمل من نفائس أصقاع الأرض التي تزدهر فيها الأزياء والمبتكرات.

يقول الإمام لعاصم بن زياد الحارثي الذي اشتكى أهله من تقتيره وهو يأمره بالإنفاق لأنه لا تحريم لزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق من غير إسراف: «ويحك.. إني لست كأنت. إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره».

هذه هي قدوة الإمام لولاة أمر المسلمين والقائمين على أمور مجتمعهم:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي مِنا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام.. ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن

المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك».

أوَهل يمكن لمن يتمثل هذا القول أن يقر معاوية وأمثاله ساعة من نهار!

أهمتهم الدنيا وحاولوا ضرب الأمثال، ولم يستطيعوا أن يضربوا المثل بما كان عثمان يغدق على من حوله لأنهم نقموا عليه في فعله. فضربوا له الأمثال بخطابهم له:

«خالفك عمر بن الخطاب في القسم.. أنك تجعل حقنا في القسم كحق غيرنا. وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا في ما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا..».

هذا هو السر وراء رفضهم.. يريدونه أن يفاوت في العطايا ما فاضل عمر.. وأن يقسم بينهم كما قسم.. ألهذا مد له عبد الرحمن بن عوف يده يطلب منه البيعة على سنة الشيخين: فلما قال بل على كتاب الله وسنة رسوله أُخرج منها!

هل الجهاد لنشر دين الله أم لطلب المغنم وهل اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم فرضوا أم أنهم باعوا أنفسهم في سبيل المغانم!

أوَهل يطالبون ربهم بثمن نشر دينه أم بثمن التخلي عن الجاهلية؛ أو التخلي عن السيادة القرشية والحمية القبلية لحساب الإسلام.

كان الإسلام في إجابة الإمام سواء رضوا أم جادلوا:

«فأما هذا الفيء فليس لأحد فيه أثرة.. وقد فرغ الله من قسمته».

والذين لا ترضيهم قسمة ربهم.. أفحكم الجاهلية يبغون!

فالله لا يرضى والإمام لا يجبي من ألف فقير مائة دينار ليعطي واحداً من خاصته مائة ألف؛ وليت الطامعين كانوا آحاداً..

لقد ساوى علي بالقسمة بين الناس وأعطى كل واحد ثلاثة دنانير.

فقال له صاحبه سهل بن حنيف:

«يا أمير المؤمنين.. هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقته اليوم».

فأجاب: «نعطيه كما نعطيك».

أبت سادة قريش فاستعلت، وغضبت فتوعدت، وسبقت منها البيعة فنكلت، وتهيأت فحاربت، وغداً يسألها الله لم نكثت بعد أن أسلمت!

قال لهم الإمام: «والله لتجدن بني أمية أرباب سوء من بعدي..».

«لا يزالون حتى لا يدعوا محرماً لله إلا استحلّوه، ولا عقداً إلا حلّوه..».

«وحتى يقوم الباكيان يبكيان.. باكٍ يبكي لدينه.. وباكٍ يبكي لدنياه..».

«ففي الإسلام لا يوجد قيصر بل يوجد الله وحده، وكان محمد رسول الله ﷺ يعلم ويحكم باسمه فكان يقوم بمهمتي الدين والدولة. وكان الوحي ذاته يقدم محتوى المهمة الأولى وأساس الثانية.. فكان يحكم أرضاً وشعباً ويقضي بين الناس ويجمع الضرائب ويقود الجيوش ويرسل السفراء ويخوض الحروب»[1].

الإمام مالك يفتي

سئل الإمام مالك عن حكم الأيمان التي يستوثق بها هؤلاء الخلفاء من أرباب السوء لأولياء العهد بعدهم. فأفتى مالك بأنها لا قيمة لها[2].

واغتاظ الحاكم العباسي من هذه الفتوى وأصدر أمراً بالقبض على مالك وتعذيبه حتى يرجع عنها.

وأبى مالك إلا الثبات على حكم الله..

وانهالت عليه السياط الكاوية وهو يتجلد..

وترك بعد أن حدثت له عاهة في جسمه، فقيل إنه لم يستطع تحريك إحدى يديه من أثر هذا العدوان حتى مات[3].

(١) The legacy of Islam. Edited by j.Schacht, Bernard Lewis, Politics and War.

(٢) الغزالي محمد، معركة المصحف ٧٨.

(٣) المرجع السابق.

لقد أخذ الله الميثاق لتبيننه ولا تكتمونه.

يقول عمر بن عبد العزيز: «ما أغبط أحداً لم يصبه بالأمر من معروف أذى».

وهذه كلمة كان يرددها مالك ويذكر معها بعض من أصيبوا في هذا الأمر كسعيد بن المسيب الذي أبى بيعة عبد الله بن الزبير فضرب، وأبى البيعة لسليمان والوليد فضرب وطيف به في المدينة[1].

لقد قال لهم الإمام: «ألا وإن لكل دم ثائراً ولكل حق طالبه. وإن الثائر في دمنا كالحاكم في حق نفسه.. هو الله الذي لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب».

فالباغي ينال عاقبة بغيه.. وكانوا كلهم بغاة..

ولما جاءهم عمر بن عبد العزيز ينكر عليهم بغيهم..

أنكروا عليه سيرة خالفت ظلم من سبقه ومن خلفه.

لقد بدا نكر ونهي عرف.

ولا تزال ترى أمراً بمنكر ونهياً عن معروف.

وأول راضٍ سنةً يسيرها

لقد قال سليمان بن علي في البصرة لأموية تطلب العفو:

سننتم علينا القتل لا تنكرونه فذوقوا كما ذقنا سالف الدهر

ثم قال: يا أمة الله وأول راض سنة من يسيرها.

أوليست سنة معاوية ويزيد هي ما حمل أبا العباس السفاح على قول: «ما أُبالي والله متى طرقني الموت وقد قتلت بالحسين ألفاً من بني أمية وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي».

وأتى ذلك اليوم الذي نزل فيه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية بالزاب

(١) الغزالي محمد، معركة المصحف ٧٨.

وقبالته عمائم وأعلام سود فسأل . .

. ـ من صاحب جيشهم .

ـ عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس . فذهل وصاح .

ـ ويحك . . أمن ولد العباس بن عبد المطلب .

ـ نعم .

ـ لوددت والله أن علي بن أبي طالب مكانه في هذا الصف .

ـ يا أمير المؤمنين أتقول هذا عن علي مع شجاعته التي ملأت الدنيا ذكرها .

ـ نعم إن علي مع شجاعته صاحب دين وإن الدين غير الملك .

وصح قوله فما فعله بنو أمية وبنو العباس لا يصدر عن علي . . وها هو رأس مروان يقذف في حجر امرأته والدماء تسيل منه . .

ليس هذا من الإسلام حتى ولو كانت دولته هي التي أمرت بقتل الحسين بن علي وقذف رأسه في حجر أخته زينب والدماء تسيل منه .

لقد استرحمت نساء مروان بن محمد بن مروان بن الحكم قاتلَه صالح بن علي فقال : «إذاً لا نستبقي منكم أحداً» ثم يعلل قائلاً : «إنكم قتلتم إبراهيم الإمام وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ومسلم بن عقيل (بن أبي طالب) وقتلتم خير أهل الأرض؛ حسيناً وإخوته وبنيه وأهل بيته وسقتم نساءهم سبايا؛ كما تساق ذراري الروم؛ على الأقتاب إلى الشام» . فقالت له :

ـ يا عم أمير المؤمنين . . فليسعنا عفوكم إذاً .

ـ أما هذه فنعم .

ونكتب ما قدموا وآثارهم

أراد معاوية أن يسخر من ابن العاص فقال له : يا أبا عبد الله لا أراك إلا ويغلبني الضحك!

ـ بماذا!

ـ أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين، فأزريت نفسك فرقاً من شبا سنانه وكشفت سوأتك له . فرد عليه بلا استحياء :

ـ أنا منك أشد ضحكاً . إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك، وربا لسانك في فمك، وغصصت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك . فراوغ الماكر : لم يكن هذا كله . . وكيف يكون ودوني عك والأشعريون .

ـ إنك لتعلم أن الذي وصفتُ دون ما أصابك . .

ـ لقد نزل بك ودونك عك والأشعريون، فكيف كان حالك لو جمعكما موضع الحرب .

لم يغب عن ابن هند أن إلباس الباطل كسوة الحق هي مسرب سلكوه، وإثارة الفتن حقد نفثوه ورمي أهل البيت بالباطل منكر نكروه . والذي لا يلغ في الباطل فتكوا به وعذبوه . لقد نجح معاوية في جعل الناس ينالون من أهل البيت بلسانهم وسيوفهم مع أنهم يصلّون على محمد وآل محمد في كل صلاة يصلونها . وأصبحت هذه النزعات عقيدة راسخة يتوارثونها ويذوقون ثمرتها ويحجمون عن إنكار أفعال من أمر بها بدعوى الاحتياط للدين . وهذا ممّا توارثوه عن وعاظ السلاطين الذين يقومون بكمّ أفواه الناس لصالح الخليفة الذي فعله مبرر مهما فعل ومهما قتل فهو الحاكم؛ ولا احتياط للدين هنا . والعجب ممن لا يبرأ إلى الله من قيام معاوية ومن معه بلعن علي على المنابر مع أن سب علي وأهل بيته عليهم السلام - ناهيك عن قتلهم وسبيهم والنكال بهم - هو مما كسبت أنفس الآمر والمأمور، الحاكم والمحكوم الفاعل والراضي .

لقد عجب زائر للشام من عدم وجود أسماء أهل البيت بين أولاد أهل الشام وهو لا يعلم أثر معاوية في ذلك وعجب أكثر عندما سمع رجلاً ينادي أبناءه :

يا علي . . يا حسن . . يا حسين . فقال له : يا هذا إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء . فأجاب : صدقت إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء . ثم سأله : وأنت!

ـ كرهت ذلك، لأن أولئك إذا لعن أحدهم ولده أو شتمه فقد لعن خليفة أما أنا

فقد سميت أولادي بأسماء أعداء الله فإذا شتمت أو لعنت فإنما ألعن أعداء الله.

فهذا من فعال معاوية مع أهل البيت الذين جعل الله مودتهم أجر رسالته.

معاوية والمنجمون ـ غارة ابن الحضرمي

أشار العباس بن الضحاك العبدي على معاوية وهو عين له بالبصرة أن يقتحم البصرة بعد أن قتل محمد بن أبي بكر..

فقد خرج ابن عباس واليها إلى علي بالكوفة وقد استخلف زياداً والأمور عليه عسيرة؛ ورجال معاوية سيثيرهم حقد الانتقام من علي إذا أتى من يثيره فيهم؛ وعثمانيو الهوى ينتظرون من يقدح فتيل حنث عهودها بعد أن أدى نصر علي إلى انعدام وجود فرصة للنكول. ولكن الفتنة تفعل ما لا يفعله السيف.

ويستشير معاوية المنجّمين ـ وهذه عادة جاهلية ـ فأشاروا عليه بالتريث. فأرسل إلى ابن الحضرمي يأمره بالتريث.

فنزل ابن الحضرمي في بني تميم يتودد الأزد ويطلب دم ابن عفان ليفسد الأمر على علي[1]. وبيده رسالة سيده معاوية يقرأها على الجميع: «لمن أراد وسمع وأطاع دنيا لا تفنى، وأثرة لا يفقدها حتى يفقدنا أو نفقده».

فأرسل زياد إلى حصين بن المنذر ومالك بن مسمع فقال: أنتم يا معشر بكر بن وائل من أنصار أمير المؤمنين وثقاته.

وقد نزل ابن الحضرمي حيث ترون وأتاه من أتاه، فامنعوني حتى يأتيني رأي أمير المؤمنين.

فقال حصين نعم وقال مالك وكان رأيه مائلاً إلى بني أمية هذا أمر لي فيه شركاء أستشير وأنظر.

فلما رأى زياد تثاقل مالك خاف أن تختلف ربيعة وينهب المغيرون بيت مال المسلمين؛ فأرسل إلى نافع أن يشير عليه.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٣٦.

فأشار عليه نافع بصبرة بن شيمان فأرسل إليه زياد:

ألا تجيرني وبيت مال المسلمين فإنه فيئكم وأنا أمين أمير المؤمنين.

قال بلى إن حملته إلي ونزلت داري.

قال فإني حامله فحمله ونزل في دار صبرة بن شيمان وحوّل بيت المال والمنبر فوضعه في مسجد الحدان.

وتحول مع زياد خمسون رجلاً وكان زياد يصلي الجمعة في مسجد الحدان ويطعم الطعام.

فقال زياد لجابر بن وهب الراسبي ليحث قومه من الأزد على نصرته:

يا أبا محمد إني لا أرى ابن الحضرمي يكف؛ فاجمع قومك فأمرهم وانظر ما عندهم. فلما صلى زياد جلس في المسجد واجتمع الناس إليه.

فقال جابر: يا معشر الأزد؛ تميم تزعم أنهم هم الناس وأنهم أصبر منكم عند البأس. وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيروا إليكم؛ حتى يأخذوا جاركم ويخرجوه من المصر قسراً. فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك!

فظفر زياد بحيلته هذه من صبرة بن شيمان بوعد بالنصرة.

وأقيم له مسجد للصلاة وكانت له مقومات الإمارة من جديد. ولكن البصرة قد انشطرت بفعل ابن الحضرمي إلى شطرين بولاءين ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾.

وكتب زياد إلى الإمام:

إن ابن الحضرمي أقبل من الشام فنزل في دار بني تميم ونعى عثمان ودعا إلى الحرب وبايعته تميم وجلّ أهل البصرة. ولم يبق معي من أمتنع به فاستجرت لنفسي ولبيت المال صبرة بن شيمان وتحولت فنزلت معهم.

فيستنفر الإمام بحنكته السياسية تميم الكوفة ليفرقوا عشيرتهم بالبصرة عن ابن الحضرمي الذي يسعى لإشعال الفتنة بين تميم والأزد ولكنهم لم يستجيبوا فقال: «أليس من العجيب أن ينصرني الأزد وتخذلني مضر.. وأعجب من ذلك تقاعد تميم

الكوفة بي وخلاف تميم البصرة علي . .

فأجابه أعين بن ضبيعة المجاشعي فأرسله ليفرق قومه عن ابن الحضرمي وقال لزياد: فانظر ما يكون منه فإن فرق جمع ابن الحضرمي فذلك ما تريد، وإن ترقت بهم الأمور إلى التمادي في العصيان فانهض إليهم فجاهدهم . .

فإن رأيت ممن قبلك تثاقلاً وخفت ألا تبلغ ما تريد فدارهم ثم تسمع وأبصر فكأن جنود الله قد أظلتك تقتل الظالمين.

فقدم أعين فأتى زياداً فنزل عنده ثم أتى قومه وجمع رجالاً ونهض إلى ابن الحضرمي فدعاهم فشتموه فانصرف عنهم.

ولجأ ابن الحضرمي إلى الغدر ودخل على أعين مع قوم ممن معه فقتلوه.

علم علي بالغدر فدعا جارية بن قدامة السعدي فوجهه في خمسين رجلاً من بني تميم وبعث معه شريك بن الأعور وقيل بعث جارية بخمسمائة رجل. . وكتب إلى زياد كتاباً يصوب رأيه فيما صنع وأمره بمعونة جارية بن قدامة والإشارة عليه.

والله لتنزلن أو لأتعرين

قدم جارية البصرة فأتى زياداً فقال له:

احتفز واحذر أن يصيبك ما أصاب صاحبك ولا تثقن بأحد من القوم فسار جارية إلى قومه فقرأ عليهم كتاب علي ووعدهم فأجابه أكثرهم وقد كرهوا غدر ابن الحضرمي. فسار إلى ابن الحضرمي يحصره في داره. واصطكت السيوف؛ والذي عدته مكره ينبو به سيفه. وأتى الله بنيان ابن الحضرمي من القواعد وهو محصور في داره مع سبعين رجلاً[1]. هددهم جارية بالحرق ولكنهم استكبروا واستنجدوا بأقوامهم بدل قبول السلم. فنادى ابن قدامة: علي بالنار. كان حرياً بالناكلين على الإمام أن يقتلوا ابن الضرمي، ولكنهم عمهوا في طغيانهم وهزئوا بالتهديد وهم يرونه

(١) يراجع تاريخ الطبري وشرح ابن أبي الحديد للمزيد ولكل ما لم تذكر مصادره.

يتحول حطباً والحطب يتحول ناراً؛ ولكن أنفسهم حمالة الحطب لا تذعن للحق ولو على شفير النار.

وتخترق الجموع أم ابن الحضرمي. . وقد أحرق كبدها بعناده قبل أن تحرق النار كبده. ولكنه لم يستجب لها وأبى النزول؛ فالعناد داء ولو تكرر النداء. وراحت صيحتها هباء. فصرخت: «والله لتنزلن أو لأتعرين».

لقد أشعل نار الفتنة فأحرقه لهيبها. . أراد بيت مال المسلمين وإمارتهم لسيده فكوي بنار كيده. فبعداً لمن طغى وعصى. لقد مال إلى مال الدنيا فمال به المال إلى سوء المآل.

ويضحك معاوية من ابن الحضرمي؛ وما عليه إن احترق بنار سعى بقدمه إليها. وصدق الإمام: ما أصف في دار أولها عناء وآخرها فناء. . في حلالها حساب وفي حرامها عقاب.

غارة ابن عوف حرب الأموال شبيه القتل وهي أوجع للقلب[1]

وانطلق سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل كما قال له معاوية. . فقد أمره أن يأتي هيت فيقطعها وأن يغير عليها ثم يمضي حتى يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها.

وقال له بذلك: «وكأنك أغرت على الكوفة»[2] فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً.

ثم أتى الأنبار فأغار على الناس ونهب الأموال واحتملها. وكان بالأنبار مسلحة للإمام عدتها خمسمائة رجل عليها أشرس بن حسان البكري؛ وقد تفرقوا فلم يبق منهم إلا مائة رجل، فقاتلهم فصبر لهم أصحاب علي مع قلتهم. وصمدوا ببطولة. فحمل سفيان على قلتهم بخيله ورجاله الستة آلاف فقتلوا أشرس وثلاثين رجلاً معه.

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ١/ ١٤٤.
(٢) ابن أبي الحديد ـ شيرح نهج البلاغة ١/ ١٤٥.

فتلا قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

ثم قال لجنده: «من كان يريد لقاء الله ولا يطيب بالموت نفساً فليخرج من القرية ما دمنا نقاتلهم، فإن قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب. ومن أراد الله فما عند الله خير للأبرار». واحتمل سفيان ما كان في الأنبار من الأموال ونهب أموال أهلها ورجع إلى معاوية. وبلغ الخبر علياً فخرج حتى أتى النخيلة وهو يستنهض رجاله.

فقال له الناس بعد تثاقل: نحن نكفيك. فسرح سعيد بن قيس في أثر القوم. فخرج في طلبهم فجاز هيت ولكنه لم يلحقهم فرجع. وعاد سفيان إلى معاوية يحمل له ما نهبه. أليست هذه نصائح مكيافيللي.. الناس تنسى فقد موتاها ولا تنسى فقد أموالها[1].

أنا الضحاك الأمهات يرهبن أبناءهن باسمي

وجه معاوية الضحاك بن قيس الفهري وأمره أن يمر بأسفل واقصة وأن يغير على كل من مر به ممن هو في طاعة علي من الأعراب ووجه معه ثلاثة آلاف رجل. وأوصاه أن ينشر الرعب ويفر قائلاً: وإذا أصبحت في بلدة فأمس بأُخرى.. ولا تقيمن لخيل بلغك أنها قد سرحت إليك لتلقاها وتقاتلها. فسار فأخذ أموال الناس ونال من الظاعن والمقيم وقتل من لقي من الأعراب ونهب أموالهم وأغار على الحجيج إلى بيت الله الحرام. ومر بالثعلبية فأغار على بعثات للإمام وأخذ أمتعتهم ومضى يهلك الحرث والنسل.. حتى انتهى إلى القطقطانة، فأتى عمرو بن عميس بن مسعود وكان في خيل لعلي وأمامه أهله وهو يريد الحج فأغار على من كان معه وحبسه عن المسير. كان يبحث عن الفضائل ليعمل بنقيضها ويسأل عن المعروف ليفعل المنكر.. وكان يتباهى بفعاله على منبر الكوفة بعد مقتل الإمام ويقول: «أما إني والله لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم، فكنت أول من غزاها في الإسلام. لقد ذعرت المخدرات في خدورهن، وإن كانت المرأة ليبكي ابنها فلا ترهبه ولا تسكته

(١) عن كتاب الأمير لمكيافيللي.

إلا بذكر اسمي.. أنا الضحاك. ولكنه لم يذكر لهم أنه فر عند أول لقاء. فقد بلغ أمره علياً عليه السلام فسرح حجر بن عدي الكندي في أربعة آلاف. فلحق بالضحاك بتدمر فقَتل من جنده تسعة عشر رجلاً وقتل من أصحابه رجلان. وحال بينهم الليل فهرب الضحاك وأصحابه في عتمة الليل إلى سيده بنهبه وذله، ورجع حجر إلى إمامه منتصراً. وتباهى الضحاك كذباً بأنه انتصر. فسخر منه من فضحه: لقد لقيناك بغربي تدمر فوجدناك المجرب الصبور الشجاع[1].

وسيأتي يوم على الضحاك وصحب له.. يقتلهم فيه رجال مروان بن الحكم في مرج راهط. فقد قاتل مروان الضحاك عشرين ليلة حتى هزم أهل المرج ثم قتلوا.

وقُتل الضحاك وقتل يومئذٍ من أشراف الناس من أهل الشام ممن كان مع الضحاك ثمانون رجلاً كلهم كان يأخذ القطيفة؛ والذي كان يأخذ القطيفة يأخذ ألفين في العطاء، وقُتل أهل الشام يومئذٍ مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها قط من القبائل كلها.

وقطع رأس الضحاك وأحضر إلى مروان. أما مروان فسيقتل خنقاً بوسادة امرأته؛ لأنه على ما في الطبقات: «قد أطمع خالد بن يزيد بن معاوية في بعض الأمر، ثم بدا له فعقد لابنيه عبد الملك وعبد العزيز بالخلافة بعده. فأراد أن يضع من خالد بن يزيد ويقصر به ويزهد الناس فيه، فدخل عليه يوماً فذهب ليجلس مجلسه الذي كان يجلسه فقال له مروان: تنح يابن رطبة الإست والله ما وجدت لك عقلاً.

فانصرف خالد وقتئذٍ مغضباً حتى دخل على أمه فقال: فضحتني.. ونكست برأسي ووضعت أمري. وقص عليها ما حدث. فقالت له: لا يسمع هذا منك أحد ولا يعلم مروان أنك أعلمتني بشيء من ذلك. فإني سأكفيكه وأنتصر لك منه.

فسكت خالد وخرج إلى منزله وأقبل مروان فدخل على أم خالد بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة وهي امرأته. فسألها؛ فقالت: ما حدثني بشيء ولا قال لي.

فقال: ألم يشكني إليك ويذكر تقصيري به وما كلمته به!

فقالت: يا أمير المؤمنين أنت أجلّ في عين خالد وهو أشد لك تعظيماً من أن يحكي عنك شيئاً أو يجد من شيء تقوله وإنما أنت بمنزلة الوالد له. فانكسر

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٥٠.

مروان. . وظن أن الأمر على ما حكت له وأنها قد صدقت. ومكث حتى إذا كان بعد ذلك وحانت القائلة فنام عندها. فوثبت هي وجواريها فغلقن الأبواب على مروان ثم عمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه فلم تزل هي وجواريها يغممنه حتى مات.

ثم قامت فشقت عليه جيبها وأمرت جواريها وخدمها، فشققن وصحن عليه وقلن مات أمير المؤمنين[1] فجأة. وذلك في هلال شهر رمضان سنة خمس وستين وكان مروان يومئذٍ ابن أربع وستين سنة وكانت ولايته على الشام ومصر. لقد قال الإمام عليه السلام له يوماً: ليحملن راية ضلالة بعدما يشيب صدغاه وله إمرة كلحسة الكلب[2].

لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة غارة النعمان[3]

خدع معاوية النعمان وأبا هريرة مظهراً الإصلاح بإرسالهما إلى الإمام بدعوى السعي لحقن الدماء؛ والطلب من الإمام أن يسلم قتلة عثمان. . مع أنه قد سبق أن قطع الإمام معاذيره بقوله: «أينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله. . أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه! أم من استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه!

فالحجة داحضة والمكيدة واضحة والغدرة فاضحة.

لقد قال له الإمام: حدثني عنك يا نعمان. . أنت أهدى قومك سبيلاً!

قال: لا.

فقال له: فكل قومك قد اتبعني إلا شذاذاً منهم ثلاثة أو أربعة. . أفتكون أنت من الشذاذ.

فقال يظهر الولاء ويبطن النكول: «أصلحك الله إنما جئت لأكون معك».

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ٢/ ١٧.
(٢) الطبقات الكبرى ٥/ ٤٢.
(٣) تاريخ الطبري ٣/ ١٥٠.

وعاد أبو هريرة إلى ابن هند وحده.

ولكن نفاق النعمان غلى في صدره ففر بعد شهر من مكثه. ولما بلغ عين التمر علم مالك بن كعب بالخبر فكان للنعمان غير ما قدر. . فقد نال الأسر وأعلم بفعله ولي الأمر.

فاستغاث سراً بابن عمه قرظة صاحب خراج البلدة ليشفع له لدى مالك فأجابه:

«اتق الله يا قرظة ولا تتكلم في هذا. فلو أنه من عبّاد الأنصار ونساكهم لم يهرب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين».

فألح قرظة فلباه مالك وأطلق سراحه؛ فما كان من المنافق إلا أن فر إلى أميره بالشام وباع نفسه له ليغير على الفرات!! . . وقال لمعاوية:

ابعثني فإن لي في قتالهم نية وهوى. وفرح معاوية. . وكان فرحه أكثر والنعمان يطلب منه الإغارة على من أحسن إليه. فأرسله في ألفي رجل إلى عين التمر وبها مالك بن كعب ولم يكن قد بقي معه إلا مائة رجل.

فكتب مالك إلى علي يخبره بأمر النعمان ومن معه فخطب علي الناس وأمرهم بالخروج فتثاقلوا. فقال:

ولكن الغدر لا ينتظر فسرعان ما هجم النعمان. وواقع مالك النعمان، والنعمان في ألفي رجل ومالك في مائة رجل. . فأمر مالك أصحابه أن يجعلوا جدر القرية في ظهورهم لينالوا المدافعين بنبالهم. وماذا تفعل المائة أمام الألف. تذكر مالك قوله تعالى في ذلك فقال لرجاله: «واعلموا أن الله ينصر العشرة على المائة والمائة على الألف، والقليل على الكثير». وثق بربه واستنصره فحق له النصر.

فقد اقتتلوا وأثخن مالك بعدوه. . وكتب إلى مخنف بن سليم يسأله أن يمده وهو قريب منه. فقاتلهم مالك بن كعب في العصابة التي معه كأشد القتال.

فوجه إليه مخنف ابنه عبد الرحمن في خمسين رجلاً. فانتهوا إلى مالك وأصحابه. . وقد كسروا جفون سيوفهم. فلما رآهم أهل الشام ذلك عند المساء ظنوا أن لهم مدداً فانهزموا وتبعهم مالك فقتل منهم من قتل. . وقد قذف الله في قلوبهم الرعب ففروا.

وخطب الإمام أصحابه بالنصر وقال:

وهذا بحمد الله وذم أكثركم.

أما النعمان فقد أتى عليه يوم كان فيه والياً على حمص وقد هاجمه رجال ابن الحكم.

فخرج هارباً ليلاً ومعه امرأته نائلة بنت عمارة الكلبية وولده فتحير ليلته كلها.

وأصبح أهل حمص فطلبوه وكان الذي طلبه رجل من الكلاعيين يقال له عمرو بن الخلي فقتله وأقبل برأس النعمان بن بشير إلى امرأته وولدها فألقى الرأس في حجر أم أبان ابنة النعمان التي كانت تحت الحجاج بن يوسف.

فقالت نائلة ألقوا الرأس إلي فأنا أحق به منها فألقي الرأس في حجرها ثم أقبلوا بهم وبالرأس.. حتى انتهوا بهم فجاءت كلب من أهل حمص فأخذوا نائلة وولدها.

غارة الفزاري.. إنه ليس من أهلك

ليت معاوية حرص على دماء المسلمين كما حرص عليها علي. وليته لم يستشر أمثال الوليد بن عقبة وقد ملأ قلبه بغض الإمام. إنه لم يستجب له وهو يحرضه على الحرب السافرة خوفاً من الهزيمة.

وها هو يؤثر الغدر ويوجه من الغلاة في بغض علي عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء.

لقد أمره أن ينهب من مر به من أهل البوادي؛ وأن يقتل من امتنع من عطائه صدقة ماله؛ ثم يأتي مكة والمدينة والحجاز وأن يأخذ المال عنوة وأكد بقوله:

«فمن امتنع من عطائك فالدماء في الأداء».

هذه هي حرمة البيت الحرام في الشهر الحرام ورسول الله ﷺ يقول:

المسلم على المسلم حرام؛ دمه وعرضه وماله. والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده.

وعصف الفزاري بأهل البادية وسرق أموالهم وسفك دماءهم..

فلما بلغ ذلك علياً وجه المسيب بن نجبة وهو فزاري أيضاً فسار حتى لحق ابن مسعدة بتيماء. فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس قتالاً شديداً. وحمل المسيب على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات كل ذلك لا يلتمس قتله.

فاستغاث الخبيث برحم قطعها وقربى قدّها وهو يسترحمه ويقول له:

النجاء النجاء.

فدخل ابن مسعدة وعامة من معه الحصن وهرب الباقون نحو الشام وانتهب الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة.

ولكن معاوية قد ينجد غزاته عندما يعلمه الخبر من هرب.

فحصره المسيب ثلاثة أيام ثم ألقى الحطب على الباب وألقى النيران فيه حتى احترق الحصن: فلما أحسوا بالهلاك.. تذكروا أنهم لهم أهل وما هم لهم بأهل.. فالله تعالى يقول لنوح الذي يستشفع لابنه:

إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح.. نادوا بالرحم وأشرفوا على المسيب فقالوا: «يا مسيب قومك». فرق لهم وكره هلاكهم مخالفاً أمر ربه فأمر بالنار فأطفئت.

وقال لأصحابه: قد جاءتني عيون فأخبروني أن جنداً قد اقبل إليكم من الشام فانضموا في مكان واحد.

فاهتبل الغدرة فرصة النجاة وهرب ابن مسعدة في أصحابه ليلاً حتى لحقوا بالشام.. يعدون العدة لغارة جديدة.

فقال عبد الرحمن بن شبيب للمسيب: سر بنا في طلبهم. فأبى ذلك عليه؛ فقال له: غششت أمير المؤمنين في أمرهم.

لقد بدد القائد النصر كما تتلاشى أمواج صنعتها حصاة؛ ولو وصلوا إليه لقتلوه.. ولو قووا عليه لكروا بعد فر.

أين دماء القتلى وأين أموال الذين سلبوا.. هل تعد هذه صلة رحم!

والله يقول لنبيه نوح في طلبه أن ينجي ابنه:

﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾.

غارة بسر.. اقتل شيعة علي حيث كانوا

روى بسر بن أبي أرطأة عن النبي ﷺ: اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها.

وقال الإمام للكوفة وقد ثارت رياحها وخمدت هممها: إن لم تكوني إلا أن تهب أعاصيرك فقاتلك الله. ولما تقاعس رجاله وثبطت هممهم قال لهم: اللهم إني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني؛ فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني. وأمد الاستجابة ليس ببعيد.. هل يمكن للإسلام أن ينتصر بأمثال هؤلاء! هذا ما أراد الإمام أن يعلمه الناس. لقد قال الإمام الحسن للناس بعد موت أبيه أنه سيسير بهم بسيرته فرضوا بالحياة الدنيا من الآخرة؛ فحمله تثاقلهم عن الجهاد إلى مصالحته خوفاً على الناس من المزيد من غارات معاوية. لقد شرط الإمام الحسن على معاوية أن يسير بسيرة الإسلام؛ على أن يكون الأمر له بعده أو للحسين وأنه ليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد وأن يترك معاوية سب أمير المؤمنين وأن لا يذكره إلا بخير وأن يكون الأمن والأمان للناس جميعاً. وسرعان ما نبذ معاوية العهد وراء ظهره قائلاً:

«ألا وإني كنت منيت الحسن أشياء وجميعها تحت قدمي»[1]. وقد روي أنه قال: ألا إن كل عهد عاهدته تحت قدمي وكل دم سفكته فهو مطلوبي وكل مال أنفقته فهو مالي.

وقد قتل حجراً وأصحاب حجر وبايع لابنه يزيد وسمَّ الحسن[2]. لقد قال الإمام الحسن يحذر الناس من سلطان بني أمية: «ولقد وجه الله إليكم فتنة لن تصدروا

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٤/ ٧.
(٢) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٤/ ١٠.

عنها حتى تهلكوا لطاعتكم طواغيتكم وانطوائكم إلى شيطانكم»[1]. ويروي ابن أبي الحديد عن موت الحسن عليه السلام فيقول: دس إليه معاوية سماً على يد جعدة بنت الأشعث زوجة الحسن وقال لها: إن قتلتيه بالسم فلك مئة ألف وأزوجك يزيد[2].

أما يزيد فقد هدم الكعبة وقتل الحسين واستباح المدينة وفيها أتي بزيد بن وهب بن زمعة ليبايع. فقال أبايعك على سنة عمر. فقال: اقتلوه.

قال: أنا أبايع.

قال: لا والله لا أقيلك عثرتك. فكلمه مروان بن الحكم لصهر كان بينهما فأمر بمروان فوجئت عنقه ثم قال: بايعوا على أنكم خول ليزيد بن معاوية ثم أمر به فقتل[3].

وإني لأعلم أنها بيعة ضلالة

قال معاوية لبسر:

«سر حتى تمر بالمدينة، فاطرد الناس وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا. فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم.. ثم سر حتى تدخل مكة، ولا تعرض فيها لأحد، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرادات؛ حتى تأتي صنعاء والجند فإن لنا بها شيعة».

ففعل بمكة والمدينة واليمن أفعالاً قبيحة[4]. فقد نثر الرعب في دير مروان وشرّد بأهل ماء قرب المدينة، واستباح أموالهم ومتاعهم وسرق إبلهم وخيلهم.

ولم ينقذ قضاعة أن هبت تأمنه وقد أكثرت من ذبح الذبائح له فقد أضرم النار في الدور والرعب في الصدور..

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٤/ ٧.
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٨.
(٣) تهذيب التهذيب ١/ ٣٨١.
(٤) تهذيب التهذيب ١/ ٣٨١.

وفي المدينة لم تنج من الحريق دار أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ الذي ترك المدينة خوفاً من فتكه ولا دار نافع ولا دار زرارة.

ويمضي بسر إلى المنبر يتوعد بقول الله للكفار مدعياً بنفسه ما وعد الله عليه الكفار: ﴿ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة﴾ الآية. ثم شتم الأنصار قائلاً:

«يا معشر اليهود وأبناء العبيد أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان، أما والله لأدعنكم أحاديث كالأمم السالفة». وحمل الناس على الدخول قسراً في طاعة معاوية، ولم ينج جابر بن عبد الله وقد هدد بسر قومه إن لم يدلوا عليه. فانسل جابر إلى أم سلمة أم المؤمنين فقالت له:

«يا بني.. انطلق فبايع.. احقن دمك ودماء قومك؛ فإني قد أمرت ابن أخي أن يذهب فيبايع. وإني لأعلم أنها بيعة ضلالة».

ومضى إلى مكة البلد الذي أجاب الله دعاء إبراهيم أن يجعله آمناً وقد فتحها رسول الله وحطم علي بن أبي طالب أصنامها وعفا عن الطلقاء من أهلها. لينفذ أمر معاوية ـ وهو يعلم أنه من الطلقاء ـ في أهلها بسنة القتل والنهب ثم يكمل إلى الطائف بمثل ذلك. ويلقاه المغيرة بن شعبة الذي كان يرائي الإمام ويرسل لبسر:

«بلغني سيرك إلى الحجاز ونزولك مكة وشدتك على المريب وعفوك عن المحسن وإكرامك لأولي النهى؛ فحمدت رأيك فدم على صالح ما كنت عليه..».

ولما التقيا قال بسر لأعور ثقيف: «صدقتني ونصحتني».. كيف كان سيظهر ما وقر في صدور هؤلاء لو لم تحدث هذه الفتن!.. ولله الحجة البالغة.

ومضى بسر إلى صنعاء وجيشان ثم عاد إلى صنعاء ليجهز على ما فات من بطش وسفك ونهب وهو يذيق الناس العذاب ألواناً، وحرق وقتل لا يرعى إلاً ولا عهداً وبلغ عدد ضحاياه ثلاثين ألفاً. لم يسلم شيخ كبير ولا ضعيف أعزل ولا طفل صغير.

وقتل في نجران عبيد الله وولده مالكاً وما كان ذنبه إلا أن كان صهراً لابن عباس.

وفي صنعاء قتل مائة رجل من فارس لأن امرأة منهم قيل إنها آوت لابن عباس

والي الإمام ولديه.. ثم بحث عنهما في دار رجل من كنانة فضرب بسر الباب فخرج الكناني شاهراً سيفه فآمنه بسر وقد سمعه يقول:

«والله لئن أقتل دون جاري، لهو أعذر لي عند الله والناس»، وادعى أنه ما كان يريد قتله.. وما لبث أن بانت النوايا فاستبسل الكناني مؤثراً الموت بشرف على الذبح بخنوع.

وفي خارب قتل وفداً أتاه يطلب الأمان.

قالت له كنانية تنكر قتل الولدان:

«والله ما كانوا يُقتلون في جاهلية ولا إسلام».

فصاح بها:

والله لهممت أن أضع فيك السيف..

فثارت في المرأة عزتها فقالت بشمم: والله إنه لأحَب إلي إن فعلت.

كما تزرع تحصد

هل يلام الناس الذين حاربوا في جيش بسر والضحاك وغيرهم أم يلام بسر ومعاوية أم كل من ولى والياً أم كل من تولى مثل هؤلاء بغير حق أم كلهم جميعاً.

غداً عندما ينصب مجلس القضاء في الآخرة..

عندما يقف محمد وآل محمد ومن يصلي على محمد وآل محمد وقد وقف تحت لوائهم في الدنيا والآخرة.

ويقف في شق آخر من يصلي على محمد وآل محمد وقد حاربهم أو وقف تحت لواء غير لوائهم أو رضي بما فعل بهم.. من ينال الوعد ومن ينال الوعيد.. والحكم يومئذٍ لله..

ذكر المبرد في الكامل في التاريخ أن خالد بن عبد الله القسري والي العراق في خلافة هشام كان يلعن علياً عليه السلام على المنبر فيقول:

اللهم العن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم صهر رسول الله ﷺ على ابنته وأبا الحسن والحسين ثم يقبل على الناس فيقول: هل كنيت.

وروى الجاحظ قول معاوية لأناس طلبوا منه الكف عن اللعن:

«لا والله حتى يربو عليها الصغير ويهرم عليها الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلاً».

لقد نجح مع أقوام ولكن الله كان يرفع علياً كلما نال منه المبغضون؛ لأن معاوية يريد أمراً و﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾. وهل هناك من رجس عليهم غير ما بهتهم به بنو أمية، ولو كان بهم رجس لكانت ذريعة أعدائهم لينالوا منهم ما يريدون. ولو كان عليهم رجس لما نالوا حب الله ولو لم يحببهم الله لما أمر الله الناس بحبهم ولو لم يحببهم وهو يعلم ما سينالهم على أيدي أناس يصلون ويصومون لما أمر الله سبحانه رسوله أن يوصي الناس بهم وبحبهم.

وقد حق قوله تعالى في إرادته إذهاب الرجس عنهم، ولا تزال تطلع عن نشر فضيلة لهم نشرت ومكرمة لهم أظهرت بعد ما طويت.

لقد أمر المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة حجر بن عدي أن يقوم فيلعن علياً عليه السلام. فلما أبى توعده؛ فقام فقال:

«أيها الناس إن أميركم أمرني أن ألعن علي فالعنوه». فمن الذي نال اللعن.

ويروي ابن أبي الحديد: «وأراد زياد (بعد أن اشتراه معاوية بأن ألحقه بفراش أبي سفيان) أن يعرض أهل الكوفة على البراءة من علي عليه السلام ولعنه. وأن يقتل كل من امتنع عن ذلك ويخرب منزله؛ فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون؛ فمات لا رحمه الله بعد ثلاثة أيام. وكان ذلك في خلافة معاوية».

وقال لعمر بن عبد العزيز أبوه يكشف عظم ما خدع به بنو أمية أهل الشام:

«يا بني إن من ترى تحت المنبر من أهل الشام وغيرهم لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد».

فقال عمر: فوقرت كلمته في صدري مع ما كان قاله معلمي (من فضل الإمام) أيام صغري. فأعطيت الله عهداً لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيّرنّ. فلما منّ الله علي بالخلافة أسقطت ذلك وجعلت مكانه: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى. وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. فجعلته مكان ذلك.

أليس هذا رجساً أزيل عن أهل البيت، ممن حلف أن لا يذكر لعلي ذاكر فضلاً!

سيف من خشب لذي عقل مسلوب

ونالت بسراً دعوة الإمام:

اللهم إن بسراً باع دينه بالدنيا وانتهك محارمك..

وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك..

اللهم لا تمته حتى تسلبه عقله ولا توجب له رحمتك ساعة من نهار.

حكى المسعودي في مروج الذهب «أن علياً دعا على بسر أن يذهب عقله لما بلغه قتله ابني عبيد الله بن العباس؛ وأنه خرف فقد قتل عبد الرحمن وقثم ابني عبيد الله بن عباس».

لقد لام عبيد الله بن العباس معاوية قائلاً: «أنت أمرت هذا اللعين أن يقتل ابنيَّ».

فراوغ محاولاً دفع التهمة قائلاً: «ما أمرته ولوددت لو لم يقتلهما»!!

فثار بسر من مخادعة معاوية.

من الذي أمر ودبر، من الذي فكر فقدر، من الذي عبس وبسر.. وما ابنا عبيد الله بن العباس في ضحاياه.. ومعاوية قد حكم بالموت ولنهب على كل من لم يكن شيعة له.

فصاح بابن هند قائلاً:

«اقبض سيفك، قلدتني، وأمرتني أن أخلط به الناس ففعلت..

حتى إذا بلغت فيه ما أردت، قلتَ.. لم أهوَ، ولم آمر».

ورمى بسيفه إلى معاوية.. فعما قليل سيمسك سيفاً من خشب يحارب به الهواء، فالجنون قريب والإمام مجاب الدعاء.

وأصيب بسر بلوثة في عقله فصار يرى خيالات قتلاه تطارده وراح يحاربها بأوهامه ويصيح هاذياً:

أعطوني سيفاً... أعطوني سيفاً... أقتل به..

ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

أما سعيد بن النمران عامل علي على الجند فيعتذر عن قتال ابن أبي أرطأة بالقول..

قد والله قاتلت خذلني وأبى أن يقاتل بعد أن آثر أن يسالم الثائرين من عثمانيي الهوى في صنعاء.

لقد تقاعس ابن عباس وهو يرى أن السلم أسلم..

وغفل عن أن الحديد لا يفله إلا الحديد فكان أن أصيب بفقد ابنيه.

وأما الذين خرجوا بالفتنة على الطاعة مع رجل من همدان فقد أرسلوا سراً إلى معاوية. فهددهم بأن الإمام سيوجه إليهم يزيد بن قيس فاستمهلوه..

فوصلت نجدة معاوية والقوم في جدل حول السلام.

ويرسل الإمام جارية بن قدامة السعدي بألفي رجل نهضوا بعد طول تمنع لينال من بسر ولكن بسر كان يقترب من أميره يبشره بأوزاره ويفخر بأنه قاطع طريق تندر الأيام بمثله.

وكانت الفاجعة عندما وصل جارية إلى مكة ليعيد الناس إلى بيعة علي..

فقد فوجيء بالناس يقولون ولمن نبايع..

قد هلك أمير المؤمنين.

فعصف به الحزن وقال: لمن بايع له أصحاب علي..

للحسن بن علي.

فإن كنتُ ابن سمية فانت ابن جماعة

سبق أن ذكر قول أبي سفيان متباهياً بزياد وأنه ابنه:

«أتيت أمه سفاحاً في الجاهلية».

فقال له عمرو بن العاص: «فهلا تستلحقه».

فأشار إلى ابن الخطاب قائلاً: «أخاف هذا العير الجالس أن يخرق علي إهابي»[1].

وها هو معاوية يسعى إلى ما فشل فيه أبوه، يرسل إليه يغره بالمال ويغريه بالنسب. وأغواه بوعده بالفيء مع أنه ينال الفيء وهو في ظل الإمام؛ فحذره الإمام قائلاً:

«وقد علمت أن معاوية كتب إليك يستذل لبك ويستغلّ غربك؛ فاحذره..».

«فإنما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله»[2].

فكتب إليه معاوية يذكره بما سبق من أبي سفيان ويقول:

«غرتك قلاع تأوي إليها كما تأوي الطيور على وكرها... تنسى أباك وقد شالت نعامته يخطب الناس والوالي لهم عمر».

فثارت ثائرة زياد وخطب يشهر بمعاوية على المنبر:

«العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق.. يهددني وبيني وبينه ابن عم رسول الله، وزوج سيدة نساء العالمين، وأبو السبطين، وصاحب المنزلة والولاية، في مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان».

---

(١) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٤/ ٦٧ وفي الاستيعاب لابن عبد البر.
(٢) ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة ٤/ ٦٦.

وكتب زياد إلى الإمام يعلمه بكتاب أخيه إليه ورده عليه:

هل سيبقى زياد وفياً لإمامه.. أم سيجذبه دفء فراش ابن أبي سفيان إلى حمامه.. هل سيذكر أنه كتب إلى معاوية بعد أن عيره بأنه ابن سمية يقول:

«يا ابن الصخر اللعين.. زعمت أن يزن الجبال حلمك، ويفصل بين أهل الشام علمك.. وأنت الجلف المنافق الأغلف القلب القليل العقل الجبان الرذل..

وقال السها للشمس أنت خفية وقال الدجى يا صبح لونك حائل

إنما يكفر النعم ويستدعي النقم من حاد الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً..

فإن كنتُ ابن سمية فأنتَ ابن جماعة!

ولن يطول به الأمر ليلحق بالجماعة.. وقد لوح له بالنسب!

غارات الفساد

لقد دفع رسول الله ﷺ عربة الإسلام؛ فانطلقت بقيادته تنشر دين الفطرة وتحمل من خلصت فطرته من حب المال والسلطان والشهوات والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة. واستمرت تنطلق بعد وفاته ﷺ تنشر الرحمة للعالمين بما أودعه الله فيها من قوة لا بقوة من يقودها. فالنصر من الله للإسلام.. فإذا نصر المسلمون دينه أنجز الله لهم وعده بالنصر، وليت المسلمين اعتصموا بحبل الله بدل التنازع والتحزب الذي أدى إلى وقف انتشار الدعوة.. فقد عصفت الفتن بالمسلمين أيام عثمان والجمل وصفين والخوارج وغيرها مما أدى إلى اقتتال المسلمين لنصرة هذا ورفعة ذاك.

ولو تمسكوا بالحق لاستمرت رايات الدعوة خفاقة تطهر الأرض من لوث الشرك.

يقول الغزالي[1]: «إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال

(١) الغزالي محمد في كتابه هموم داعية.

الحجاج وعبيد الله بن زياد وبعض ملوك بني العباس وبعض سلاطين بني عثمان».

ليت معاوية حفظ بلاد المسلمين ولم يشعلها ناراً تلظى، غارة إثر غارة؛ وسرية بعد سرية؛ واحدة في ركاب الأُخرى..

والإمام يستحث رجاله على مقارعة الفساد والمفسدين وكسر شوكتهم.. لقد توالت الغارات ويعتصر قلب الإمام ويحزنه تقاعس جنده.

لوددت لو أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم

سعيد بن قيس الهمداني عاد إلى الكوفة بعد تعقب سفيان بن عوف الغامدي في غارته على الأنبار.. فإذا ببسر يبدأ غارته الوحشية على المدينة ومكة واليمن.

ويعود جارية من مطاردة بسر وحشود معقل بن قيس تعد لغزو الشام..

ولو امتد عمر الإمام لذاق معاوية من جيش الإمام ما فاته في صفين بخدعة المصاحف ومهزلة التحكيم. وأين تقع دعوى معاوية في حبه للسلام وغاراته تحمل الوحشية والغدر والكيد أم أنها لصق فضيلة بابن هند فهي عنزة ولو طارت. أوهل يقر المسلم من يفعل به أفاعيل كهذه أم أنه ينبذها.. وليكن من تولاها من يكن. ومع كل ما حدث فإن النصر العسكري كان للإمام؛ ومعاوية لم ينتصر في معركة شريفة وإن كان السبي والنهب مغنماً له في غاراته. وإذا لم ينهض جند الإمام لدفع العدوان؛ فأنى للإمام أن ينقذ المستضعفين من النساء ولولدان؛ وها هو يستنهض صحبه:

«أين العمالقة.. أين الفراعنة.. أين الذين ساروا بالجيوش». لم التقاعس والكل ماضٍ إلى ربه. ويذكرهم بخيار الصحابة الذين ثبتوا مع الرسول لينهض معه مثلهم: «أين عمار وأين ابن التيهان وأين ذو الشهادتين.. وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية». عمار الذي وقف يوم اليمامة يشحذ همم أصحابه: «أمن الجنة تفرون! هلم إلي أنا عمار». عمار الذي وقف مع الحق وقتلته الفئة الباغية.. «وأبو الهيثم.. مالك بن مالك بن التيهان..» سبق إلى الإيمان وغرس في المدينة بذرة الإسلام.. أحد النقباء الإثني عشر في بيعة العقبة الذين بايعوا رسول الله ﷺ أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم، ويكونوا له أهلاً وجنداً.. وقد وفى

لمحمد حياً ووفى له بعد ما توفي ﷺ وأعلن في فضاء بني بياضة تأييده للإمام لتعود له البيعة بعد أن أخرجت إلى تيم ببيعة أبي بكر.

وخزيمة بن ثابت الأنصاري.. ذو الشهادتين.. صاحب راية بني خطة من الأوس يوم ذل الله الشرك بفتح مكة. خزيمة الذي شهد لرسول الله ﷺ أنه اشترى فرساً من سواء بن قيس وكان سواء قد جحد الشراء.. وقد سأله رسول الله ﷺ: «ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضراً معنا»! فأجاب بقلب مفعم بالإيمان: «صدقتك بما جئت به، وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً». فأصبح ذو الشهادتين ويكتفى بقوله عن شاهدين لقول رسول الله ﷺ: «من شهد له خزيمة أو عليه فهو حسبه».

وشهد ذو الشهادتين بالحق لعلي وكان من أولياء الإمام. والعدو هو ابن أبي سفيان. وفي الشق المقابل كان معاوية ومعه الفئة الباغية التي قتلت عماراً واحتزت رأسه..

وقتلت محمد بن أبي بكر ووضعته في جوف حمار وأشعلت به النار، وقتلت صغيري ابن عباس.. وسفكت وأحرقت ونهبت.. وعمرو بن العاص الذي طلب ولاية مصر طعمة ليشير بخدعة التحكيم ويشترط على معاوية قائلاً: «لا أعطيك من ديني حتى تعطيني من دنياك». وغيرهم كثير.. وأمثالهم في كل زمان ومكان مما لا يندر به الزمان.. يبيعون نفوسهم رخيصة ويموتون في سبيل إقطاع أو صفقة أو عطية أو هبة، تعجبهم القصور والمراكب الفخمة والحياة المترفة فيستكبرون بغير الحق وينيلو إخوانهم سوء العذاب.. والدوائر تدور حولهم. الإمام يقول لمن معه: «لوددت لو أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم».

كيف لا وقد خرج عليهم بخديعة جديدة حين أعلن نفسه أميراً للمؤمنين.. أليست هذه ثمرة ما سبق منه من القول: من معاوية إلى علي! والإمام يقول: «ما زال الدهر ينزل بي حتى قيل علي ومعاوية». ليت عمر لم يعينه والياً؛ إذاً لتغير وجه التاريخ».

وها هو يطالب بدعوى السلام اقتسام دولة الإسلام مع الإمام. أوهل يخدع الإمام!!

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله

سلام عليك.. فإني قد أُشركت في الأمر معك. وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً لا يعلمون. فما كان من رسول الله إلا أن أجابه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب؛ سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فإن الأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

فهل يمكن اقتسام الأرض بين الإمام ومعاوية؟ في صلح الحديبية أبى الإمام عليه السلام إجابة طلب سهيل بن عمرو ومحو لقب رسول الله من الصلح.. فقال له الرسول ﷺ: «ستدعى إلى مثلها وأنت كاره». وصدق الرسول وحدث نظير الأمر بعد صفين.

وها هي النبوءة تعود من جديد.. ببيعة معاوية لنفسه وطلب اقتسام الأرض بينه وبين الإمام.. الشام لمعاوية والعراق للإمام. وتبدأ الجيوش بالمسير.

لقد أقام الرسول ﷺ انتماءات جديدة بعيدة عن العصبية والقبلية والقومية، فالدعوة ليست لبني هاشم بل لدين الله فالذي يحارب علياً وأهل بيته يحارب دين الله ولو صام وصلى. لم يدع الرسول ﷺ الناس إلى بني هاشم بل إلى الله الواحد القهار..

إن أكرم الناس عند الله أتقاهم وفضل علي ومقامه ليس لأنه من بني هاشم بل لأنه أتقى الناس وأقربهم من الله وأكثرهم نيلاً لحب الله. فأبو لهب قد تبت يداه وهو عم رسول الله ﷺ. فالحرب ليست بين الأمويين والهاشميين بل بين الأمويين والمسلمين. والحرب التي شنها معاوية لم تحمل راية الإسلام تحت أي ظرف من الظروف، بل كانت تحارب الإسلام الذي يحمله علي، ونظام الحكم الإسلامي الذي يمثله الإمام.

لقد كان الإمام يتقرب إلى الله بقتال معاوية. فهل كان معاوية يتقرب إلى الله

بقتال الإمام! وهل كان يتقرب إلى الله بإرسال الغارات على الآمنين! وهل يمكن تبرير استحلال البيت الحرام في الشهر الحرام.

وهل كان ابن العاص يتقرب إلى الله بخديعة المصاحف والتحكيم! أم يتقرب إليه بنيل مصر طعمة! ألم يكن معاوية عالماً بأنه يخدع الناس ببضاعة مزجاة! وماذا لبضاعة كهذه عندما تكشف الحقائق غير البوار!

ألم يحرض طلحة على أن ينكل بيعته للإمام ويعرض عليه البيعة ويقول:

«فقد أحكمت لك الأمر قبلي والزبير غير متقدم عليك بفضل»! وهذا إيقاع بينه وبين الزبير لو كان لهما النصر في الجمل ليقتتلا. ثم كتب إلى الزبير يذكره بمقامه وأهليته للخلافة: «وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمة». ثم يقول له كما قال لطلحة:

«فقد أحكمت لك الأمر على من قبلي ولصاحبك على أن الأمر للمقدم، ثم لصاحبه من بعده». ويحرض سعيد بن العاص ويوغر صدره؛ ولكن الرجل يكشف خديعته ويقول له: «أمرتنا بطلب دم عثمان فأي جهة تسلك فيها!

وهل نحن إلا حي من قريش إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنا الحق».

ومن جهة العقيدة يتحدث روجيه غارودي عن نشر معاوية العقيدة الجبرية فيقول: «فحينما سيطر الأمويون على مقاليد السلطة، وجهوا أكبر طعنة لراية الإسلام وهي:

- ابتداع عقيدة تبرير لوجود سلطات ملكية استبدادية.

- إيجاد مدرسة فكرية تعلم الناس الخضوع والاستسلام لهذه السلطات الجائرة». ثم يفند مزاعم وعاظ السلاطين الذين يروجون مذهب الجبرية ويقول:

«عندما يكون هناك ملك فهذا يعني أن الله أراد ذلك وما عليكم إلا الطاعة والخضوع».

«ولو سايرنا هؤلاء في معتقداتهم فسنصبح مثلهم بعيدين عن التعاليم الدينية القائلة:

إن من أفضل الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر»[1].

فهل تجب طاعة إبراهيم للنمرود وطاعة موسى لفرعون وقد آتاهما الله الملك، وهل خالف إبراهيم ما أراد الله بكسر الأصنام وخالفها موسى بإنقاذ قومه بدعوى أن الله أراد بني إسرائيل عبيداً لفرعون!!

فضائل معاوية

تفنن الرواة في الإطناب بحكمة معاوية وقدرته وتدبيره وفتوحاته. ولكن ما هو المقياس الذي قيست به هذه التي سموها فضائل..

هل منها فتحه للشام وليس هو الذي فتحها.. أم توسعته لرقعة دولته.. وليته بسط نفوذه على أرض الشرك بدل اقتطاع أراض المسلمين وبدل إرسال الهدايا لقيصر ليأمن حدوده معه؛ أوليست هذه جزية يدفعها له بدل أن ينشر دين الله في أرض الروم!

وهل كان يحكم بين الناس بالعدل.. وهل كانت له أهلية الإمامة أو شعبية البيعة!

وهل أقام دين الإسلام بعد أن بسط يده بالسلطان!.. إن معاوية لا يملك فكراً سياسياً ولا منطلقاً لعقيدة سياسية أو اقتصادية يبني دولته عليها. والقليل الذي كان يقوم به من تعاليم الإسلام لأنه من نتاج أمة أمية لا تحمل مدرسة فكرية.. فالذي فعله معاوية هو أنه سخّر الإسلام ليخضع أعناق الناس بدل أن يخضع هو للإسلام وينشر دين الله لينعم به من انضوى إليه.. إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون.

صراع تحسمه أنثى

واندفع جند الإمام.. حزب الله.. وارتفعت رايات ألويته.. وها هم قادتها..

(١) روجيه غارودي، كيف ننشر الإسلام.

الحسين بن علي.. فرع الشجرة الطيبة.. سبط الرسول.. حسين مني وأنا من حسين..

عبد الله بن عباس.. قيس بن سعد.. أبو أيوب الأنصاري.. وتخرج جيوش معاوية.. وارتفعت أعلام حزبه.. وها هم قادتها..

عمرو بن العاص.. أوهل أعد سوأته لتنقذه رؤيتها! أبو الأعور السلمي..

حبيب بن مسلمة.. هل يقودون جندهم إلى الجنة وما هي الدنيا التي وعدوا بها!! وانطلقوا لتبدأ الحرب الإسلامية الأموية.. ولكن هل ستبدأ..

لم يكن النصر لمعاوية أبداً في أية معركة مع الإمام.. فلمن ستكون كفة النصر.. أم أن أنثى ستحسم الصراع!!

غارة الرهاوي على بيت الله الحرام

مكيدة جديدة لمعاوية.. إنه يعلم أن الإمام لا يمكن أن يهتك حرمة البيت الحرام فلم لا يهتكها هو وهو آمن أن الإمام لا يمكن أن ينتهك حرمة البيت ولو انتهكها هو.

ويفاجأ ابن عباس والي الإمام على مكة بأن معاوية قد أرسل يزيد بن شجرة الرهاوي أميراً على الموسم؛ ليثير النزاع ويدعو الناس إلى معاوية.. واكتمل التدليس بنشر الأخبار عن صلح لاقتسام السلطان.. والناس يميلون إلى تصديق هذه الأكاذيب لأنهم يحبون أن تضع الحرب أوزارها. وقد ظهر من تقاعسهم والإمام يستنهضهم الأعاجيب. لو هزم معاوية كيف كان التاريخ سيذكره! هل سيقال عنه أنه بطل نشر الإسلام، وهل سيبرر له دفع الجزية لقيصر، وهل ستمجد غارات النهب والسلب التي عمت بلاد المسلمين أم سيقولون ما قال فيه الإمام: «فلقد سلكت مدرج أسلافك بادعائك الأباطيل واقتحامك غرور المنى والأكاذيب، من انتحالك ما قد علا عنك».. فهل تعلم الناس من الإمام أن يدوروا مع الحق كيفما دار بدل أن يكونوا مع الباغي إذا انتصر. وتمر الشهور كلمى حزينة، وجراح غارات ابن هند ثخينة وهمم أصحاب علي عنينة؛ وأقوال الإمام ثكلى بلا نواح:

«ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً.. وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم؛ فوالله ما غزي قوم قط في عقر ديارهم إلا ذلوا.. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم وملكت الأوطان.. يا أشباه الرجال ولا رجال..

لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم قلبي غيظاً وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش.. إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب.. لله أبوهم.. وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني.. لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وها أنا ذا قد ذرفت على الستين.. ولكن لا رأي لمن لا يطاع.

ولم يستجب له في موعد الرحبة ليقاتل معاوية غير ثلاثمائة رجل نصروه مع جندب بن عفيف الأسدي وأخيه. وجاء آخرون يعتذرون فتلا عليهم قوله تعالى: **﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾**. وذكرهم بأيام نبيهم؛ فبلغ بهم الجدل أن قالوا: ما أنت بمحمد ولا نحن بأُولئك. ولكن حجر بن عدي الكندي وسعيد بن قيس الهمداني أنكرا على القوم تخاذلهم ونهضا يبايعانه على الموت فهتف صائحاً: تجهزوا للمسير إلى عدونا..

هل ينهضون إلى قتال معاوية.. أم أن الأيام حبلى..

***

الفصل الثاني عشر

مقتل الإمام

فزت ورب الكعبة

فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء..
وأوتوا الحكمة.. وفصل الخطاب..

عباس محمود العقاد
عبقرية الإمام علي ١٣٩

ثلاثة رابعهم أنثى

كانت أنثى تلك التي بغتت الأحداث فتغير مجرى القدر.. بل قل أفعى. لم يكن دماً ذلك الذي يجري في عروقها؛ بل كان حقداً مشبوباً وناراً مستعرة لا يكاد يصل إلى قلبها حتى يندفع ناراً تكوي أضلعها.

وكانوا ثلاثة من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم وهو من كندة، والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم. ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا:

ما نصنع بالبقاء بعدهم.. إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم. فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا.

كانوا مصداقاً لقوله تعالى: **﴿ألا هل أدلكم على الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾**.

إنهم عباد مصلّون يستحقر أحدكم صلاته أمام صلاتهم، جباههم ثفنات من السجود وهاماتهم موسومة بأثر العبادة. لقد قال رسول الله ﷺ للإمام فيهم:

«تقاتل حينئذ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله».

لا يكاد يختلف اثنان على أنهم من أهل النار.. كيف لا وقد كانوا في شق يخالف شق الإمام. فحكمهم كحكم البغاة الذين حاربوه وهؤلاء قد مرقوا من الدين بحديث الرسول فيهم.

فقال ابن ملجم وكانَ من أهل مصر: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب.

وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان.

وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص أحد عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه.

وأخذوا أسيافهم فسمّوها وتواعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان، أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه. وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه ثأره.

كمن البرك في الليلة التي ضرب فيها الإمام لمعاوية، فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بسيفه فوقع السيف في إليته؛ فأخذوه.

فقال: إن عندي خبراً أسرك به فإن أخبرتك ذلك تطلقني.

قال: نعم.

قال: إن أخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة.

قال: فلعله لم يقدر على ذلك.

قال: بلى إن علياً يخرج ليس معه من يحرسه. فأمر به معاوية فقتل[1].

ومع أن سروره بمقتل الإمام عظيم، فإنه لم يفِ بوعده للرجل أن يطلقه. فلما نظر إليه قال: اختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها فإن ضربتك مسمومة.

فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر بن عيني. فسقاه تلك الشربة فبرىء ولم يولد له بعدها. وأمر بحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد. وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى بطنه. فأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته وكان من بني عامر فخرج ليصلي؛ فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله.

فأخذه الناس إلى عمرو؛ فقال من هذا! قالوا عمرو.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٩.

قال: فمن قتلت! قالوا: خارجة بن حذافة.

فقال لعمرو: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك.

فقال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة. ثم قدمه فقتله[1].

ما يحبس أشقاها

جاء الحميري يطلب العطاء من الإمام عليه السلام فرمقه بنظرة ثاقبة لم يفهم الرجل معناها وامتدت يده إلى عطاء الإمام فسمعه يقول: ما يحبس أشقاها!

أنّى لهذا الحميري وغيره ممن سمع، أن يعي أو يفهم مقالة الإمام وسؤاله.

إنها نبوءة محمد صلى الله عليه وآله إنها حديث حبيب لحبيبه يعز عليه ما يلقى من عنت ويكشف له من حجب الغيب: أتعلم من أشقى الأولين! فيجيب علي رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم عاقر الناقة.

فيسأله: أتعلم من أشقى الآخرين. فيقول علي عليه السلام: لا. فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: من يضربك هاهنا - مشيراً إلى هامة علي - فيخضب هذه؛ مشيراً إلى لحيته.

كل من روى الحديث يعلم أن من حارب علياً أو قصد قتله - أفلح أم لم يفلح - من الأشقياء؛ سواء قبل الإسلام أو بعده. لقد أقسم الإمام أنه ما قتل أحداً إلا أورده النار.

ما أكثر من رضخهم في جاهليتهم بسيف الإسلام..

وفي موقعة الجمل فلق علي هام الكثيرين ورام كثيرون قتله فخابوا..

وفي صفين شرد علي بمن مع معاوية وأرسل بسيفه الكثيرين إلى النار. ونجا عمرو بعورته من سيف الإمام وجبن معاوية عن اللقاء. وكم ودّ أن ينال زبانيته منه مقتلاً ففشلوا.

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٩.

لقد أخبر الإمام: «إني لا أُقتل محارباً، وإنما أُقتل فتكاً وغيلة.. يقتلني رجل خامل الذكر».

ها هو الرجل قد أتى وهو يلوذ بفرع مراد من كندة من أهل الأشعث بن قيس ليأخذ عطاءه من الإمام غير واع بفراسة علي عليه السلام.. الذي يقول:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

ويعجب الناس فالإمام يعطي الرجل عطائه غير منقوص ويتركه. وهو يعلم أنه قاتله، اليوم أو غداً.. فيقولون له: فهلا قتلته يا أمير المؤمنين.

إنهم لم يعرفوا الإمام؛ لا قتل بلا جريرة، ولا حد بلا جريمة، ولا قصاص بلا ذنب. ولو كان معاوية ونظائره لقتل على الظنة وفتك بالشبهة. أما الإمام فقد قال: فكيف أقتل قاتلي!

ووجم القوم.. وهم يسمعونه: «إنه لم يقتلني فكيف أقتل من لم يقتل».

لقد فصل الرسول صلى الله عليه وآله الحكم بأمر علي: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

قتلت بسيف اللحظ عاشقها

انطلق ابن ملجم من الحجاز متسللاً مخافة كشف أمره؛ حتى لقي أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من مكره.

والتقى الأشعث الذي كان يتقلب بين العداء والولاء. كان يقض مضجعه أن من الخطى ما لا يمكن للمرء أن يعود بعدها. فمن لم يحذر أين تقع قدمه هوى..

كيف له أن يقتل الإمام.. الله لا يرضى عن ذلك والمصير جهنم.. ولكن الشيطان زين له سوء عمله فرآه حسناً.. إنه يقي المسلمين من فتنة الاقتتال ويأخذ بثأر إخوانه.

ونالت منه قطام ابنة الشجنة فاتنة من تيم الرباب. وقد قُتل أبوها وأخوها يوم النهروان.

كانت فائقة الجمال، فالتبست بعقله ونسي قتل الإمام، فتقدم يخطبها...

فهل غفل عنه إبليس وقبيله!

مهر يورد النار

وجد ابن ملجم من جنود إبليس من أهل كنده من يوتر حقده، فغدا يتقلب بين سكرة الحب ونشوة التيم وبين طعم الدم وأريج الغدر. ولكن إبليس أراد أن يقضي على نوازع الخير فيه. وبحثا أمر خطوبتهما.. وزاد غرامه بها.. وها هو يطلبها زوجة.. وكانت المفاجأة إذ لم يعد قطر الندى ذلك الذي يقطر من فيها بل كان سماً مشبوباً:

- لا أتزوجك حتى تشفي لي..

- وما يشفيك!

- ثلاثة آلاف وعبد وقينة.

- هو مهر لك.

- وقتل علي بن أبي طالب.

فصعق.. أية أنثى هذه وأي فؤاد ذاك الذي بين أضلعها فقال لها:

فأما قتل علي فلا أراك ذكرته لي..

قالت: بلى التمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها. وهنالك استولى الشيطان على أوليائه.

فقال: فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل علي فلك ما سألت.

قالت: إني أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك.

وبعثت إلى رجل من قومها يقال له وردان فكلمته فأجابها؛ ولكنها لم تكتف

بابن ملجم . ولم يكتف ابن ملجم بوردان؛ فقد أتى برجل من أشجع يقال له شبيب بن بجرة. فقال له:

هل لك في شرف الدنيا والآخرة! قال: وما ذاك! قال: قتل علي بن أبي طالب.

قال: ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إدّاً إذ كيف تقدر على علي!

قال: أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه. فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا؛ وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها.

قال: ويحك لو كان غير علي لكان أهون عليَّ قد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبي ﷺ وما أجدني أنشرح لقتله.

قال: أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين. قال: بلى قال فنقتله بمن قتل من إخواننا.

فجاءوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة فقالوا لها: قد أجمع رأينا على قتل علي.

وقست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة. يا له من اعتكاف ويا لها من عبادة تلك التي أوصلتها للقول: فإذا أردتم ذلك فأتوني.

اللهم أبدلني بهم خيراً منهم

وجاءت ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها الإمام.. وحل سحَر ليلة القدر.. قال الإمام: ملكتني عيني وأنا جالس؛ فسنح لي رسول الله ﷺ فقلت:

يا رسول الله ماذا لقيتُ من أمتك من الأود واللدد[1]. فقال: «ادع عليهم»!

فقلت: اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي من هو شر مني.

(١) عبقرية الإمام علي ـ عباس محمود العقاد ص ١٣٩. والأود: الاعوجاج. واللدد الخصام. وهذا من فصيح الكلام..

وليد في الكعبة شهيد في المحراب

واقترب الوعد وسينال رفقة رسول الله وفاطمة والذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن وأولئك رفيقاً، وسينال دعاء الإمام أمته.

فها هو معاوية سيولي عليهم من يسومهم سوء العذاب، ومن بعده يزيد على الأعتاب يهدم الكعبة ويستبيح المدينة ويقتل الحسين. وبعده سيلي مروان بن الحكم.

ومروان سيقتل بمرج راهط قرب حمص الضحاكَ وصحبه وسيحمل الرأس إليه في الشام.

وسيقتل أشراف الناس من أهل الشام. وسيدس معاوية السم لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد لتخلص ولاية العهد ليزيد عندما يتناهى إلى مسامعه أن قلوب أهل الشام تهوي إليه، وسيدس مروان المكائد ليسلب الخلافة من خالد بن يزيد بن معاوية فيتزوج أمه ليصغر شأنه بين الناس بعد أن استقرت له ولاية العهد، ثم سيعمد إلى إذلال خالد والمجلس غاص بأهله بقوله له: اسكت يا ابن الرطبة[1]. وسينال مروان الخلافة وسيموت خنقاً بالوسائد بعد أن تجلس عليها أم خالد ووصيفاتها تشفياً من تعييره إياها؛ وقد سبق ذكر ذلك. وجاء ابن ملجم إلى فاتنته؛ فقال:

هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبي أن يقتل كل منا صاحبه.

فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم.. فالموعد الفجر..

وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر..

وتجهز المكرة تشدهم قطام بعصائب من حرير ليكمنوا قرب السدة حيث الأشعث..

سيخرج أمير المؤمنين عليه السلام.. ويؤوب الكون بالتسبيح مكبراً..

الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. ثم يردد الكون اسم خاتم الرسل أول

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢/ ٤٠.

مسبح بربه العظيم.. ويردد الملأ الشهادة.. في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

أشهد أن محمداً رسول الله.. وتصلي الألسن والقلوب على محمد وآل محمد.. ويمر الإمام منادياً: الصلاة.. الصلاة.. إنها ليلة مباركة ويصيح الأشعث ينبه صاحبه عبد الرحمن:

«النجاء النجاء بحاجتك.. قد فضحك الصبح.. النجاء النجاء».

ويثب حجر بن عدي إلى السدة ليصد الغدر.

ولكن السبق لمن سبق فقد ضربه شبيب بالسيف.. ولكنه أخطأ ووقع في طاق الباب..

فأهوى ابن ملجم بسيفه على الإمام وهو يقول: «الحكم لله يا علي؛ لا لك..».

وشُق رأس الإمام إلى الجبين.. ويقفز حجر وقد فجع قلبه ويصيح: «قتلته يا أعور»... «قتل أمير المؤمنين».. «قتلت خير الناس»!

وهرب وردان حتى دخل منزله فتبعه رجل وهو ينزع الحرير عن صدره، فجاء بسيفه فعلا به وردان حتى قتله.

وخرج شبيب نحو أبواب كندة في الغلس؛ وصاح الناس. فلحقه رجل من حضرموت يقال له عويمر وفي يد شبيب السيف فأخذه وجثم عليه الحضرمي. فلما رأى الناس قد أقبلوا في طلبه وسيف شبيب في يده خشي على نفسه فتركه.

ونجا شبيب في غمار الناس.. فشدوا على ابن ملجم فأخذوه.

وخضب الدم علياً وهو يقول:

النفس بالنفس إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي.

ودخل الناس على الحسن فزعين لما حدث فسمعوا ابنته أم كلثوم تصيح باكية:

أي عدو الله لا بأس على أبي والله مخزيك!

قال: فعلى من تبكين والله لقد اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه

الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد.

فدعا الإمام حسناً وحسيناً وأوصاهما بتقوى الله والزهد بالدنيا وقال:

ولا تبكيا على شيء زوي عنكما.. وكونا للظالم خصماً.. وللمظلوم ناصراً..

واعملا بما في الكتاب.. ولا تأخذكما في الله لومة لائم..

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به[1].

تخضُّبُ الإمام في دمه لم يغفله عن ذكر الله وحكم الله وشرع الله، فقد نهى الحسن عن المثلة وقال:

يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين. ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي.. انظر يا حسن إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة.. ولا تمثل بالرجل؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

فلما قبض عليه السلام بعث الإمام الحسن[2] عليه السلام في إحضار ابن ملجم، فقال للحسن:

هل لك في خصلة.. إني والله ما أعطيت الله عهداً إلا وفيت به. إني كنت قد أعطيت الله عهداً عند التحكيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما؛ فإن شئت خليت بيني وبينه؛ ولك الله علي إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدي في يدك.

فقال له الحسن: أما والله حتى تعاين النار فلا. ثم قدمه فقتل.

وقال الإمام للحسن عليه السلام: أوصيك أي بني بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة. وأوصيك أن تغفر الذنب.. وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عند الجهل والتفقه في الدين والتثبت في الأمر.. والتعاهد للقرآن.. وحسن الجوار.. والأمر

(١) تاريخ الطبري ٣/ ١٥٠ ـ ١٥٥.

(٢) ابن حجر في صواعقه المحرقة يذكر أن الإمام الحسن هو الخليفة الخامس بعد أبيه.

بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الفواحش.. ولما حضرته الوفاة أوصى فكانت وصيته:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب؛ أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.. إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين...

أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول:

إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام.. انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب.. الله الله في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم ولا يضيعن بحضرتكم.. والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ﷺ ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.. والله الله في القرآن فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم..

والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم.. والله الله في بيت ربكم فلا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تُناظروا.. والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم.. والله الله في الزكاة فإنها تطفىء غضب الرب.. والله الله في ذمة نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم..

والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم.. وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله... ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم.. وعليكم بالتواصل والتباذل وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق..

وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.. واتقوا الله إن الله شديد العقاب. حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم.. أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله.. ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض.

لقد قال الإمام لقاتله: أي عدو الله ألم أُحسن إليك! قال: بلى.

قال: فما حملك على هذا! قال شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه..

فقال عليه السلام: لا أراك إلا مقتولاً به ولا أراك إلا من شر خلقه.

ويقول أثير بن عمرو بن هانىء الذي جاء بالطبيب؛ وقد أظهر الجرح بياض الدماغ:

«اعهد يا أمير المؤمنين» ويضيء وجه الإمام وهو يروي كفه من دماء هامته ويذكر موعده مع الرسول: «ستضرب على هذه.. فتخضب منها هذه..»..

إنها ليلة مباركة.. تنزل الملائكة والروح فيها.. لتصعد بعلي إلى الملكوت بإذن ربهم من كل أمر.. سلام هي لعلي.. وسلام على علي..

فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب[1].

ولد في الكعبة واستشهد في محراب.. وبينهما كانت حياته في محراب الكون صلاة..

(١) عبقرية الإمام علي ـ عباس محمود العقاد ص ١٣٩.

المراجع العربية والأجنبية
التي أشير إليها في الحواشي

- القرآن الكريم
- أبي هريرة لأبي رية
- أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ للدكتور إبراهيم شموط
- أسد الغابة ربن الأثير
- ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة
- ابن تيمية منهاج السنة النبوية القاهرة
- ابن عبد ربه العقد الفريد
- اعتقاد أهل السنة
- الإحكام - ابن حزم
- الإصابة
- الأصفهاني -الأغاني
- الاستخلاف
- الاعتقاد
- البلاذري - أنساب الأشراف
- البيان والتعريف
- الثقات
- الرياض النضرة
- الزمخشري، الكشاف
- السنن الكبرى- البيهقي
- السيرة النبوية- طبع مصر.
- الشهرستاني - الملل والنحل
- الطبراني -الأوسط
- الطبقات - ابن سعد
- الغزالي محمد - هموم داعية
- الغزالي محمد، معركة المصحف
- تفسير القرطبي
- تفسير الكشاف للزمخشري
- المستدرك للحاكم النيسابوري
- المسعودي - مروج الذهب
- المغازي للذهبي
- المقريزي، التنازع والتخاصم
- الوصية
- تاريخ ابن خلدون
- تاريخ الإسلام ،حسن إبراهيم حسن- مصر.
- تاريخ الرسل والملوك للطبري
- تاريخ اليعقوبي
- تفسير الرازي
- أحسن القصص - قصص الأنبياء- كمال مصطفى شاكر
- آرنولد- الخلافة
- أنساب قريش
- ابن كثير - البداية والنهاية
- الأحاديث المختارة
- الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق
- الأصفهاني حلية الأولياء
- الإمامة والسياسة -ابن قتيبة

- الاستيعاب - ابن عبد البر
- البخاري
- البلاذري تاريخ الأمم
- الترغيب والترهيب
- الدولة الأموية للدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف
- الذخائر للطبري
- الزمخشري - ربيع الأبرار
- السنة للخلال
- السيرة الحلبية
- الشرقاوي محمود ، أهل البيت
- الصواعق المحرقة
- الطبري - تاريخ الرسل
- العلل المتناهية
- الغزالي محمد الإسلام المفترى عليه
- الكامل في التاريخ للمبرد
- الكندي
- المستطرف للإبشيهي
- المعجم الكبير
- المغني
- الواقدي ، المغازي
- بداية المجتهد
- تاريخ ابن عساكر
- تفسير ابن كثير
- تفسير الطبري
- جمهرة أنساب العرب
- حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام
- ذخائر العقبى
- روجيه غارودي كيف ننشر الإسلام
- سبل السلام
- سنن البيهقي
- سيد قطب في ظلال القرآن- طبعة دار إحياء التراث
- سيرة ابن هشام
- شرح معاني الآثار
- صحيح البخاري
- صحيح مسلم - مطبوعات صبيح - ميدان الأزهر
- طه حسين - مرآة الإسلام
- طه حسين- حديث الأربعاء
- عباس محمود العقاد ؛ عبقرية الإمام علي
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث
- فتح الباري
- فضائل الصحابة للنسائي
- فيض القدير
- كتاب المناقب
- مجمع الزوائد
- مسند أبي يعلى
- مسند البزاز
- مصنف ابن أبي شيبة
- معالم التنزيل
- معجم البلدان
- مقدمة فتح الباري
- نيل الأوطار
- تهذيب التهذيب
- حاشية ابن القيم
- ديوان عروة بن الورد شرح ابن السكيت؛ الملوحي
- رسالة في معاوية والأمويين للجاحظ؛ عزة العطار
- زاد المعاد

- سنن ابن ماجه
- سنن الترمذي
- سير أعلام النبلاء
- شرح الزرقاني
- شرح نهج البلاغة - محمد عبده
- صحيح ابن حبان
- صحيح الترمذي
- طبقات ابن سعد
- طه حسين الفتنة الكبرى - عثمان
- عباس محمود العقاد - أبو الشهداء
- عبد الفتاح عبد المقصود؛ علي بن أبي طالب
- عبد بن حميد
- فضائل الصحابة لابن حنبل
- فلهاوزن - تاريخ الدولة العربية
- كتاب السنن
- كمال مصطفى شاكر- نور من القرآن
- محمد أبو الفضل إبراهيم - تحقيق نهج البلاغة
- مسند أحمد
- مسند الشاشي
- مصنف عبد الرزاق
- معتصر المختصر
- مقدمة ابن خلدون
- نهج البلاغة
- يوليوس فلهاوزن . تاريخ الدولة العربية

بعض المراجع الأجنبية

The Legacy of Islam. Edited by J.Schacht, Bernard Lewis,
Politics and War
Le Cycle de Crois, Gaston Paris
Levy R.The Socilal Structure of Islam, Cambridge
Mc Grawhill Encyclopedia for Science and Technohogy
Origin of Species, Charles Darwin
The Legacy of Islam, C.I.Bosworth

المحتويات

بين يدي البحث ـ قصة في قصة ٥

الفصل الأول: النظائر والاصطفاء في التشريع والتكوين التناظر والنظائر

النظائر والاصطفاء في التشريع والتكوين - التناظر والنظائر ١٥
التناظر في الأشكال الهندسية ١٥
النظائر في العناصر ١٥
التناظر في الكائنات الحية ١٦
التناظر والنظائر في بني آدم ١٦
التناظر في قوم موسى وعيسى ١٧
مائدة من السماء أم إطعام الطعام على حبه ١٧
الاصطفاء في التشريع والتكوين ١٩
نبذة من التطور ونظرية داروين ١٩
الاصطفاء الصناعي، الجنسي، الطبيعي ٢٠
تخيروا لنطفكم ٢١
الشيفرة الوراثية البشرية ٢٢
إياكم وخضراء الدمن ٢٣

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ٢٤
القرآن والعلم ٢٥
تنازع البقاء وبقاء الأصلح ٢٦
وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ٢٦
ولقد اخترناهم على علم على العالمين ٢٧
وسلام على عباده الذين اصطفى ٢٧
وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ٢٨
يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ٢٩
المصطفون الأخيار ٢٩
التشريف لمن يحمل أعباء التكليف ٣٠
إن الله اصطفى لكم الدين ٣١
ماذا يصطفي الله؟ ٣٢
بداية لا نهاية ٣٣
فزت ورب الكعبة ٣٣

الفصل الثاني: الجاهلية الأولى، جهل على جهل

الجاهلية الأولى ٣٩
احتلال معاقل التوحيد لا يجيز التدين بديانة الأوثان ٤١
ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ٤٢
الجذور ٤٢
بذور الصراع - توأمان ملتصقان ٤٢
ليميز الخبيث من الطيب ٤٤
هاشم ورحلة الشتاء والصيف ٤٥
وفديناه بذبح عظيم ٤٦
شغفت النساء حبا بعبد الله ٤٧
كاهن حمير ٤٧

إن لهذا البيت رب يحميه ٤٩
أنا الذي سمتني أمي حيدرة ٥١

الفصل الثالث : الرسالة

الرسالة في مكة ٥٧
تؤتي أُكلها في كل حين بإذن ربها ٥٧
قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ٥٨
أبو طالب: لم يدعك إلا بخير فالزمه ٥٩
وأنذر عشيرتك الأقربين ٥٩
باسمك اللهم - حصار بني هاشم في شعب أبي طالب ٦١
الهجرة: «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون» ٦٢
فلنقتل محمداً ٦٣
علي في فراش الرسول ٦٤
إني أخلع رداء كفري وأنا على دين ابن أخي ٦٤
الذين هاجروا والذين آووا ونصروا ٦٥
أصناف الناس ٦٧
بدر ورؤيا عاتكة ٦٧
سيهزم الجمع ويولون الدبر ٦٨
اللهم أنجز لي ما وعدتني ٦٩
فتى بدر ٧٠
قتلى بدر ٧١
وهزم الجمع وولوا الدبر ٧٢
الفدية أم القتل ٧٢
فأين المال ٧٣
الزهراء تزف إلى علي؛ قضاء إلهي ٧٤
الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات - زواج الزهراء ٧٤

بنت رسول الله وبنت عدو الله ٧٧
أُحد: أُعل هبل.. الله أعلى وأجل ٧٨
عجبت الملائكة من مواساة علي ٨٠
حمزة ليثي وعلي صقري ٨١
قل هو من عند أنفسكم ٨٤
الخندق: برز الإيمان كله إلى الشرك كله ٨٥
فاحفظ عليَّ اليوم علياً ٨٦
إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم ٨٩
خيبر: محمد يغزونا! هيهات! ٩١
هل رغيف الشعير هو الذي فتح باب خيبر ٩١
إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ٩٣
وأنت امرؤ مشرك نجس ٩٤
وا سوء صباح قريش ٩٥
إذهبوا فأنتم الطلقاء ٩٨
ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ٩٩
أن الله بريء من المشركين ورسوله ١٠٠
غدير خم: اليوم أكملت لكم دينكم ١٠٢
يا أبتاه: أجاب رباً دعاه... ..... ١٠٣
إن النبي ليهجر ١٠٤

الفصل الرابع: بيعة أبي بكر

وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ١٠٩
العباس يدعو علياً للبيعة ١١٠
أبو سفيان يدعو علياً للبيعة ١١٢
وأكره أن أُبايع من وراء رتاج ١١٢

في السقيفة: لا يجتمع سيفان في غمد ١١٣
طعن في القدح ١١٤
الشجرة والثمرة ١١٧
الجن وقتل سيد الخزرج ١١٨
صحابة بايعوا وصحابة لم يبايعوا ١٢٠
الاختيار ١٢١
ما أرى إلا تمزيق جماعة هذه الناس ١٢٣
أرى تراثي نهباً ١٢٤
اذهبوا فأنتم الطلقاء: الطلقاء والبيعة ١٢٦
وصنعوا ما الله حسيبهم عليه ١٢٧
وفي العين قذى، وفي الحلق شجى.. ..... ١٢٨
لشد ما تشطرا ضرعيها ١٢٩
أنتِ أول أهل بيتي لحوقاً بي ١٣١

الفصل الخامس: بيعة عمر

احلب حلباً يكن لك شطره ١٣٥
لولا علي لهلك عمر ١٣٦
عمر والطامعون في بيت المال ١٣٦
أتهبنني ولا تهبن رسول الله ١٣٧
عمر وحدود الله ١٣٩
فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي ١٣٩
أبو لؤلؤة ١٤١
ولي دم عمر: فلا يسرف في القتل ١٤١
جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله وللشورى ١٤٢
فاردد إليه ظلامته يا أمير المؤمنين ١٤٣
شورى أم استخلاف ١٤٥

الفصل السادس: عثمان بن عفان

اضربوا رأس من لا يبايع ١٤٩
لولا دعابة فيه ١٥٠
من نكث ومن أوفى ١٥٢
بل على كتاب الله وسنة رسوله ١٥٣
ليس لك ذلك يا عمر ١٥٤
العطايا أيام عمر ١٥٥
وتحبون المال حباً جماً ١٥٧
والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ١٥٩
اللهم دق بينهم عطر منشم ١٦٠
إن مات محمد لنركضن بين خلاخيل نسائه ١٦١
عثمان على منبر الرسول ١٦٢
إنك لا تجني من الشوك العنب ١٦٣
من للصبية يا محمد.. قال النار ١٦٦
هلاك هذه الأمة على يدي أغيلمة من قريش ١٦٧
غضب الخيل على اللجم ١٦٨
كما تزرع تحصد ١٦٩
بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ١٧٠
ابن مسعود الطبيب أمرضني ١٧١
عمار تفتق بطنه ١٧٤
وانقلب السحر على الساحر ١٧٥
صبح بأربع ركعات.. وأزيدكم ١٧٦
أبو هريرة يضرب بالدرة ١٧٨
عائشة وعثمان ١٨٠
أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ١٨٠

في الصيف ضيّعت اللبن ١٨٢
ابن هند ١٨٣
من جرب المجرب ١٨٦
أقم كتاب الله ١٨٧
ما أنت إلا صادق أو كاذب ١٨٨
شاهد غير حاضر وحاضر غير شاهد ١٩٠
إنا والله لئن بلغت الذي تريد لنمرن الدنيا عليك ١٩٢
الغافقي يصلي بالناس ١٩٣
اللهم اكفني طلحة ١٩٣
أكل السبع خير من افتراس الثعلب ١٩٥
فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل ١٩٦
مقتل عثمان ما أغنى عنك مروان ١٩٧
ربنا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا ١٩٨

الفصل السابع: بيعة الإمام

زاهد بما هو له حق وطامعون بغصب حق ٢٠٣
علي.. علي بن أبي طالب.. نحن به راضون ٢٠٤
وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ٢٠٥
أحمد بن حنبل: إن علياً لم تزنه الخلافة بل زانها ٢٠٧
هل هو الخاتم الذي يُنيل الولاية ٢٠٨
صدق عمر ٢٠٨
وإني حاملكم على منهج نبيكم ٢٠٩
كما صنع رسول الله وأبو بكر ٢١٠
أفحكم الجاهلية يبغون ٢١١
وبعثني لأمحو المزامير والمعازف ٢١٢
أتأمروني أن أطلب النصر بالجور ٢١٣

هذا أخي ووصيّي وخليفتي ٢١٥
لا أدهن في ديني ٢١٦
كما تقشر العصا من لحاها ٢١٧
الإمام الذي لم ينصفه أحد ٢١٨
بغي تحمل رأس نبي ٢١٩
اقتلوا نعثلاً.. اطلبوا دم نعثل ٢٢١
وقرن في بيوتكن ٢٢٢
استمالا السفيه بالطمع وضربا الضعيف بالبلاء ٢٢٤
إنهم ما أسلموا ولكن استسلموا ٢٢٦
مني يطلبون دم عثمان ٢٢٧
وهو أحق الأئمة بلقب الإمام ٢٢٨

الفصل الثامن: الناكثون والجمل

لعبد الله بن الزبير أمير المؤمنين من معاوية... ..... ٢٣٣
البسوا قميص عثمان ٢٣٥
أمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة ٢٣٦
لله در الحسد ما أعدله ٢٣٩
عسكر وعائشة وكلاب الحوأب ٢٤٠
ابن أم المؤمنين في جيش أمير المؤمنين ٢٤١
ليموتن رجل منكم في فلاة من الأرض ٢٤٢
فإن كنت محسناً أعانني وإن كنت مسيئاً استعتبني ٢٤٣
أيتكن تنبحها كلاب الحوأب - إياك أن تكونيها يا حميراء ٢٤٤
«اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً» ٢٤٦
جئنا نطلب الدراهم ٢٤٨
ثم يرد هذا الأمير شورى على ما فعله ابن الخطاب ٢٤٩
إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ٢٥٠

نكث البيعة ومفارقة الجماعة ٢٥١
من قبل أن يجتمع العار والنار ٢٥٢
فأي عهد يحفظون ٢٥٣
فقاتلوا التي تبغي ٢٥٤
قتلتني وسادتي ٢٥٦
اللهم انصر من نصره واخذل من خذله ٢٥٧
هلك من ليس له حكيم يرشده ٢٥٩
أنت فيها قاعدا خير منك قائماً ٢٦١
جل عن الأمر العتاب ٢٦٢
رؤيا كليب الجرمي ٢٦٤
ضربك الله بها بيضاء لامعة، لا تواريها العمامة ٢٦٦
أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً فهل أعددتما عند الله عذراً ٢٦٨
ليت الزبير بيَّن قبل أن يقتل ٢٦٩
بيعة بيد شلاء وقتال بيد غير عصماء ٢٧١
والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين ٢٧٢
حم لا ينصرون اللهم انصرنا على القوم الناكثين ٢٧٣
الموت ليس منه فوت يدرك الهارب ولا يترك المقيم ٢٧٤
ما تركت تيمياً إلا قتلته بعثمان ٢٧٦
صنم اسمه عسكر ٢٧٧
كرّوا.. فرّوا ٢٧٩
نحن على دين علي بن أبي طالب ٢٨٠
الحمد لله الذي قضى لي على لسانك ٢٨١
أقرعوا على أمكم عائشة ٢٨٣
إنها كف يهودية ٢٨٣
حصاد الشوك ٢٨٤
قبض الريح ٢٨٧
دار الخبال ٢٨٨

وما أخسرها من مشقة وراءها العقاب ٢٨٩
كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ٢٩٠
وقوف للصلاة مع الحق وللمال مع الباطل ٢٩٢
من استرعى الذئب ظَلم ٢٩٣

الفصل التاسع: معاوية وصفين

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ٢٩٧
اللهم أمرتني فلم أأتمر ٢٩٨
السيف للمسلمين والجزية لقيصر ٢٩٩
كيف تمر خيانة عظمى بهذه السهولة ٣٠١
الإمارة والنفس الأمارة ٣٠٢
جرير ٣٠٢
والله ما معاوية بأدهى مني ٣٠٣
لا إمامة لظالم ٣٠٥
فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حياً ٣٠٧
فاصعد المنبر واشتم علياً ٣٠٨
لم لا تسب علياً ٣١٠
أبو حنيفة يفتي ٣١١
سياسة بلا عقيدة أم عقيدة بلا سياسة ٣١٢
فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ٣١٢
أتئن من قذى ولا أئن من لظى ٣١٤
ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ٣١٥
طاغوت من طواغيت إبليس ٣١٦
إلى النخيلة ٣١٧
هاهنا محط رحالهم ومناخ ركابهم ٣١٨
إنكم تقتلونني بأمر من الحرام الذي ملأ بطونكم ٣١٨

جند الله وجند معاوية ٣٢٠
لا سقاني الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا ٣٢٢
هل هي بدر أخرى تعود! ٣٢٥
ابنا خليفتين يقتتلان ٣٢٦
هل مصر تكون عوضاً عن الجنة ٣٢٧
هل رأيت نسراً يفزعه صغير القنابر ٣٢٩
وجاء نصر الله ٣٣٠
عورة عمرو بن العاص تقبح وجه التاريخ ٣٣١
رجالها ذبّح ونساؤها إماء ٣٣٢
اجتهد فأخطأ.. هذا زوجي القاطع الظالم ٣٣٤
يا خالد لك إمرة خراسان إن لم تتم ٣٣٥
ذو الكلاع حامل الموت الاحمر.. يقتل ٣٣٦
قل لي من معك أعرف من أنت ٣٣٧
إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن، فهلم إلي ٣٣٩
تقتل عماراً الفئة الباغية ٣٤٠
حق منصف على لسان عنيد ٣٤٠
فهو معجزة للمصطفى ٣٤١
ابن هند وابن النابغة ٣٤٢
ولو كان ينجيني أن أهرب هربت ٣٤٣
كلمة حق يراد بها باطل ٣٤٥
الأشعث: سوس بقمح وعور بكيال ٣٤٧
فرح معاوية.. وهلّل ابن العاص ٣٥٠
أريها السها وتريني القمر ٣٥٠
لا جعل الله لي إذن في السماء مصعداً ٣٥٣
والتقى الحكمان ٣٥٤
دومة الجندل ٣٥٦
ويحك والله إني لأظنه قد خدعك ٣٥٦

مصير الأمة بين كلب وحمار ٣٥٧

الفصل العاشر الخوارج ـ المارقون

رمتني بدائها وانسلت ٣٦١
فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ٣٦٢
أعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن ٣٦٢
لقد ملأتم قلبي قيحاً ٣٦٣
لا حياة لمن تنادي ٣٦٧
النهروان ٣٦٨
يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ٣٦٨
قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين ٣٦٩
المارقون.. يهلك في اثنان محبٌ غالٍ ومبغضٌ قالٍ ٣٧٠
إليات ورؤوس في رمضان ٣٧١
في النخيلة: مقدام وأقزام ٣٧٢
الفساد في الأرض ٣٧٣
اذهبوا فأنتم الطلقاء ٣٧٥
والتقوا بالنهروان ٣٧٦
والله لا يقتل منكم عشرة ولا يفلت منهم عشرة ٣٧٦
إن القاسطون كانوا لجهنم حطباً ٣٧٨

الفصل الحادي عشر: الغارات

اقطع رأس الأفعى تسكن ذيولها ٣٨١
محمد بن أبي بكر أميراً لمصر ٣٨٢
إن لمعاوية جنوداً من عسل ٣٨٣
لأدخلنك جوف هذا الحمار يا ابن أبي بكر ٣٨٦
نداء الدم أم نداء الحق ٣٨٧

عبد الرحمن بن أبي بكر ومحمد بن أبي بكر ٣٨٨
لا عطر بعد عروس ٣٩٠
ميثم التمار.. أين ربك ٣٩١
تقديس للنظام الحاكم ٣٩٣
الجاحظ: عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ٣٩٤
حذو النعل بالنعل ٣٩٥
أما رأيت البغلات الشهب ٣٩٦
الإمام مالك يفتي ٤٠٢
وأول راضٍ سنةً يسيرها ٤٠٣
ونكتب ما قدموا وآثارهم ٤٠٤
معاوية والمنجمون – غارة ابن الحضرمي ٤٠٦
والله لتنزلن أو لأتعرين ٤٠٨
غارة ابن عوف حرب الأموال شبه بالقتل وهو أوجع للقلب ٤٠٩
أنا الضحاك الأمهات يرهبن أبناءهن باسمي ٤١٠
لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة غارة النعمان ٤١٢
غارة الفزاري.. إنه ليس من أهلك ٤١٤
غارة بسر.. اقتل شيعة علي حيث كانوا ٤١٦
وإني لأعلم أنها بيعة ضلالة ٤١٧
كما تزرع تحصد ٤١٩
سيف من خشب لذي عقل مسلوب ٤٢١
فإن كنتُ ابن سمية فأنت ابن جماعة ٤٢٣
غارات الفساد ٤٢٤
لوددت لو أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ٤٢٥
من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ٤٢٧
فضائل معاوية ٤٢٩
صراع تحسمه أُنثى ٤٢٩
غارة الرهاوي على بيت الله الحرام ٤٣٠

الفصل الثاني عشر: مقتل الإمام، فـزت ورب الكعبة

ثلاثة رابعهم أنثى ٤٣٥
ما يحبس أشقاها ٤٣٧
قتلت بسيف اللحظ عاشقها ٤٣٨
مهر يورد النار ٤٣٩
اللهم أبدلني بهم خيراً منهم ٤٤٠
وليد في الكعبة شهيد في المحراب ٤٤١
المراجع العربية والأجنبية ٤٤٦
الفهرس ٤٤٩

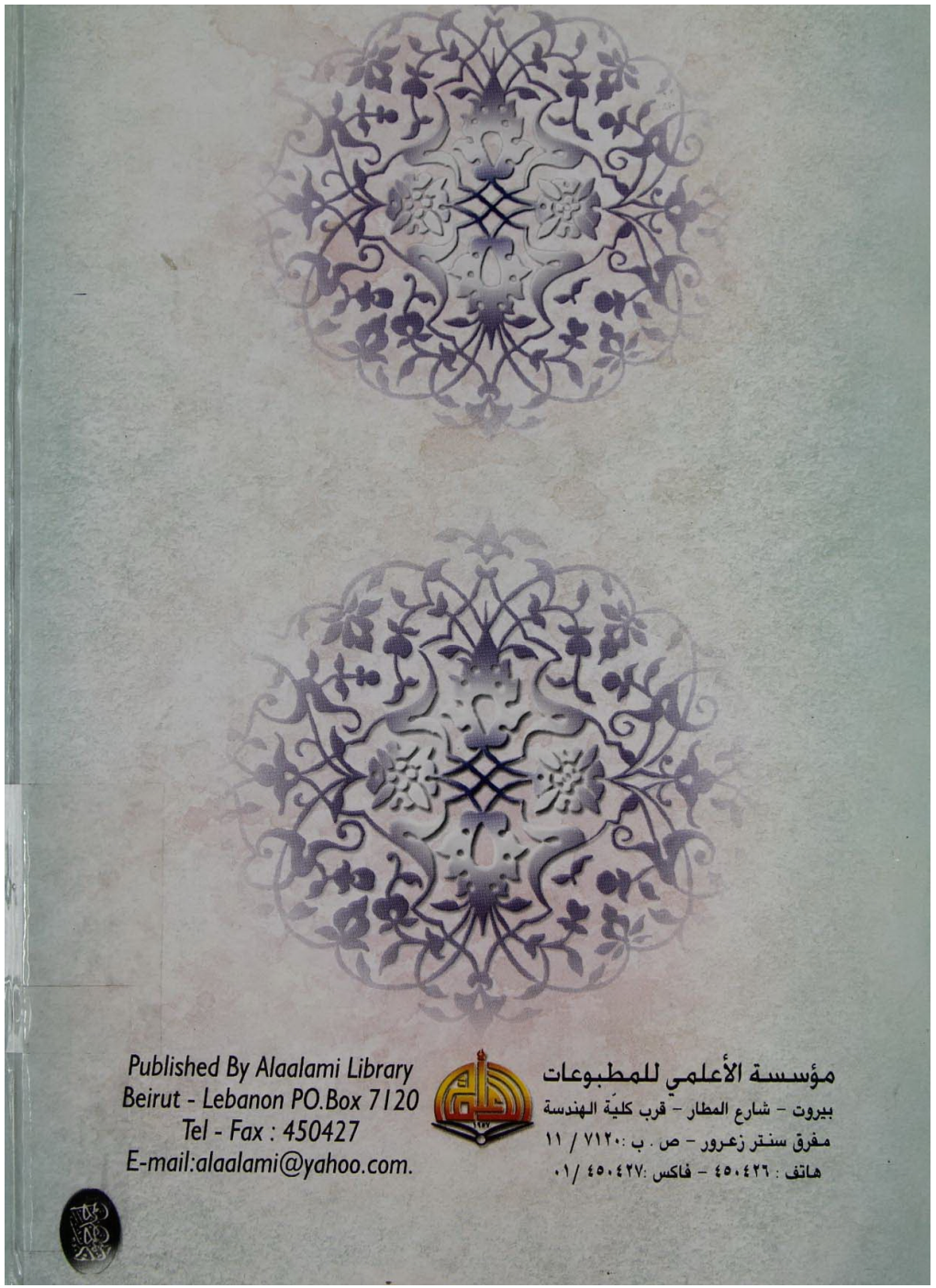

Published By Alaalami Library
Beirut - Lebanon PO.Box 7120
Tel - Fax : 450427
E-mail:alaalami@yahoo.com.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور - ص . ب :٧١٢٠ / ١١
هاتف : ٤٥٠٤٢٦ - فاكس :٤٥٠٤٢٧ /٠١